المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية

أحمد مختار عمر
الأستاذ بكلية الآداب - قسم اللغة العربية

التمهيد

إذا كانت كتابة العلوم باللغة العربية تعاني من مشكلة نقص المعروض من مصطلحات عربية ، ومن تفضيل كثير من المؤلفين الكتابة بغير العربية - فإن الكتابة الألسنية باللغة العربية تعاني من مشكلتين حادتين هما :

أولا : كثرة ما تقذفه المطابع كل عام من كتابات باللغة العربية ، وما يصحبها من إدخال مصطلحات جديدة كل يوم دون أن تتوافر لها شروط المصطلح ، مما خلق مجالات كثيرة للتعارض والتصادم بين هذه المصطلحات ومستخدميها بعضهم مع بعض .

ثانيا : تشابك الفترة الزمنية للدراسات القديمة والحديثة وامتدادها عبر مئات السنين ، مما أدى الى اشتداد الصراع بين أنصار المصطلح القديم والمصطلح الجديد واختلاط المفاهيم ، ونشوء نوع من الاحتكاك بين من يسمون بالتراثيين ، ومن يسمون بالتجديديين .

فإذا كانت مصطلحات العلوم تعاني من مشكلة التعريب ، فإن مصطلحات الألسنية تعاني من مشكلة التوحيد . وإذا كان العلميون يشكون من اتخاذ لغة غير العربية أداة للتعبير ، فإن الألسنيين يشكون من استخدام لغة عربية لم ترق في تعبيراتها المتخصصة إلى مستوى « المصطلح » . ولولا أن كثيرين ممن يقدمون المفاهيم الأجنبية في لفظ عربي يقرنون المصطلح العربي بنظيره الأوربي لغمض فهم المصطلح العربي على الكثيرين ، ولكان هذا المصطلح عامل تفريق لا تجميع ، وما كان هناك حد أدنى من الاتصال بين ألسنيّ قطر عربي وألسنيّ قطر عربي آخر ، بل ألسني وآخر في داخل القطر الواحد .

وإذا كان صحيحا ما يقال عن ولادة علم جديد أو اتجاه جديد ، في الستينيات ، في حقل الدراسات اللغوية العربية استحق أن يميز باسم خاص به وهو « الألسنية » فإن التسليم بهذا القول يقتضي أولا بيان حدود العلم وإنشاء شبكة من المصطلحات له تساعد على ضبط مفاهيمه وتصنيف ظواهره .

وإذا كان أول مظهر من مظاهر اكتمال العلوم واستقلالها وتكامل رصيدها الفني - كما يقول المسدي - هو إفرازها لثبتها الاصطلاحي الخاص بها ، فإن الدراسة الألسنية العربية ما تزال بعيدة عن تحقيق هذه الغاية ، وما يزال التأليف المعجمي في مصطلحاتها الحديثة في طور التكوين مقارنا بما صدر ويصدر من معاجم وموسوعات بغير اللغة العربية[١] .

والحديث عن مشكلات المصطلح الألسني العربي حديث متعدد الجوانب متشعب الأطراف ، ولذا لا يستطيع كاتب أن يلم بها في عجالة كهذه ، وإنما عليه أن يختار ما يراه أهم جوانبها .

وقد رأيت في هذا التمهيد أن أركز على جوانب أربعة هي :

١ - مصطلح « الألسنية » .
٢ - واقع المصطلح الألسني العربي .
٣ - الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح .
٤ - وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح .

مصطلح الألسنية :

راجت في الأعوام الأخيرة مصطلحات ثلاثة تنافست للظفر بحق الإطلاق على حقل الدراسات اللغوية الحديثة وهي : « علم اللغة » ، و « اللسانيات » ، و « الألسنية » . وقد اخترنا مصطلح « الألسنية » لنطلقه على هذا العدد الخاص من « عالم الفكر » رغم أنه ليس أكثر الألفاظ الثلاثة[٢] شيوعا لجملة أسباب منها :

---

(١) قارن ما صدر من معاجم باللغة العربية - على سبيل المثال - بمثلين وافدين صدرا باللغة الإنجليزية أحدهما : A Grand Dictionary of Phonetics الذي أصدرته الجمعية الصوتية اليابانية عام ١٩٨١ بعد أن أصدرت معجما مماثلا باليابانية عام ١٩٧٦ . وقد أنفقت الجمعية عشرين سنة في جمع مصطلحات المعجم واختارت من بين مائة ألف جمعتها نحوا من اثنين وعشرين ألف مصطلح ضمنتها هذا المعجم .

أما المثل الآخر فهو : The Cambridge Encyclopedia of Language تأليف David Crystal الذي هدف من تأليفه - كما قال في تمهيده - إلى الكشف عن سحر الألسنية وعبرها التي تأخذ به سواء في مجال تركيب اللغة وتطورها واستعمالها أو في المجالات التطبيقية الأخرى المتصلة بمشكلات الأفراد والمجتمعات .

(٢) مازال مصطلح « علم اللغة » هو أكثر الألفاظ الثلاثة شيوعا رغم محاولات الترويج لأحد المصطلحين الآخرين .

وبتحليل القائمة الببليوجرافية التي حصرت الدراسات الألسنية التي تتناول اللغة العربية ، الواردة بمجلة « الفكر العربي » (العدد الخاص بالألسنية ١٩٧٩) والتي اشتملت على بضعة وخمسين بحثا وكتابا نشر معظمها في السنوات العشرين السابقة لصدور هذا العدد نجد كلمة « لغة » قد ترددت ثلاثا وثلاثين مرة ، في حين ترددت كلمتا « لسان » و « ألسنية » خمس مرات فقط .

وبتحليل عناوين الكتب والأبحاث العربية في ميدان علم اللغة الحديث ، التي وقفت عليها ، ويصل عددها إلى نحو خمسين كتابا وبحثا نجد النتيجة كما يلي :

علم اللغة : ١٥ مرة .
ألسنية : ١٠ عناوين .
لسانيات : ٥ عناوين .

ويعد أقل من ذلك عناوين أخرى مثل : علم اللسان - الدراسات اللغوية - البحث اللغوي .

أولا : أن مصطلح « علم اللغة » قد مرّ بمراحل كثيرة ، وتقلبت عليه مناهج متعددة قديمة وحديثة ، فصار في حاجة إلى وصف توضيحي لتحديد مجاله أو منهجه ، كأن يقال : علم اللغة الحديث ، علم اللغة العام . .

كذلك يختلط مصطلح « علم اللغة » كثيرا ، وبخاصه في مجال الاصطلاح الجامعي بمصطلح آخر هو « فقه اللغة » ، مع الفارق الكبير بينهما .

ثانيا : أن مصطلح « علم اللغة » يلتبس في ذهن الكثيرين بتعليم اللغة ، وأن مصطلح « اللغوي » يلتبس بالمفهوم العام للفظ ، وهو الشخص الذي يتقن عدة لغات أجنبية . وقد حدث هذا الالتباس حتى بالنسبة لمقابله الإنجليزي Linguist الذي يفهمه الكثيرون على أنه من يتقن عدة لغات ، ولهذا ظهر المصطلح الجديد Linguistician ليكون خاصا بعالم اللغة ، وإن لم يكتب لهذا المصطلح الرواج بعد .

ثالثا : أن كلمة « لغة » لم تكن تستخدم في الاستعمال القديم بمعناها المعروف الآن ، وإنما كانت تستخدم بمعنى اللهجة . ولم ترد كلمة « لغة » في القرآن الكريم إطلاقا ، وإنما وردت كلمة « لسان » (وجمعها ألسنة) للدلالة على جملة معان منها :

١ ـ آلة الكلام : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين » (البلد ٩)

٢ ـ اللغة ، بمعنى رصيد الكلمات والقواعد التي تملكه الجماعات اللغوية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » (إبراهيم ٤) .

٣ ـ الكلام ، بمعنى الاستعمال الفردي للغة : « لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم » (المائدة ٧٨) .

٤ ـ الأسلوب ، بمعنى الخاصة الفردية للمتكلم : « وأخي هارون هو أفصح مني لسانا ، فأرسله معي رِدْءا » (القصص ٣٤) .

ومعنى هذا أن كلمة « لسان » أكثر شمولية واستيعابا من كلمة « لغة » .

رابعا : أن كلمة « لسان » تعد من المعجم الأساسي المشترك في اللغات السامية . وقد ترددت في فهرست ابن النديم بمعنى لغة في مثل قوله : اللسان العربي ، اللسان السرياني ، اللسان اليوناني . . في حين أن كلمة « لغة » يونانية الأصل . (علم اللغة العربية لحجازي ص ٣١٠ وما بعدها) .

خامسا : أن إطلاق اسم على الدراسات اللغوية مشتمل على كلمة « لسان » إطلاق قديم ، عكس ما يتوهمه الكثيرون . فقد أطلق الفارابي في « إحصاء العلوم » على العلوم اللغوية اسم « علوم اللسان » . وأطلق أبو حيان النحوي على علوم اللغة مصطلح « علوم اللسان العربي » . وتابعه ابن خلدون في هذا فعقد في مقدمته فصلا بعنوان « في علوم اللسان العربي » .

وحتى في العصر الحديث كان استخدام « علم اللسان » ، و « الألسنية » أسبق في الوجود من مصطلح « علم اللغة » .

وقد نشر الأب مرمرجي الدومينيكي عدة أبحاث حملت اسم « الألسنية » نشر أولها في مدينة القدس عام ١٩٣٧ باسم « المعجمية العربية في ضوء الثنائية والألسنية السامية » . وترجم الدكتور محمد مندور بحثا لأنطوان مابيه تحت اسم « علم اللسان » ، ونشر ذلك عام ١٩٤٦ كفصل في كتاب بعنوان « منهج البحث في اللغة والأدب » .

وهكذا حسمنا الأمر بالنسبة للاختيار بين مصطلحي « لغة » و « لسان » ، ولكن بقي حسم الأمر بالنسبة لمصطلحي « اللسانيات » و « الألسنية » .

من الواضح ـ بادي « ذي بدء ـ أن كلا من المصطلحين قد كتبت له السيادة في منطقة عربية دون أخرى . فإذا كان مصطلح « علم اللغة » قد شاع في معظم بلدان المشرق العربي ، فإن مصطلح « الألسنية » قد شاع في لبنان[٣] بالذات ، ومصطلح « اللسانيات » أصبح هو الشائع الآن في بلدان المغرب العربي ، وبخاصة بعد أن اتخذت ندوة « اللسانيات واللغة العربية » (الملتقى الثالث للسانيات ـ تونس ١٩٧٨) توصية باستخدام مصطلح « اللسانيات » اسما لهذا العلم ، بدلا من مصطلح « الألسنية » . وأخذ اللغويون التونسيون والمغاربة يلتزمونه في معظم ما ينشرونه أو يقيمونه من ندوات[٤] ، كما روج له بعض اللغويين السوريين[٥] .

فلماذا فضلنا مصطلح « الألسنية » على « اللسانيات » ؟ واخترناه عنوانا لهذا العدد الخاص ؟

هناك جملة اعتبارات كانت في الذهن عند اختيار هذا المصطلح ، أهمها :

أولا : ان علم اللغة الحديث لا يختص بلغة معينة ، وإنما يدرس أي لغة ، ويحلل أي مستوى داخل اللغة الواحدة . فمعنى الجمعية ملحوظ في وظيفة هذا العلم ، ولذا يناسبه لفظ الجمع « ألسن » لا المفرد « لسان » .

(٣) مما ظهر من ذلك : الألسنية ولغة الطفل لجورج كلاس ، والألسنية العربية (جزءان) لريمون طحان ، والألسنية (ثلاثة أجزاء) لميشال زكريا ، والألسنية والنقد الأدبي لموريس أبو ناضر ، ورواد الألسنية الحديثة لنتري يونس .

(٤) مما ظهر من ذلك في المغرب : البنيوية في اللسانيات ، والندوة الدولية الأولى لجمعية اللسانيات ، ومجلة تكامل المعرفة ، عدد خاص من اللسانيات . وفي الجزائر : مجلة اللسانيات ، ومحاضرات في اللسانيات [illegible] . وفي تونس : قاموس اللسانيات ، والملتقى الثالث للسانيات ، واللسانيات واللغة العربية ، واللسانيات من خلال النصوص . ومع ذلك تذبذب الكتاب المغاربة بين أكثر من مصطلح ، فاستعملوا إلى جانب « اللسانيات » : « الألسنية » مثل « مفاتيح الألسنية » (تونس ١٩٨١) ، و « دروس في الألسنية العامة » (تونس ١٩٨٥) . وهذا [illegible] من أن مصطلح الألسنية لم يعد يستعمل عند التونسيين بعد عام ١٩٧٨ (قاموس اللسانيات ، ص ٧٠) . كما استخدموا كذلك علم اللسان ، والتفكير اللساني ، والمصطلحات اللغوية (الأخير في كتاب صدر ١٩٨٣) ، وعلم اللغة (في كتابين صدرا عام ١٩٧٧ ، ١٩٨٥) . والمسدي نفسه في مقاله : الفكر العربي والألسنية (١٩٧٨) استخدم مصطلحات : علوم اللسان ، والألسنية ، والبحث الألسني ، وعلوم اللغة ، والدراسة اللغوية ، والدراسات الألسنية . الخ .

(٥) انظر : مازن الوعر ، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ، (١٩٨٨) .

ثانيا : أنه لم يعد هناك حرج في النسب إلى جمع التكسير على لفظه بعد أن أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ذلك ، وبخاصة حين يكون الجمع اسما لعلم من العلوم . وقديما نسب إلى علم الأصول ، فقيل « أصولي » ، وإلى الأخبار فقيل « أخباري » .

ثالثا : أن التصرف في لفظ « ألسنية » أسهل من التصرف في لفظ « لسانيات » فحين نأخذ الصفة من الأول نقول : دراسات ألسنية ، وحين نتحدث عن المشتغل بهذا العلم نقول : ألسني ، بإبقاء الجمع على حاله . ولكن إذا أردنا أن نأخذ الوصف من « اللسانيات » فلا نقول ـ وليس من المستساغ أن نقول ـ « دراسات لسانياتية » ، ولا « لسانياتي » ، ولذا يرد الجمع الى مفرده عادة فيقال « لسانية » ، و « لساني » .

رابعا : أن اللبس الذي يحدث عند استخدام المصطلح « لغوي » وعدم القطع ما إذا كان نسبة إلى « اللغة » أو « علم اللغة » ، والذي فضلنا ـ من أجله ـ ترك هذا المصطلح ، يحدث نفسه إذا استخدمنا لفظ « لسانيات » . فحين النسبة سنقول : « لساني » فلا ندري أهي نسبة إلى « اللسان » أم إلى « اللسانيات » .

ولكن هذا المحظور يزول باستخدام كلمة « ألسنية » اسما للعلم . فحين النسبة إلى الجمع « ألسني » يكون المراد النسبة إلى العلم . أما إذا نسبنا الى المفرد فقلنا « لساني » فتكون النسبة إلى « اللسان » بمعنى « اللغة » لا بمعنى العلم الذي يدرس اللغة[٦] .

واقع المصطلح الألسني العربي :

هناك نوعان اثنان من المصادر يمكن من خلالها دراسة واقع المصطلح الألسني العربي :

أولهما الكتب المؤلفة في بعض مباحث العلم ، وبخاصة تلك التي تتعامل مع مفاهيم غربية جديدة ، لها في لغتها مصطلحاتها الخاصة التي يراد التعبير عنها بمصطلح عربي .

وثانيهما ما ألف من معاجم أو مسارد لهذه المصطلحات ، وهي في معظمها تتخذ المصطلح الأجنبي أو المفهوم الأجنبي منطلقا للبحث عن مقابل عربي ، وليس العكس .

(٦) من الغريب أن يكون أشد الذاهبين إلى المصطلح « لسانيات » هو أشد الرافضين للمصطلح « لغويات » على أساس أن اللفظ الأخير [illegible] في تركيبه على صيغة النسبة « لغوي » ، أصبح من المتعذر أو المتعسر استعماله مصطلحا للعلم [illegible] إذ من غير المستساغ النطق « لغوياتي » أو « لغوياتية » (المسدي : قاموس اللسانيات ص ٦٩) .

وفاته أن ما انتقد به المصطلح « لغويات » [illegible] بالضرورة على المصطلح « لسانيات » ، إذ من غير المستساغ أن نقول « لسانياتي » أو « لسانياتية » . وإذا كان المسدي قد تخلص من هذا المحظور عن طريق النسب وأخذ الصفة من المفرد فقال « لساني » و « لسانية » فقد كان ممكنا أن يفعل نفس الشيء مع « لغويات » .

وإذا كان محمد رشاد الحمزاوي قد جمع بين المصدرين في عمل واحد هو كتابه « المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية » فإن عمله هذا يعد ـ من ناحية ـ قطرة في بحر ، كما يعد ـ من ناحية أخرى ـ عملاً تراثيا دخل ذمة التاريخ . فقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٧ ، واعتمد على مؤلفات يعود بعضها إلى الخمسينيات ، ومعظمها إلى الستينيات ، مسقطا بذلك عشر سنوات هامة من تاريخ الألسنية . ولم يدخل المؤلف ـ مع الأسف ـ على كتابه أي إضافة أو تعديل أو تصويب في طبعته الثانية عام ١٩٨٧ في حين أن البحث الألسني العالمي يقفز كل يوم قفزات هائلة ، ويقدم تصورات ومفاهيم جديدة تجعل أي بحث أو عمل مسحيّ في الألسنية متخلفا خلال بضع سنوات .

ولعل أهم معاجم المصطلحات الألسنية المتعددة اللغة التي صدرت في الثلاثين سنة الأخيرة ـ إلى جانب معجم الحمزاوي هي :

١ ـ مجموعة المصطلحات اللغوية ، التي بدأ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في وضعها عام ١٩٦٢ ، ووردت ضمن مجموعات المصطلحات العلمية والفنية في أجزاء كثيرة متتابعة . وهو المعجم الوحيد الذي ظهر بجهود هيئة علمية حتى الآن . ولكنه ـ مع الأسف ـ شديد القصور ، وواضح الجمود بعد هجره لعدة سنوات ، وعدم تزويده بالمصطلحات المستجدة أولا فأولا .

٢ ـ معجم علوم اللغة ، الذي أعده عبد الرسول شاني ونشرته مجلة اللسان العربي عام ١٩٧٧ في المجلد الخامس عشر ـ الجزء الثاني .

٣ ـ معجم علم اللغة النظري ، من إعداد محمد علي الخولي ، وقد صدر عام ١٩٨٢ .

٤ ـ معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ، من إعداد نخبة من اللغويين العرب ، وقد صدر عام ١٩٨٣ .

٥ ـ قاموس اللسانيات ، من إعداد عبد السلام المسدي ، وقد صدر عام ١٩٨٤ .

٦ ـ معجم علم اللغة التطبيقي ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٦ .

ويعيب معظم هذه المعاجم اكتفاؤها بمجرد ذكر المصطلح الأجنبي ومقابله العربي ، دون تعرضها لشرح المصطلح وتحديد مفهومه ، كما يعيبها جميعها أنها قاصرة غير مستوعبة ، وأنها تمثل اجتهادات شخصية لأصحابها ، ولا تخضع لمنهجية مضبوطة ، وأنها ينقصها التجديد من آن لآخر .

ولنبدأ بمصطلحات عبد القادر الفاسي الفهري في أبحاثه وكتبه فنلاحظ عليها أنها تتسم بالابتكار ، والتوسع في التعريب ، وإدخال صيغ ومشتقات غير مألوفة في لغة « الألسنية » ، ومن ذلك :

- استخدامه مصطلح « التأسيم » في مقابل : nominalisation
- و « المكون الصّواتي » في مقابل phonological Component
- و « والمَوضَعة » في مقابل : topicalisation
- و « النفس لسانيات »
- و « السيكولسانيات » ـ في مقابل psycholinguistics
- و « التبئير » في مقابل focalisation
- و « تركيب مُبأَّر » في مقابل focused construction
- و « ميتا متغير » في مقابل metavariable

أما رشاد الحمزاوى فهو أكثر جرأة من الفهرى من ناحية ، وأكثر ذاتية في صك المصطلح من ناحية ثانية ، وأقل اطرادا مع نفسه في استخدامه للمصطلح من ناحية ثالثة مع أنه يعتبر نفسه من المنظّرين في مجال المصطلح بعامة ، والمصطلح اللغوى بخاصة :

- فهو يطلق على علم الدلالة : السيميّة .

- ويستخدم « علم اللغة النفسانى » ، بدلا من « النفسى » .

- ويبقى المصطلح الأجنبي كما هو ـ دون حتى محاولة تعريبه وإخضاعه للصياغة العربية ـ فيستخدم مصطلحات مثل : « إبستمولوجيا » ، و « أبلابيك » ، و « أكوستيكس » ، و « جراماطيقا » ، و « فيلولوجي » ، و « فونتيك » ، و « براجماتيك » ، و « سنتجماتيك » و « سيمولوجيا » ... وغير ذلك .

- ولا يلتزم بمقابل واحد للمصطلح الأجنبى فكلمة accent يقابلها « بالنبر » ، و « النبرة » ، و « الضغط » . وكلمة synchronic يقابلها مرة بكلمة « متزامن » ، ومرة « أفقى » . و bilabial عنده : « شفوى » ، و « شفتانى » ، و « بين الشفتين » و phoneme عنده مرة « صوتم » ، ومرة « فونم » .

- وهو في معظم حالاته لايربط الألفاظ المترادفة ، ولا يستخدم نظام الإحالة .

- وقد يجانبه التوفيق في المقابل العربي الذى يستخدمه . فمصطلح affricate قابله بلفظ « شديد » والصواب مقابلته بأحد مصطلحات ثلاثة يستخدمها الألسنيون وهى « مزجى » ، « مركب » ، « شديد رخو » . ومصطلح assimilation يقابله مرة بلفظ « إدغام » ، ومرة بلفظ « تماثل » . والصحيح مقابلته بلفظ « مماثلة » .

ولنعرض الآن بعض المصطلحات اللغوية متبعين إياها في عدد من المصادر العربية لنرى مدى الاضطراب في صوغها ، والتباين في عرضها :

١ - المصطلح Phoneme ويرتبط به مصطلحان آخران هما allophone و phone تباينت فيها المقابلات العربية على النحو التالي :

phoneme	allophone	Phone	المصدر
١ - فونيم	ألوفون	فون	دراسة الصوت اللغوى
٢ - صوتم	صوتم تعامل	صوت	قاموس اللسانيات
٣ - صوت / صوتم	—	—	دروس في علم أصوات العربية
٤ - فونيم / فونيمية / صوتيم / صوت مجرد	ألوفون / متغير صوتى	صوت لغوى / صوت كلامى	معجم علم اللغة النظرى
٥ - فونيم	ألوفون	صوت كلامى	معجم مصطلحات علم اللغة الحديث
٦ - صوتية	بدل صوتية	—	المصطلح اللسانى
٧ - صوتم	—	—	مفاتيح الألسنية
٨ - مستصوت / فونيم / لافظ	—	—	مجلة الفكر العربى

وأقترح الاكتفاء بمصطلحات المصدر الأول لوضوح العلاقة اللفظية بينها ، ولسهولة تصريفها ، ولأنها أصبحت مصطلحات عالمية تستخدمها اللغات الأوربية . أما إطلاق « صوت » على الفونيم فيعيبه التباسه بمصطلحين آخرين هما Sound, Phone . أما فونيمية وصوتية فيلتبسان بصيغة النسب الوصفية ، فضلاً عن صعوبة تصريفهما . أما المصطلح « صوت مجرد » فيعيبه كونه ثنائيا .

٢ ـ المصطلح morpheme ، ويرتبط به مصطلحان آخران ، هما allomorph و morph تباينت فيها المقابلات العربية على النحو التالي :

morpheme	allomorph	morph	المصدر
١ ـ مورفيم	ألومورف	مورف	أسس علم اللغة
٢ ـ صيغم	شكلم	تشكل	قاموس اللسانيات
٣ ـ مورفيم / وحدة صرفية	ألومورف	مورف	معجم مصطلحات علم اللغة الحديث
٤ ـ مورفيم / مورفيمة / صرفية مجردة / صرفيم	ألومورف متغير دلالي	مورف	معجم علم اللغة النظرى
٥ ـ صرفية	بد صرفية	—	المصطلح اللساني

وأفضل هذه المصطلحات المجموعة الأولى لأنه يمكن ربطها بعضها ببعض ، ولسهولة تصريفها .

والمسدّى الذى استعمل « صيغم » في مقابل المورفيم جاء الى المورف والألومورف واستخدم لفظين من مادة أخرى .

٣ ـ المصطلح bilabial ويعنى الصوت الذى تشترك في نطقه الشفتان وضعت له المقابلات العربية الآتية :

شفتاني ـ شفوى ـ من بين الشفتين ـ شفوى ثنائي ـ شفوى مزدوج . والمصطلح الأول أدقها ، وبخاصة بعد أن أجاز مجمع اللغة العربية النسب الى المثنى على لفظه . أما الثاني فينبغي أن يخصص لمقابلة المصطلح Labial وأما المصطلحات الباقية فيعيبها تعدد ألفاظها .

٤ ـ المصطلح Lexeme وضعت له المقابلات العربية : وحدة معجمية ـ لكسيم ـ مفردة ـ مفردة مجردة ـ مُأصَّل ـ معجمية . وأفضلها اللفظ المعرّب .

٥ ـ المصطلح synchronic وضعت له المقابلات العربية : متزامن ـ تزامنى ـ وصفى ـ متعاصر ـ متواقت ـ آنّى ـ ثابت ـ سنكرونى ـ مستقر ـ أفقى . وأفضلها المصطلحان الأولان ، لغرابة اللفظ المعرّب .

٦ ـ المصطلح diachronic ويستعمل عادة في مقابل المصطلح السابق للدلالة على تعدد الأزمنة . وقد استعمل له المصطلحات : تطورى ـ تعاقبى ـ متعاقب ـ تاريخى ـ زمانى . وأفضلها التعاقبى الذى يتلاءم مع تزامنى من ناحية ، ولا يلتبس بغيره من ناحية أخرى .

الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح :

إذا أردنا أن نرصد هذه الاتجاهات وجدناها محوطة بالارتجالية من ناحية ، والتحكم من ناحية ثانية ، وعدم الانضباط من ناحية ثالثة . وهي سمات أدت الى خلق كثير من المشكلات أمام المصطلح الألسني وكادت توصله الى حال يفقد فيها هويته ، ويتخلى عن أخص خصائصه ، وهو ضرورة نياله على الاتفاق أو الاصطلاح بين المشتغلين باللغة وعلومها . وأهم هذه المشكلات مايأتى :

أولا : ما انحدر الى المصطلحات الألسنية الحديثة من مشكلات عن المصطلحات القديمة التى لم يراع في وضعها المواصفات الضرورية ، فجاءت مختلة من عدة جهات مثل :

أ ـ استعمال المصطلح في أكثر من مفهوم ، كإطلاق « الناقص » على الفعل الذى لا يكتفى بمرفوعه ، وعلى المعتل الآخر ، وإطلاق « ذوات الثلاثة » على الأجوف ، وعلى الكلمة المكونة من ثلاثة أحرف أصول .

ب ـ إطلاق أكثر من مصطلح على المفهوم الواحد مثل « النواقع » على « المتعدى » ، و « الخفض » على « الجر » ، و « النعت » على « الصفة » ، و « العماد » على « ضمير الفصل » .

ج ـ طول المصطلح وتكونه من عدة كلمات ، ويظهر هذا بوضوح في كتب التراث الأولى .

ثانيا : مايتحمله المصطلح الألسنى العربي الحديث من مشكلات تتعلق بالمصطلح العلمى بوجه عام مثل :

أ ـ **تعدد جهات وضع المصطلح** (المجامع والهيئات) دون تنسيق حقيقي بينها (رغم وجود ما يسمى بمكتب تنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط) ، واختلاف مشارب الأفراد الذين يساهمون في وضع المصطلح ، وميل معظمهم الى الفردية .

فمجمع اللغة العربية بالقاهرة بعد أن يحدد وسائل وضع المصطلح يعطى أفضلية لوسيلتين اللتين هما :

١ ـ اللفظ العربي على المعرب القديم إلا إذا اشتهر المعرب .

٢ ـ المصطلح العربي القديم على الجديد إلا إذا شاع الجديد .

وكلتا الوسيلتين يمكن تحقيقهما عن طريق الاشتقاق أو المجاز . ثم نجده يعطى كذلك أفضلية للترجمة الحرفية حين لايمكن وضع المصطلح الجديد في كلمة واحدة . وبذا يساوي بين الوسيلتين الداخلية والخارجية في الأفضلية .

ولكنه يعد من باب الضرورة العلمية الالتجاء الى الوسيلتين الآتيتين :

١ ـ إدخال ألفاظ أعجمية على طريقة العرب في تعريبهم .

٢ ـ اللجوء الى النحت .

(مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما ص ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٥ ، وشوقي ضيف : مجمع اللغة العربية في خمسين عام ص ١٢٨) .

والمجمع العلمي العراقي يتعصب للفظ العربي لدرجة أنه كان يختار اللفظ الغامض ويفضله على الواضح كاطلاقه الجابية على الخزان ، والوسق على الحموله ، والإرقال على السرعة ، والكظام على الحشو ، والواجنة على المكبس ، والسدام على القداحة ، والواجنة على آلة التخريم ، والجسوة على الصلابة (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ٨) .

ولكنه رغم سلوكه هذا ، وتفضيله اللفظ العربي على الأجنبي (مطلوب ص ٥ ، ٩) ، ودعوته الى تجنب النحت والتعريب ما أمكن (مطلوب ص ١٠) ، نجده يلجأ الى التعريب كثيراً ، والى اللصق أحيانا كما في اللاتناهي ، واللاتحدّدي ، واللاخطي ، واللامتطقي ، واللاشكلي (مطلوب ص ٦ ، ٧) . ورغم نصحه باختيار المصطلح ذي اللفظ الواحد كان يستعمل بعض السوابق على وزن فُعْل كالفُرْط ، والحط ، والسبق ، واللحق ، والبعد . . (مطلوب ص ٦) .

ولكن في نفس الوقت هناك ألسنيون ممن يشاركون بجهودهم في وضع المصطلح يسلكون طرقا مخالفة :

١ ـ فترى عبد السلام المسدّي يهاجم إحياء الألفاظ القديمة وإطلاقها على متصور مستحدث قائلا : « وكثيرا ما يتجاذب الميراث الاصطلاحي ذوي النظر فينزعون صوب إحياء اللفظ واستخدامه في غير معناه الدقيق . . فإذا بالمدلول اللساني يتوارى حيثما اختلف المفهوم المحوري ، ويستقل أحيانا لحرق رقابة مصبحة من الضباب تعتم صورته الاصطلاحية ، فتتلاشى القضايا ، وينحسر حسم الجدل بين المختصين » (قاموس اللسانيات ص ٥٥ ، ٥٦) .

٢ ـ وترى عبد القادر الفهري كذلك يحذر من استخدام المقابلات العربية الواردة في التراث لأن هذا يخلق توهما « بصدق المصطلح العربي » على مايصدق عليه المصطلح الغربي نتيجة إسقاطات ظرفية أوذاتية يقوم بها المترجم ، وينتهي الى إيجاد مناسبات غير قائمة » (المصطلح اللساني ص ١٤٤) . ويلح على فكرته هذه حين يقول في توضيح منهجه : « تجنبنا بقدر الامكان ـ استعمال المصطلح المتوفر القديم للتعبير عن المصطلح الداخل ، لأن توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة قد يفسد تمثل المفهوم الجديد والمحلّ على السواء . ولا يمكن إعادة توظيف المصطلح القديم وتخصيصه إذا كان موظفا ، لأن هذا يؤدي الى مشترك لفظي غير مرغوب فيه ، بالإضافة الى سوء الفهم » (السابق ص ١٤٥) .

وعلى عكس المجامع اللغوية نراه يشجع التعريب « لصعوبة الانتقال من لغة الى لغة باستخدام الرصيد المصطلحي الداخل فقط . فتعريب الثقافة العلمية يقتضي اللجوء الى ما أسميناه المصطلح الخارجي » (السابق ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو لهذا يدعو الى تطويع اللغة العربية مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم (السابق ص ١٤٢) .

٣ ـ وعلى نسق ما قال الفهري نجد محمد رشاد الحمزاوي يهاجم اللجوء الى الترجمة قائلا : « وتزداد القضية تشعبا عندما ننظر الى الأساليب الفنية التي ترجمت بها هذه المصطلحات .. ولابد أن نشير في هذا الصدد الى أن كل الترجمات لا تعي فنياتها وعيا علميا مركزا » . كما أن اللجوء الى الترجمة ـ في نظره ـ يثير قضية المطابقة بين المصطلح اللغوي والواقع ، وقضية الترادف بين اللغات . (مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٤ ، ٢٦٥) . ويرى أن اللجوء الى الترجمة لن يؤتي أكله « إلا إذا امتلكت اللغة المترجم إليها بنظرياتها ، وأصبح لها من الزاد الاصطلاحي الذي يوفر لها التكليف والتحوير والإسقاط » (السابق ص ٢٦٧) .

ب ـ عدم الدقة عند وضع المصطلح نتيجة عدم الدقة في فهم ما يعبر عنه . ومن ذلك عدم التفرقة بين المصطلحين الإنجليزيين nasality nasalization مع أن الأول يعني تسرب الهواء كليا من خلال فتحة الأنف ، والثاني يعني تسرب الهواء من الأنف مع استمرار تسربه من الفم (وذلك كما يحدث في نطق بعض العلل بها. وقد استخدم المدققون للأول مصطلح الأنفية ، وللثاني مصطلح التأنيف (دراسة الصوت اللغوي ص ١٠٢-١٠٣) . ومثل هذا يقال عن الفرق بين الغاريّ palatal والمغوّر palatalized . فالأول ينطق عن طريق نطق مفرد في منطقة الغار ، والثاني ينطق باجتماع النطق الغاري مع نطق آخر معين . ويمكن ـ على ضوء هذا ـ التفريق كذلك بين الصوت الطبقي velar والمُطبّق velarized والصوت المهموس والمُهمّس ، والصوت المجهور والمُجهّر .

جـ ـ ترك حرية وضع المصطلحات للأفراد كل بحسب اجتهاده ، وعلى قدر قربه أو بعده من التراث العربي . وخير مثال لذلك المصطلح phoneme الذي وضع له في العربية المقابلات الآتية : فونيم ـ صوتيم ـ صوتم ـ فونيمية ـ صوت مجرد ـ مستصوت ـ لفظ ـ لافظ . ويلاحظ أن هذه المصطلحات تنوع طريقة وضعها بين التعريب الكامل والتعريب الناقص والترجمة الحرفية والترجمة الواسعة والتفسير (انظر المسدي : قاموس اللسانيات ص ٧٦ ، ٨٣ ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

د ـ الخلط بين المصطلح ، والشرح أو التفسير كإطلاق بعضهم « الوحدة الصوتية » على الفونيم ، و « الوحدة الصرفية » على المورفيم ، وبعضهم « علم تأصيل الكلمات » أو « علم تاريخ الكلمات » على ما يقابل المصطلح الانجليزي etymology . وأفضل من هذا إما تعريب الكلمة أو استخدام مصطلح « التأثيل » (المسدي ص ٨٤ و ٢٢٣ ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث ص ٢٤) .

ثالثا : ما ينتقل الى اللغة العربية من مشكلات تتعلق باللغة أو اللغات المنقول عنها المصطلح . ومن أمثلة ذلك المصطلحان الانجليزيان phonetics ، phonology . فعلى الرغم من كثرة ترددهما في علم اللغة الانجليزي فإننا نجد لهما عددا من التفسيرات التي توقع الباحث في حيرة وارتباك :

أ ـ فقد استعمل دي سوسير اللفظ phonetics للدلالة على ذلك الفرع من العلم التاريخي الذي يحلل الأحداث والتغيرات والتطورات عبر السنين ، وعده من أجل ذلك جزءا أساسيا من الألسنية في حين حدد مجال الـ phonology بدراسة العملية الميكانيكية للنطق ، وعده من أجل ذلك علما مساعدا للألسنية .

ب ـ أما مدرسة براغ فتستعمل مصطلح phonology في عكس ما استعمله فيه دي سوسير ، إذ تريد به ذلك الفرع من الألسنية الذي يعالج الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية . ولذلك تجدها تعتبر الفونولوجي فرعا من الألسنية . أما الفوناتكس فقد أخرجه معظم رجالها من الألسنية ، واعتبروه علما خالصا من علوم الطبيعة يقدم يد المساعدة للألسنية .

جـ ـ واستعملت الألسنية الأمريكية والانجليزية مصطلح فونولوجي لعشرات السنين في معنى « تاريخ الأصوات » ودراسة التغيرات والتحولات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها . وهو حينئذ يكون مرادفا لما يسمى historical phonetics أو diachronic phonetics أما المصطلح فونتكس فقد استعمل في معنى العلم الذي يدرس الأصوات الكلامية ويصنفها ويحللها من غير إشارة الى تطورها التاريخي . وإنما فقط بالإشارة الى كيفية إنتاجها ، وانتقالها ، واستقبالها .

وعلى هذا فالفرعان يعدان من صميم الألسنية ، وإن دخل الأول تحت فروع الألسنية التاريخية ، والثاني تحت فروع الألسنية الوصفية .

د ـ ومن الألسنيين من رفض الفصل بين ما يسمى فونتكس وما يسمى فونولوجي لأن أبحاث كل منها تعتمد على الأخرى ، ووضع الاثنين تحت المصطلح فونتكس أو تحت المصطلح فونولوجي .

هـ ـ ومن أجل هذا اللبس ظهر المصطلحان الجديدان phonematics و phonemics ، كبديلين للمصطلح فونولوجي .

و ـ ومعظم الألسنيين الآن على تخصيص الفونولوجي للدراسة التي تصف وتصنف النظام الصوتي للغة معينة . أما المصطلح فونتكس فيقصرونه على دراسة أصوات الكلام مستقلة عن تقابلات نماذجها ، وعن تجمعاتها في لغة معيّنة ، ودون نظر الى وظائفها اللغوية ، أو حتى معرفة اللغة التي تنتمي إليها . وهم قليلا ما يستعملون الآن المصطلح فونيمكس ونادرا ما يستعملون المصطلح فونيماتكس .

وقد انتقل الخلاف في مفهوم المصطلحين الى اللغة العربية فاستعملها الألسنيون العرب كل حسب دراسته ومدرسته الألسنية . كما امتد الخلاف ليشمل كيفية التعبير عن مفهوم كل باللغة العربية فمنهم من أبقى المصطلح فوناتكس وعربه الى « فوناتيك » ، ومنهم من عبر عنه بالمصطلح « الصوتيات » ، أو « علم الأصوات » أو « علم الأصوات اللغوية » أو « علم الأصوات العام » . وحدث نفس الشيء بالنسبة للمصطلح فونولوجي ، فمنهم من أبقاه وعرّبه الى « فونولوجيا » ، ومنهم من عبر عنه بالمصطلح « علم الفونيمات » ، أو « علم الأصوات » ، أو « علم الأصوات التاريخي » ، أو « علم الأصوات التنظيمي » ، أو « علم وظائف الأصوات » ، أو « علم التشكيل الصوتي » ، أو « علم الأصوات التشكيلي » أو « الصوتية » (دراسة الصوت اللغوي ص ٤٥ ـ ٤٨ ، وقاموس اللسانيات ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

رابعا : كثرة ما تقذف به المطبعة كل يوم من أبحاث ودراسات ألسنية متعددة المنابع والمشارب ، وامتلاء الساحة الألسنية العالمية بالمفاهيم والمصطلحات التي تتزاحم وتتدافع . وقد أدى توافر النظريات الألسنية ، وما أنشأته من مصطلحات ، وما استحدثته من مفاهيم جديدة تحتاج الى مصطلحات للتعبير عنها ـ أدى الى حدوث تراكمات في المفاهيم والمصطلحات التي يتعين نقلها الى اللغة العربية ، مما أظهر المصطلح الألسني العربي بمظهر العاجز عن مواكبة النشاط الألسني العالمي ، واستدعى العجلة في تدارك ما فات ، مما سبب كثيرا من الإرباكات وأدى الى عدد من السلبيات من أبرزها :

أ ـ اعتماد كثير من المصطلحات الألسنية العربية الحديثة على التعريب أو الترجمة الحرفية ، وبذا انتقلت مشكلات التعريب والترجمة الى دائرة المصطلح الألسني .

فتصنيف المفاهيم يختلف من لغة الى لغة ، ومن ثقافة الى أخرى . ومن الصعب الحصول على لفظ مطابق في لغة ما للفظ آخر ، مما يضع العراقيل أمام الترجمة الدقيقة . والترجمة تقتضي تطويع اللغة مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم ، وهو مالا يتوفر بسهولة في لغتنا . وترجمة المصطلح الى العربية تقتضي وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي ، وهو ماقد يتعذر الحصول عليه في شكل كلمة واحدة وإذا كان المصطلح الأجنبي يكتسب جزءا من معناه عن طريق ما التصق به من سوابق أو لواحق . وقد يضطر هذا المترجم الى استخدام لفظين مما يجعل المصطلح صعب التصريف ، ثقيلا في الاستعمال .

أما التعريب فيقودنا الى القذف بمحيط غريب نوعا ما داخل محيطنا ، وبمفاهيم مجسدة في ألفاظ لغات أخرى ضمن مفاهيمنا ، وهو ما قد ينفر منه الذوق العربي . وإن كان مما يخفف من هذا النفور إعطاء اللفظ المعرب الصيغة العربية ، والنطق به على مناهج العرب .

والتعريب يقتضي كذلك تماثلا أو تشابها بين اللغتين في الأنساق الصوتية والصرفية وهو ما لا يكاد يتوفر بالنسبة للغتنا . فالانجليزية مثلا تشتمل على أصوات ليست في العربية ، وكذا العكس . والانجليزية تؤلف بين جذر ولاحقة أو سابقة للحصول على مفردة جديدة دون تغيير يذكر في البنية الداخلية للجذر في حين أن العربية لغة اشتقاقية تحدث غالبا تغييرا في صيغة الجذر أو أصل الاشتقاق للحصول على صيغة جديدة (الفهري : المصطلح اللساني ص ١٤٢) .

ويقترح عبد القادر الفهري لاقتحام مشكلة الترجمة البدء بمعاينة الحقول الدلالية في كل من اللغتين ، وإقامة ما يمكن إقامته من مناسبات ، وفرز ما ليس له مقابل في اللغة الهدف ويحتاج الى الوضع والتوليد . ويرى أن تتبّع الحقولَ الدلالية في اللغتين قد يساعد على تلافي اضطراب الترجمة ، ويضرب لذلك مثلا بالمصطلح Sign الذي يترجم الى رمز ، علامة ، إشارة ، دليل . فلو نظرنا الى أسرة Sign لوجدنا Symbol من جهة ، و signifier و signified من جهة أخرى . وحين تحدث دي سوسير عن الـ sign بيّن أنه اعتباطي في حين أن الـ Symbol توجد فيه العلاقة بين الدال والمدلول . فالأقرب أن يترجم Symbol إلى « رمز » وأن يترجم Sign إلى « دليل » باستعمال نفس المادة المعجمية التي اشتق منها

الدالّ Signifier ، والمدلول Signified والدلالة signification . أما « علامة » فالأقرب أن تكون ترجمة لكلمة mark ، وأما إشارة فتقابل demonstrative (السابق ص ١٤٣) .

ومع الاعتراف بمشروعية التعريب كوسيلة من وسائل وضع المصطلح العربي ، فإن كثيرا من اللغويين يهربون منه ، وخصوصا إذا كان اللفظ المعرَّب مما تنفر منه الأذن العربية مثل استعمال المصطلحات polysemy و homonymy و paradigmatic و Syntagmatic وغيرها (انظر الحمزاوى : مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٣ ، ٢٦٤) .

كما أن منهم من ينظر الى التعريب كوسيلة مرحلية ينبغى أن تعقبها وسيلة أخرى كالترجمة أو التعريب الجزئى ، كما حدث لمصطلح فونيم الذى فضل بعضهم عليه فيما بعد « الصوتم » أو « الصوتيم » ، وفضل بعضهم « الصوت المجرد » ، أو « الوحدة الصوتية » أو « المستصوت » .

ب ـ عدم وضع ترتيب لطرق صوغ المصطلح ، وترك الحبل على الغارب لكل مجتهد يسلك الطريق الذي يريد ، ويفضل الوسيلة التي يميل إليها . فالى جانب الترجمة والتعريب اللذين سبق الحديث عنهما نجد طرقا أخرى مثل :

• النحت الذي يتم عن طريق مزج عنصرين أوليين على الأقل ، أو نتيجة لصق أو تركيب خارجي . وطبيعى أن يؤدى استعمال النحت الى ظهور صيغ جديدة لا تنضوى تحت أي من الموازين الصرفية أو الاشتقاقية ، ولا يقف طوفها عند حد .

• الاشتقاق الذي يعد من أكبر خصائص اللغة العربية ، والتي يكسبها طواعية داخلية تمكنها من تلبية كثير من الحاجات الدلالية والمتطلبات المصطلحية ، وطاقة الاشتقاق في صوغ المصطلحات لا تنتهى ، لأن الاستعمال قلما يستفرغ كل الاحتمالات الممكنة .

• المجاز ، وهو إحدى طاقات الحركة الذاتية في كل اللغات ، وهو خير معين على استيعاب المدلولات الجديدة دون إدخال أجسام غريبة في اللغة العربية ، ودون إقحام بعض الوسائل التي لا تتلاءم مع طبيعتها . ويستطيع المجاز أن يمد أمام ألفاظ اللغة جسورا وقتية تتحول عليها من دلالة الوضع الأول ، الى دلالة الوضع الطارىء (انظر : المسدي : قاموس اللسانيات ص ٢٩ ـ ٤٥) .

وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح :

ربما كان من أكثر المشتغلين بتأصيل المصطلح الألسني ورسم حدوده اثنان ، هما عبدالقادر الفاسي الفهري ، ومحمد رشاد الحمزاوي . ولكن ما قدماه في النهاية لا يعدو أن يكون خطوة على الطريق ، وبعضه قد أثبت الواقع العملي عدم ملاءمته .

ومن أهم ما وضعه الفهري من أسس :

١ ـ اللجوء إلى وسائل التوليد المختلفة سواء منها ما يخص المعنى فقط (المجاز والتضمين) ، أو ما يخص المبنى فقط (المعرَّب) ، أو ما يخص المبنى والمعنى (الاشتقاق والنحت والتركيب والترجمة والتعريب الجزئي . . .) .

٢ - البدء بالاشتقاق والاستفادة من معاني الصيغ والأوزان .

٣ - استخدام النحت قليلا مثل نقل السابقة allo إلى « بَدّ » مختصرة من « بديلة » كما في allophone التي اقترح لها : بَدّ صوت (= بديلة صوتية) و allomorph التي اقترح لها : بَدّ صرفية (= بديلة صرفية) .

٤ - اللجوء إلى المعرَّب حين يستعصى إيجاد مقابل عربي مقنع كما في كلمة acoustics التي اقترح لها : أكوستيات .

٥ - تفضيل التعريب الجزئي على التعريب الكلي ، لأنه أخف على اللسان من النحت والتركيب أحيانا مثل : metalanguage التي اقترح لها : ميتالغة ، و psycholinguistics التي اقترح لها : سيكولسانيات .

٦ - إجازة النسب إلى المثنى والجمع مثل bilabial التي استعمل مقابلا لها : شفتاني ، و bilateral التي استعمل مقابلا لها : جانبانِيّ ، و dental التي استعمل مقابلا لها : أسناني . وعلى هذا يقاس في bilingual : لُغَتانِيّ .

٧ - الابتعاد عن المصطلح القديم ما أمكن .

(المصطلح اللساني ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

وأما الحمزاوي فقد طرح تصوره من خلال كتاب له بعنوان « المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها » نشره عام ١٩٨٦ . وإذا كان الكتاب هاما في تاريخ المصطلح العلمي ، وفي تناوله لقرارات المجامع والهيئات والمؤتمرات حول منهجيات المصطلحات العلمية ، فهو لم يبلور رأيا خاصا يمكن أن يكون مرشدا لكل من يشتغلون بوضع المصطلح ، ولم ينته إلى مبادىء تصلح قانونا يلتزم به الجميع . ومع ذلك فإن ما وضعه من قواعد سماها « مبادىء التنميط » يعد جديدا ومفيدا . وسنشير إلى بعض آرائه حول التنميط فيما بعد .

وفي تصوري أن ضبط العلم عن طريق ضبط مصطلحاته يمكن أن يتم باتباع الخطوات الآتية :

أولا : إنشاء مركز للمصطلحات الألسنية مزود بأحدث الأجهزة التي تساعد على التخزين والتصنيف والاستدعاء .

ويضم المركز فريق عمل يجيد كل عضو فيه إحدى اللغات الأوربية إلى جانب العربية ، ويتم عن طريقه مسح المصطلحات الألسنية المستعملة خلال العشرين سنة الأخيرة في اللغات الأربع : العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية ، مع تحديد مفهوم كل مصطلح تحديدا دقيقا . وتتم عملية المسح من طريقين :

أ - المؤلفات ، من خلال قوائم المصطلحات الملحقة بها .

ب - معاجم المصطلحات والموسوعات الألسنية .

ويواكب هذه العملية عملية أخرى في التراث الألسني العربي بهدف حصر المصطلحات الألسنية التراثية ، وتحديد مفاهيمها ، وترتيب هذه المصطلحات في قوائم تارة ، وحسب مجالاتها اللغوية تارة أخرى حتى يسهل الرجوع إليها عند وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي .

وما أظن أن هذه الغاية يمكن تحقيقها في ظل المجامع اللغوية القائمة التي يتوزع مجهودها المصطلحي بين مختلف

العلوم والفنون ، والتي يفتقر معظمها الكفاءات اللغوية المتنوعة التخصص سواء على مستوى أجهزة التحضير أو الإعداد أو المتابعة ، أو على مستوى البتّ وإصدار القرار . كما يعيب أمثال هذه المجامع إيقاعها البطيء ، وحركتها المتئدة ، وعجزها عن متابعة سيل المصطلحات والمفاهيم التي ينهمر علينا في كل يوم دون رصد أو متابعة ، فضلا عن دراسته ووضع المقابلات العربية له . وقد كان بطء المجامع الشديد هو السبب الأساسي في فتح الباب على مصراعيه أمام الاجتهادات الشخصية ، وإفساح المجال أمام الأفراد ليصولوا في الميدان ويجولوا ، ثم تدخلت بواعث السبق ، وحب الريادة فأفسدت أي محاولة للتنسيق . ولم يكن من المعقول أن تطلب من الباحثين أن يكفوا عن القراءة والبحث والتأليف والتعريب حتى يتلقوا الإذن من المجمع اللغوي (أو المجامع اللغوية) . ولهذا توازدت الاجتهادات دون ضابط أو رابط ، ولم تنجح القرارات التي تصدرها المجامع في توحيد المصطلح ، مثل القرار الذي أصدره المجمع العلمي العراقي عام ١٩٧٧ أن يكون هو المرجع الوحيد في وضع المصطلحات (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ١٥) فظل هذا القرار صرخة في واد أو نفخة في رماد .

ثانيا : أن يدعى جميع المشتغلين بالألسنية الحديثة ، والمتصلين بمنابعها الأجنبية إلى تزويد المركز بكل ما يصادفهم من مفاهيم جديدة ومصطلحات ، ومناشدة المؤلفين والباحثين بعدم التزام وضع المصطلح الأجنبي إلى جوار ما يستعملونه من مقابل عربي ، وإعداد قوائم في آخر بحوثهم تضم المصطلح الأجنبي ، ومقابله العربي حتى تسهل متابعة هذه المصطلحات ودراستها .

ثالثا : احتفاظ المركز بقائمة بأسماء وعناوين الألسنيين العرب ، وإيجاد جسور اتصال معهم ، بدلا من ترك الأمور لمجرد الصدفة . وسيحقق هذا الاقتراح غاية أخرى وهي عقد ما انبتّ من صلات بين الأجيال المتتابعة ، وبين علماء الأقطار العربية ، مما سيقلل من الفجوة الموجودة بينهم ويزيل الجفوة التي تحكم علاقاتهم العلمية بعضهم مع بعض .

رابعا : العمل على تأليف معاجم متنوعة للمصطلحات الألسنية تبنى على منهجية واضحة ويتعاون جميع الألسنيين العرب . وفي تصوري أننا في هذه المرحلة ـ نحتاج إلى ثلاثة أنواع من المعاجم :

١ ـ معجم أحادي اللغة يجمع بين المصطلح العربي والتعريف به .

٢ ـ معجم ثنائي أو ثلاثي اللغة ، يبدأ بالمصطلح الأجنبي ، ويضع مقابله مصطلحا عربيا واحدا يختاره الألسنيون بناء على منهجية المعجم ، ومن بين المفاهيم والمصطلحات التي ثبتت واستقرت .

٣ ـ معجم كالسابق ، ولكنه لا يكتفي بمصطلح عربي واحد ، وإنما يحشد أمام المصطلح الأجنبي كل ما ورد في مؤلفات الألسنيين من مقابلات .

وسيكون المعجم الثاني بمثابة المرشد أو الدستور لجميع المؤلفين في الألسنية ، على أمل أن يلتزموا بمصطلحاته في كل ما يكتبون . أما المعجم الثالث فسيكون بمثابة الدليل للقراء الذين قد يصادفهم في قراءاتهم مصطلحات متعددة ، ولا يفطنون إلى ترادفها أو تقاربها ، ولا ينتبهون إلى الرابطة التي تجمع بينها .

خامسا : اتخاذ المعجم الثاني الذي سبق اقتراحه معيارا للاستخدام ، بعد وضع الأسس والأولويات التي سيتم بمقتضاها اختيار مصطلح واحد من بين جميع مرادفاته ، أو وضع مصطلح بديل في حال عدم وفاء المصطلحات المستخدمة بالغرض .

سادسا : يجب أن يتم فرز المصطلحات الألسنية على مراحل ثلاث ، على النحو التالي :

١ ـ استبقاء المصطلحات التي تحقق الشروط الآتية :

أ ـ ألا يكون للفظ معنى آخر في ميدان الألسنية بمعنى ألا يكون من المشترك اللفظي .

ب ـ أن يكون اللفظ قليل الحروف سهل النطق به .

جـ ـ أن يكون اللفظ سهل التصريف ، طيّعا في التوليد والاشتقاق . واستبعاد ما سوى ذلك .

٢ ـ ويتم في المرحلة الثانية فرز المصطلحات التي حققت الشروط السابقة بناء على الأولويات التالية (وهي مستمدة من قرارات ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة ـ الرباط ١٩٨١) :

أ ـ وجود مناسبة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي .

ب ـ استخدام المصطلح في التراث العلمي العربي ، وإلا فيتم توليده عن أحد الطرق الآتية بالترتيب : الاشتقاق ـ المجاز ـ النحت ـ التعريب .

جـ ـ الألفاظ غير العربية يبدأ منها بما عُرِّب أي خضع للنمط العربي ، ووافق شكله الصيغة العربية .

٣ ـ فاذا أفرز تطبيق المعايير السابقة أكثر من مصطلح للمفهوم الواحد أخضعنا المصطلحات المترادفة لمبادىء التنميط الآتية (وهي مأخوذة من كتاب المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها لمحمد رشاد الحمزاوي) :

أ ـ رواج المصطلح بين المستعملين له من المتخصصين . ويتم ذلك عن طريق الإحصاء وترتيب الألفاظ حسب شيوع استعمالها ترتيبا تنازليا . وهو ما يفترض أن يكون قد سبق إعداده من خلال عمليات المسح المشار إليها في بند أولا .

ب ـ ملاءمة المصطلح ، فيفضل ما قلّت ميادين استعماله على ما توزع على ميادين كثيرة .

جـ ـ توفر الحافزية ، أي ما يحفز المستعمل على اختياره ، إما لصيغته البسيطة أو لتركيبه الصرفي الواضح ، أو لعدم غرابته ، أو لموافقته لأنماط التجمعات الصوتية العربية .

وبعد : فإذا كان من العسير فرض منهجية إجبارية على العلماء فإن من الممكن البدء بالاتفاق على الخطوط الرئيسية ، والدعوة إلى التأني قبل طرح المصطلح للاستعمال . ولعل قرار المجمع العلمي العراقي بعدم تثبيت مصطلح إلا بعد ستة أشهر على تاريخ نشره يفيدنا في هذا الخصوص .

ويجب ألا ننسى أن أهم معيار لقياس نجاح المصطلح هو مدى شيوعه وتقبله بين أبناء المهنة الواحدة . فلا فائدة من مصطلح يظل حبيس الأدراج . وكم رأينا من مصطلحات تقرها المجامع دون أن يكتب لها الرواج أو الاستحسان عند أهل الاختصاص .

مراجع البحث

١ ـ باي (ماريو) :
أسس علم اللغة ـ ترجمة أحمد مختار عمر . عالم الكتب ط ثالثة ١٩٨٧م .
٢ ـ حجازي (محمود فهمي) :
علم اللغة العربية ـ وكالة المطبوعات بالكويت د . ت .
٣ ـ الحمزاوي (محمد رشاد) :
مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ـ ندوة اللسانيات واللغة العربية ـ نشر المطبعة الثقافية بتونس ١٩٨١م .
٤ ـ الحمزاوي (محمد رشاد) :
المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية .
أ ـ ط أولى ـ حوليات الجامعة التونسية ١٩٧٧م .
ب ـ ط ثانية ـ الدار التونسية للنشر ١٩٨٧م .
٥ ـ الحمزاوي (محمود رشاد) :
المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها ـ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٦م .
٦ ـ الخولي (محمد علي) :
معجم علم اللغة التطبيقي ـ مكتبة لبنان ١٩٨٦م .
٧ ـ الخولي (محمد علي) :
معجم علم اللغة النظري ـ مكتبة لبنان ١٩٨٢م .
٨ ـ شالي (عبدالرسول) :
معجم علوم اللغة ـ مجلة اللسان العربي ـ مجلد ١٥ جزء ٢ عام ١٩٧٧م .
٩ ـ ضيف (شوقي) :
مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً ـ ط أولى ١٩٨٤م .
١٠ ـ عمر (أحمد مختار) :
دراسة الصوت اللغوي ـ عالم الكتب ـ ط ثالثة ١٩٨٥م .
١١ ـ الفهري (عبدالقادر الفاسي) :
المصطلح اللساني ـ الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات ـ سلسلة اللسانيات عدد ٦ عام ١٩٨٦م .
١٢ ـ كانتينو (جان) :
دروس في علم أصوات العربية ـ ترجمة صالح القرمادي ـ تونس ١٩٦٦م .
١٣ ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة :
مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاماً ـ القاهرة ١٩٨٤م .
١٤ ـ المسدي (عبدالسلام) :
قاموس اللسانيات ـ الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م .
١٥ ـ مطلوب (أحمد) :
جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ـ الملتقى الدولي الثالث للسانيات تونس ١٩٨٥م .
١٦ ـ معهد الإنماء العربي :
مجلة الفكر العربي (عدد خاص عن الألسنية) ـ بيروت ١٩٧٩م .

١٧ ـ الملتقى الثالث للسانيات :
اللسانيات واللغة العربية ـ تونس ١٩٧٨م .
١٨ ـ مونان (جورج) :
مفاتيح الألسنية ـ ترجمة الطيب البكوش ـ تونس ١٩٨١م .
١٩ ـ نخبة من اللغويين العرب :
معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ـ مكتبة لبنان ١٩٨٣م .
٢٠ ـ Crystal (David) :
The Cambridge Encyclopedia of language, Cambridge, 1988.
٢١ ـ The Phonetic Society of Japan : A Grand Dictionary of Phonetics, Japan, 1981.

تحليل عملية التكلم وبعض نتائجه التطبيقية

عبد الرحمن أيوب
أستاذ في قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت سابقا .

التفاهم اللغوي عملية متعددة المراحل تشمل الإنتاج ، والانتقال والاستقبال . والإنتاج والاستقبال عمليتان فسيولوجيتان يساهم في الأولى المخ وجهاز النطق وفي الثانية المخ وجهاز السماع . أما عملية النقل فعملية فيزيائية تعتمد على الوسط الذي ينتقل فيه الكلام وهل هو الهواء مثلا أو سلك التليفون .

أولا .. الإنتاج

عمل المخ :

يقوم المخ بعمله بواسطة الجهاز العصبي ، وهو يتكون من عدد كبير من الخلايا العصبية التي يسمى كل منها باسم النيورون neuron إلى جانب عدد كبير من الخيوط العصبية التي تربط بين المخ والعضلات المحركة للأعضاء الكلامية . وفي داخل الخلية العصبية يحدث تفاعل كيميائي بين العناصر المكونة لها ينتج تيارا كهربائيا كالذي يحدث في بطارية السيارة بين الحامض والعمود الموجب ـ وتحمل الخيوط العصبية التيار إلى العضلات فتسبب حركة أعضاء الكلام . ولابد لإنتاج تيار كهربائي كاف لتحريك عضلة ما من تعاون عدد كبير من الخلايا المتجاورة ، يطلق عليها اسم (وحدة تحريك) motor unit وتنتج فيما بينها تيارا يساوي ضغطه ١/٠ فولت أي جزءا من ١٢٠٠ جزء من ضغط التيار الذي يمر بالمصباح الكهربائي .

التخطيط والأتوماتية :

يخطط المخ للعملية الكلامية باعتبارها كلا لا يتجزأ . وهذه العملية معقدة تتطلب توجيه ، ومراقبة ، عدد كبير جدا من العضلات وتصحيح سلوكها . ويفضل القدرة المسماة بالأتوماتية ، يمكن للمخ السيطرة عليها . ونحن نعتبر عملية تناول الشاي عملية واحدة مع أنها في الواقع عمليات متعددة من فتح الأصابع وتحريك اليد في اتجاه الكوب

والقبض عليه ورفعه وتحريك اليد في اتجاه الفم وشفط الشاي . . الخ . وبفضل كثرة المزاولة ينفذ المخ كل هذه الأعمال ويراقبها في نفس الوقت الذي يشرف فيه على عملية المحادثة[1] كما أننا نشاهد أن المتدرب على الكتابة بالآلة الكاتبة ينظر إلى موضع كل حرف ويحرك إصبعه نحوه ويضغط على المفتاح بنسبة معينة من القوة ولكنه بعد أن يتم تدريبه يقوم بهذه الأعمال دون نظر إلى موضع الحرف . وترجع هذه الكفاءة إلى التدرب الطويل الذي يحقق ما يسمى بأتوماتية الأداء .

وعندما يحاول شخص نطق العبارة (التلميذة تقرأ في كتاب) فإن على المخ القيام بالعمليات الآتية :

أ - التحليل التركيبي (النحوي والصرفي) للعبارة .
ب - توجيه العضلات لتحريك كل من الأعضاء الصوتية على نحو معين .
ج - مراقبة حركة كل عضو وتصحيحها إذا ما وقع في خطأ .

أ - التحليل التركيبي :

تعتبر القواعد النحوية والصرفية المدونة في الكتب صورة خارجية لنظام سيكولوجي إدراكي عند أبناء اللغة ، يسميه تشومسكي بالقدرة اللغوية competence[2] وقد يكون من المسلم به أن الطفل الصغير لا يستطيع تمييز الحال من التمييز ، ولكنه يستطيع ولا شك إدراك الخطأ الذي يقع فيه أجنبي يتعلم العربية . وبفضل القدرة اللغوية الكامنة في المتكلم ، يستطيع المخ أن يخطط لتركيب الكلمات من سواكن وحركات معينة وأن يكون الجملة من كلمات ترتب على نحو معين[3] . وقبل نطق العبارة المذكورة يتحتم على المخ الوصول إلى الأحكام التالية التركيبية :

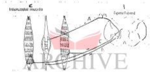
١ - التلميذة تقرأ في كتاب = جملة إسنادية خبرية .
٢ - الجملة = مسند إليه + مسند .
= (تعريف + اسم + تأنيث) + مسند
= (تعريف + اسم + تأنيث) + (فعل + تأنيث) + مكمل
= (تعريف + اسم + تأنيث) + (فعل + تأنيث) + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)
= التلميذة + فعل + تأنيث + حرف + (اسم + تنكير + تذكير)
= التلميذة + تقرأ + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)
= التلميذة + تقرأ + في + (اسم + تنكير + تذكير)
= التلميذة + تقرأ + في + كتاب .

---

(١) انقل عن مرجع ٥ ص ٧٧
(٢) مرجع ٣
(٣) مرجع ٥ ص ٧٠ ، ٧١

ب ـ التوجيه والمتابعة :

ينتقل المخ بعد هذا إلى توجيه العضلات للقيام بحركات معينة ، ومراقبة أدائها في نفس الوقت بواسطة عملية الإرجاع feed back[٤]، فيصدر المخ تعليماته إلى العضلات بالتحرك في ضوء الرصيد المختزن فيه من خبرات كلامية سابقة موزعة في الآلاف بل والملايين من خلاياه . وفي نفس الوقت تتم عملية الإرجاع بواسطة مستشعرات sensors موزعة في بنية العضلات المتحركة . وتتصل هذه المستشعرات بدورها بالمخ بواسطة خيوط الاستشعار العصبية فتنقل إليه صورة لما يحدث فيها .



شكل (١)

الرسم يمثل (١)
١ ـ قطاعا من النخاع الشوكي .
٢ ـ عضلات الحجاب الحاجز . الجزء الأوسط يشير إلى عملية الإرجاع والجزءان الأيمن والأيسر يوضحان الحركة .
E الخيوط العصبية الحاملة للشحنة الكهربائية .
A الخيوط العصبية التي تقوم بإرسال رسالة الإرجاع

ويصدر المخ أمره لكل عضلة من عضلات العضو بتحريكه على نحو يحدث العملية الأدائية الخاصة بالعضو من أول العبارة إلى آخرها ، ويلائم بين حركته وحركات الأعضاء الأخرى لإنتاج الأثر الإدراكي الذي يمكن السامع والمتكلم من تقسيم العبارة إلى أجزاء يطلق عليها الأصوات (أ ، ت ، ل ، الخ) .

وقد شبهنا في مكان آخر الحدث اللغوي بفطيرة مكونة من رقائق يرص بعضها فوق بعض ، ثم تقسم إلى قطع تتكون كل منها من جزء من الرقيقة العليا وجزء من التي تحتها والتي تحتها وهكذا .

---

(٤) المرجع السابق ص٦ ـ ٦١

الأصوات / الأعضاء	ـَـ ا	ت ت	ى	ل	م	ى ى	ذ	صفات الصوت
الشفتان	فتح	استمرار	انفراج	استمرار	تلامس	انفراج	استمرار	
اللسان	انخفاض	لمس اللثة	ارتفاع للأمام	لمس اللثة	استمرار	ارتفاع للأمام	لمس الأسنان	
الأوتار الصوتية	ذبذبة	عدم ذبذبة	ذبذبة	استمرار	استمرار	استمرار	استمرار	
اللهاة	فتح ممر الفم	استمرار	استمرار	استمرار	فتح ممر الأنف	استمرار ثم فتح ممر الفم	استمرار	
حركة العضو ←								

شكل (٢)

الفتحة= فتح الشفتين + انخفاض اللسان + ذبذبة الأوتار الصوتية + فتح ممر الفم .
ت = فتح الشفتين + لمس اللسان اللثة + توقف الذبذبة + استمرار فتح ممر الفم .
الكسرة = انفراج الشفتين + ارتفاع اللسان للأمام + ذبذبة الأوتار + استمرار فتح ممر الفم .
اللام = استمرار فتح الشفتين + استمرار لمس اللثة + استمرار الذبذبة + استمرار فتح ممر الفم .
الميم = تلامس الشفتين + استمرار لمس اللثة + استمرار الذبذبة + فتح ممر الأنف .
الكسرة = انفراج الشفتين + ارتفاع اللسان للأمام + استمرار الذبذبة + استمرار فتح ممر الفم .
الذال = استمرار انفراج الشفتين + لمس اللسان الأسنان + استمرار الذبذبة + استمرار فتح ممر الفم .
شكل (٢) يمثل حركات الأعضاء الشكلية ـــ وصفات الأصوات

ويجب أن نلاحظ أن الصوت ينتج من عمليات بعضها أساسي يوجد فيه في كل موقع ، مثل فتح ممر الأنف عند النطق بالميم ولمس اللسان الأسنان مع الذال ، وبعضها مجرد استمرار لحركة العضو الذي قام بها لنطق الصوت السابق ، وليس من الضروري أن توجد في كل موقع ، وذلك كالتقاء اللسان مع اللثة عند النطق بالميم لمجاورتها للام ، وتلك الصفة لا توجد عند نطق الميم بعد فتحة مثلا في مثل (لام) .

وتتطلب هذه العمليات المتوالية والمتعددة تحريك عدد كبير من العضلات . وبفضل الأوتوماتية ، وهي قدرة نحصل عليها بالتدريب في مرحلة الطفولة ، يقوم المخ بهذه العمليات المعقدة بآلية فورية مع مراقبة كل عضلة وتصحيح عملها إذا لزم هذا ، كما يراقب مركز المراقبة سفن الفضاء ويصحح مدارها(*) .

انظر الشــكل (٣)

عمل الأعضاء الصوتية :

نتيجة للنشاط العصبي الذي يقوم به المخ تتحرك الأعضاء الصوتية لإنتاج العبارة ، وتتلخص عملياتها فيما يأتي :

١ ـ إنتاج الزفير بضغط الحجاب الحاجز على الرئتين وطرده إلى خارج الجسم عن طريق الممرات والفراغات النطقية .

٢ ـ تدخل الحنجرة بقفل ممر الهواء قفلا تاماً لإنتاج الهمزة أو بالانفتاح الجزئي لإنتاج الهمس أو الانفتاح القليل مع التوتر لإنتاج الجهر .

٣ ـ تدخل المريء بالانقباض والتراخي فوق منطقة الحنجرة لإنتاج العين والحاء والهاء .

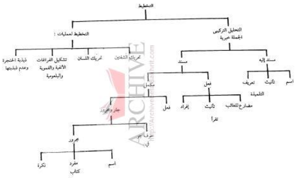
٤ ـ تدخل اللهاة لفتح ممر الفم لإنتاج الأصوات الفموية أو ممر الأنف لإنتاج الأصوات الأنفية .

٥ ـ حركات اللسان وموقعه من الفم وقربه من بعض أجزاء سقف الفم لإنتاج الحركات أو التلامس معها لإنتاج بعض السواكن .

٦ ـ حركة الشفتين بالتلامس أو الانفراج أو الاستدارة لإنتاج الميم والباء والواو أو للمساهمة في إنتاج الحركات . . الخ .

وقد كان الوصف الصوتي قديما ، منذ عهد الهنود وسيبويه ، وحتى منتصف هذا القرن يعتمد على وصف الحركات العضوية عند إنتاج كل صوت . ثم حدث تطور في معارف اللغويين ، بعد أن ساهم الفيزيائيون وعلماء الأعصاب والتشريح في دراسة الكلام فدخل إلى الوصف العضوي للأصوات الوصف الفيزيائي لما يحدث أثناء انتقال الصوت إلى السامع . واستفاد اللغويون كذلك من الأجهزة التي يستعملها الفيزيائيون وعلماء التشريح والأعصاب .

(*) السابق ص ٥٨ ـ ٥٩ .


التخطيط
التحليل التركيبي
الجملة خبرية
التخطيط لعمليات :
مسند إليه
مسند
اسم
تأنيث
تعريف
التلميذة
فعل
مكمل
مضارع للغائب
تأنيث
إفراد
تقرأ
فعل
جار ومجرور
حرف جر
في
مجرور
اسم
مفرد
كتاب
نكرة
تحريك الشفتين
تحريك اللسان
تشكيل الفراغات الأنفية والفموية والبلعومية
ذبذبة الحنجرة وعدم ذبذبتها

شكل (٣)

ضغط الهواء وقياسه[٦] :

يعتبر ضغط الهواء من العناصر الهامة في إنتاج الصوت . ولا يكون الضغط ثابتا خلال العملية الصوتية كلها بل إنه يتفاوت قوة وضعفا ، كما يحدث في البالون المطاطي الذي ينتهي بزمارة يمر الهواء بها فتحدث الصوت . ولو فرض أن ضغطنا على جسم البالون ضغطات متوالية فإننا نسمع دفعات متوالية مختلفة القوة . وهذا ما يحدث عند خروج الهواء من الرئة ، حيث يقوم الحجاب الحاجز بإحداث اختلافات في مدى الضغط الواقع على الرئة . ويتفاوت الضغط بين نوع من الأصوات ونوع آخر ، فيكون قويا مع الأصوات الانحباسية والاحتكاكية المهموسة ، وقليلا مع الأصوات الانحباسية والاحتكاكية المجهورة وأقل في بقية الأصوات . كما يقسم الضغط ـ بواسطة النبضات التي أشرنا إليها ـ الحدث اللغوي إلى مقاطع يتفاوت ضغطها ويطلق على هذه الظاهرة اسم (النبر) .

وتعتمد قوة الضغط على عنصرين : كمية الهواء وكيفية انسيابه ـ أما كمية الهواء في عملية الزفير فإنها تبلغ خمسة لترات تحتفظ منها الرئتان بمقدار ١/٢ ١ لتر حتى لا تلتصق جدرانها . أما الكمية الباقية فيكون ضغطها عادة ١٦٠ جراما تستهلك منها العملية الكلامية مابين ٣ ، ١٥ جراما . ومنها تستهلك ذبذبة الأوتار الصوتية ما يعادل جرامين . أما الانسياب فإنه يزيد أو يقل حسب اتساع أو ضيق الممر الذي يسير فيه الهواء وما يحدث فيه من تدخلات . وهناك قوانين رياضية يمكن بواسطتها الوصول إلى مقدار الضغط بواسطة حجم الهواء وانسيابه كماً وشكلاً . ويمكن قياس ضغط الصوت اللغوي باستعمال جهاز يسمى راسم الانسياب pneumotachograph يوصل بحاسوب يتصل في نهايته الأخرى براسم ذبذبات oscilloscope تظهر على شاشته الخطوط البيانية الممثلة لحجم الهواء وانسيابه وضغطه . ويوجد إلى جانب هذا الجهاز مقاييس أخرى لمعرفة مقدار الضغط في الفم والأنف .

انظر شكل (٤)

وقد وجد بالتجربة أن ضغط الهواء المستعمل في النطق يختلف تبعاً للجنس والسن .

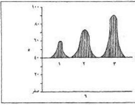
انظر شــكل (٥)

سقف الحنك :

يرتفع اللسان بمختلف أجزائه في اتجاه سقف الحنك لإنتاج أنواع من الأصوات هي اللهوية والرخوة (أي التي يتلامس منها اللسان مع الجزء الرخو من سقف الحنك) والعصلية واللثوية . وقد كان موضع اللسان يحدد من قبل بواسطة صناعة سقف حنك صناعي للمتكلم يغطى بطبقة من مسحوق الطباشير ويوضع منطبقاً على سقف الحنك ثم ينطق المتكلم بكلمة فيها صوت واحد يلمس فيه اللسان السقف ، فتنطبع صورة التقائهما بمسح الطباشير . وقد تطورت هذه الوسيلة البدائية أخيراً إلى جهاز دقيق يسمى (الراسم الكهربائي لسقف الحنك) electropalatograph وهذا الجهاز يتكون من سقف حنك صناعي مثبت فيه عدد من الرؤوس الألكترونية الموصلة بأسلاك إلى شاشة عرض بها عدد من المصابيح يتصل كل منها بأحد الرؤوس . وعندما يلمس اللسان جزءا من سقف الحنك تضيء المصابيح المتصلة بالأجزاء التي يلتقي بها . ويقوم الجهاز برسم صور متوالية لتلامس اللسان مع السقف ، وبذلك يمكن الحصول على سلسلة من الصور تمثل ما يحدث في العبارة كلها لا في صوت واحد فقط ويمكن اختزان هذه الصور في ذاكرة حاسب متصل بالجهاز واستدعاؤها لدراستها عند الحاجة ، كما يمكن طبع هذه الصور متوالية حسب حركات اللسان .

انظر الشــكل (٦)

(٦) ص ٤ إلى ٨ من البحث ملخص من مرجع ٦ ص ٣٥ ـ ٧١



شكل (٤)

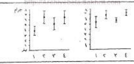
كمية الهواء اللازمة عند التنفس والمحادثة والصياح

١ ـ الكمية عند التنفس. ٣ ـ الكمية عند الصياح.

٢ ـ الكمية عند المحادثة. ٤ ـ مستوى وضع الراحة.

٥ ـ الخط البياني الممثل للكمية الكلية التي يمكن أن توجد في الرئة (الخط الرأسي).

٦ ـ الخط المبين لنوع النشاط الرئوي.

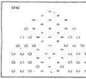


شكل (٥)

مقارنة بين نطق الرجال والنساء

الشكل (١) على اليمين يمثل نطق النساء والشكل (٢) على اليسار يمثل نطق الرجال والخط الرأسي في الشكلين (١) و (٢) لقياس ضغط الهواء داخل الفم بالجرام. والخط الأفقي فيهما لبيان نوع الصوت كما يلي:

١ ـ انفجاري مجهور.
٢ ـ انفجاري مهموس.
٣ ـ احتكاكي مجهور.
٤ ـ احتكاكي مهموس.



في المصرية ـ بيع (فعل أمر)



في المصرية ـ بيع (مصدر)

شكل (٦)

مقارنة بين وضع اللسان عند النطق بالحركة (ى ى) والحركة (ى ى ي) وذلك في الكلمتين المصريتين بيع (فعل أمر) وبيع (مصدر).

لاحظ الفرق بين عدد النقاط وموضعها في الرسم

ويستفاد من هذا الجهاز في علاج عيوب الكلام ، وخاصة عيوب تكوين سقف الفم .

مشاهدة العمليات العضلية لأعضاء النطق :

لا يكتفي علماء الأصوات المعاصرون بوصف النشاط الظاهري للعضو ، بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى وصف حركات العضلات التي تكونه أو التي تتحكم في حركته . وهم يستفيدون في ذلك بعدد من الأجهزة أهمها :

أولا : المجهر الخيطي :

وهو جهاز مصنوع من خيوط زجاجية شفافة ومرنة ، من حزمتين إحداهما تنقل الضوء إلى جزء معين من فراغات النطق الداخلية من مصدر خارجي (كالبطارية) والأخرى تنقل الصورة الممثلة لحركة الأعضاء داخل الفراغات إلى الخارج . وسمك الأولى ٠,٦/٩ ملليمتر والثانية ٠/١ ملليمتر ، أي أن سمك الجزأين معاً يعادل ثلاثة أجزاء من ألف جزء من السنتيمتر . وتنتهي حزمة الضوء بمصباح وحزمة الصور بعدسة تنقل الصورة إلى مرآة خارجية . وتزج الحزمتان من خلال الفراغ الأنفي حتى تصلا إلى مقربة من اللهاة مثلا ، أو إلى مسافة أكبر حتى تصل إلى البلعوم أو إلى منطقة الحنجرة . ومن هذه الأوضاع الثلاثة يمكن مشاهدة حركات اللهاة عند إنتاج الأصوات الأنفية والفموية ونشاط البلعوم عند النطق بالحاء والعين والهاء ونشاط الحنجرة عند النطق بالهمزة أو عند إحداث صفة الجهر . ومن الممكن توصيل الجهاز بآلة تصوير سينمائية وجهاز تسجيل صوت حتى يمكن تسجيل أداء العضو أو الأعضاء صوتياً وحركياً للرجوع له عند الحاجة .

ثانيا ـ جهاز التصوير بأشعة اكس :

ويستعمل هذا الجهاز لتصوير حركات الأعضاء الداخلية من خارج الجسم . والجهاز من ثلاثة أجزاء : مولد أشعة اكس ، ومستقبل للأشعة ، وحاسوب يجمع بين المعلومات الصادرة من المستقبل وأية أجهزة أخرى كأجهزة قياس الضغط مثلا . واستعدادا لعملية التصوير تقوم بالعمليات الآتية :

أ ـ يثبت عدد من الرؤوس المشعة محيط كل منها ٣ ميلليميتر تقريباً ، اثنان على كل من اللسان والفك الأسفل والشفتين ، وهذه هي الأجزاء المتحركة في الفم وواحدة بين الشفتين الأماميتين في الفك الأعلى أو على عظمة الفم وهما جزءان ثابتان .

ب ـ تصور منطقة الفم والأسنان والشفتين قبل النطق وستظهر الرؤوس المشعة كلها بما فيها التي فوق الأجزاء الثابتة والتي فوق الأجزاء المتحركة .

ج ـ تصور حركات الأعضاء خلال الكلام بسرعة قدرها ١٤٠ إطارا في الثانية لفترة ست ثوان فتتحرك الرؤوس المشعة المثبتة على الأعضاء المتحركة .

د ـ تنقل الصور المتوالية إلى شاشة راسم الذبذبات كما تنقل الصور الثابتة (ب) لمقارنة مقدار حركة الأعضاء كما يمكن طبع فيلم إيجابي من الفيلم السلبي للرجوع إليه عند الحاجة . ويستفاد من هذا الجهاز فيما يلي :

أ ـ بيان حركات اللسان بالنسبة لسقف الفم في نطق الحركات البسيطة والمركبة .

ب ـ بيان المواقع الدقيقة لالتقاء اللسان بمختلف مناطق سقف الحنك عند إنتاج السواكن اللهوية كالكاف والخاء والعين والصلبة كالياء والجيم والشين، واللثوية كالنون واللام، والأسنانية والشفوية كالباء والفاء والواو .

ج ـ بيان تأثر الحركات والسواكن المتجاورة بعضها ببعض من حيث تعديل مخارجها نتيجة للتجاور .

ثالثا ـ الراسم الكهروعضلي electromyograph :

يتكون هذا الجهاز من عدد من الرؤوس الألكترونية تلصق على عضلات العضو المتحرك ، وتتصل هذه الرؤوس بواسطة أسلاك دقيقة بجهاز تضخيم amplifier وظيفته تقوية التيار الكهربائي الصادر عن الخليات العصبية . ويوصل جهاز التضخيم بسن stylus يتذبذب بتأثير الذبذبات ويرسمها على ورقة حساسة للاحتفاظ بسجل لشكل الذبذبات وقوتها . ويمكن الاكتفاء بمشاهدة الذبذبات دون تسجيل بنقل صورة الذبذبات إلى راسم الذبذبات لرؤيتها على شاشته .

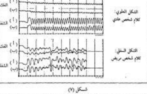
ولما كانت النتائج التي تحصل عليها بواسطة هذا الجهاز تبين عمل العضلات المكونة للعضو لا حركة العضو كله ، فإنه لابد أن تربط حركة العضلة (لا العضو) بالإيماءات cues الكلامية عند حركة العضلة نفسها . وهذا العمل يتطلب ملاحظة إشارات الكترونية لا حصر لها ، ولهذا يحتم استعمال حاسوب للقيام بهذا العمل واختزان النتائج التي تصل إليها . ومن الممكن الاستفادة من هذا الجهاز في بيان الفروق الدقيقة في عملية نطق العبارات المتشابهة .

رصد عيوب الكلام :

لعل الفائدة العظمى من هذه الأجهزة وخاصة الأخير منها هي استعمالها في الكشف عن أسباب عيوب الكلام ، وهل هي راجعة إلى عدم قيام العضو بعمله كما ينبغي أو لمرض في إحدى عضلاته أو إلى اختلال في إنتاج الطاقة الكهربائية من وحدات التحريك في المخ . وفيما يلي صورة تبين الفرق بين كلام شخص عادي وبين كلام شخص مريض بمرض الأتاكسيا ، وهو مرض يصيب بعض مناطق المخ وينتج عنه عجز المريض عن تحريك العضلات المناسبة لتحريك الشفتين واللسان إلى مواضعها اللازمة للنطق بالأصوات . ولهذا فإن هذا المريض ينطق الباء ميماً فيقول (ناب) عندما يريد أن يقول (نام) ، كما يسبب هذا المرض العجز عند استعمال الأصابع في كتابة هذه الحروف بدقة .

انظر الشكل (٧)

كل ما سبق وسائل مساعدة للوصول إلى وصف مخرجي وأدائي دقيق للأصوات وعدم الاكتفاء بما كان يحدث من قبل من وصفها بالمشاهدة أو الإحساس بمكان التدخل وكيفيته إلى جانب صفة الجهر أو الهمس .



شـكل (٧)

يظهر الشكل اضطراب حركات عضلات الفك والشفتين عند كلام الشخص المريض (الشكل السفلي) بمقارنتها بكلام الشخص السليم

التحليل الصوتيمي للكلام Phonemic Analysis :

قد يظن أن الوصف الدقيق للعمليات العضوية عند الكلام أمر كاف في دراسة الصوت اللغوي . ولكن هذا غير صحيح . والسبب في هذا أن أحكام المخ لا تتطابق تماماً مع نتائج هذه العمليات العضوية . وقد يعتبر المخ صوتين مختلفين من ناحية الأداء والخصائص السمعية أمراً واحداً كما قد يعتبر أمراً واحداً من هاتين الناحيتين أمرين مختلفين وذلك بسبب وقوعهما في محيطين لغويين مختلفين . وما نقوله هنا طريقة أخرى للتعبير عما يسمى في علم طرق البحث بالتجريد وهو تجاهل لبعض الصفات الواقعة للشيء حتى يمكن وضعه مع سواه تحت نفس النوع . ونحن ندرك أن لفظ رجل ، يعني نوعاً من المخلوقات . . يشمل أفراداً يختلفون في الواقع الخارجي ، منهم القصير والطويل والأبيض والأسود والصحيح والسقيم . وحتى يمكن جمع هذه الأنواع المختلفة مادياً في مفهوم واحد يختار المخ بعض الصفات المميزة المشتركة بينهم وسيلة للتصنيف ويتجاهل الصفات الفردية الأخرى . وتعتبر عملية التجريد ضرورة للتفاهم الإنساني ، حيث لا يمكن أن يخصص (اسم) لكل فرد من أفراد الرجال لاختلافه من ناحية أو أخرى عن الآخرين . والذي يحدث في هذا المثال يحدث بالنسبة للأصوات اللغوية . وهذا تحتم أن نقوم بتحليل سلوك الأصوات إلى جانب تحليل صفاتها المادية . وتحليل سلوكها هو ما يسمى بعلم الصوتيميات أو النظم السلوكية الصوتية .

لنأخذ مثلاً الوحدة التي نسميها النون ، وسنجد من أفرادها الصوت الأخير في (إن) في العبارة (إن أنت) أو في العبارة (إن بات) أو في العبارة (إن وعد) أو في العبارة (إن يكن) وفي العبارة الأولى تكون النون صوتاً لثوياً أنفياً . أما في الثانية فإنها صوت أنفي شفوي ثنائي (كالميم) وفي الثالثة صوت أنفي شفوي مستدير (واو أنفية) وفي الرابعة

صوت أنفي صلب (ياء أنفية) وهكذا . ورغم هذا الاختلاف المادي بين كل حالة وأخرى فإننا نضع هذه الأصوات كلها تحت وحدة نوعية نسميها النون . وهذه الوحدة تسمى الصوتيم Phoneme .

ويشمل التحليل الصوتيمي أو الوظيفي الصوتي ، حصر المجموعات الصوتية الممكنة وغير الممكنة . ففي العربية يمكن أن تلي الهاء العين في مثل « أعهد » ولكن لا يمكن أن تلي العين الهاء أو الحاء دون توسط حركة . كما يشمل الآثار الصوتية الناتجة عن الانفعال كالرضا أو الغضب . والتحليل الصوتيمي كما ترى لا يعتمد على الأجهزة بل هو تحليل يعتمد على اختبارات سلوكية غير مادية . ويرى البعض أن ما يكشف عنه التحليل الصوتيمي هو الصورة الداخلية للموهبة اللغوية Competence التي توجد لدى أبناء لغة ما ، والتي هي الأساس الذي يعتمد عليه إنتاج الكلام وإدراكه .

ثانيا ـ الانتقال

كان علماء الفيزياء .. يحللون الصوت الإنساني وغير الإنساني بتطبيق نظرية فوريير ، وهو عالم عاش في القرن التاسع عشر . وكان ذلك يقتضي إجراء قياسات وحسابات تستغرق بعض الوقت .

وأثناء الحرب العالمية الثانية احتاج الحلفاء إلى طريقة سريعة لتحليل الأصوات التي يحملها الجو والبحر للتعرف على مواقع أسلحة العدو . وقد تم ذلك بفضل جهود الفيزيائيين في سلاح البحرية الأمريكي ، الذين اخترعوا جهازا أطلقوا عليه اسم جهاز التحليل الطيفي Spectrograph . وقد تطور هذا الجهاز خلال نصف القرن الحالي وأصبح أهم وسيلة للبحث العلمي في مجال الدراسات الصوتية الطبيعية والإنسانية . وكان على رأس المهتمين بهذه الدراسات شركات التليفونات ، وخاصة شركة بيل الأمريكية ، وذلك لتحسين الاتصالات الهاتفية . وتعتبر أبحاثها من أول الأبحاث الرائدة في هذا المجال . وقد وجد الفيزيائيون أن دراسة الصوت الإنساني تختلف عن دراسة الصوت الطبيعي من ناحيتين ، أولاهما أن الأصوات الانسانية تخضع في إنتاجها وإدراكها للعادات الفعلية للمتكلم والسامع ، وبالتالي فإن الإنجليزي مثلا يسمع العين العربية فيظنها من الحركات ، وقد يخلط بين الهمزة والعين والحاء والهاء ، والطاء والتاء . وأما الناحية الثانية فهي أن الأذن الإنسانية لا تسمع الأصوات بالطريقة التي تستقبلها بها الأجهزة ، بل إنها قد تنتهي إلى الحكم بأن صوتين مختلفين فيزيائياً صوت لغوي واحد ، وأنها قد تحكم على وجود فرق بين صوتين ، دون أن يؤ بد وجود هذا الفرق الواقع المادي الذي تبينه الأجهزة . ولهذا فقد كان على الفيزيائيين دراسة علم الأصوات اللغوية واتخاذه من وسائل البحث في دراسة الصوت اللغوي ، وقد أضافوا بذلك إلى دراسة الأصوات اللغوية خبرة جديدة لم يكن علماء اللغة قد استفادوا منها . وكان أهم هذه الإضافات الاهتمام بدراسة مرحلة انتقال الصوت بعد إنتاجه وقبل أن يصل إلى أذن السامع .

الموجات الصوتية :

ينتج الصوت الإنساني وغير الإنساني نتيجة اهتزاز ذرات جسم ما بتأثير قوة ما . وتنقل هذه الاهتزازات أو الذبذبات من ذرات الجسم المهتز إلى ذرات الهواء أو ذرات سلك التليفون أو طبقات الجو الأثيرية فتهتز بدورها .

وتشبه حركة الذرات حركة كرة البلياردو تتدحرج بتأثير ضربة اللاعب حتى تصل إلى نهاية الطاولة فتصدم حافتها فترتد في الاتجاه الآخر . ولو فرض أنها قد صدمت في طريقها كرة أخرى . فإنها تحركها في نفس الاتجاه حتى تصدم الثانية كرة أخرى فتغير اتجاهها وهكذا . وتعتبر الدحرجة الواحدة نظيرا للذبذبة ، أما الدحرجات المتوالية فإنها تناظر الموجة الصوتية .

وتوصف الذبذبة بتحديد أمرين ، الزمن الذي تستغرقه ويسمى (الفترة period) والبعد بين نقطة بدء الحركة ونقطة ارتدادها ويسمى اتساع الذبذبة amplitude وتوصف الموجة بعدد الذبذبات التي تكونها في الثانية ويسمى بدرجة الموجة frequency وبمتوسط اتساع ذبذباتها وهو يسمى اتساع الموجة .

التوزيع المنتظم والتوزيع العشوائي[٢] :

لو سلطنا قوة ما على تحريك عدد من الكرات الصغيرة الملساء على سطح أملس ، وكانت الكرات بنفس الشكل والوزن ، فإنها تتحرك في نفس الاتجاه وبنفس السرعة ، أي أنها تنتج دحرجات متماثلة . ولو سلطنا القوة على تحريك كرات مختلفة الشكل بعضها كامل الاستدارة وبعضها منحرف ، أو مختلفة الوزن لاختلاف مادتها مع تساوي أحجامها ، أو مختلفة الحجم مع اتحاد المادة ، فإن حركات الكرات ستختلف في السرعة والاتجاه . وستكون النتيجة في الحالة الأولى حدوث دحرجات منتظمة أما في الحالة الثانية فإن الدحرجات لن تكون منتظمة . وذلك لأن الكرة الثقيلة تستهلك قدراً من الطاقة يزيد على ما تستهلكه الكرة الخفيفة . ويوصف توزيع الطاقة بالتساوي بأنه توزيع منتظم ويوصف التوزيع غير المتساوي بأنه عشوائي . وما يحدث في هذا المثال يحدث عند إنتاج الصوت ، فعندما توزع الطاقة بين الموجات المنتجة للصوت توزيعا متساويا ، يكون الصوت على شكل نغمة . أما إذا كان التوزيع عشوائيا فإن الصوت الناتج يكون ضجيجا أبيض white noise . ومثاله الصوت الناتج عن فرك اليدين أو حفيف الأشجار .

النغمات التوافقية وغير التوافقية :

من خبراتنا السماعية ما نلاحظه أحياناً عندما نسمع مجموعة من دق الطبول . ويكون بين الدقات دقات صادرة عن طبل كبير تتوالى على أبعاد زمنية متساوية وطويلة نسبياً ، ودقات صادرة عن طبل أصغر تتوالى على أزمان متساوية ولكن كل دقتين منه تحدثان في نفس الوقت الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر ، ودقات صادرة عن طبل ثالث بمعدل أربع دقات في الزمن الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر . يطلق على الطبل الأكبر في اللهجة المصرية (ماسك الوحدة) ووظيفته تقسيم زمن العزف إلى وحدات متساوية تحدث مرة كل ١/٢ ثانية مثلا . وفي خلال الوحدة يدق الطبل الثاني دقتين والطبل الثالث أربع دقات . وتكون النتيجة وجود تداخل زمني من دقات الطبول الثلاثة بحيث تحدث الدقة الثانية من الطبل الأول والدقة الثالثة من الطبل الثاني والدقة الخامسة من الطبل الثالث في نفس اللحظة .

(٢) ص ١١ إلى ١٤ من البحث ملخص من مرجع ١ ص ٢١٥ إلى ٢٣٦

يحدث مثل هذا في حركات الذبذبات المكونة للموجة الصوتية ، وتسمى الموجة في هذه الحالة موجة مركبة ، على نقيض الموجة البسيطة التي تحتل دقة طبل واحدة وتوصف هذه الموجة أيضاً بأنها توافقية لأنها تحدث من عدد من الموجات التي تتداخل ذبذباتها زمنياً كما رأيت .

ولو حدث أن اختلفت دقات الطبول فلم تنسجم زمنياً فإنها توصف بالنشاز أو عدم التوافق . والموجات الصوتية المركبة قد توصف كذلك بالنشاز إذا لم تنسجم أو لم تتوافق ذبذباتها .

والأصوات الإنسانية تنتج عن موجات متوافقة وعن موجات غير متوافقة من النوع الذي أطلقنا عليه من قبل اسم الضجة البيضاء . وعملية التحليل الفيزيائي للصوت تقوم بوصف الموجات التوافقية وغير التوافقية التي تحدث الشعور الوجداني المسمى بالسماع . ويستعان على هذا الوصف بتطبيق بعض الخصائص الطبيعية المشاهدة . ومن هذه :

الرنين resonance :

الرنين ظاهرة نصادفها كثيرا في حياتنا اليومية ، كما لو أنتجنا صوتاً ما وقربنا مصدر الصوت من فراغ مقفول فإننا نلاحظ اختلافاً في شعورنا بالصوت ، كما يحدث عندما نغني في وسط طلق أو في فراغ صغير مقفول . وقد كشفت التجربة عن أن شكل الفراغ وحجمه بالإضافة إلى المادة التي يتكون منها تؤثر في نوع الصوت ، ولهذا تبنى صالات العزف الموسيقي على شكل معين وتغطى بطبقات من مواد معينة تسمى بالمواد العازلة أي التي تمنع رنين الصوت غير المنتظم .

وقد كشفت التجارب عن أن لكل جسم طاقة رنينية معينة ، وأن الجسم الرنان يمكن أن يكتسب الصوت من جسم آخر يماثله في طاقته الرنينية كما في التجربة الآتية :

١ ـ تطرق شوكة رنانة ترددها ١٠٠ ذبذبة في الثانية وستسمع صوتا ناتجا عن هذه الذبذبات .

٢ ـ نقرب شوكة رنانة أخرى طاقتها الرنينية ١٠٠ ذبذبة في الثانية كذلك نقربها من الشوكة الأخرى التي تصدر النغمة ، وستجد أن الشوكة الثانية تبدأ في الذبذبة وإصدار الصوت دون أن تطرق .

معنى هذا أن الشوكة التي لم تطرق اكتسبت الرنين من الشوكة المطروقة لأنها تماثلها في الطاقة الرنينية .

الترشيح Filtering :

لو فرض أن طرقنا شوكة تصدر نغمة توافقية مكونة من موجات تردد إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ ذ/ث وقربنا منها شوكة تصدر نغمة بسيطة ترددها ١٠٠ ذ/ث ، فإننا سنلاحظ أن الشوكة الثانية ستردد ولو فرض أن أوقفنا الشوكة الأولى باللمس أو أبعدناها من الغرفة ، فإننا سنلاحظ أن الشوكة الثانية ستستمر في الاهتزاز محدثة نغمة ترددها ١٠٠ ذ/ث وهي نغمة اكتسبتها من الموجة المركبة التي أصدرتها الشوكة الأولى .

يقال في هذه الحالة بأننا قد رشحنا من الموجة المركبة إحدى موجاتها التوافقية وهي التي تصدرها الشوكة الثانية .

ولو فرض أننا أتينا بثلاث شوك رنانة درجات ترددها ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ ذ/ث وعرضناها للتردد الناتج عن الشوكة الأولى فإن كلا من هذه الشوكات ستحدث موجة مناسبة لدرجتها أي أننا سنحصل على ثلاث موجات إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ ذ/ث . أي أننا قد وصلنا إلى تحليل الموجة المركبة الصادرة عن الشوكة الأولى إلى النغمات التوافقية التي تكونها . وهذا النوع من الترشيح يسمى بالترشيح المركب على العكس من النوع الأول الذي يسمى بالترشيح البسيط .

التقوية والاستهلاك :

لو فرض أن أصدرنا نغمة من آلة موسيقية ولتكن كمانا مثلا فإن هذه النغمة ستكون ذات قوة خاصة . ولو فرض أن عزفنا آلتين أو ثلاث آلات لإصدار نفس النغمة في نفس الوقت فإننا لن نسمع ثلاث نغمات منفصلة بل سنسمع نغمة واحدة قوتها ضعف أو ثلاثة أمثال النغمة الأولى . ويقال في هذه الحالة بأننا قمنا بتقوية النغمة الأولى .

وكما يمكن تقوية النغمات يمكن استهلاكها كما يتضح من التجربة الآتية :

١ ـ أصدر صفيرا من بين شفتيك بالنفخ .

٢ ـ قرب وعاء كبيرا نسبيا من شفتيك .

٣ ـ ستلاحظ عند وصول الوعاء إلى بعد معين من شفتيك أن الصفير ينعدم .

السبب في هذا أن الوعاء قد كون غرفة رنين لا تتناسب مع الصفير في الدرجة . ويقال في هذه الحالة بأن الموجة الصوتية أو الصفير قد استهلك .

الصوت الانساني :

هذه الظواهر الطبيعية تلعب دورها في إنتاج الصوت الإنساني ، فعندما يمر الهواء المندفع من الرئتين خلال الأوتار الصوتية يحدث ترددات أو ذبذبات عديدة ، ومختلفة في الفترة والاتساع ، وبالتالي تحدث مجموعة لا تحصى من الموجات الصوتية ، تندفع إلى الفراغات العليا فيما فوق الحنجرة . وخلال مرورها بكل فراغ تنعدم الموجات التي لا تتوافق مع تردد الغرفة ، وتتقوى بواسطة الرنين تلك التي يتوافق بعضها وبعض مكونة نغمات حنجرية تعرف بالجهر . وللنغمات المركبة الحنجرية خصائص معينة تتعلق بتوزيع الطاقة بين مكوناتها ودرجاتها واتساعاتها ، كما ترى في الجدول التالي الذي يبين هذه الأمور بالنسبة لنغمة غنائية .

الموجة التوافقية	درجتها	اتساعها	طاقتها
الموجة الأولى (الأساس)	١٠٠	١,١٠٠	١,٠٠٠
الموجة ٥	٥٠٠	,٩٧٣	,٩٩٧
١٠	١٠٠٠	,٩٣٥	,٨٧٦
١٥	١٥٠٠	,٨٥٨	,٧٣٧
٢٠	٢٠٠٠	,٧٥٧	,٥٧٣
٢٢	٢٢٠٠	,٧١١	,٥٠٦
٢٥	٢٥٠٠	,٦٣٦	,٤٠٥
٣٠	٣٠٠٠	,٥٠٥	,٢٥٥
٣٥	٣٥٠٠	,٣٦٨	,١٣٥
٤٠	٤٠٠٠	,٢٣٤	,٠٥٥
٤٥	٤٥٠٠	,١٠٣	,٠١٢
٥٠	٥٠٠٠	—	—
٥٥	٥٥٠٠	,٠٨٩ الخ(٨)	,٠٠٨

ونلاحظ أن الموجة الخمسين قد استهلكت ، أي أنها كانت موجودة بعد فراغ الحنجرة مباشرة ولكنها انعدمت عند مرورها بأحد الفراغات الذي لا تتوافق معه في التردد .

ويستمر توزيع الطاقة بعد الموجة المنعدمة ويزيد بالتدريج ثم يقل ثانية حتى ينعدم مع موجة أخرى ثم يبدأ في الزيادة التدريجية ثم النقص التدريجي حتى تنعدم وهكذا .

وإلى جانب هذه الصفة الإنتاجية الخاصة بالصوت الحنجري الإنساني فإن هناك صفة سماعية أخرى لهذا الصوت ، تتعلق بإحساس الأذن به . ولو فرض أننا أنتجنا نغمة بواسطة ضغط مقداره ١٠ وحدات ثم ضاعفنا هذا الضغط إلى مرتين ثم ثلاث مرات ثم أربع مرات وهكذا ، فإن جهاز الاستقبال الآلي ، سيسجل أصواتاً قواها متضاعفة بنسبة تضاعف الضغط أما الأذن الإنسانية فإنها لا تشعر باختلاف قوة الأصوات بنسبة مضاعفات الضغط بل بنسبة لوغاريتمية كما ترى فيما يلي :

(٨) ص ٢ ص ١٦٩

١ ـ التسجيل الآلي :

مقدار الضغط	قوة الصوت
١٠ وحدات	١٠ وحدات
٢٠ وحدة	٢٠ وحدة (١٠ + ١٠)
٣٠ وحدة	٣٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠)
٤٠ وحدة	٤٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠ + ١٠)
	الخ

٢ ـ الإحساس السمعي :

مقدار الضغط	قوة الإحساس بالصوت
١٠ وحدات	١٠ وحدات
٢٠ وحدة	١٠٠ وحدة (١٠ × ١٠)
٣٠ وحدة	١٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠)
٤٠ وحدة	١٠٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠)
	الخ

وهذا الحتم على علماء الفيزياء ابتكار مقياس للإحساس السمعي بالصوت يختلف عن المقياس الآلي لقوة الصوت سموه بالديسبيل Decibel .

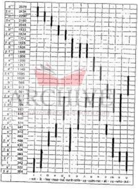
باجيت والتحليل الطيفي للحركات :

تتكون الحركة من عنصرين ، الجهر وهو ناتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية ، واندفاع الهواء في الممرات العليا من أعضاء النطق وما يحدثه ذلك من رنين في هذه الممرات . ومن الطبيعي أن يكون هدف التحليل الفيزيائي للحركات شاملا لهذين العنصرين . ولعل من أول محاولات هذا التحليل دراسة قام بها العالم الانجليزي ر. س. باجيت R.S. Paget[٩] الذي كان يتمتع بجانب معارفه الصوتية بقدرة على الغناء ودقة السمع .

وقد فصل باجيت بين عنصر الجهر وعنصر الرنين الناتج في فراغات الممر العلوي أي ما فوق الحنجرة إلى الشفتين ، عند نطق الحركات في الإنجليزية البريطانية دون جهر . وقد لاحظ أن كل حركة تتكون من جزمتين من الموجات المتوافقة إحداهما مرتفعة الدرجة تتراوح ذبذبات الموجات التي تكونها بين ٦٠٨ ، ٢٥٩٠ ذ/ث ، والثانية منخفضة الدرجة وتتراوح ذبذبات الموجات المكونة لها بين ٣٠٤ ، ٩١٢ ذ/ث . وكانت الحزمة المرتفعة الدرجة أكثر وضوحا في السمع من الثانية ، كما كانت الحزمة المنخفضة أشبه بمحاولة الصفير بالفم مع الفشل في إنتاجه . ولاحظ كذلك أن الحزمة العليا لا تتأثر بمدى فتح الفم بل بحركة اللسان إلى أعلى أو إلى أسفل ، إلى الأمام أو إلى الخلف . ومن

(٩) تلخيص للمرجع رقم ٧ ، وانظر أيضا مرجع ٥ ص ١٣١

هذا استنتج أن الحزمة العليا تتأثر بغرف الرنين الأمامية ، أي الغرف الفموية التي تشكلها حركات اللسان ، ولذا أسماها بالحزمة الأمامية . أما الحزمة السفلى ، فقد انتهى إلى أنها ناتجة عن رنين الغرفة الممتدة من منطقة ما فوق الحنجرة حتى الشفتين ، ولذا فإنها تتأثر بفتح الفم ضيقاً واتساعاً وقد سمى هذه بالحزمة الخلفية وقد سجل نتائج بحثه في الجدول التالي .



شكل (٨)

الشكل يمثل
١ ـ الأحزمة الترددية للحزمة التكوينية الأولى في ١٤ حركة إنجليزية ـ المجموعة السفلى .
٢ ـ الأحزمة الترددية للحزمة التكوينية الثانية في نفس الحركات في ١ ـ المجموعة العليا .

ونعيد هنا أن باجيت يتحدث عن حزمتين من الموجات تتكون كل منهما من مجموعة من الموجات المتوافقة ، كما يلاحظ وجود فراغ يفصل بين الحزمة الدنيا والحزمة العليا . وهذا الفراغ يزيد أو يقل حسب نوع الحركة . وسيمر بك صورة لتحليل طيفي استعمل فيه الراسم الطيفي يوضح هذه النقطة الأخيرة (انظر الشكل رقم ١٠ ص ٤٦) .

بعد هذا نطق باجيت بنفس الحركات مجهورة ، وبذا أضاف عنصر النغمة الحنجرية إلى أثر غرفتي الرنين الأمامية والخلفية . وقد وجد أن إضافة النغمة الحنجرية تؤثر على درجة حزم بعض الحركات دون الأخرى . مثال ذلك الحركة /ɔ/ التي ظلت درجة حزمتها العليا ١٥٤٢ ذ/ث وحزمتها السفلى ٤٠٦ ذ/ث عند الجهر كما كانت عند الهمس . وذلك على العكس من الحركة /a/ في calm التي تغيرت درجة كل من حزمتيها عند الجهر عما كانت عليه عند الهمس . بعد هذا صنع باجيت غرفة من طين الصلصال مفتوحة الطرفين رنينها ١٠٢٤ ذ/ث ووضع هذه الغرفة ملاصقة لشفتيه ونطق بنفس الحركات فوجد أن وجودها يؤثر على نوع الحركات بالنحو التالي :

١ ـ الحركة الطويلة في الكلمة calm (مثل صار في العربية) سمعت كما لو كانت الحركة الطويلة في الكلمة awe (مثل طور في المصرية) .

٢ ـ الحركة في hat (مثل باتَ) سمعت كما لو كانت حركة calm (صار) .

٣ ـ الحركة في up سمعت كما لو كانت الحركة في got

الخ

معنى هذا أن من الحركات ما يتأثر بوجود غرفة الرنين الثالثة أي أنها تتكون من ثلاث حزم ومنها مالا يتأثر أي أنها تتكون من حزمتين .

جهاز الراسم الطيفي Spectrograph[١٠] :

يتكون هذا الجهاز من :

١ ـ وحدة تسجيل الصوت ، وهي أسطوانة معدنية محيطها ممغنط يسجل عليها نص وفي مركزها يثبت عمود يديره بقوة موتور عند التسجيل أو السماع .

٢ ـ ميكروفون للتسجيل وآلة لمحو النص إذا أريد ذلك .

٣ ـ وحدة تحليل الصوت وهي مجموعة من المرشحات تمر بها الموجات المكونة للرسالة .

٤ ـ أسطوانة أخرى تلف عليها ورقة حساسة وهي مثبتة في نفس العمود الذي تثبت فيها أسطوانة التسجيل بحيث تدوران معاً .

---

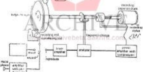
(١٠) الرسم عن :

W. Koenig "The Sound Spectrograph."
Acc. oc. of America Vol 18 (1946) PP 19-22

٥ ـ حامل إبره تسجيل Stylus يتحرك بواسطة حلزون محفور في العمود وهذه الإبرة متصلة بتيار كهربائي يحدث شرارة عند ملامستها ورقة التسجيل أثناء دورانها فترسم عليها خطوطاً متوالية .

بعد تسجيل النص يدور الموتور فيحرك الأسطوانتين وحلزون الإبرة ويمر الصوت بالمرشحات فيعزل أحدها الموجة السفلى وينقلها إلى الإبرة فتتذبذب بنفس شكل ذبذبات الموجة .

وبسبب الشرارات الناتجة من التيار تحدث الإبرة خطاً على ورقة التسجيل يمثل الموجة المرشحة . وتدور الأسطوانة مرة ثانية وثالثة ورابعة ويتم ترشيح الموجات واحدة واحدة وترتسم على الورقة الحساسة . وبعد وصول الإبرة إلى نهاية الحلزون يتوقف الجهاز ونحصل على رسم طيفي للنص .



شكل (٩)
رسم الطيفي لجهاز الراسم الطيفي

أود قبل أن استمر في الحديث أن أوضح مفهوم عدد من المصطلحات قد وردت أو سترد خلال الحديث عن الرسوم الطيفية .

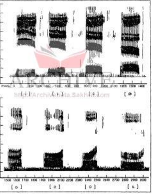
١ ـ موجة الأساس ، وهي موجة بسيطة من مكونات موجة مركبة وهي أقل المكونات درجة ، وإن كانت أكثرها استهلاكاً للطاقة (انظر الجدول ص ٤١) . وتكون درجة كل من المكونات الأخرى من مضاعفات درجتها . وفي الجدول المشار إليه رأيت أن درجة موجة الأساس ١٠٠ ذ/ث ودرجات المكونات من مضاعفات هذا العدد (٥٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ الخ) .

٢ ـ الحزمة التكوينية Formant ، وقد يطلق عليها اختصارا لفظ الحزمة ، وهي مجموعة من الموجات التوافقية ، ذات درجات متقاربة في عدد الذبذبات ، وتظهر في الرسم الطيفي كما لو كانت خطاً عريضاً (انظر الشكل ١٠) . وينفصل كل حزمة عن التي تليها فراغ يظهر في صورة بياض في الرسم الطيفي . وتوجد الحزم التكوينية واضحة في

الرسوم الطيفية للحركات ، والسواكن الانطلاقية المجهورة كاللام والنون ، أما السواكن الانحباسية المجهورة فلا يظهر منها إلا موجة الأساس وبعض الموجات القليلة المجاورة لها .

٣ - حزام التردد ، ويقصد به المنطقة ، بين أدنى درجة وأعلى درجة للحزمة التكوينية أو للترددات العشوائية التي تنتج السواكن الاحتكاكية .

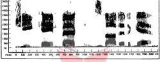
٤ - الحزام الضيق والحزام الواسع ، وهما نوعان من الرسوم الطيفية ينتجها جهاز الراسم الطيفي .
وإليك أمثلة لبعض الرسوم الطيفية .



شكل (١٠)

رسم طيفي لكل من الكلمات الإنجليزية (heed, hid, head, had, hod, hawed, hood, who'd)
لاحظ الفرق بين الرسوم الطيفية للحركات

في الشكل ثمانية رسوم طيفية لحركات في كلمات إنجليزية بريطانية تتكون من مقطع واحد يبدأ بالصوت /h/ وينتهي بالصوت /d/ وهي whod hood, hawed , hod, head, had, hid, head . وهي في الرسم من اليسار لليمين والرسوم الممثلة للكلمات الأربع الأولى في أعلى الشكل والممثلة للأربع التالية في أسفله . ويلاحظ أن بعد الحزم بعضها عن بعض (الناتج عن اختلاف درجاتها) يختلف من حركة إلى أخرى وسترى ذلك بمقارنة الرسوم الطيفية في الشكل السابق .



شكل (١١)

رسم طيفي للعبارة الانجليزية (She came back and started again)

يظهر في الشكل الحزام الطيفي للشاكن في she (ش) على اليسار بين درجة ٢٥٠٠ ، ٥٣٠٠ ذ/ث والحزام الطيفي للسين /s/ في started وهو بين ٣٥٠٠ ، ٥٥٠٠ ذ/ث[١١] .

انظر الشكل (١٢)

يمثل تحليلا طيفيا للجملة الانجليزية is Pat sad or mad ورسم مرة بالحزام الواسع[١٢] وهو يظهر الحزم بوضوح ومرة أخرى بالحزام الضيق وهو يظهر مكونات الحزم .

دلالات الحزم التكوينية :

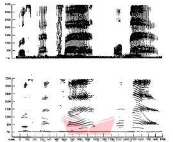
تساعدنا الحزم التكوينية في عدد من الأمور :

١ ـ التمييز بين الحركات بعضها وبعض ، وذلك بملاحظة عدد الحزم وبعد بعضها عن بعض ودرجة الحزام الترددي لكل منها . انظر شكل ١١ ص ٤٧ وبمقارنة الرسم الطيفي للحركة /i/ وهو الأول من اليسار في الجزء العلوي بالرسم الطيفي للحركة /u/ وهو الأخير إلى اليمين في الجزء السفلي ، نلاحظ الفرق في البعد بين الحزمتين في الحركتين ، كما نلاحظ أن درجة الحزام في /i/ بين ١٧٠٠ ، ٢٠٠٠ ذ/ث أما في /u/ فانه بين ٤٥٠ ، ٩٠٠ ذ/ث .

---

(١١) مرجع ١ ص ٢٧٢

(١٢) المرجع السابق ص ٢٧٩



شكل (١٢)

تحليل طيفي للعبارة الانجليزية (Is Pat sad or mad?) باستعمال الحزام الواسع (الجزء العلوي) والحزام الضيق (الجزء السفلي)

٢ ـ التمييز بين المتكلمين في الجنس والسن :

ثبت من اختبار السماع الذي أجراه بيترسون وبارني وجود فرق واضح بين حزمتي التكوين في نفس الحركة عندما ينطقها رجل عنها عندما ينطقها صبي أو امرأة . وسنلخص فيما يلي الفرق الذي يلاحظ بينهم في نطق الحركة /i/ .

	موجة الأساس	الحزمة الأولى	الثانية	الثالثة
نطق الرجل	١٣٥	٣٩٠	١٩٩٠	٣٠١٠
نطق المرأة	٢٣٢	٤٣٠	٢٤٨	٣٠٧٠
نطق الصبي	٢٦٩	٥٣٠	٢٧٣٠	٣٦٠٠

٣ ـ المساعدة على التعرف على نوع الساكن المجاور للحركة ، وهو ما نعرضه هنا بالتفصيل :

مخرج الساكن وأثره في الحركة المجاورة :

يؤثر مخرج الساكن في غرفة الرنين التي تمر بها الحركة المجاورة له وذلك لأنها تنتقل من الوضع الذي كانت عليه مع الساكن إلى الوضع المطلوب للحركة ، على ثلاث مراحل .

١ ـ مرحلة الاستقرار عند النطق بالساكن .

٢ ـ مرحلة الانتقال من شكلها مع الساكن إلى شكلها مع الحركة .

٣ ـ مرحلة الاستقرار في شكلها مع الحركة .

تجربة كوبر وزملاله[١٣] :

استعمل في هذه التجربة جهاز إعادة النطق :



شـكل (١٣)

ويتكون الجهاز كما يظهر في الرسم من اليسار إلى اليمين مما يأتي :

١ ـ مصدر ضوئي .

٢ ـ عدسة ضوئية طويلة ومستديرة .

٣ ـ عجلة نغمية .

٤ ـ عدسة .

٥ ـ مرآة مثبتة بزاوية قدرها ٤٥° .

٦ ـ جامع للضوء وخلية ضوئية عاكسة photocell .

٧ ـ أسطوانتين متباعدتين تلف حولها ورقة مرسوم عليها طيف .

٨ ـ جامع ضوئي ناقل .

٩ ـ مضخم صوتي .

١٠ ـ سماعة .

---

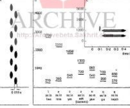
(١٣) الملخص ٩ ـ أ .

وعند عمل الجهاز تلف ورقة الرسم الطيفي على شكل حزام يصل بين الأسطوانتين (رقم ٧) . وبدوران الأسطوانتين تنعكس الصورة الطيفية بفضل الضوء الصادر من المصدر (رقم ١) وتمر بجامع الصوت والخلية الضوئية (٦) فتقوم بتحليل الصورة الطيفية إلى موجات ضوئية وترسلها إلى العجلة النغمية (٣) فتحول الموجات الضوئية إلى موجات صوتية ترسلها للمضخم (٩) والسماعة (١٠) فتصدر الصوت .

<u>الآثار الطيفية للسواكن الانفجارية :</u>

أ ـ الانفجارية المهموسة

المعروف أن الساكن الانفجاري المهموس يتكون من انحباس وانفجار دون جهر . وبالتالي فإنه لا يظهر في الرسم الطيفي إلا بعد الانفجار الذي يليه ضجة بيضاء وبعدها الحزمتان التكوينيتان لكل حركة كما ترى في الشكل :



شـكل (١٤)

يتكون الشكل من ثلاثة أجزاء C , B , A .

الجزء الأيسر A وفيه خط رأسي على اليسار مرقم عليه عدد الذبذبات في الثانية من صفر إلى ٤٣٢٠ وقد وزعت من أسفل إلى أعلى ، على أبعاد متساوية يفصل بين كل منها والتي تليها ٣٦٠ درجة . وعلى يمين هذا الخط توجد ١٢ نقطة سوداء ستة إلى اليسار وستة إلى اليمين وضعت على شكل عمودين لسهولة تمييز بعضها عن بعض . وهذه تمثل حزام انفجار الساكن .

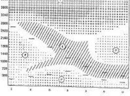
والجزء الأيمن B ويتكون من خط رأسي على اليسار لقياس عدد الذبذبات وخط أفقي سفلي كتبت تحته الحركات المعيارية السبع وكتبت تحت كل منها كلمة إنجليزية أمريكية تحتوي على الحركة . وفوق كل حركة بعد الخط الأفقي السفلي يوجد خطان فوق كل منهما رقم يبين الأسفل درجة الحزمة التكوينية الأولى والأعلى درجة الحزمة الثانية للحركة (مثلا u ٢٧٠ ، ٩٠٠ ـ O ٣٦٠ ، ٧٢٠ الخ) .

والجزء C ، عبارة عن مربع في الركن العلوي من اليمين ويتكون من خط رأسي لقياس عدد الذبذبات وخط أفقي لقياس الزمن . وداخل المربع يوجد خطان أفقيان الأسفل يمثل الحزمة الأولى والأعلى يمثل الحزمة الثانية . وعلى اليسار من الخطين توجد نقطة سوداء تمثل الانفجار . وهذا الجزء مثال لأحد الرسوم الطيفية التي رسمها يدوياً الباحثون لإجراء التجربة . رسم الباحثون باليد عدداً من الأطياف يتكون كل منها من الحزمتين الأولى والثانية لكل من الحركات المعيارية السبع . ويلاحظ أن هذه الأطياف ليست نتيجة لتحليل نطق واقعي بل مجرد رسوم مبسطة لموضع الحزمتين في كل حركة . ووضعوا كل رسم في جهاز إعادة النطق وأدير الجهاز أمام عدد من السامعين الذين طلب إليهم تدوين ما يسمعون كتابيا . وقد كانت النتيجة كما يلي :

١ ـ سمع انفجار وبعده فترة صمت ثم سمعت بعد ذلك حركة .

٢ ـ وجد أن الذي يحدد نوع الانفجار هو موضع الحزمة الثانية بالنسبة للخط العمودي أي لقياس عدد الذبذبات .

٣ ـ لخصت نتائج السماع في الشكل التالي :



شكل (١٥)

الشكل على هيئة مربع عموده الأيسر لقياس الذبذبات وهو مدرج من صفر إلى ٤٣٢٠ والخط الأسفل الأفقي كتب تحته رموز الحركات . وفي داخل المربع يوجد خطان فوق كل حركة : الأسفل للحزمة الأولى والأعلى للثانية . وفي المربع توجد ثلاث مناطق إحداها مظللة برسم دوائر صغيرة وقد كتب فيها الرمز (T) وثانيتها مظللة بخطوط مائلة وكتب في وسطها الرمز (K) وثالثتها مظللة بنقط وهي موزعة إلى اليسار واليمين وإلى أسفل منطقة (K) وكتب في كل من مناطق توزيعها الرمز (P) . وإليك بعض الأمثلة لبيان كيفية الاستفادة منه .

١ - الحركة /ا/ ، حزمتها الأولى في حدود ٣٠٠ ذ/ث فإذا كانت الثانية في المنطقة المحصورة بين ٧٢٠/ ٢٥٢٠ سمع الانفجار /p/ . وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع الانفجار /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٢ - الحركة /e/ الحزمة الأولى ٣٦٠ ذ/ث تقريباً ، وإذا كانت الثانية بين ٧٢٠ ، ٢٠٠٠ سمع الانفجار /p/ وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٣ - الحركة /u/ الحزمة الأولى ترددها ٢٤٠ ذ/ث . وإذا كانت الثانية بين ٤٠٠ ، ٥٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ١٤٤٠ ، ٢٤٠٠ سمع /P/ وإذا كانت بين ٣٢٤٠ ، ٤٣٢٠ سمع /t/ .
وهكذا

ونود أن نعيد ملاحظتين سبقت الإشارة إليها :

١ - ليست هذه الأطياف نتيجة لتحليل نطق واقعي بل مجرد رسم يدوي مبسط لصور طيفية .

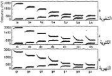
٢ - الانفجار الذي يسمع ليس نتيجة نطق واقعي بل هو ظاهرة طبيعية سمعية لدرجة الحزمة الثانية للحركات .

ب - الانفجاريه المجهورة :

في بحث آخر رسم الباحثون الأطياف السابقة مع تعديلين :

١ - التخلص من الفراغ الذي يفصل بين الانفجار والحركة .

٢ - رسم شكل الانتقال بين درجة الانفجار ودرجة الحركة التالية له . ولما كان الانتقال لايظهر إلا في الحزمة الثانية ، ولما كانت درجة جهر الانفجار أقل من درجة جهر الحركة ، فإنها تظهر في الحزمة الأولى وحدها التي لاتختلف كثيرا عن درجة الحزمة الأولى في الحركة . وهذا الفرق يظهر في انتقال صاعد في كل الحالات . أما الحزمة الثانية للحركة فانها قد تكون مستوية أو صاعدة أو هابطة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٦)

بعد ذلك وضع كل من الرسوم الطيفية المصطنعة في جهاز إعادة النطق وسمعها عدد من المساعدين وسجلوا ماسمعوه فخرجوا بالأحكام التالية .

١ ـ إذا كان انتقال الحزمة الثانية هابطا سمع الانفجار/ g /.

٢ ـ إذا كان انتقال الحزمة الثانية هابطا من درجة ١٩٠٠ إلى درجة ٣٠٠٠ ذ/ ث أو من درجة ١٨٠٠ إلى درجة ١٩٠٠ ذ/ ث أو كان مستويا (على الشكل الذى تراه في الصندوق الأوسط من شكل ١٨) ، فإن الذى يسمع هو الانفجار/ d/ .

٣ ـ إذا كان الانتقال صاعدا (على النحو الذى تراه في الصندوق العلوى) كان الانفجار المسموع/ b/ .

ج ـ الأصوات الأنفية والجانبية(١٤)

لوحظ فيا سبق أن درجة الحزمة الثانية تختلف باختلاف مخرج الساكن الذى يشبه الانفجار أى باختلاف الصفة من شفوية إلى لثوية إلى لهوية . ولما كانت السواكن الأنفيه تتميز بعضها عن بعض بالشفوية/ m/ أو اللثوية/ n/ أو اللهويه/ ŋ / (نج) فقد امتد البحث ليشمل هذه السواكن أيضا . وبالتالى أعادوا الرسوم الطيفية السابقة مع تعديلين :

١ ـ إزاله النقط السوداء الممثله للانفجار لأن السواكن الأنفية ليست انفجارية .

٢ ـ إضافه خطوط أخرى تمثل الحزم التكوينيه في هذه السواكن لأنها مجهورة ، ثم أعادوا اختبارات السماع فانتهوا إلى الحكم التالى :

---

(١٤) السابق

تظل الحزمتان الأولى والثانية في كل حركة كما كانت عليه مع الانحباسات المجهوره مع فرق في شكل الانتقال ، ومع وجود حزمتين للسواكن الأنفية تختلف باختلاف الحركة المجاورة .

د ـ السواكن الجانبية (اللام والراء) :

وجد أنها تشبه السواكن الأنفية في وجود حزمتين إضافيتين يختلف وضعهما مع السواكن الجانبية عنه مع الأنفيات ، وذلك بالنسبة لحزمتي الحركة المجاورة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٧)

في الشكل مجموعة من الرسوم الطيفية الممثلة للحركة المعيارية الرابعة (نوع من الفتحة) : أربعة تلي فيها الميم الحركة ، وهي المجموعة اليمنى وأربعة تلي فيها اللام الحركة وهي المجموعة اليسرى . ويظهر في الشكل ما يلي :

١ ـ الزوج الأعلى (a) . ويكون الرسم الطيفى للام والميم متشابهين مع فرق واحد هو أن الانتقال إلى الميم أشد انحدارا من الانتقال إلى اللام .

٢ ـ الزوج الأوسط (b) ويكون فيه الانحدار مع اللام أكثر من الانحدار إلى الميم مع زيادة عدد موجات الحزمة الأولى عن الثانيه وانخفاضها مع الميم وارتفاعها مع اللام .

٣ ـ الزوج الأوسط (c) ويكون الانحدار متماثلا في حالتي اللام والميم ولكن الحزمه الثانيه مع اللام تكون بين الحزمتين الأولى والثانية للحركه أما مع الميم فإنها تكون فوق الحزمة الثانية للحركة . أما الحزمة الأولى فتكون فيها أقل من الحالة (b) .

٤ ـ الزوج الأسفل (d) عبارة عن مجموع الصفات الموجودة في الانتقال وشكل وعلاقة الحزمة الأولى والثانية للام والميم .

هـ ـ السواكن الاحتكاكية(١٥)

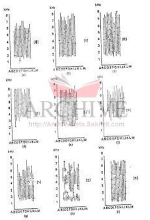
قلنا من قبل إن توزيع الطاقة بين الموجات التي تمثل الاحتكاكات توزيع عشوائي وأنه نتيجة لهذا لاتظهر حزم هذه السواكن كتلك التي تظهر مع الحركات والسواكن المجهورة ، والأمر الوحيد الذي تعرف به على السواكن الاحتكاكية في الرسوم الطيفيه هو وجود حزام ترددي غير منتظم تختلف مدى درجته باختلاف الصوت الاحتكاكي . وللوصول لهذه النتيجة أجرى البحث التالي :

اختار الباحث تسعه من الأصوات الاحتكاكيه هي الفاء الشفوية الثانيه/ ɸ / ، / f / ، الثاء/ θ / ، / s /والشين / ʃ / والكاف الشبية / C / والخاء الأمامية / X / والخاء الخلفية/ɸ/ ، / h / . وكلف ١٣٠ من طلاب مدربين على الدراسات الصوتيه بنطق هذه السواكن مع إطالتها ، ثم رسم رسما طيفيا لكل من الأصوات المنطوقه بواسطة الراسم الطيفى فظهرت مناطق التردد الخاصة بهذه الأصوات . ثم رصد الحد الأعلى والحد الأدنى لحزام التردد مع كل صوت ، وسجل نتائج ذلك بالنسبة لكل متكلم وفي الشكل رقم ١١ ص (٢٣) نرى مثالا لحزام التردد في الشين والسين ، في العبارة الإنجليزية She came back and started again . وبمراجعة الشكل المذكور نلاحظ وجود حزام ترددى على اليسار يبدأ من ٢٣٠٠ ذ/ ث وينتهى عند ٥٥٠٠م ذ/ ث . وهو يمثل الشين في she ، كما يلاحظ وجود حزام آخر تردده بين ٣٧٠٠ ، ٥٦٠٠ ذ/ ث وهو الذى يمثل السين في Started .

وفيما يلي الرسوم البيانيه التي تبين المجال الترددى لأحزمة هذه السواكن كما نطقها كل من الطلاب .

---

(١٥) الملخص ٨.



شكل (٨) أولاً



شكل (١٨ كا)

تعليق على الشكل

أولاً ـ في هذا الجزء من الرسم توجد تسعة رسوم بيانية يمثل كل منها أحد الأصوات الاحتكاكية التسعة كما نطق بها كل من المساعدين الثلاثة عشر . وقد رمز لكل مساعد بخط رأسي مواز للخط الرأسي في الرسم البياني الذي تحدد الذبذبات في الثانية .

وقد وضع رمز الصوت الاحتكاكي على يمين كل شكل بحرف صوتي (جدول ٢) . كما وضع رمز لكل مساعد بحرف كبير من الحروف الإنجليزية (A و B الخ) ، ويشير كل حرف إلى أحد الخطوط الرأسية التي تمثل المساعد . وعلى هذا فالشخص « A » يمثله الخط الرأسي الذي على اليسار في الأشكال التسعة والشخص « B » يمثله الخط الرأسي المجاور وهكذا في جميع الأشكال من « » إلى « » .

ثانياً ـ الشكل (ب) إجمالاً لتسجيل الأشكال التسعة السابقة وفيه الخطوط الرأسية للأصوات التسعة . وكل من هذه الخطوط عبارة عن متوسط نطق الأشخاص الثلاثة عشر للصوت . وعلى سبيل المثال يمثل الخط الرأسي الثالث على اليسار متوسط الخطوط الرأسية في الشكل « » والشخص اليمنى في المجموعة العليا ، والخط الذي يمثل « » أي متوسط الخطوط الرأسية في الشكل « » (كل من المجموعة العليا) .

وسنبين فيما يلي مثالا للحزام الترددي للسين والشين والكاف الشينية (مثل ضمير النصب والجر المتصل للمخاطبة المفردة في الكويتية في الكلمة كتابك/ ك ي ت ا ب ي تش/) . وذلك بين شخصين هما A ، M .

A السين من ٢ إلى ٨ والشين من ٢ ١/٢ إلى ٧ والكاف الشينية من ٣ ١/٢ إلى ٧ .

M السين من ٣ إلى ٨ والشين من ٢ ١/٢ إلى ٧ ١/٢ والكاف الشينية من ٣ إلى ٦ ١/٢ .

الأصوات الاحتكاكية المجهورة :

تشبه الرسوم الطيفية لهذه السواكن رسوم الاحتكاكية المهموسة مع إضافة حزم تكوينية كحزم الحركات ولكنها تكون شديدة الضعف .

ز ـ الأصوات الانحباسية الاحتكاكية :

وتتكون من الانحباس يعقبه احتكاك وكما هو متوقع فإن الرسم الطيفي لأي منها يتكون من خصائص التوقف والاحتكاك معا وقد سبق بيانها .

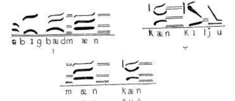
انتهينا من الوصف الطيفى لأنواع الأصوات ، ولكن هذا لايعنى تمام التحليل الطيفى للحدث اللغوى كله ، فهناك العلائم الطيفية للنبر والنغم والصفات الخاصه كالتفخيم العارض للصوت . وليس هنا مجال لشرح كل هذه الأمور .

التحليل والتركيب :

مرت بك أمثله لتحليل العبارات إلى موجات صوتية ، بعضها يمثل حركات وبعضها يمثل انفجاريات مهموسة أو مجهورة أو أنفيات أو احتكاكيات . والرسوم الطيفية التى قدمت إليك في الأشكال ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، تمثل تحليلا لعبارات قد نطقت فعلا ثم حول كل نطق إلى رسم طيفى أما الأشكال ١٤ ـ ١٩ ، فإنها لاتمثل أحداثا لغوية واقعة ، بل منطوقات مصطنعة آليا بواسطة إنتاج موجات لتكون رسوما طيفية تماثل الرسوم التى نحصل عليها إذا ماحللنا المنطوقات الفعلية .

وقد تمكن المهندسون من الاستفادة تطبيقيا من عمليتى تحليل الأحداث اللغوية وتركيبها تركيبا اصطناعيا . وقبل أن أقدم للقارىء أمثلة هذه التطبيقات أود أن أذكره ببعض التعليقات السابقة لتوضيح ما أقول .

لنأخذ مثلا الأبحاث التى لخصناها بالصفحات من (٢٦ الى ٣٣) . وسنلاحظ أن التجارب قد أجريت على رسوم طيفية مصطنعة . وقد كان كل رسم طيفى تمثيلا مبسطا للتحليل الواقعى لأحداث لغوية عرف منها الباحثون أشكال الموجات التى تكون كل صوت ودرجاتها . وعنوا بالاختبارات السمعية الموجات التى يمكن التخلص منها دون تأثير في درجة الإفهام والموجات التى يتحتم المحافظة عليها للاحتفاظ بدرجة مقبولة من الإفهام . ثم صنعوا الرسوم الطيفية محتفظين بالموجات الأساسية ومتخلصين من الموجات ثانوية الأهميه . بعد هذا ، أنتجوا الموجات التى تعبها الرسوم المصطنعه فحصلوا على كلام مصطنع .



شكل (١٩)

أ ـ العبارة الإنجليزية a big bad man [١٦]

ب ـ العبارة الإنجليزية can kill you

ج ـ العبارة العربية « من كان » مكتوبة من اليسار لليمين .

في الجزء العلوي من الشكل رسم طيفي مصطنع للعبارة الإنجليزية التالية : a big bad man ورسم آخر مصطنع للعبارة Can kill you ، وقد اقتطعنا المقطع الأخير من العبارة الأولى ووضعناه قبل المقطع الأول من العبارة الثانية / Can/ فحصلنا على رسم طيفي مصطنع يمكن أن يقبل باعتباره ممثلا للعبارة العربية (من كان) . وعلى هذا الفرض تجرى مناقشاتنا التالية .

أولا ـ جهاز القراءة[١٧]:

قبل قيام الحرب العالمية الثانية كانت شركة بيل للتليفونات تجرى أبحاثا لتحسين الاتصالات الهاتفية والإقلال من تكاليفها . ووصل الخبراء إلى أنه من الممكن اختصار الحزم التكوينية للمجهورات والأحزمة الترددية للاحتكاك إلى عدد قليل من الموجات الأساسية الضرورية للإفهام وبالتالي فقد تصوروا أن السلك الذي يحمل رسالة واحدة بكل موجاتها يمكن أن يحمل عشر رسائل ملخصة . وبهذا تقل تكاليف مد الخطوط عبر الأطلنطي إلى العشر . وابتكروا جهازا سموه Vocoder (وهي كلمة مركبة من Voice و coder أي مصنف الصوت) .

وكان الجهاز يتكون من جزأين الأول يحلل الصوت والثاني يتخلص من الموجات غير ذات الأهمية ويصنع من الموجات الهامة صورة طيفية للرسالة . ومن هذه الصورة الطيفية يعاد تركيب الرسالة بعد تلخيص موجاتها بإنتاج موجات صوتية مصطنعة تمثل الرسالة الطيفية ونجحت العملية نظريا ، ولكن الرسالة التي تم الحصول عليها لم تكن تامة الوضوح فعدل عن المشروع . وخلال الحرب استغل الحلفاء هذا الجهاز للتسمع على المواصلات الهاتفية للعدو . ويقال إن إسرائيل قد حصلت من أمريكا سنة ١٩٦٧ على أحد هذه الأجهزة . واستمعت إلى المحادثات الهاتفية من القادة العرب .

وبعد الحرب استغل هذا الجهاز في تطوير جهاز يقوم بقراءة النصوص المكتوبة للمكفوفين وذلك بإضافة وحدة لتصوير الرسالة المكتوبة وتحويلها لرسالة مسموعة على النحو الآتي .

لنفرض أن العبارة هي : (من كان) في هذه الحالة سيحدث مايأتي :

١ ـ يقوم جهاز التصوير بنقل الشكل الكتابي إلى حاسوب تختزن ذاكرته صورا عديدة هي :

أ ـ الشكل الكتابي ومايعادله من أصوات .

(من) = م + ا + ن كان = ك + اا + ن .

---

(١٦) تلخيص عن ٩أ

(١٧) من مرجع ٩ ص ١٣٩

ب ـ الأصوات وما تتألف منه من موجات وهي في هذا المثال كما يلي :

م = نغمه مستوية درجتها ٢٥٠ + مستويه درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ا = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية إلى ٢٣٠٠ .

ن = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠+ مستوية درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

يلاحظ أن الذي يميز النون عن الميم هو الحزمة الثانية من الحركة (فتحة) حيث إنها تبدأ من نقطة أعلى من الحزمة الثانية للميم وترتفع حتى تستوي في درجة الاستقرار ثم ترتفع إلى اتجاه الحزمة الثالثة للنون (انظر شكل الحزمة الثانية في « من » و « كان ») .

ك = حزام في شكل خط رأسي بعده فراغ .

الفتحة الطويلة = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية في اتجاه الحزمة الثالثة للنون التي تليها .

النون = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠ + حزمة مستوية درجتها ٢٥٠٠ + حزمة مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ج ـ يصدر الحاسوب أمرا لجهاز إنتاج الموجات الآلي لإنتاج الموجات السابقة على الشكل الذي وصفناه .

د ـ تنتقل هذه الموجات إلى جهاز تضخيم amplifier .

هـ ـ تنتقل من جهاز التضخيم إلى سماعة فيسمع المكفوف الجملة المكتوبة .

ثانيا ـ انتاج الكلام الاصطناعي(١٨)

ليست محاولة إنتاج الكلام الاصطناعي محاولة جديدة ، بل إنها ترجع إلى مايزيد عن قرنين من الزمان ، ففي سنة ١٧٨٠ نال العالم الروسي كراتسينشتاين Kratzenstein جائزة أكاديمية العلوم في مدينه سانت بيتر سبورج (ستالينجراد الآن) لأنه كان أول شخص أنتج الحركات / a/ ، / i/ ، / u/ ميكانيكيا . وقد صنع لتحقيق هذا العمل مزمارا من البوص وصله بأنابيب قامت بعملية ترشيح الصوت الناتج من مزمار البوص . وفي سنة ١٨٤٨ قام يوهانس موللر بمحاولة ثانيه لإنتاج الصوت الاصطناعي ، وذلك بأن أخذ حنجرة شخص ميت وشدها على فوهة أنبوبة وثبت خيوطا في غضاريفها ؛ بحيث يمكن تحريكها كما تتحرك عند الكلام ثم دفع تيارا هوائيا عبر الأوتار الصوتية فأنتج حركات . وفي سنة ١٩٥٦ قام فان دن برج Van den Berg بمحاولة أخرى مستعملا وسائل تقنية حديثة ، ومستفيدا من النظريات الرياضيه المتعلقه بالحركة والضغط ، فصنع تمثالا للحنجرة من الجبس ، ومرر تيارا هوائيا خلال فتحاتها فأنتج أصواتا تماثل الحركات اللغوية . ومع أن مثل هذه المحاولات لم تنتج عبارات اصطناعية كاملة فإنها قد فتحت الباب أمام محاولات أكثر شمولا ، نذكر فيما يلي عددا منها :

(١٨) مرجع ١ ص ٣٢٦ ومابعدها

نظريه الحامل :

لتوضيح هذه النظرية نتحدث عن عمل الإرسال الاذاعي (بالراديو) وسنلاحظ أن أول مايحدث ، (قبل بدء الإذاعة) صدور صفير مستمر ، هذا الصفير يسمى بالموجة الحامل ، وهي التي تعين درجة الموجة التي يتم عليها الإرسال الإذاعي ، ثم يضاف إلى هذه الموجة عزف الكمان مثلا ، وهذا العزف يمثل العنصر الثاني وهو الرسالة . أما العنصر الثالث وهو المنظم فيمثله الميكروفون ، وهو يتلقى الحامل والرسالة ويمزجهما معا وبهذا تتم العملية الإذاعية .

وفي الكلام الطبيعي يحدث من طرد الزفير إلى الخارج حدوث للموجة الحامل ، ويتدخل الأوتار الصوتية والغرف الرنينية العليا ، أي ما فوق الحنجره تحدث الرسالة أما الجهاز المنظم modulator الذي يمزج الحامل فإنه نفس الجهاز الذي يصدر الرسالة أي الاعضاء الصوتية من الحنجرة إلى فتحتي الفم والأنف .

وقد تمت محاولة لإنتاج الأصوات اللغوية الإنسانيه بإحداث الموجة الحامل والموجات الممثلة للرسالة وإمرارهما بمنظم كالميكروفون لمزجها . وقد تمت هذه التجربة في إصدار الأصوات الإنسانية بنجاح ما . ولكنها لم تكن وسيلة عملية يمكن تطبيقها بسهولة .

نظرية الأطياف والحزم والأحزمة :

وقد تعرضنا فيما سبق لمفهوم هذه المصطلحات الثلاثة ، وانتهينا إلى أنه من الممكن تعيين الصفات الصوتية العضوية الأدائية بما يقابلها من صفات طيفية على النحو الآتي :

ـ الحركات وتعين كل حركة درجة الحزمة التكوينية الأولى والثانيه والثالثه (انظر المثال ص ٢٤) .

ـ السواكن الانفجارية ويعينها الحزام الطيفي ودرجته (انظر المثال ص ٢٦ ـ ٢٨)

ـ السواكن الشفوية ويعينها الانتقال الصاعد للحزمة الثانية من الحركة المجاورة لها .

ـ السواكن اللثوية ويعينها صعود طفيف في الحزمة الثانية للحركة التالية لها إذا كانت / ا/ أو/ ɛ/ أو استواء في هذه الحزمة إذا كانت الحركة ɛ: (في مثل ساب العربية) أو هبوط مع بقية الحركات المعيارية الأربع الباقية / ɤ/ ، / ɔ ، / ɑ / ، / ɒ / .

ـ السواكن اللهوية ويعينها هبوط في الحزمة الثانية من الحركة التالية لها ويظهر كل هذا بمراجعة الشكل ص ٢٩ .

ـ السواكن الأنفية ويميزها وجود ثلاث حزم تكوينية كالتى توجد فى الحركات الأولى فى نطاق ٢٥٠ والثانية ٢٥٠٠ والثالثة ٣٢٥٠ ذ/ ث

ـ السواكن الجانبية . ويميزها وجود ثلاث حزم تكوينية درجاتها ٢٥٠ ، ١٢٠٠ ، ٢٤٠٠ ذ/ ث

الخ

ومادام من الممكن تحديد الخصائص والصفات الطيفية لكل صوت فإنه من الممكن بالتالى رسم تحليل طيفى يمثل المقطع الذى يوجد فيه الصوت . وتكون الخطوة التالية القيام برسم طيفى يمثل العبارة كلها .

وقد مر بك وصف عمل جهاز إعادة النطق ، ومن الممكن استغلال هذا الجهاز لنطق العبارة التى يمثلها الرسم الطيفى كما سبق أن رأيت .

وباختراع الحاسوب ، أمكن إنتاج الأصوات من الرسوم الطيفية بسرعة مذهلة ، يسرت عملية إنتاج الكلام الاصطناعى والاستفادة منه فى الأجهزة العلمية والمنزلية كالساعة الناطقة والسيارة التى تدار أجهزتها بإصدار الأوامر الكلامية أو التى تنقل إليك بكلام اصطناعى أخبار العوائق التى تكون قد حدثت فى الطريق الذى تسلكه عند السفر .

محاولة تجزئة الكلام الطبيعى splicing :

من المحاولات التى جرت لإنتاج الكلام الاصطناعى تسجيل أصوات اللغة مفردة دون إجراء تحليل طيفى لها ، فتسجل صوت/ م/ وصوت/ ا/ (فتحة) وصوت/ ن/ وصوت/ ك/ وصوت/ ء/ ، فإذا أردنا إنتاج اللفظ (كان) وضعنا فى الجهاز تسجيل الكاف ثم الفتحة الطويلة ثم النون ، وإن أردنا إنتاج (كأنْ) وضعنا تسجيل الكاف وبعده تسجيل الفتحة ثم تسجيل الهمزة ثم الفتحة ثم النون ، وهكذا . وكانت النتيجة غير مرضية لأننا لا نسمع كلمات بل أصواتا منفصلة .

وسبب هذا أن الكاف قبل الفتحة لا تماثل الكاف بعد الكسرة ، كما أن الفتحة بعد الميم لا تماثل الفتحة قبل النون وهكذا ، ولهذا جرت محاولة أخرى سجلت فيها عبارات كاملة كثيرة العدد ، ثم قسم الشريط إلى إجزاء (بالقص) بحيث يمثل كل جزء صوتا واحدا فى موضع معين ، فى الأول أو الآخر أو الوسط قبل كل صوت وبعد كل صوت يمكن أن يجاوره . وبالتالى فإنه لن يكون لدينا تسجيل واحد للكاف بل عدد كبير يمثل جميع مواقعها وتجاوراتها . وقد قدر أننا نحتاج على الأقل إلى ٨٠٠٠ تسجيل دون أن ندخل فى الاعتبار ، النبر والنغم الذى يصحب الصوت .

وحتى نتصور صعوبة تحقيق هذه الطريقة سنعرض المثال التالى :

١ ـ إذا كان لدينا الحرفان ب ، م فإن التجمعات الممكنة اثنان هما ب م ، م ب

٢ ـ إذا كان لدينا ثلاثة حروف ، ب ، م ، هـ فإن التجمعات ستكون ، ب م هـ ، م هـ ب ، هـ ب م ، ب هـ م ، م ب هـ ، هـ م ب ، أى ستة تجمعات .

٣ ـ إذا كان لدينا أربعة حروف ، أى ب م هـ د فإن التجمعات ستبلغ ٢٤ تجمعا وهكذا .

هل تتصور العدد الهائل من تجمعات إذا أجرينا هذه العملية بين أصوات تبلغ ٨٠٠٠ صوت .

وهكذا كان من غير الممكن تطبيق هذه الطريقة في إنتاج الكلام المصطنع . ثم اخترع الحاسوب وتطور تقدمه حتى صار من الممكن إجراء ما يبلغ مليون عملية تجميع في الدقيقة ، وبالتالي لم يكن من العسير استعماله في حصر تجمعات الآلاف الثمانية المذكورة . ولهذه الطريقة ميزة أخرى ، حيث إنها لا تحتاج للبحث المعملي الصوتي وهو معقد وطويل . ويكتفى للقيام بعملية التسجيل والتقسيم ، إعداد النصوص الكافية واستعمال الآلات لإجراء تقسيمها بعد تكبير الشريط المسجل وتقسيمه بالقص . ثم اختزان أجزاء النصوص في ذاكرة الحاسوب ، واستدعائها في التجمعات التي نريدها والتي تكون العبارة التي نريد إنتاجها اصطناعيا .

كما أن هذه الطريقة تمتاز على طريقة التحليل والتشخيص الطيفي بأنها لا تتخلص من أية موجات ثانوية بل احتفظت باللفظ كما سجل في الواقع .

ثالثا ـ البصمات الصوتية :

مر بك أثناء المناقشة جدول بعد شكل ١٢ ص (٢٤) وهو يمثل الفرق بين نطق رجل وامرأة وطفل للحركة/ ة/ ومر بك أيضا الشكل ١٨ ص (٣٢ ، ٣٣) والتعليق عليه الذى قارنا فيه بين الحزام الترددى للسين والشين كما نطقه شخصان رمزنا لهما بالحرفين (أ) ، (ب) . ومقارنة هذين الشكلين يتضح لك وجود فروق في الصور الطيفية للصويتمات عندما ينطقها شخص عنها عندما ينطقها آخر . وليس هذا قاصرا على الحركة/ ا/ أو الساكنين س ، ش ، بل هو أمر عام يشمل جميع الأصوات اللغوية التي ينطقها الإنسان .

وعلى أساس هذه النظرية قيل بوجود مايسمى بالبصمات الصوتيه أى الخصائص الطيفيه التي توجد ولا تختلف في نطق شخص ما لأى تعبير لغوى . وعلى المهندس الذى يصمم جهازا يقوم بهذا العمل أن يزود الجهاز بوحدة تحليل طيفى ، تخزن الصور الطيفية للعبارة التي تمثلها في ذاكرة حاسوب ، حتى يمكن الرجوع إليها عند الحاجة .

ولنفرض أن لصا دخل مع زميل له إلى أحد البنوك لسرقة خزائنه وكان بالخزانة جهاز تسجيل . وعندما تبادل اللص الحديث مع زميله سجلت إحدى عباراته . وأثناء المحاكمة يسمع القاضي النص المسجل ويدار الجهاز فيحلله

تحليلا طيفيا ، يخزن في الذاكرة ثم يكلف المتهم بنطق العبارة نفسها ويدار الجهاز مرة ثانية فيسجل مانطق به المتهم ويحلله تحليلا طيفيا كذلك ثم تجرى عملية ملاءمة matching يقارن فيها بين الصورتين الطيفيتين ، فإذا كانتا متلائمتين ، فلن يكون هناك مجال للشك في أن المتهم قد ارتكب جريمة السرقة .

تعرضت في الأمثلة السابقة للنظرية الصوتية اللغوية التي يمكن ، بل والتي طبقت فعلا تطبيقا عمليا ، أما كيفية التنفيذ الهندسي للأجهزة فهو أمر ليس لديَّ الكفاءة أو المعرفة الكافية لوصفه .

ثالثا ـ الاستقبال :

يتم التفاهم بين أنواع الحيوان المختلفة بصيحات محدودة العدد كالتعبير عن الخوف أو الجوع أو الرغبة الجنسية . أما التفاهم الإنساني فانه غني بالأفكار والانفعالات بفضل تعدد أصوات اللغة في صفاتها وطرق تجميعها في كلمات لا حصر لمفهوماتها .

وقد ذكرنا من قبل أن النغمات عالية الدرجة ، وبصفة خاصة الحزمة التكوينية الثانية والثالثة ، هي التي تعين نوع الحركة وتساعد على تعيين السواكن الانفجارية والأنفية والجانبية ، وأن السواكن الاحتكاكية تتميز بوجود حزام ترددي عالي الدرجة . وكل هذا يشير إلى أن الموجات النغمية العالية ذات قيمة تمامية كبرى . وهذا يفسر قدرة الجهاز السمعي الإنساني على سماع النغمات العالية بأكثر مما عرفناه عن قدرة حيوان كالفيل مثلا ، إذ يبلغ المدى السمعي عند الفيل ما بين ١٧ إلى ١٠٠٠٠ ذ/ ث بينما يبلغ عند الإنسان من ٣٠ إلى ١٥٠٠٠ ذ/ ث بل وقد يصل لدى بعض الناس إلى ٢٠٠٠٠ ذ/ ث .

ومن المعروف أن النغمات ذات الذبذبات الدنيا يمكن أن تخترق الحواجز أما ذات الذبذبات العليا فإنها تستهلك بامتصاص الحواجز لها . ولهذا زود سكان الغابات وخاصة تلك التي تتعرض للافتراس بوسيلة لإدراك الأصوات ذات الذبذبات السفلى كخطوات الحيوان المفترس الحذرة قبل الهجوم على فريسته . وهذه الوسيلة هي شكل بوق الأذن ، حيث يكون كالأنبوبة الطويلة المفتوحة من طرفيها وأحد جوانبها إلى جانب قرب الأذنين إحداهما من الأخرى والقدرة على تحريكهما في اتجاهات معينة مما يمكنها من تكبير الصوت وتحديد مكان مصدره .(١٩)

ورغم هذا الفرق بين كل من وظيفة اللغة ومدى الإدراك السمعي عند الإنسان والحيوان ، فقد وجد الباحثون أن معرفة النشاط الإدراكي الداخلي عند الإنسان لن يتم إلا بدراسة هذا النشاط عند الحيوان . وذلك لأن التجربة المباشرة قد تؤدي إلى الموت أو إلى إصابة المخ بإصابة دائمة لاعلاج لها . وقد لوحظ أن نوعا من الضفادع يسمى بالضفدع الثور Bullfrog يصدر صيحات شبيهة بالحركة/ ـِ/ (الكسرة) وأن هذه الصيحة مركبة من حزمتين تشبهان الحزمة الأولى والثانية في هذه الحركة وأن الموجة الأساسية لهذه الصيحات هي ١٠٠ ذ/ ث تليها موجات توافقية درجاتها مضاعفات

---

(١٩) مرجع ٥ ص ١٢٣ ـ ١٢٩ .

لهذا العدد أي ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ ، ٥٠٠ الخ وقام الباحثون برسم بدوى للصور الطيفية لهذه الصيحات وأسمعت لأنواع أخرى من الضفادع فلم تستجب لها . ثم عرضت على هذه الضفادع واستجابت لها كما لو كانت صادرة عن فرد حي من أفرادها . وكان على الباحثين أن يعرفوا ما إذا كان مخها يحتوى على مراكز إدراكية لهذه الأصوات فوضعوا رؤوسا إلكترونية صغيرة على أجزاء من مخها بعد شج رأسها وعرضوها لسماع الأصوات فحدثت ردود فعل كهربائية في بعض خلايا المخ المعينة . وقد وجد أن هذه الخلايا لاتستجيب إلا لموجات توافقية متحدة في عدد الذبذبات مع هذه الصيحات وهكذا انتهوا إلى وجود مراكز عضوية في المخ وظيفتها استقبال الصوت وإدراكه .

النظرية الآلية Motor Theory[٢٠] :

تقول هذه النظرية بأننا ندرك الأصوات بنفس الطريقة التي ننتجها بها ، ونحن نشاهد أن بعض الناس يحركون أعضاءهم النطقية عند قراءة نص ما . ويرى أصحاب هذه النظرية أن هذه الظاهرة تطبيق واضح لنظريتهم ، ويقولون بأننا حين نسمع صوتا ما تقوم أعضاؤنا الصوتية بنفس العمليات التي تتم لإنتاج هذا الصوت ، بأداء دقيق لايكاد يدرك . ويقارن المخ بين نشاط الأعضاء الصوتية هذا وبين الصور المختزنة فيه من صور النشاط العضوى اللغوى المختلفة حتى يلائم بينه وبين واحدة من الصور المخزونة فيتم الإدراك . ومثل هذه العملية هو مايحدث في جهاز الحاسوب عند قيامه باسترجاع المعلومات استعدادا للوصول إلى حكم معين .

ويرفض بعض من يقول بهذه النظرية قيام الأعضاء الصوتية بأية عمليات تمهيدا لإدراك الصوت المسموع ويرون أن الجهاز الإدراكى الانسانى شبيه بالجهاز الإدراكى عند الثور الضفدع . كما وسيلتهم إلى إثبات هذا الرأى أو ترجيحه على الأقل ، فهى افتراض أن ملكة الإدراك عند الإنسان تمثل تطورا بيولوجيا عن ملكة قديمة كانت عند الأم الأصل للأنواع الثديية . وتدل الدراسات المقارنة التي قام بها نيجوس في كتابه Negus, comparative anatomy of the Larynx ، على أن الحنجرة في الحيوانات الأرضية (فيما عدا الحشرات) من أبسط أنواعها إلى أرقاها أى إلى الحيوانات كانت تستعمل في إنتاج أصوات مركبة للموجات مكوناتها موجة أساسية وحزم تكوينيه وأن للموجه الأساسية تنتج عن تذبذب جهاز نغمى (كالحنجره عند الانسان) وأن المكونات التوافقيه تحدث عن عمليات الترشيح والتقوية ، تماما كما يحدث عند إنتاج الصوت الإنسانى وهم يلفتون النظر إلى أن جميع الحيوانات الثديية كالقطط والكلاب مزودة بجهاز ادراكى مركزه بعض خلايا المخ وظيفته الاستجابة الكهروفيزيائية للموجات الصوتية . وهم يتصورون أن عمل هذا الجهاز يتم بالملاءمة بين الصوت الذى يسمعه والخبرات الصوتية المختزنة في المخ وانه بواسطة هذه الملاءمة يحكم المخ بأن الصوت المسموع من هذا النوع أو ذاك ، تماما كما يحدث في جهاز الحاسوب عندما يراجع المختزن فيه حتى يصل إلى الحكم على نوع شيء ما . ومع هذا فهناك فرق جوهرى بين عمليتي الاختزان والمراجعة عند الانسان والحيوان . وسبب هذا الفرق ، أن صيحات الحيوان محدودة في عددها ودلالاتها ولهذا يمكن اختزانها باعتبارها من نفس النوع مهما كان موطن الحيوان أو ظروفه المعيشية .

(٢٠) السابق ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

أما الإنسان فإن الكلام الذى يصدر عنه يحتوى على رموز ودلالات لاتكاد تحصى ، كما أنه يختلف حسب موطن الشخص وطبقته الاجتماعية ومستواه الثقافى الخ . ولهذا فإن عملية الاختزان والاستدعاء أكثر تعقيداً عند الإنسان منها عند الحيوان ، حتى ولو كانت متحدة في الأصل التطورى .

التصنيف encoding والحكم decoding :

لايختزن الصوت الإنسانى في الذاكرة بذاته ، بل بنوعه . ونود أن نذكر القارىء بما قلناه من قبل عن عملية التجريد التى نجريها في الدراسات الصوتيمية . وتقتضى هذه العملية تجاهل الفروق الفردية والتركيز على صفات النوع في كل موقع من المواقع[٢١] وقد مثلنا لذلك بالأصوات المختلفة التى تصنفها تحت وحدة/ ن/ رغم اختلافها من ناحية الأداء بل والتحليل الطيفى .

ويقوم جهاز إدراك المفهومات والرموز وتخزينها بتصنيف الرموز على هذا النحو . والسؤال الهام هو ما إذا كان الجهاز يختزن الأصوات أو المقاطع أو الكلمات .

الثابت أن الأذن حين تتلقى رسالة صوتية تقوم بعملية عكسية لتلك التى تحدث في الحنجرة والفراغات العليا في جهاز النطق . وهذه العملية الأدائية تتخلص من العديد من الموجات الصادرة عن عمليات الزفير في منطقة أسفل الحنجرة ، وذلك بدفعها الى الفراغات العليا التى تقوم بعمليتى ترشيح وتقوية يحدث عنها الصوت اللغوى المركب من حزم أو أحزمة طيفية . أما الأذن فإنها تقوم بتحليل هذه الحزم إلى الموجات المكونة لها ، حيث تمر كل موجة بالشعيرات السمعية الحساسة في الجزء المسمى بالقوقعة ، فتهتز الشعيرة التى تتوافق في الموجة المواجهة وينتج عن ذلك تيار كهربائى تنقله الخيوط العصبية إلى خلايا المخ لاختزانه

ولكن القيام بعملية التحليل هذه لا يعنى أن الأصوات ، أو الموجات التى تكونها تختزن باعتبارها وحدات منفصلة عما يجاورها بل إنها تمثل أفراداً لجنس صوتى (صوتيم) يحدد اختيار الفرد منها المحيط الصوتى المحيط به . ولنأخذ مثالا لتوضيح ما نقول : الفتحة الطويلة التى نسميها بالألف توجد في عدد من مجموعات التجاور منها :

١ ـ في اللفظ (أمام) يوجد ، ساكن أنفى شفوى + ألف + أنفى شفوى .

في اللفظ (أمان) يوجد ، ساكن أنفى شفوى + ألف + أنفى لثوى .

في اللفظ (لام) يوجد ، ساكن لثوى جانبى + ألف + أنفى شفوى .

---

(٢١) راجع ص ٤ من هذا البحث .

في اللفظ (إماء) يوجد ساكن أنفي شفوي + ألف + حنجري انفجاري .

في اللفظ « حنان » يوجد ساكن أنفي لثوي + ألف + أنفي لثوي .

في اللفظ (نام) يوجد أنفي لثوي + ألف + أنفي شفوي .

في اللفظ (آناء) يوجد أنفي لثوي + ألف + حنجري انفجاري .

في اللفظ (لأن) يوجد لثوي جانبي + ألف + لثوي أنفي

وفي كل نموذج من النماذج المذكورة توجد في الألف صفات خاصة يفرضها المحيط الصوتي الذي توجد فيه ، وبالتالي فإن تحليلها الطيفي سيختلف في كل نموذج عنه في النموذج الآخر . ولهذا فإن الخيوط العصبية لن تنقل نموذجا طيفيا واحدا ، بل ستنقل في حالة المثال السابق ثمانية أشكال طيفية يختص كل منها بأحد النماذج المذكورة .

وبنفس هذه الطريقة يتم اختزان المعلومات في الحاسوب . وعندما يسمع الشخص لفظ (لام) مثلا فإن الشعيرات العصبية ستنقل إلى المخ صورة طيفية معينة فيراجع المخ اختزانه من الصور الطيفية حتى يجد الصورة المختزنة الملائمة لها في الشكل الطيفي فيحكم بأن هذه الرسالة تمثل الكلمة (لام) . المثال السابق يوضح أن عملية الاختزان تتم مع عملية تصنيف مااختزن وأن عملية الإدراك تتم بالوصول إلى الحكم بعد مراجعة النماذج المختزنة وملاءمة الرسالة لواحد منها . ويجب أن نذكر هنا بأن هذه النظرية لاتزال محل الجدل وأن الأبحاث لاتزال جارية لكشف هذا السر المحير .

* * *

أ - المراجع العربيه :

١ - عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ، القاهرة ١٩٦٨ .

٢ - عبد الرحمن أيوب : الكلام : إنتاجه وتحليله . نشر جامعة الكويت ١٩٨٤ .

ب - المراجع الانجليزيه :

(3) CHOMSKY. N. — The Formal Nature of Language APP. A. in Biological Foundations of Language, U.S.A., 1967.

(4) LENNEBERG E.H. — Biological Foundations of Language, U.S.A., 1978.

(5) LIEBERMAN P. — The Biology and Evolution of Language, U.S.A., 1984.

(6) LURIA. A.R. — The Working Brain, Penguin Books. U.K. 1973.

(7) PAGET. R.S. — Vowel Resonances, International Phonetic Association, 1922.

(8) STEVENS. P. — Spectra of Fricative Noise in Human Speech, Speech and Sound, Vo. 3, 1960, PP. 32-49.

(9) — — Journal of the Acoustical Society of America, U.S.A.

(a) P. COOPER F.S. et al. — Some Experiments on the Perception of Synthetic Speech Sounds., Vol. 24, 1952, PP 597-606.

(b) U. DELATTRE. P.C. et al. — Acoustic Loci and Transitional Cues for Consonants, Vol. 27, 1955, PP 769-773.

(c) PETERSON. G.E. and BARNEY. H.L. — Control Methods used in a Study of the Vowels., Vol. 24, 1952, PP 175-84.

❊ ❊ ❊

الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة

يحيى أحمد
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الكويت

مقدمة :

حينما برز الاتجاه التوليدي Transformational Grammar على مسرح الدراسات اللغوية في منتصف الخمسينات ، فإن ذلك كان إيذاناً بتحول جذري في مسرح الدراسات اللغوية . لقد عمل هذا الاتجاه على تأسيس مرتكزات جديدة في البحث اللغوي . وهذه المرتكزات على اختلاف تفاصيلها يجمعها إطار فلسفي واحد حاول شومسكي Chomsky (صاحب الاتجاه) ومن بعده تلاميذه ومريدوه تأسيسها بعمق . وهذا الإطار يتناول اللغة على أنها نشاط عقلي . يقول شومسكي (Chomsky 1965:4) :

« أن النظرية اللغوية نظرية عقلانية ، حيث انها تعنى باكتشاف الحقيقة العقلية الكامنة تحت السلوك الفعلي » .

لقد تغيرت جوانب كثيرة في نظرية النحو التحويلي ، وغير شومسكي نفسه الكثير من أفكاره ، وطور جانباً آخر منها ضمن تفاصيل تتخذ سمات منطقية أو سيكولوجية . ولكن الإطار الفلسفي العام للنظرية بقي ثابتاً ، ألا وهو أن طبيعة اللغة هي نفسها طبيعة العقل . ويستتبع ذلك أن هدف الدراسة اللغوية ضمن هذا الاتجاه ينحصر في صياغة النماذج الشكلية المعبرة عن القدرات العقلية لمستعمل اللغة . وهذه المهمة ممكنة في كل حالة لأن المتكلم يستعمل في لغته عددا محددا من التراكيب . وبدراسة هذه التراكيب المستعملة بالفعل يكون بالامكان التوصل الى مجموعة متناهية من الأحكام التي تصف السلوك اللغوي الصحيح للمتكلم . والاستعمال المتكرر لهذه القواعد أو التحويلات المنبثقة منها هو الذي يمكن المتكلم من انتاج جمل لانهاية لها (من الناحية المنطقية على الأقل) . وهذه

القواعد نفسها هي التي تمكن المتكلم من الحكم على الجمل التي يسمعها أو يقرؤها ، فيرفض مالا يتفق منها مع قواعد اللغة . وهي التي تعينه على فهم الجمل الجديدة التي يسمعها أو يقرؤها لأول مرة . وهي التي تساعده على فهم الجمل الغامضة أو المزدوجة المعنى ، وغير ذلك من أمور ترتبط بالعمليات العقلية في تمثل اللغة .

وقد اهتم الاتجاه التحويلي بإبراز العلاقة بين اللغة والعقل في جانبين آخرين : الأول هو ماسمي بالمظاهر العالمية للغة ؛ ويتمثل هذا الجانب - من جملة أمور أخرى - في الجهاز الفطري الكامن في الانسان والذي يمكنه من اكتساب اللغة . ويتمثل الجانب الثاني في فكرة البناء العميق . فما دامت اللغة هي عمل العقل ، فمعنى ذلك أن هناك دائما عوامل تكمن تحتها . هذه العوامل هي عبارة عن الأشكال اللغوية المجردة المختزنة في عقل الإنسان . ومن المعروف أن هذه الأشكال اللغوية تحمعها قوانين هدفها الربط بين الصوت والمعنى . وقد أعطيت القواعد التحويلية transformational rules مطلق الصلاحيات لاجراء التعديلات المناسبة الكفيلة بتوصيل الجملة الى بنائها السطحي : الشكل المنطوق أو المكتوب .

ان الذي يهمنا من هذه المقدمة هو أن نخلص الى أن نظرية النحو التحويلي قد جعلت النحو عملية ميكانيكية تتحقق عناصره بشكل آلي حينما تتبع القواعد الموضوعة لابتداء تلك العملية . ولم تعط النظرية أي تبرير وظيفي لحدوث التحويلات في مراحل مختلفة من توليد الجملة . لقد أخرجت من الاعتبار الظروف النفسية التي يكون فيها المتكلم ، كما أهملت إهمالاً تاما مسألة السياق الذي يقع فيه الكلام واعتبرت اللغة مجرد نشاط عقلي .

وقد برزت نظريات واتجاهات لغوية متعددة تحاول أن تفسر طبيعة اللغة من زوايا مختلفة . ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الوظيفي الذي يقف على الطرف النقيض للاتجاه التحويلي . وسنتولى في هذه الدراسة بيان أسس الاتجاه الوظيفي ونظرته البراغماتية الى اللغة ، مع التركيز على جانب يبدو مهما لنا الا وهو انعكاس النظرة الوظيفية على كيفية تحليل اللغة . ولذلك فقد حرصت على أن أضمن المقالة الجانب التحليلي حتى لايكون السرد مجرد حديث نظري . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية اضطررت الى استخدام مجموعة مصطلحات عربية هي في أغلبها ترجمات مقترحة مني شخصيا ، ولذلك رأيت من المناسب أن أردف كل مصطلح عربي بمرادفه الأجنبي لكي يكون القارىء المتخصص على بينة بالأفكار التي أتحدث عنها .

والبحث يبدأ بتعريف الاتجاه الوظيفي وبيان خصائصه المميزة ، ثم يعرض للمدارس الوظيفية المعاصرة مبيناً مناهجها وأفكارها من خلال تطبيقها على اللغة العربية في حدود ماتسمح به المساحة . وأخيرا يتوقف عند التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفي .

ما هو المقصود بالاتجاه الوظيفي ؟

الاتجاه الوظيفي مدرسة من مدارس الفكر اللغوي المعاصر ، وهو يعنى بكيفية استخدام اللغة وبالقيمة الاتصالية للغة[1] . فاللغة في نظر هذا الاتجاه عبارة عن وسيلة اتصال يستخدمها أفراد المجتمع للتوصل الى أهداف وغايات . وإذا أردنا أن نبحث عن صياغة منهجية يمثل جوهر اهتمام الاتجاه الوظيفي فإن ذلك يتمثل في السؤال التالي : لماذا نستعمل اللغة ؟ وقد لاحظنا فيما سطرناه في المقدمة أن المد اللغوي الذي اكتسح حقل الدراسات اللغوية في الستينيات والذي يتمثل في نظرية شومسكي العقلانية قد اهتم بمجموعة العلاقات الرياضية المفسرة لميكانيكية اللغة ، وليس بوظيفة اللغة في البيئة اللغوية أو كيفية أدائها للمعاني .

والجانب الوظيفي للغة ليس شيئا منفصلا عن النظام اللغوي نفسه . فتداخل الأدوار roles والمشاركين participants في النظام النحوي حسب نمط معين (كما سيمر بنا) في كل لغة مرتبط ارتباطا مباشرا بالوظيفة التي تؤديها الجمل في السياقات المختلفة . ويزيد هاليدي (Halliday 1973:23) هذه النقطة توضيحا بقوله :

> « اذا كان بامكاننا أن نغير مستوى الرسمية formality في كلامنا أو كتابتنا ، أو أن ننتقل بحرية من نمط سياقي معين الى نمط آخر ، فنستعمل اللغة تارة لتخطيط نشاط منظم ، وتارة لإلقاء محاضرة عامة ، وتارة لتدبير شئون الأولاد ، فلأن طبيعة اللغة على شاكلة بحيث إن جميع هذه الوظائف مبنية حسب طاقاتها الاستيعابية الكلية » .

وبذلك فإن الاتجاه الوظيفي يربط بين النظام اللغوي وكيفية توظيف هذا النظام لاداء المعاني . ويتمثل هذا الربط في ثلاثة مظاهر .

المظهر الأول الخيارات المتعددة المتاحة للمتكلم والمتمثلة في الأبنية والتراكيب المختلفة الموجودة في لغته . ان كل تركيب يؤدي وظيفة مختلفة لأنه يمكن المتكلم من تنظيم كل المعلومات طبقا لظروف الكلام . فالجمل التالية مثلا :

١ ـ استقبلت الأوساط الأدبية نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
٢ ـ استُقبل نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
٣ ـ الأوساط الأدبية استقبلت نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
٤ ـ نجيب محفوظ استُقبل نبأ حصوله على جائزة نوبل ببالغ السرور .

تؤدي وظائف مختلفة لأن كل واحدة منها تقترن بسياق مختلف وتستعمل في ظروف مختلفة . وانطلاقا من هذا الفهم ، فإن هذه الجمل الأربع لاتعتبر مترادفة لأن كل واحدة منها تركز على جانب معين من الحدث ، وبذلك فإن لكل

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر هاليدي (Halliday (1973: 22

واحدة منها قوة تعبيرية متميزة مستمدة من الدور الذى يؤديه كل أسلوب في الحياة الاجتماعية . ولنتذكر هنا أن الاتجاه التحويلى يعتبر الجمل (٢) و (٣) و (٤) مجرد صياغات تعبيرية متفرعة عن الجملة الرئيسية ، ويمكن التوصل اليها بتطبيق القواعد التحويلية على الجملة رقم (١) . وأما التأويل الدلالى الذى يرتبط بهذه الجمل فهو واحد في جميع الأحوال .

المظهر الثانى هو أن جذور اللغة تمتد الى البنى الاجتماعية بكافة أشكالها . فلا يمكن فصل اللغة عن الثقافة : التراث والعادات والتقاليد . ان الظواهر الاجتماعية التى يرتبط بها الفرد بحكم انتمائه الى مجتمع ماتفرض عليه سلوكا لغويا معينا . ويظهر ذلك بوضوح في أساليب التخاطب التى ينتقيها الفرد في المواقف المختلفة . فالتحدث الى رئيس الدولة والى زميل في العمل والى فراش في دائرة العمل لايتخذ مجرد أشكال لغوية مختلفة ، وإنما نجد أن الأشكال اللغوية مستمدة من الأعراف الاجتماعية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن الكلام يعكس الخلفية الاجتماعية والثقافية للفرد . ولذلك فوصفنا لكلام شخص بأنه كلام مؤدب أو كلام وقح يعتبر وصفا جماليا أخلاقيا نابعا من اعتقاداتنا الاجتماعية . ان البنية الاجتماعية تنعكس في التراكيب اللغوية التى نستعملها . ونجد هذا الانعكاس كذلك في المصطلحات الدالة على صلة القرابة وفي مصطلحات الألوان والتعبيرات المشتقة منها . ونجدها فوق كل ذلك في المستويات الأسلوبية registers . واللكنة التى يتحدث بها الشخص تعكس مظهرا اجتماعيا . حينما نسمع لكنة الصعيدى وهو يتحدث باللهجة المصرية ، أو لكنة البدوى وهو يتحدث باللهجة الكويتية نستطيع أن نقرر مباشرة أن هذا الشخص ينتمى الى شريحة اجتماعية معينة . والتنغيم كذلك يرتبط بهذا الجانب ارتباطا واضحا ، بحيث إنه بإمكاننا أن نتعرف على الفئة الاجتماعية التى ينتمى اليها الشخص وذلك من خلال طريقة تحدثه .

المظهر الثالث تضافر العناصر ، بمعنى أن عناصر اللغة مجتمعة تساهم في أداء الفكرة التى يريد المتكلم توصيلها . والأمر هنا يشبه عمل السلك الكهربائى . فالسلك الكهربائى الواحد يتكون من مجموعة أسلاك شعيرية دقيقة . ولا نستطيع عندئذ أن نقول إن سلكا بعينه من هذه الأسلاك الدقيقة مسئول عن توصيل الكهرباء . فهذه الوظيفة تقوم بها هذه الأسلاك الدقيقة كلها مجتمعة . وهكذا الأمر بالنسبة للغة . فلا يمكن أن يستقل عنصر أو مستوى لغوى بأداء الوظيفة . فالوحدة الصوتية ـ مثلا ـ تستطيع أن تؤدى وظيفة من خلال وحدات صوتية أخرى تشكل الكلمة ذات الدلالة المقيدة في المعجم ، والكلمة بدورها تؤدى وظيفتها ضمن نظام نحوى .

إذن فالاتجاه الوظيفى يتميز من بين الاتجاهات الأخرى في الدراسات اللغوية بأنه يربط اللغة بالوظيفة التى تؤديها من جانب ، وبالبيئة الاجتماعية وتضافر العناصر من جانب آخر . والتحليل اللغوى الوظيفى يكون من منظور يهدف الى بيان الوظائف التى تؤديها اللغة في البيئة اللغوية . أما الإطار النظرى الذى يتم من خلاله التحليل فهو مصمم لأداء هذا الغرض العام . ولذلك لا يحفل الوظيفيون بجدلية النظرية اللغوية والى أى حد تتمثل فيها الكفاية الوصفية descriptive adequacy والكفاية التفسيرية explanatory adequacy فالنظرية ليست هدفا وإنما هى إطار يتم من خلالها الكشف عن الخيارات المتاحة أمام المتكلم . يقول هاليدى في مقدمة كتابه « مقدمة في النحو الوظيفى » (Halliday 1985:19) :

« إننا لسنا بحاجة الى نظرية متخصصة الى حد كبير بحيث يستطيع المرء أن يعمل القليل بها » .

ويقول في الصفحة الثامنة من المقدمة نفسها :

« ان الكلام المنطوق يحتاج الى شكل مرن وليس الى بناء جامد من التمثيل الشكلي » .

ونجد هذا المنحى واضحا عند لغويي مدرسة براغ اللذين أجروا تحليلاتهم من خلال « مفاهيم وظيفية » وليس من خلال نظرية بالمعنى الذى نجده عند التحويليين أو البنائيين الأمريكان . ونجده أكثر وضوحا عند المتأخرين من الوظيفيين أمثال دل هايمز Del Hymes الذى نلاحظ على منهجه أنه عبارة عن مقترحات اجرائية أكثر مما هو نظرية .

المدارس الوظيفية المعاصرة :

توجد ضمن الاتجاه الوظيفي العام مدارس متعددة ، تختلف في تناولها للمظاهر المدروسة من حيث عمق التحليل ومن حيث التركيز على التفاصيل المتعلقة بالظاهرة . وعلى الرغم من التباعد الزماني والمكاني بين هذه المدارس الا أنه يجمعها تصور واحد تجاه طبيعة اللغة : فاللغة وسيلة اتصال اجتماعية يستعملها الفرد لأداء وظائف مختلفة وللتأثير على الآخرين .

وسأحاول فيما يلي أن أقدم للقارىء العربي صورة شاملة تتضمن أفكار المدارس الوظيفية . وسيجد القارىء أن بعض الأفكار التي سيرد ذكرها من الممكن تتبع جذورها في الفكر البلاغي العربي أو مقارنتها بأفكار البلاغيين العرب التابعين . ولكن الهدف المرسوم لهذه المقالة يجعلني أتجنب الخوض في هذا الجانب .

مدرسة براغ :

في حوالى سنة ١٩١١ ألقى ماثسيوس Mathesius (١٨٨٢ - ١٩٤٥) محاضرة مهمة حول ماسماه بـ (خصيصة اللغة) characterology of language وقد قال ياكبسون عن هذه المحاضرة إنها لو كانت قد ألقيت في مكان آخر غير براغ ، في موسكو مثلا ، لأحدثت ثورة حقيقية في الدراسات اللغوية عندئذ [٢] ولذلك لم تكن أفكار ماثسيوس معروفة لدى الأوساط اللغوية حتى انعقد الاجتماع الأول لمدرسة براغ في اكتوبر ١٩٢٦ ، وكان ذلك بمبادرة من ماثسيوس نفسه . وبعد انتهاء جلسات الاجتماع ، اتفق المجتمعون على الالتقاء بصفة دورية ضمن « حلقة براغ اللغوية » . وابتداء من هذه الفترة تجمع حول ماثسيوس مجموعة من المهتمين بالدراسات اللغوية . وقد عرف هذا التجمع فيما بعد باسم (مدرسة براغ) .

---

(٢) انظر في ذلك vachek (1966: 5) .

ولقد ضم التجمع عددا من اللغويين الأوكرانيين والألمان والروس والسلافيين ممن لم يكونوا يقيمون في تشيكوسلوفاكيا . فالتسمية اذن لا تشير الى المحلية ، ولكنها تستخدم استخداما علميا لتشمل تلك النظرة الخاصة التى تميزت بها هذه المدرسة في التحليل اللغوى ألا وهى النظرة الوظيفية .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تأثر نشاط مدرسة براغ تأثرا بالغا ، حيث أغلقت القوات الألمانية التى احتلت تشيكوسلوفاكيا جميع الجامعات فيها . وشهد عام ١٩٣٩ موت أحد أبرز أفراد المجموعة وهو تروبتسكوى[٣] . وفي تلك الفترة ونتيجة لظروف الحرب ، اضطر رومان ياكبسون أن يهرب من الحكم النازى ، فرحل الى الدنمارك ، ثم النرويج وأخيرا حط الرحال في الولايات المتحدة الأمريكية . وقبل نهاية الحرب بفترة قصيرة ، أى في الثانى عشر من أبريل ١٩٤٥ توفى مؤسس المدرسة ورائدها الأول ماثسيوس . وأدت كل هذه الأمور الى تشتت أفراد المدرسة .

وبعد استتباب الأوضاع وفي بداية الخمسينيات حاولت الأوساط الأكاديمية في بعض الجامعات التشيكية إحياء اتجاه مدرسة براغ ولكن من خلال مسميات جديدة مثل (الرابطة اللغوية) Linguistic Association و (جماعة علم اللغة الوظيفى) The Group for Functional Linguistics وقد ضمت هذه التجمعات أفرادا نشيطين واصلوا الكتابة ضمن الاطار الفكرى للمدرسة ، وأعادوا نشر الدورية المشهورة التى كانت تصدر باسم المدرسة والمسماة « Travaux Linguistique de Prague » .

« ان السمة البارزة للغويى مدرسة براغ هى نظرتهم الى اللغة في إطار الوظيفة . وأعنى بذلك ليس فقط أنهم نظروا الى اللغة ككل على أنها تخدم غرضا ، فهذه حقيقة معروفة وهى وحدها لا تميزهم عن غيرهم . بل القصد أيضا أنهم كانوا يحللون اللغة المعينة من خلال وجهة نظر تهدف الى أن تبين لنا الوظائف الخاصة التى تؤديها الأبنية المختلفة في استخدام اللغة ككل . وهذه النظرة ميزت مدرسة براغ تميزا واضحا عن معاصريهم من البنيويين الأمريكان (وتميزهم بوضوح كذلك عن التحويليين) الذين نظروا الى النحو على أنه يتكون من مجموعة من العناصر » . (Sampson 1980:103) .

من معالم مدرسة براغ المهمة اهتمامها بقضية المعنى . ولكي نعرف أهمية هذا الجانب فإنه من المفيد أن نذكر في هذا السياق أن الاتجاه البنائى المتمثل في كتابات بلومفيلد وغيره من اللغويين الأمريكان ، قد ربط المعنى بعنصرى المثير ورد الفعل . أى أن تحليل المعنى يكون بأن نبين نوع المثير الذى يولد رد فعل معينا والمتمثل في العبارات التى ينطق بها المتكلم ، وأن نبين رد الفعل السلوكى الذى يحدثه المتكلم باعتباره مثيرا . فمستعمل اللغة قد يمثل عنصر الاستجابة أو

(٣) نيكولاي تروبتسكوي Trubetzkoy (١٨٩٠ ـ ١٩٣٨) واحد من أعضاء مدرسة براغ الذين لم يكونوا يعيشون في تشيكوسلوفاكيا ، فهو ينتمي الى أسرة من نبلاء روسيا . كان والده أستاذا للفلسفة ، وأصبح مديرا لجامعة موسكو . وقد درس تروبتسكوي اللغات الهندية ـ الأوربية ، وأصبح عضو هيئة تدريس في جامعة موسكو عام ١٩١٦ . وحينما بدأت الثورة البلشفية ، هرب الأمير تروبتسكوي الى روستوف ، ثم بعد ذلك الى فيينا حيث أسندت اليه رئاسة قسم الدراسات السلافية في جامعة فيينا عام ١٩٢٢ . ثم أصبح بعد ذلك عضوا في مدرسة براغ (تبعد براغ عن فيينا مسافة ١٥٠ ميلا) . وبقي تروبتسكوي في فيينا حتى توفي في عام ١٩٣٨ اثر أزمة قلبية ، وذلك نتيجة لاستجواب قوات الجستابو له ، حيث كان تروبتسكوي من مناهضي النازية . انظر (Sampson 1980: 107) .

رد الفعل حينها يكون متلقيا ، وقد يمثل عنصر المثير حينها يكون مرسلا . ان افتقاد الاتجاه البنائي لهذا الإطار النفسي الضيق للتفسير الدلالي كان بسبب تأثره بأفكار مذهب من مذاهب علم النفس يعرف بالسلوكيه Behaviourism ، وهو مذهب يفسر السلوك الإنساني حسب الأفعال الظاهرية والتي هي عبارة عن استجابات لمثيرات خارجية في البيئة . ويذهب الى أن خصوصيات ومحتويات العقل يمكن النفاذ إليها عن طريق الاستبطان . ولذلك فإن قضية المعنى تشكل نقطة ضعف في الاتجاه البنائي ، ولم تعط حقها من الاهتمام .

والملاحظ أن تحليل مدرسة براغ للمعنى لم يتخذ منحى المنطق الوضعي أو المنحى التجريدي الذي يفصل المعنى عن الاستعمال اللغوي ، وإنما اتخذ منحى وظيفيا . وهنا واضح في أن ماسموه بالمحتوى الدلالي semantic content يرتبط من جانب بمستويات لغوية أخرى كالمستوى النحوي والمستوى الأسلوبي ، ومن جانب آخر بحقائق العالم الخارجي ، بما في ذلك مشاعرنا تجاه هذا العالم . (راجع Vachek 1966:34) فهناك حقيقة مهمة حول عملية الاتصال اللغوي ينبغي أن ندركها ألا وهي أن المتكلم حينما يوجه خطابه الى السامع فإنه لايريد فقط أن ينقل إليه بعض الحقائق ، ولكنه يريد أيضا أن ينقل إليه مشاعره تجاه الحقائق . إن العبارات المنطوقة تكون دائما مغلفة بمشاعر الفرد . وذلك بحكم انتمائه الى بيئة اجتماعية تموج فيها شتى المعطيات والتغيرات . وقد فهم أعضاء مدرسة براغ أن ربط محتوى الكلمة بالحقائق الخارجية يمثل وظيفة اللغة في المجتمع . وسنجد أن مدرسة لندن قد وظفت هذه الفكرة توظيفا مثاليا من خلال نظرية سياق الحال .

المنظور الوظيفي للجملة :

سأعرض فيما يلي بتفصيل أكثر للنهج الوظيفي لمدرسة براغ من خلال التحدث عن مجالات الدراسة اللغوية التي ساهمت فيها مدرسة براغ مساهمات مميزة : النحو والدلالة[٤] .

تعتبر مقالات ماثسيوس في تحليل الأبنية التركيبية للانجليزية والتشيكية نقطة البداية لنمط من التحليل سماه ماثسيوس نفسه « المنظور الوظيفي للجملة » .

Functional Sentence Perspective ولكي تتضح لنا طبيعة هذا المصطلح ، فإنه من المفيد أن نذكر هنا أن اللغة في منظور مدرسة براغ لها ثلاثة مستويات هي :

١ ـ المستوى النحوي (ويندرج فيه الصرف كذلك) .
٢ ـ المستوى الدلالي .
٣ ـ المستوى الكلامي Organisation of utterance .

(٤) لن يتسع المجال هنا للتطرق الى الأفكار الوظيفية لمدرسة براغ حول الوحدة الصوتية والملامح الصوتية المميزة . ويمكن للقارىء أن يجد تغطية جيدة لبعض تلك الجوانب في كتاب (أحمد مختار عمر ، ١٩٧٦) .

والمستوى الأخير يبين كيف يتفاعل المستوى النحوي والمستوى الدلالي في عملية الاتصال اللغوي(٥) . وضمن نطاق هذا المستوى الثالث برزت فكرة المنظور الوظيفي للجملة . ويقوم هذا التحليل على أساس القيمة الاتصالية للغة . ان اللغة تستخدم كوسيلة تعبيرية تأثيرية . وهي ليست شيئا مجردا عن الواقع الذي توجد فيه ، بل ان وظيفتها هي التفاعل مع هذا الواقع . والمنظور الوظيفي للجملة ينظر الى الجملة على أنها تتكون من شقين : الأول ويسمى المسند theme ، والثاني ويسمى المسند إليه(٦) rheme .

والأمثلة التالية توضح كلا من الشقين :

« المال والبنون | زينة الحياة الدنيا »
المسند | المسند اليه

لكن | أخي | من الدفاع عن المتهم
المسند | المسند اليه

« يريد | الله | بكم اليسر »
المسند | المسند اليه

ويأتي المسند - في الغالب - أولا ثم يعقبه المسند اليه . هذا هو الترتيب المتبع حينما يكون نسق الجملة محايدا . والنسق المحايد هو الترتيب المألوف لأجزاء الجملة في الاستعمال العادي ، أي الاستعمال الذي يراد به مجرد الاخبار أو الاسناد . أما حينما يريد المتكلم أن يجذب انتباه السامع الى عنصر معين في الجملة ، أو انه يريد التركيز على عنصر معين لأنه يمثل في نظرة زبدة الحدث اللغوي ، فإنه يلجأ عندئذ الى خرق هذا النسق الطبيعي .

« والله | يدعو الى | دار السلام »
المسند | إليه المسند

أخوك | أخبرني | بذلك
المسند | المسند إليه

(جوابا للسؤال : من أخبرك بذلك ؟) .

---

(٥) راجع في ذلك مقالة دانش (Danes 1966: 225) . وعلى الرغم من التقسيم الثلاثي الى هذه المستويات فان أي مستوى منها لا يمكن فصله عن بقية المستويات ، لأن اللغة ذات أنظمة متفاعلة . ولكن الفصل يراع شعورا بأن تحديد المستويات ضروري للبحث من حقائق اللغة .

(٦) استخدمنا مصطلحي المسند والمسند اليه مترجم من حيث الاستعمال وليس المتفق مع استعمال سيبويه لها . ففي الجملة الاسمية يعتبر المبتدأ مسندا والخبر مسندا اليه : « فالمبتدأ مسند والمبني عليه مسند اليه » (الكتاب ٢/ ٧٨) . وفي الجملة الفعلية يكون الفعل مسندا والفاعل مسندا اليه . ونود أن نلفت نظر القارىء الى أمرين يتعلقان بهذين المصطلحين . الأول أن جمهور النحاة استعملوهما على خلاف ما أشار اليه سيبويه . الثاني أن سيبويه ومن جاء بعده من النحاة قد استعملوا المصطلحين للاشارة الى العبارات نحوية ، ولكننا نستعملها هنا للاشارة الى نوعين (أ) عنصر للمعلومات في الجملة (ب) على ما للوحدة من دينامية في الاتصال اللغوي . وسيرد شرح ذلك في نفس المقالة . انظر كذلك الحاشية رقم (٨) .

وفيما يلي مثالان توضيحيان آخران يعبران عن فكرة واحدة ، لكن الفرق بينهما هو في مجال التركيز ، وسنجد أن توزيع المسند ـ المسند اليه يعكس هذا الفرق :

وصل	الوفد الرياضي الصيني	الى البلاد ليلة أمس
المسند	المسند إليه	

(جوابا للسؤال/ ماهي أخبار الوفود الرياضية ؟)

الوفد الرياضي الصيني	وصل	الى البلاد ليلة أمس .
المسند إليه	المسند	

(جوابا للسؤال : أي وفد وصل الى البلاد ليلة أمس ؟)

ان تحديد موضع المسند في الترتيب المحايد ينبع من الحقيقة المعروفة وهي ان المرء يبدأ كلامه بالمعلومات المعروفة لدى المتكلم أو التي سبقت الإشارة إليها أو التمهيد لها في السياق ، ثم يضيف بعد ذلك المعلومات الجديدة التي يظن أنها كفيلة باثراء القارىء أو السامع . ولكن مفهوم المسند والمسند إليه لا ينحصر في هذا النطاق من الفهم الابتدائي . فالواقع أن اللغويين الذين جاءوا بعد ماثيسوس قد طوروا هذا المفهوم . ومن أبرز هؤلاء اللغويين جان فرباس Jan Firbas . يتخذ فرباس « المنظور الوظيفي للجملة » أساسا للتحليل ويحدده بوضوح (Firbas 1959:39) على النحو التالي : « المقصود بالمنظور الوظيفي للجملة هو ترتيب عناصر الجملة بالنظر إليها في ضوء السياق الفعلي » . ويقدم مفهوما وظيفيا جديدا يسميه « دينامية الاتصال » Communicative dynamism ، وهي خاصية من خاصيات الاتصال تتجلى في سياق تنمية المعلومات التي يراد التعبير عنها[٧] . ذلك أنه في عملية الاتصال اللغوي تتعدد العناصر التي تدخل في تكوين الجملة ، وهذه العناصر لها امكانية متفاوتة في إثراء معلومات المستمع : فبعضها يحتوي على معلومات يعرفها المستمع بالفعل (أو يمكن استعادتها من خلال السياق) ، وبعضها يحتوي على معلومات جديدة . وحينما ننظر إليها من هذه الزاوية نجد أن قدرتها على تحريك الحدث الكلامي متفاوتة ، وهذا انعكاس للطبيعة الديناميكية لعملية الاتصال اللغوي .

وطبقا لمفهوم « دينامية الاتصال » فإن هناك ثلاث وحدات وظيفية في الجملة : المسند وهو يحمل أقل درجة من دينامية الاتصال . المسند إليه وهو يحمل أعلى درجة من دينامية الاتصال . وبعد هاتين الوحدتين أو قبلهما أو بينهما تأتي الوحدة الانتقالية ، transition وتكون غالبا من العناصر الاضافية (الظرف ، الحال) أو العناصر التي نحتاج إليها

---

(٧) راجع لمزيد من التفاصيل مقالة فرباس (Firbas 1973) ص ١٣٦ فما بعد .

لاستقامة الجملة نحويا (أدوات النسخ ، أدوات الشرط الخ)[٨] . وهنا نرى أن تحديد المسند ـ المسند إليه يكون على أساس وظيفتها في الاتصال اللغوى ، بينما التحديد السابق كان يربط بينها بشكل ما بعنصرٌ للمعلومات . ولكي نتمكن من تحديد هذه الوحدات في الجملة ، فإنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل الثلاثة التالية :

١ ـ نسق الجملة ، أى كيفية ترتيب الأجزاء فيها .
٢ ـ السياق العام للتحدث اللغوى .
٣ ـ السياق الدلالى الخاص للجملة (البنية الدلالية) .

وهذا يبين لنا أن ديناميكية الاتصال ليست نظاما منفصلا ، ولكنها وليدة عدة عوامل مجتمعة . والجمل التالية توضح هذه الوحدات :

السياق : أين رمى الفراش الأوراق ؟

الجملة :

في سلة المهملات	رمى	الفراش	الأوراق
مسند اليه	وحدة انتقالية	مسند	مسند إليه

السياق : هل جميع الناس ظالمون ؟

الجملة :

والظلم	من شيم النفوس	فإن تجد
مسند	مسند اليه	وحدة انتقالية

ذا عفة	فلعلة	لا يظلم	(المتنبي)
مسند	مسند اليه	وحدة انتقالية	

السياق : هل تصدق أنني نسيت أن أغلق باب شقتي ليلة أمس ؟
ـ وماذا حدث ؟
الجملة : دخلت قطة صغيرة داخل المطبخ .
المسند اليه

---

(٨) لقد وضحت في الحاشية رقم (٦) أن مصطلحي المسند والمسند إليه سيستخدمان بمفهوم جديد . ولكي لا يكون هناك لبس في ذهن القارئ، فإني أحب أن أذكر أن البلاغيين العرب يقسمون الجملة الفعلية إلى ركنين أساسيين : المسند (ويمثله الفعل) والمسند إليه (ويمثله الفاعل) . ويقسمون الجملة الاسمية كذلك إلى ركنين : المسند إليه (ويمثله المبتدأ) والمسند (ويمثله الخبر) . وقد استخدم البلاغيون العرب مصطلح (متعلقات الإسناد) للتعبير عن كل ما عدا المسند والمسند إليه . أي أن البلاغيين العرب يربطون في الموقعية بين المسند والمسند إليه والترتيب النحوي لعناصر الجملة (بين المسند إليه وكونه يقع فاعلا ، أو بين المسند وكونه يقع فعلا وهكذا) . ولكن الواضح من استعمالنا هنا أن هذا الربط غير ممكن ، لأن ترتيب المسند ـ المسند إليه والترتيب النحوي مستويان مختلفان من التحليل في المنظور الوظيفي .

ولو أمعنا النظر في هذه الجمل الثلاث لوجدنا أن تعيين عناصر ديناميكية الاتصال يتحدد على أساس السياق . فالسياق هو الذي يحدد لنا ما اذا كان أحد عناصر الجملة شيئا معلوما او شيئا جديدا هو عبارة عن الاضافة التي يريد المتكلم أن يوصلها الى السامع . ولو أعدنا قراءة الجملة الأخيرة لوجدنا أنها تشكل بأكملها المعلومة الجديدة التي يريد المتكلم أن يخبر السامع بها . ولذلك فكل العناصر فيها تحمل درجات عالية من ديناميكية الاتصال . وهنا نجد أن الحقائق الخارجة عن الاطار التركيبي للغة لها دخل في التعرف على المعنى .

وفي الجمل المتعدية نجد أن « المفعول به » يمثل الهدف أو نتيجة الحدث (الذي يعبر عنه فعل الجملة) ، ولذلك فالمفعول به يحمل ـ في الظروف العادية ـ درجة من الديناميكية هي أعلى من درجة الفعل . وتعليل ذلك أنه من وجهة النظر الوظيفية فان الهدف (أو النتيجة غير المعروفة) يعتبر أهم من الحدث نفسه .

ومن عناصر السياق الدلالي الخاص للجملة في المنظور الوظيفي استخدام أداة التعريف . فالكلمة المعرفة بأداة التعريف غالبا ما تحمل درجة متدنية من الديناميكية وذلك على افتراض أن أداة التعريف تشير الى شيء معهود أو معروف لدى المستمع . فحينما نقول :

وصلت الرسالة أمس

مسند

ونسند الى (الرسالة) وظيفة المسند . فهذا يعني أن المتكلم كان قد أتى على ذكر الرسالة في فترة سابقة ، أي أنها تشير الى شيء معلوم . ولكن هذه ليست وظيفة ثابتة لاداة التعريف ، وأعني أنها لا تستخدم دائما بهذه الكيفية . فمع تضافر العوامل الدلالية والسياقية فان أداة التعريف قد تقترن بالمسند اليه وذلك على نحو ما هو موضح في المثالين التاليين :

السياق : هل جميع الطلبة الذين تدرسهم حاليا ضعاف في اللغة ؟

الجملة : كلا الطالب المستجد | على وجه الخصوص | يعاني من ضعف في اللغة

المسند اليه | المسند | وحدة انتقالية

السياق : أين ضاع قلمك ؟

الجملة : ضاع | قلمي | في المكتبة

وحدة انتقالية | مسند | مسند اليه

فالمسند اليه هنا يقترن بما يشكل المعلومة الجديدة في الرسالة اللغوية وذلك على الرغم من ارتباط هذا المسند اليه بأداة التعريف . على أنه من الواضح ، كما انتبه الى ذلك فرباس (Firbas 1966:248) أن الوظيفة الأساسية لأداة

التعريف هي أن تبين أن الاسم معرف من حيث الاشارة ، وهي لا تستطيع وحدها أن تحمل الاسم اكثر دينامية . واذا وجدنا اسما معرفا يؤدي وظيفة المسند اليه فهذا راجع الى وجود عوامل أخرى والتي يعتبر السياق من أهمها .

لقد رأينا كيف يساهم نسق الجملة من جانب والسياق من جانب آخر في توضيح عناصر دينامية الاتصال . وحينما نتعامل مع الجملة بهذه الكيفية فان بالامكان التعرف على تركيبة المعلومات ومنهجية توالقها بشكل اكثر تفصيلا . من الممكن عندئذ أن نتحدث عن « المسند الصريح » Theme proper، وهو العنصر الذي يحمل أدنى درجة من درجات الدينامية . « والمسند اليه الصريح » rhéme proper، وهو يحمل أعلى درجة من درجات الدينامية . (انظر مقالة فرباس Firbas 1971) . وفي الجملة التالية نجد أن الضمير يعود الى شيء معروف قد سبق ذكره في السياق ، ولذلك فقدرته على إثراء معلومات القاريء ضئيلة جدا ، ويصنّف في سلم الدينامية على أنه مسند صريح . .

السياق : أين وجدت المحفظة ؟

الجملة :	وجدتها	في الطريق
	مسند صريح	مسند اليه

أما في الجملة التالية فهناك عنصران يحملان دينامية عالية ، ولكن الواضح أن احدهما اكثر فعالية من حيث أهميته في الحدث اللغوي .

السياق : من الذي أيد صحة تلك الأنباء ؟

الجملة :	(أيد صحة تلك الأنباء)	مصدر دبلوماسي عربي	رفيع المستوى
	مسند	مسند اليه	مسند اليه صريح

ان الصورة التي رسمناها حتى الآن توضح لنا أن توزيع درجات دينامية الاتصال في الجملة هو حصيلة تضافر ثلاثة عوامل هي : السياق ، نسق الجملة ، والبنية الدلالية . أما المجال الذي تتوزع خلاله دينامية الاتصال فهو الحدث الكلامي بأكمله . وقد يقتضي ذلك تقسيم الكلام الى فقرات والفقرات الى جمل وهكذا (راجع : Firbas 1971 : 138)

وقد يتبادر الى الذهن أن تحليل فرباس تحليل ذوقي انطباعي وليس تحليلا مبنيا على قواعد مقننة . والواقع أن فرباس ، شأنه شأن سائر لغويي مدرسة براغ ، لم يكن يميل الى التقنين الجامد للمظاهر الوظيفية للغة . والواضح في مسلك مدرسة براغ أنها لم تحفل بالتقنين أو بجعل الدراسة اللغوية دراسة علمية ، كما كان الشأن لدى المدرسة الامريكية . فقد كان اهتمام مدرسة براغ منصبا بوجه خاص على الكيفية التي تزود بها اللغة المتكلم بعدد من الأساليب والطرائق التعبيرية مناسبة لظروف اجتماعية مختلفة (راجع Sampson 1980 : 27) . والجانب الانطباعي أو

الشخصي أمراً مفروغاً منه في التعامل مع لغة النص ، أو اللغة التي نستعملها كوسيلة اتصال ، لأنّ مجال التحليل في هذه الحالة أوسع من مجال تحليل الجملة نحوياً . ومع ذلك فان فرباس لم يترك الأمر للتذوق وحده ، بل انه زودنا بالجوانب النظرية الكفيلة بمساعدتنا في تحديد العناصر التي تساهم في تشكيل الجمل أثناء عملية الاتصال .

مدرسة لندن :

ان الجانب الواضح الذي يميز مدرسة لندن هو تأثير الاعتبارات العملية في سير الدراسات اللغوية في بداياتها الأولى . فقد كانت حدود الامبراطورية البريطانية تشمل مساحات شاسعة من المستعمرات في آسيا وافريقيا . وقد استدعى هذا الوضع التفكير في كيفية وصف أصوات اللغة الانجليزية وقواعدها لكي يسهل على الأجانب تعلمها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد كانت لتلك المستعمرات لغاتها المحلية الخاصة بها ، بل ان بعض المستعمرات كانت تسود فيها أكثر من ثلاث لغات رئيسية . وبرزت نتيجة لذلك مسألة ايجاد طرق لكتابة اللغات وشرح قواعدها ، وخاصة اللغات المحلية واللغات غير المدونة على نطاق واسع . ومن اللافت للنظر أن مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية School of Oriental and African Studies ، وهي كلية من كليات جامعة لندن ، أنشئت عام ١٩١٦ لخدمة الامبراطورية البريطانية في دراسة لغات المستعمرات وثقافاتها وتدريسها لرجال الحكومة . ومن هذا المنطلق فان دراسة اللغويين الانجليز للغات الافريقية والآسيوية تختلف عن دراسة اللغويين الأمريكان للغات الهندية ـ الأمريكية ، وذلك ليس فقط في أسلوب الدراسة والمصطلحات المستعملة ، ولكن أيضاً في الهدف العام للدراسة . فاللغات الافريقية والآسيوية لم تكن على وشك الانقراض كما كانت كذلك اللغات الهندية ـ الأمريكية . ولذلك فلم تكن هناك ضغوط تستدعي لأن يفكر اللغويون الانجليز في ابتداع وسائل اجرائية لتدوين اللغات ووصفها قبل أن تنقرض . وذلك يعني ، كما أشار سامبسون (Sampson 1980 :215) ، أنه بينما شعر الوصفيون الأمريكان بالحاجة الى تطوير وسائل استكشاف آلية للغات التي كانوا يصفونها ، فانه كان بمكان فيرث وزملائه أن ينشغلوا ببناء جوانب نظرية .

وفي مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية تطورت الدراسات اللغوية ونمت على يدي فيرث J.R.Firth (١٨٤٥ ـ ١٩١٢) والذين تتلمذوا على يديه أو عملوا معه . وكان فيرث قد عين في عام ١٩٤٤ أستاذاً لعلم اللغة العام في تلك الكلية . ويعد بذلك أول أستاذ يعين في هذا المنصب في الجامعات البريطانية . وقد تركزت كتابات فيرث في المعنى والأصوات . أما من جاءوا بعد فيرث ، أو الذين يطلق عليهم « الفيرثيون الجدد » neo Firthians فقد توسعوا في هذين الجانبين وتطرقوا كذلك الى مجال المفردات والنحو ، كما سيمر بنا . وقد اتخذت كتاباتهم المنحى الوظيفي الذي أصبح سمة لمدرسة لندن ، وتجلى ذلك في مظاهر عديدة من التحليل اللغوي . وسنتوقف في البداية عند دراسة المعنى .

المعنى وسياق الحال

نظر فيرث الى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة ، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة ، ولكنه أيضاً حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع . فالجمل تكتسب دلالاتها في

النهاية من خلال ملابسات الأحداث ، أي من خلال سياق الحال[9] context of situation . ولذلك فقد اقترح فيرث أن « تدرس اللغة كجزء من المنظومة الاجتماعية » (Firth 1950 : 181) social process . وفي هذا الجانب يبدو تأثر فيرث بأفكار مالينوفسكي واضحا . ولتوضيح هذه النقطة ، يستحسن أن نعرض للأفكار الناضجة التي طرحها مالينوفسكي والتي مهدت السبيل أمام فيرث ليؤصل نظريته في المعنى .

كان مالينوفسكي Malinowsky (البولندي الأصل) أستاذ للأنثروبولوجيا في مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics وقد سافر في أعقاب الحرب العالمية الثانية الى الجزر المحيطة باستراليا في المحيط الباسيفيكي لاجراء بحوث ميدانية عن أهالي جزر تروبرياند . Trobriand وفي أثناء تسجيل ملاحظاته وجد أنه من الصعب ترجمة ما يقوله أهالي تلك الجزيرة من عبارات وجمل ترجمة حرفية الى اللغة الانجليزية . ووجد أن تلك الصعوبة تزداد حينما يصل الأمر الى الحديث عن عادات وتقاليد خاصة بأهالي تلك الجزيرة . وفي محاولته لحل تلك المشكلة خرج بملاحظات نشرها في كتاب يعد من أمتع كتب الرحلات (الحدائق الساحلية وسحرها) . Coral Gardens and Their Magic . وهذه الملاحظات هي التي أرست مبادىء نظرية سياق الحال في وصف المعنى .

خلاصة كلام مالينوفسكي حول هذا الموضوع أن معنى الجملة يتحدد في السياق المعين الذي ترد فيه . والسياق الذي قصده مالينوفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع ، حيث أنه كان يكتب كأنثروبولوجي . ولكن مالينوفسكي لم يتوسع في الحديث عن السياق وكيف يمكن تناوله ضمن نظرية لتحليل المعنى ، لأن مالينوفسكي لم يكن مهتما بصياغة نظرية لغوية .

اقتبس فيرث من مالينوفسكي فكرة أهمية دراسة اللغة في اطار سياق معين ، وأعطى لهذه الفكرة أبعادا أعمق ، فقد جعلها تخطيطا تنظيميا مجردا abstract construct ، وحصرها في مجال اللغة بعد أن كانت فكرة عامة تمس النواحي الثقافية في المجتمع . وقد مر بنا أن فيرث ينظر الى اللغة على أنها عملية اجتماعية أو نشاط اجتماعي . أي أن نظرية فيرث اللغوية تقوم على أساس ارتباط اللغة بالفرد والمجتمع . ولذلك فان فكرة سياق الحال أصبحت تعني عند فيرث دراسة اللغة كأداة اجتماعية ، أي كأداة في المجتمع يستعملها الأفراد بقصد تحقيق أهداف وأغراض معينة .

ولكي يتم تحليل معنى الجملة حسب مقتضيات « سياق الحال » ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار العناصر التالية (راجع Firth 1950 : 182) :

١ ـ الحقائق المتعلقة بالمشاركين في الحدث اللغوي ، كأن نذكر مثلا ما اذا كان المشارك طفلا أو رجلا ناضجا ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، أو امرأة . ويندرج تحت هذا العنوان الخلفية الثقافية للمتكلمين .

(٩) راجع كذلك (تمام حسان ١٩٧٣ : ٣٣٧ فما بعد) حيث عرضت الفكرة مع مقارنتها بفكرة البلاغيين العرب .

٢ ـ الأحداث اللغوية نفسها ، أي العبارات المنطوقة بالفعل وكيفية نطق الجملة أو الجمل من حيث التنغيم والنبر الحلاقي ، وما يصاحب هذه الأحداث اللغوية من مظاهر لغوية غير منطوقة ، كحركة اليدين وتعابير الوجه .

٣ ـ الأمور المادية التي لها صلة مباشرة بالحدث اللغوي relevant objects .

٤ ـ أثر العبارت اللغوية المنطوقة فعلا (أي ما يستتبع النطق من سلوك اعتمادا على العبارات المنطوقة) فقد تؤثر جملة ما على أحد السامعين ، ولكن لا تترك نفس الأثر في سامع آخر لاختلاف العادات والتقاليد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : كيف يمكن تحديد ماله صلة بالسياق ، وخاصة الأمور المادية ذات الصلة المباشرة بالحدث اللغوي ؟ هذا السؤال كثيرا ما يطرحه منتقدو نظرية سياق الحال . فمثلا تقول الدكتورة ديدري ولسون (D.Wilson : op cit) ، أستاذة علم الدلالة في جامعة لندن (الكلية الجامعية) : ان بامكان المرء أن يعد قوائم عديدة لما يمكن أن يشكل الأمور المادية لجملة من قبيل « أنا حاضر في هذه الغرفة الآن » . والقوائم ستشمل أمورا مثل ما يلي :

« هذه الغرفة التي تعد جزءا من بناء قديم في الكلية الجامعية .
هذه الغرفة المملوكة لجامعة لندن
هذه الغرفة التي تقع في لندن ... الخ »

والواقع أن نظرية سياق الحال لا تعنى باعداد قوائم عن الظروف المادية ، فاعداد مثل هذه القوائم أمر في غاية الصعوبة . هذا علاوة على أن أية قائمة لن تكون متكاملة في الظروف الطبيعية . ولكن الفكرة ترتكز على مبدأ « الاختيار » Selectivity، أو الصلة المباشرة ، حيث إنه في كل حدث لغوي تكون هناك عناصر معينة نستطيع أن نختارها على أنها ذات صلة بموضوع الجملة . ولنأخذ كمثال توضيحي الجملة التي أوردتها ولسون ، ونضعها في السياق التالية :

الكهربائي : آسف للمقاطعة . يجب أن نقوم ببعض الاصلاحات الاضطرارية على موزع مكيف هذه الغرفة .

المحاضر : حاول أن تجرب ذلك فيما بعد ، من فضلك . أنا حاضر في هذه الغرفة الآن .

الكهربائي : مع الأسف أن الانتظار غير ممكن ، فقد أخبرني رئيس المهندسين أن المحول الرئيسي في كلية الآداب في الشويخ سينفصل آليا لو لم نقم بالاصلاحات حالا .

من الواضح من خلال هذا السياق أن الأمور المادية التي لها صلة بالجملة هي وجود جهاز تكييف في قاعة المحاضرة يسبب خللا للموزع . أما الأمور المادية الأخرى من قبيل أن الغرفة لها ستائر مصنوعة من قماش وليس من معدن ، وأن فيها مقاعد طولية وليس مقاعد صغيرة منفصلة ، وأن هناك بيوت عنكبوت في زواياها الخ .. فهي لا شك ليست ذات صلة مباشرة بالحدث اللغوي . وكما قال هاليدي (Halliday 1978 : 29) فانه « من المهم أن نقيد فكرة « السياق » ، وذلك بأن نضيف لها كلمة « ذات صلة » relevant ، لأن سياق الحال لا يعني كل صغيرة وكبيرة في المحيط المادي ، كتلك التي قد تظهر فيها اذا كنا نسجل بالصوت والصورة حدثا كلاميا مع كل المشاهد والأصوات المحيطة به . انه يعني تلك الملامح التي لها صلة وثيقة بالكلام الحاصل » .

ولنتصور مشهدا آخر . طالب يدخل قاعة المحاضرة متأخرا عن موعد المحاضرة بعشرين دقيقة ولا يبادر أستاذه بالاعتذار بل يتجه مباشرة الى مقعد فارغ فيجلس فيه . يقطع الأستاذ محاضرته ويقول له : « صباح الخير » (بنغمة صاعدة ـ هابطة في النهاية ، مع مد المقطع الطويل في الخير) . ان الظروف المادية المحيطة بهذه العبارة (وصول الطالب متأخراً) والتنغيم المستعمل ، تدل على أن الأستاذ يريد أن يلوم الطالب على التأخر وليس أن يلقي عليه تحية الصباح . أما بقية الأمور المادية ، مثل شكل الطالب ونوع لباسه فلا علاقة لها بهذا الحدث اللغوي .

وقد أثار بعض الباحثين اعتراضا نظريا آخر حول مفهوم سياق الحال في تحليل المعنى ، وذلك على أساس أن عناصر السياق الأربعة (التي ذكرناها فيما مضى) تعطي انطباعا خاطئا بأن تلك الحقائق يمكن استعمالها بشكل منهجي حينما نصف كيف يضفي الأفراد التفسير الدلالي على الجمل (Langendoen 1968 : 50) ويبدو أن هذا النقد يتعامل مع فكرة السياق بعقلية المدرسة التحويلية ـ التوليدية التي تفسر الاستعمال اللغوي على أنه نتيجة مراحل توليدية وتحويلية متتالية . ولكن الاتجاه الوظيفي لا يفصل المعنى عن تركيب الجملة . بمعنى أن المتكلم لا ينطق بالجملة عارية أولا ثم يكسيها ثوب المعنى في مرحلة تالية (كما يرى التحويليون) . ولكن المعنى ينشأ في الظرف المناسب وفي لحظة الخلق اللغوي ، أي في لحظة تفاعل المرء مع الحدث . يقول هاليدي (halliday 1978 . 33) :

« ان السياق جزء من التخطيط الكلي . . . ليس هناك انفصال بين ماذا نقول وكيف نقول ، اللغة انما تكون لغة عن طريق الاستعمال في سياق الحال . وكل ما فيها مرتباط بالسياق » .

ان جزءا كبيرا من معاني المفردات والجمل المستعملة يعتمد على الخبرة المشتركة ما بين المتكلم والمتلقي . ولذلك فنحن نحتاج الى سياق الحال ليس فقط لكي نتمكن من معرفة مدى ملاءمة الكلام أو اللغة المستعملة في هذا الظرف أو ذاك ، ولكن أيضا لكي نستطيع أن نفسر الأساليب اللغوية والمستويات اللغوية register وطبيعة اللغة نفسها .

وقد طور هاليدي فكرة السياق في دراساته عن الترابط اللغوي cohesion وتحليل النصوص text analysis ، فاقترح أسلوبا آخر لتحديد العناصر السياقية التي تلعب دورا في بيان معنى النص . وهذا الأسلوب يوظف ثلاثة مصطلحات على وجه التحديد هي :

الحقل : Field وهو المجال الطبيعي (الاجتماعي) الذي يكون مسرحا للنص ، فيشمل بذلك النشاطات المختلفة ، والأهداف الخاصة التي تستعمل اللغة من أجل تحقيقها .

التوجّهات Tenor ويشمل العلاقات ما بين المشاركين في الحدث اللغوي : وضع كل مشارك والدور الذي يؤديه كل مشارك .

النمط Mode وهو الوسيلة اللغوية المتبعة في النص (أو الحدث اللغوي) . ويشمل الأسلوب اللغوي والوسائل البلاغية .

ويحرص هاليدي على تأكيد فكرة مهمة وهي أن هذه العناصر لا ينبغي أن تعامل على أنها أنواع من الاستعمال اللغوي ، ولكنها اطار نظري لتمثيل السياق الاجتماعي الذي يستطيع المتكلم من خلاله أداء المعاني .

ونحاول فيما يلي أن نوضح هذه المصطلحات وذلك من خلال تحليل النص التالي[10] .

حكاية أحمقين

« حكي أن أحمقين اصطحبا في طريق فقال أحدهما للآخر : تعال نتمنّ على الله ، فإنّ الطريق تقطع بالحديث . فقال أحدهما : أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها . وقال الآخر : أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها الى غنمك حتى لا تترك منها شيئا . قال : ويحك ، أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة ؟ فتصايحا وتخاصما ، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق . ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكما بينهما . وطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما . فأنزل الزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب . ثم قال : صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا أحمقين » .

(١٠) هذا المصطلح لا يغطي ابعاد الحدث بمستوى المفردات وترابطها ، انه يركز فقط على العناصر السياقية المرتبطة بتفسير النص

(المستطرف في كل فن مستظرف)

	المحتوى السياقي	المحتوى الدلالي
الحقل	أحمقان يسيران في طريق ينشأ بينهما نزاع وتشابك بالأيدي بسبب سوء الظن . شيخ معه حمار وعليه جرتان من عسل	توضيح الأدوار وأنواع المشاركين . أشياء مادية لها صلة مباشرة بالقصة .
التوجهات	رغبة أحد الطرفين في تزجية الوقت أثناء السير . تمنيات خيالية بهدف المداعبة تثير نزاعا حقيقيا . التصايح وتبادل الاتهامات التشابك بالأيدي نتيجة لسوء التفسير التوقف عن الصراك والموافقة على الاحتكام شيخ يبدي موافقته على حل المشكلة بفتح الجرتين وإسالة العسل	فعل أمر ، ثم جملة تقريرية مؤكدة . جملة تقريرية مثبتة . جمل مثبته ، معطوفة (حدث متداخل) جملة استفهامية بنغمة صاعدة جمل ما ضوية مترابطة بأدوات العطف التي تفيد تسلسل الحدث . الصمت أثناء انزال الزقين القيام بفعل غير لغوي قبل التفوه بالجملة وذلك بقصد توضيح معناها .
النمط	تكييف الجمل وفقا للأهداف طريقة التكلم الاستعانة بالقيم الأخلاقية والدينية ترابط النص	تعال نتمن على الله (طلب) أنا أتمنى . . . (توكيد الذات) ويحك (لوم وتقريع) أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة ؟ (استفهام استنكاري) « صب الله دمي مثل هذا العسل اذ لم تكونا أحمقين » (جملة مركبة ذات وحدتين نغميتين) أدوات الربط والعطف وضمائر التكلم والاشارة .

مستويات التحليل اللغوي

ان النمط الوظيفي الذي نجده عند مدرسة لندن يتعامل مع أربعة مستويات في التحليل اللغوي تمثل الأنظمة المختلفة في اللغة . وقبل أن نتعرف على هذه المستويات ، يستحسن أن نتوقف عند مصطلحين مهمين أوردهما فيرث يمثلان الأساس الفكري لهذا التحليل . يرى فيرث أن للغة محورين : محور النظام system ويمثله العلاقات الرأسية paradi gmatic relations ، أي ثوابت اللغة ، مثل مباني التقسيم في النظام الصرفي . ومحور البناء structure ويمثله العلاقات الأفقية syntagmatic relations التي تتميز بالتجدد ، مثل الجمل المختلفة في اللغة . ومن النظام اللغوي يستمد البناء القيم المختلفة اللازمة لعمل العناصر . فالأبنية اللغوية في شكلها الصحيح ـ هي انعكاس للنظام بما فيه من قواعد مؤسسة . ولا يمكن أن نفهم عنصرا بمنأى عن العنصر الآخر ، فالجانبان مرتبطان ببعضهما أشد ارتباط . ويوضح فيرث هذا الارتباط بالترميز الشكلي لكيفية كتابة المصطلحين باللغة الانجليزية على النحو التالي :

s
structure
m

ويمكن دراسة النظام والبناء على عدد من المستويات نذكرها باختصار فيما يلي :

المستوى الصوتي

لقد اعتبر فيرث أن النظام الصوتي للغة يتألف من عدة أنظمة polysystemic ، وليس من نظام أحادي monosystemic المتمثل في سرد الوحدات الصوتية (الفونيمات) على أساس توزيعها الخطي . ولذلك فالتحليل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التشكيلات الصوتية أو التطريزات الصوتية prosodic features التي تبرز في أماكن مختلفة من المقطع أثناء الاستعمال ، كالظواهر التي تصادفها في حالتي الوقف والوصل مثلا .

وطبقا للتحليل التطريزي prosodic analysis ، فان الوحدات الصوتية والمقاطع المحددة يمكن أن تدخل ضمن العلاقات الرأسية ، أما العلاقات التي قد تتولد ما بين المقاطع والوحدات الصوتية في الكلام المتصل فانها تدخل ضمن العلاقات الأفقية .

مستوى المفردات ، في المستوى المفرداتي نجد أن مفهوم « التساوق » collocation يعكس فكرة البناء[11] . والتساوق في صياغاته المبكرة كان يعني الترابط الأفقي الطبيعي ما بين الكلمات . أي تصاحب الكلمة مع كلمة أو

(١١) « التساوق » ترجمة مقترحة منا للمصطلح الذي استعمله فيرث ومن بعده هاليدي وآخرون . وقد أورد تمام حسان (١٩٧٣) هذا المصطلح وترجمه « بالتضام » . ولكن ترجمه « التضام » (ص ٢١٦) لا يعكس المعنى الأصلي للمصطلح ، فهو يستعمل « التضام » كمصطلح عام تندرج تحته فكرتان : التساوق والانتظام . لمزيد من التفاصيل حول مفهوم التساوق في الاتجاه الوظيفي راجع مقالنا (أحمد ١٩٨٤) .

كلمات أخرى ، أو رفقة الكلمة أو جيرتها لكلمات أخرى في السياق الطبيعي ، مثل : كلبة ابريل ، حللت أهلا ، صلاة التراويح ، لم يلبس بينت شفة (بالنفي دائما ، أي أننا لا نقول : لبس بينت شفة) شاي ثقيل (ولكن لا نقول : شاي قوي) . وقد تطور المفهوم فأصبح يعني الى جانب ذلك : دخول الكلمة في سياق مقبول مع كلمة أو كلمات اخرى . فالفعل (أطلق) مثلا يمكن أن يتساوق مع العناصر التالية :

ـ أطلق لحيته (جعلها تنمو)
ـ أطلق ساقيه للريح (ولى هاربا)
ـ أطلق له الحبل على الغارب (ترك له حرية التصرف)
ـ أطلق الدواء بطنه (سهله ومشاه)
ـ أطلق عليه اسما غريبا (سماه باسم غريب)

الى آخر ذلك من تساوقات . ولكن (أطلق) لاتساوق مع (محاضرة) في قولنا : (أطلق محاضرة) معنى ألقى محاضرة .

والواضح من هذه الأمثلة المحدودة أن التساوق يمكن استخلاصه من العلاقات الأفقية ما بين الكلمات ، وليس من الربط بين الكلمات ومفاهيمها (راجع Firth 1951:1961) .

المستوى النحوي ، ويتضمن تركيب الجملة (النحو وتركيب الكلمة) (الصرف) . في هذا المستوى يعتبر مفهوم « الانتظام » colligation معبرا عن البناء . والانتظام هو التجاور الطبيعي للعناصر النحوية والصرفية بحيث يؤدي هذا التجاور الى تلازمها في الاستعمال . فمثلا أداة النفي (لم) تنتظم مع الفعل الماضي فتقلب الصيغة الى المضارع . وضمائر النصب المتصلة تنتظم مع الفعل المتعدي دائما . والفعل رغب يجب أن ينتظم اما مع (في) أو مع (عن) . وطبيعي أن هذا النمط من الانتظام يكون مسئولا عن جزء من المعنى النحوي .

المستوى الدلالي ، وقد مر بنا أن فكرة سياق الحال ضرورية لفهم المعنى . ولكن الجانب الواضح في اتجاه مدرسة لندن أن المعنى لا يؤدّى ولا ينبغي قصر تحليله على المستوى الدلالي فحسب ، بل ان جميع المستويات تتضافر لأداء المعنى . فهناك معنى على المستوى النحوي ، وهناك معنى على المستوى اللفظي وهكذا . وحول هذه الفكرة يقول فيرث (Firth 1951 b: 227) :

« الأشكال اللغوية لها معنى على المستوى النحوي واللفظي . وهذا المعنى تحدده أنماط الأنظمة النحوية التي تقام للغة . ان حالة الرفع في لغة ذات أربع حالات اعرابية سيكون لها بهذا المفهوم معنى يختلف عن حالة الرفع في نظام ثنائي أو نظام له أربع عشرة حالة اعرابية مثلا » .

ويستطرد فيرث في توضيح هذه النقطة قائلا :

« ان المفرد في نظام لغوي ثنائي العدد له معنى نحوي مختلف عن المفرد في نظام ثلاثي العدد (كاللغة العربية . المترجم) . أو رباعي العدد كاللغة الفيجية Fijian التي تفرق رسميا بين المفرد والمثنى والجمع القليل والجمع الكثير » .

ونجد كذلك أن فكرة التحليل الصوتي التطريزي تهدف ، من جملة أشياء ، الى بيان ظلال المعاني في سياق الاستعمال . ولذلك نجد أن فيرث يكرر في مواطن كثيرة من كتاباته أن دراسة اللغة هي بالدرجة الأولى دراسة للمعنى . وهذا التفكير يتخذ منحى واضحا ومحددا عند هاليدي الذي ينظر الى اللغة على أنها نوع من السلوك الدلالي المحتمل meaning potential . والمقصود بالسلوك الدلالي المحتمل هو ما يستطيع المرء أن يؤديه أو يفعله باللغة (Halliday 1973: 51) .

والابداع اللغوي creativity عندئذ لا يكمن ، كما يرى التحويليون في قدرة المتكلم على توليد أو خلق جمل جديدة ، وإنما يكمن في قدرة المتكلم على خلق معان جديدة . وهذا المثال يوضح الاختلاف الجذري بين اتجاه شومسكي العقلاني واتجاه هاليدي الوظيفي . ففي حين ينظر شومسكي الى اللغة على أنها شيء « تعرفه » ينظر هاليدي الى اللغة على أنها شيء « تفعله » . ويفسر هاليدي ظاهرة اكتساب الطفل للغة الأم بأنها تنطوي على تعلم لاستعمالات اللغة في الظروف الاجتماعية المختلفة ، وللمعاني المرتبطة بهذه الاستعمالات . والتراكيب والكلمات والأصوات عبارة عن الوسائل والأطر التي تتحقق عن طريقها احتمالات المعاني . (راجع أيضا Halliday op. cit) .

النحو النظامي

يعتبر النحو النظامي systemic grammar من أكثر الاتجاهات النظرية تكاملا عند مدرسة لندن . وقد وضع أسسه النظرية البروفيسور مايكل هاليدي ، ثم توسع أتباعه ومريدوه في التطبيقات والتفريعات[١٢]. والنحو النظامي مبني على أساس تعدد وظائف اللغة multiple function . وهذا المبدأ ينعكس على النظام اللغوي ، فنجد أن كل تركيب أو بناء لغوي يؤدي وظيفة مختلفة . وهذا يعني أن مستعمل اللغة يجد أمامه من الوسائل التعبيرية ما تمكنه من التعبير عن أفكاره ومشاعره . هذه الوسائل ليست في الواقع سوى الاستعمالات الفعلية للنظام اللغوي . ومن ثم فإنه من الصحيح أن نقول إن الوسائل التعبيرية المتاحة للمتكلم ، أو الاستعمالات التي من الممكن أن يلجأ اليها مستعمل اللغة تكون في حدود الامكانيات اللغوية الموجودة في اللغة . هذه الامكانيات هي عبارة عن خصوصيات كل لغة .

هذا التركيز على الجانب الوظيفي للغة من قبل النحو النظامي ، يجعل المهمة الرئيسية التي ينبغي الاضطلاع بها منذ البداية هي تصنيف هذه الوظائف الرئيسية ضمن نظام نحوي يعكس بالدرجة الأولى تلك الاستعمالات . والنظام

(١٢) انظر حول هذه التفريعات مثلا بتلر (Butler 1989) .

النحوي الذي قدمه هاليدي عبارة عن شبكة ضخمة من العلاقات المتداخلة لأنه مبني على وظائف اللغة كما تصورها . وليس من الممكن استيعاب النظام بأكمله في هذه المقالة ، ولذلك فسأكتفي بتوضيح الصورة من خلال التطرق لفكرة التعدي واللزوم في اللغة .

ان نمط التعدي واللزوم عند هاليدي يتمثل في العلاقات التي يمكن تأسيسها ما بين « النشاط » process type و« المشاركين » participants .

لنقرأ الجمل التالية :

١ ـ بكى الطفل .
٢ ـ أركض في المساء .
٣ ـ انفجر الوضع الأمني في لبنان .
٤ ـ مرض عميد الكلية في بداية الفصل الدراسي .

تحتوي كل جملة من الجمل السابقة على عنصرين :

(أ) نشاط يمثله الفعل .

(ب) ومشارك واحد هو عبارة عن الاسم سواء أكان عاقلا أم جامدا . وإذا تأملنا الأمثلة السابقة لنتعرف على نوع النشاط فيها ، فسنجد أن المثالين (١) و (٢) يدلان على حركة action ، بينما المثالان (٣) و (٤) يبينان حدثا event . والمشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على حركة يسمى « عامل »[١٣] actor . أما المشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على حدث فنسميه « متأثر » patient .

وحينما يقتصر النشاط على العامل أو المتأثر فهو « نشاط قاصر » عندئذ non-directed action . أما حينما ينطلق النشاط من العامل ولا يتوقف عنده بل يتجاوزه الى عنصر ثان في الجملة فهو نشاط مجاوز directed action ، كما في الأمثلة التالية :

٥ ـ كتبت الطالبة المستجدة بحثا جيدا .
٦ ـ شرح المعلم الدرس .

(١٣) أي القائم بالعمل أو النشاط . وقد تجنبت استخدام المصطلح الشائع (فاعل) وذلك بهدف توضيح المفاهيم الجديدة . وغني عن القول ان هذا المصطلح بمعناه الجديد لا يمت بأية صلة لمصطلح الفاعل المعروف في النحو العربي ، والذي يقصد به العنصر المعنوي أو الظاهر الذي يتسبب في جلب العلامات الاعرابية الظاهرة أو المقدرة على أواخر الكلمات .

وهذا العنصر الثاني يطلق عليه مصطلح الهدف goal لأنه عبارة عن نتيجة النشاط أو أثر النشاط الذي قام به العامل . ونجد في بعض التراكيب أن ما يمثل نتيجة النشاط هو عبارة عن مشارك نطلق عليه مصطلح الظرف ، كما في الأمثلة التالية :

٧ ـ أشار الأستاذ الى السبورة .
٨ ـ غرد العصفور فوق الشجرة .
٩ ـ جلس التلميذ على الكرسي .

والآن دعونا نقرأ الأمثلة التالية :

١٠ ـ يكلف الكتاب عشرين دينارا .
١١ ـ يشبه زيد أباه .
١٢ ـ يملك علي سيارتين .
١٣ ـ بدت الفتاة سعيدة .

ان الأفعال في هذه الأمثلة تشبه النوع الثاني من أنواع النشاط (أي النشاط المجاوز) والاعراب الشكلي الظاهري يعامل (٥ ـ ٦) و (١٠ ـ ١٣) معاملة واحدة ولكن الأمر بالنسبة للجمل الأخيرة (١٠ ـ ١٣) تختلف . فنحن نرى أن النشاط في تلك الأمثلة (أي الفعل) ليس حركة وليس حدثا ، ولكنه يعبر عن وضع من الأوضاع state ، ولذلك فهو فعل وضع stative verb . أما الاسم المرفوع الذي يأتي بعد أفعال الوضع فلا يقوم بعمل ولا يتأثر به ، ومن ثمّ فلا يصح أن نطلق عليه مصطلح العامل . وبالتمعن في وظيفته نجده عبارة عن شيء يتصف بالحقيقة التي يرد ذكرها في النشاط (المذكور قبله) . ومن ثم فسنختار له دورا نسمّيه « متّصف » . أما الاسم المنصوب في تلك التراكيب فالظاهر من وظيفته العامة أنه يبين الشيء الذي اتصف به المتّصف ، ولذلك فسنسميه وصفا . وقد يكون الوصف عددا وقد يكون اسما صريحا .

ونجد أيضا في اللغة العربية جملا من قبيل ما يلي :

١٤ ـ أعطى ابنه مبلغا من المال .
١٥ ـ منح المدير سكرتيرته أجازة مرضية .
١٦ ـ أهدى زوجته خاتما من الماس .

ان الأفعال في هذه الجمل أفعال حركة ، والنشاط فيها بطبيعة الحال من النوع المجاوز . ولكننا هنا بإزاء نوع مختلف من النشاط . فالحركة التي تصدر من العامل ذات بعدين . فهي من جانب تؤثر في شيء (غالبا ما يكون عاقلا) ، وهي من جانب آخر تبين الأثر الذي ترك في هذا الشيء نتيجة للنشاط . وهذا يعني أن هناك مشاركين اثنين

(غير العامل) في هذا النوع من الجمل . ولو أعدنا قراءة الجمل السابقة (١٤ ـ ١٦) بدقة فسنجد أن المشارك الأول منها عبارة عن شيء أو عنصر استفاد من العمل الذي صدر من العامل . أما الثاني فهو الشيء المستفاد ، أي أنه مجرد أثر أو نتيجة للنشاط . وتبعا لهذه الوظائف فسنسمي الأول « مستفيد » beneficiary ، وسنسمي الثاني « هدف » ، والتسمية الثانية تعد من الوظائف التي مرت بنا قبل قليل .

منح	المدير	سكرتيرته	أجازة	مرضية
نشاط مجاوز	عامل	مستفيد	هدف	صفة

ونجد في الجدول التالي تلخيصا لأنواع النشاط والمشاركين التي ذكرنا نماذج لها في هذا العرض الموجز .

نوع النشاط	المشاركون	
حدث « مرض »	الفاعل = متأثر « عميد الكلية »	
حركة (نشاط قاصر) « أركض »	الفاعل = عامل « أنـا »	
حركة « نشاط مجاوز » « شرح » « غرد »	« المعلم » « العصفور » } الفاعل = عامل	المفعول به = هدف « الدرس » المفعول به = ظرف « فوق الشجرة »
وضع « يكلف » « يشبه »	« الكتاب » « زيد » } الفاعل = متصف	المفعول به = وصف (عدد) « عشرين دينارا » المفعول به = وصف (صريح) « أباه »
حركة (نشاط مجاوز) « منح »	الفاعل = عامل « المدير »	المفعول به = مستفيد « سكرتيرته » المفعول به = هدف « أجازة »

هذه مجموعة محددة من الجمل المستعملة في اللغة العربية ، والقصد منها هو رسم صورة توضيحية لكيفية تداخل الأدوار والمشاركين في النحو النظامي . ولو كان المجال يسمح بالاستطراد لوسّعنا من حجم الأمثلة لتعالج مجاميع أخرى من الأدوار والمشاركين(١٤) . ولكن هذه الأمثلة المحددة تعتبر بحد ذاتها كافية لتوصلنا الى الخلاصة التي نريد التوصل اليها هنا . إن النحو النظامي يلغي ذلك التقسيم الحاسم للأفعال الى لازم ومتعد ، والذي ينبثق من أسس صرفية ، ويعتبر التعدي واللزوم من وظيفة الجملة بأكملها ، لأن الوظائف اللغوية تؤدّى عن طريق الجملة المتكاملة . ويكون تحديد الأدوار ونوعية المشاركين على أساس وظيفتها الدلالية في الجملة . ولذلك فانه يجب أن نعتبر « العامل » و « الهدف » وغيرهما من الأدوار الوظيفية على أنها وظائف دلالية وليست وظائف نحوية . ومن الواضح بعد ذلك أن نرى هاليدي يحاول أن يقيم نظاما نحويا على أسس دلالية وظيفية ، لأنه يعتقد أن نحو كل لغة مصمم بكيفية معينة لتمكن المستعمل من أداء المعاني المختلفة . والحقيقة الواضحة عندئذ أنه حينما نكتب نحو لغة ما فاننا نبحث عن وسائل أداء تلك اللغة للمعاني .

لكن هذا النمط من التحليل الذي يعول على وظيفة الجملة في التعبير تعويلا تاما لا يخلو من صعوبات . وقد صرحت مارغريت بري (Berry 1982: 77) ، وهي من أقطاب هذا الاتجاه ، بأنه من السهل أن نفكر في أمثلة حيث يتداخل ما نظنه نظامين ضمن نظام واحد . وهي تقصد أن تحديد وظيفة المشارك على وجه الدقة قد لا يكون أمرا سهلا في بعض الحالات . فمثلا حينما نقول : « تزوج المدير سكرتيرته » فهل نصنف « المدير » في هذا المثال على أنه « عامل » أو « مستفيد » ؟ هناك من الباحثين المعاصرين (Schlesinger 1989: 193) من اقترح أن يكون تعيين عضوية المشارك في مثل هذه الحالات مسألة درجات ، أي أنه علينا أن نقلب الأمر على وجوهه وندخل اعتبارات السياق حتى نستطيع أن نرجح وظيفة على أخرى غيرها .

الوظيفية عند هايمز

ان النمط الوظيفي الذي اقترحه هايمز Hymes يعتبر في جوهره رد فعل للتيار العقلاني الذي نشره شومسكي وأتباعه منذ منتصف الستينات . لقد قصر شومسكي معرفة الفرد بلغته على الملكة الذهنية التي سماها « القدرة » competence ، والجانب التنفيذي الذي سماه « الأداء » performance . والقدرة تتمثل في تمكن الفرد من القواعد الضمنية underlying rules التي يلجأ الى استعمالها أثناء الأداء . أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي للغة (Chomsky 1965: 4) ، على نحو ما هو موضح في الشكل التالي :

(١٤) أنظر مصطفى المغلي (١٩٧٦) حول الجمل التي تعكس مفهوما نحويا .

معرفة الفرد باللغة

القدرة

أ ـ التمكن من جميع القواعد الضمنية

ب ـ توليد عدد لا متناه من الجمل الصحيحة نحويا

الأداء

أ ـ انعكاس القدرة

ب ـ الخلق (أو الابداع) : استخدام القواعد اللغوية في سياقات جديدة .

والأمر اللافت للنظر في هذا التعريف أن شومسكي يرى أن معرفة الفرد بلغته تنحصر في الملكة النحوية التي يتمتع بها هذا الفرد والتي تمكنه من توليد الجمل الجديدة . لقد توقف هايمز عند هذه النقطة على وجه التحديد ، ورأى أن تعريف شومسكي للقدرة اللغوية تعريف ضيق لا يناسب الطبيعة الاجتماعية للغة . ومن ثم فقد اقترح أن تستبدل بفكرة « القدرة على الاتصال » communicative competence ان اللغة وسيلة اتصال في المجتمع ، ومن ثم فإن أي حديث عن قدرة المرء على اللغة ينبغي أن يرتبط باستعمال اللغة في بيئة ثقافية ـ حضارية معينة . ويرى هايمز (Hymes 1971: 281 ff.) أن قدرة المرء على اللغة لها أربعة مظاهر تنبع كلها من استعمال اللغة :

أ ـ الى أي حد يكون الشيء « ممكنا » possible (نحويا) . وهذا المظهر يشير الى امكانيات اللغة وانفتاحها .

ب ـ الى أي حد يكون الشيء « معقولا » feasible استنادا الى وسائل التنفيذ المتاحة . والتركيز هنا على الجوانب النفسية التي نستخدمها في تنفيذنا للغة ، مثل الذاكرة والتخطيط الذهني للكلام ، والفهم الخ .

جـ ـ الى أي حد يكون الشيء « مناسبا » appropriate وذلك ضمن السياق الذي يستعمل فيه هذا الشيء » . وهذا يشير الى فكرة الاستعمالات اللغوية language registers والأساليب اللغوية styles التي يلجأ مستخدم اللغة اليها في الظروف المختلفة متخذا لكل حالة ما يناسبها من مفردات وطريقة تعبير ، مع مراعاة الأعراف والتقاليد الاجتماعية .

د ـ الى أي حد يكون الشيء « قد أنجز » (من حيث الأداء) . أي ماذا نطق المتكلم من عبارات وجمل وماذا يستتبع هذا النطق من سلوك . وهذا المظهر يتكلم عن محوري المتكلم والمتلقي في آن واحد : ماذا يستطيع أن يقوله الفرد كمتكلم ، وماذا يستطيع أن يتقبله كمتلق .

والصورة النهائية التي يمكن أن نخرج بها بعد قراءتنا لهذه المظاهر الأربعة هي أن مفهوم « القدرة » لم يعد مقصورا على المعرفة البحتة بقواعد اللغة وتوليد عدد لا متناه من الجمل ، وانما أدخلت فيه اعتبارات وظيفية جعلته يشمل أمورا أخرى من بينها .

أولا : أنه يفسح المجال لعنصر النية أو القصد في التعبير . فقد يستعمل المتكلم في موقف ما جملة تبدو من حصيلة مفرداتها أنها جارحة أو تنطوي على اهانة ، ولكن المتكلم يقصد بها المزاح أو الدعابة في ذلك الظرف . وذلك كأن يقول أحدنا لصديق أو زميل له في العمل رآه لتوه قد صعد السلم وهو يتنفس بقوة : « هكذا العجائز ، حينما يصعدون على السلم يلهثون ، ويحتاجون الى ساعة لالتقاط أنفاسهم » . ولذلك فان الأمور ستضطرب لو أن المستمع حمل الكلام محمل الجد .

ثانيا : أنه يصرح بوجود مهارات أخرى عديدة يتمتع بها المتكلم والمتلقي بحكم كونهما أفرادا في بيئة اجتماعية ـ ثقافية معينة ، مثلا مهارة الاستماع واظهار الكياسة والأدب ، والرغبة في الابقاء على مودة زمالة العمل وغيرها .

ثالثا : أنه يؤكد على أهمية التقاليد الاجتماعية والأعراف والموروثات الشعبية في استعمالنا للغة وفهمنا وتحليلنا لها .

والملاحظ في اتجاه هايمز أنه لا يقترح نموذجا لغويا يمكننا من الاستفادة من هذه الملامح الاتصالية في التحليل ، كالذي وجدناه مثلا عند مدرسة براغ ومدرسة لندن . ولذلك فان النموذج الوظيفي الذي يقدمه عبارة عن مقترحات عملية في الجانب الدلالي على وجه الخصوص . ومن الممكن توظيف النموذج في مجال تحليل النصوص text analysis . وفي هذا المجال نجد أن آراء هايمز تلتقي مع آراء هاليدي التقاء واضحا .

التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفي

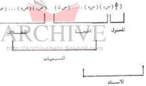
اتخذ الاتجاه الوظيفي منعطفا واضحا عند اللغويين الغربيين في جامعات هولندا وألمانيا وبلجيكا واليابان وغيرها . وهذا الاتجاه الجديد يجمع بين المرتكزات النظرية للاتجاه الوظيفي والتي ذكرناها في بداية بحثنا هذا ، وبين المنطق الصوري . لكن الواضح أن الاتجاه الوظيفي في شكله المطور والذي يسميه أصحابه بالنحو الوظيفي Functional Grammar ، يتعامل مع ثلاثة مستويات في التحليل ، لكل واحد منها مجاله ومصطلحاته . يرى « سايمون دك » (Dik 1978: 13) ، وهو أحد أبرز منظري هذا الاتجاه وكتابه ، أن جملة مثل « أكل محمد التفاحة » يمكن أن تحلل على ثلاثة مستويات مختلفة :

١ ـ المستوى النحوي	فعل	فاعل	مفعول به
٢ ـ المستوى الدلالي	فعل	عامل	هدف
٣ ـ المستوى البراغماتي	مسند	متمم	
	(theme)	(tail)	
أو :	موضوع	بؤرة	
	(topic)	(focus)	

وهناك من الوظيفيين المعاصرين من يكتفي بمستويين اثنين : مستوى يمثل التمثيل النحوي والدلالي للعناصر rep-resentational level ، ومستوى يمثل العناصر المشاركة في الحديث اللغوي interpersonal level (انظر Hengeveld 1989: 128) .

والجملة في « النحو الوظيفي » عبارة عن إسناد predication ، وهذا الاسناد يتكون من عدد من المسميات Terms التي هي عبارة عن تعبيرات expressions لها خاصية الاشارة ، أي مسميات يمكن أن تستعمل للاشارة الى موجودات في العالم . ونحن نستطيع أن نتوصل الى الاسناد وذلك بأن نملأ ما يمثل خانة المحمول predicate (وهو يبين العلاقة ما بين الموجودات أو خصائص الموجودات) وأن نملأ ما يمثل خانة الحجة argument (التي هي عبارة عن المسميات التي تستبدل بها المتغيرات) . ثم بعد ذلك تأتي الفضلات أو المكملات satellites (أي ما ليس بعمدة مثل الحال والتمييز والصفة . . .) .

ويمكن توضيح المصطلحات بالشكل التالي :



(راجع Dik 1978: 25, 26) .

وفي هذا الشكل يمثل (س١ . . . . س ن) متغيرات يمكن تعيين وظيفتها الدلالية . ولتعيين الوظائف الدلالية فان الجملة تقدم في « النحو الوظيفي » على شكل اطار اسنادي predicate frame . والمثال التالي يوضح هذا الجانب :

وزع (س١ : انسان (س١)) (س٢) (س٣ : ذو حياة (س٣))

فعل	عامل	هدف	مستلم
وزع	الاستاذ	الأوراق	على التلاميذ

ولنأخذ فيما يلي مثالا توضيحيا آخر :

اغتال (س^{1} : انسان (س^{1})) (س^{2} : انسان (س^{2}))

فعل	عامل	هدف
اغتال	جنود الاحتلال	شابين فلسطينيين

وهكذا فلكل جملة اطار اسنادي مصمم لبيان وظيفتها . وفي هذا الاطار الاسنادي يتم استبدال المتغيرات بمسميات تتفق في خصائصها الاختيارية selectional restriction مع المحمول . أي أن الاطار الاسنادي التالي لا يصلح لتحليل جملة مثل (اغتال الظلم فكري) لأن العامل والهدف كليهما أسماء مجردة . ونجد في بعض الكتابات المعاصرة أن هذه المتغيرات يتم استبدال قيمها برموز منطقية على مستوى التمثيل الشكلي (Hengeveld 1989: 131) .

ولعل القارىء يلاحظ أن هذا النمط الوظيفي في شكله المطور يختلف عما قدمته المدارس الوظيفية السابقة من تحليل غير معقد مستمد من الاستعمال المباشر وليس من تطبيق المنطق . ولم يكن الوظيفيون المتقدمون يقفون عند الوظيفة الذهنية في اللغة إلا بقدر ما تعكس قضية تخطيط المرء للغة . فنقطة الخلاف اذن بين المجموعتين هي أن الوظيفيين يحللون اللغة من خلال مصطلحات دلالية تدل دلالة مباشرة على وظيفة الجملة . بينما الوظيفيون الجدد يرون أن الوظيفة يمكن ابرازها بالاسناد المنطقي ، ولكن الجميع يتفقون حول فكرة عامة تجعل الاتجاه الوظيفي متميزا من بين الاتجاهات اللغوية الأخرى ، وهذه الفكرة تتمثل في أن اللغة أداة اتصال في الحياة الاجتماعية ، وأن القواعد الاجتماعية والأعراف والتقاليد تتحكم في اللغة . وحينما نصف اللغة فانما يجب أن نصفها من خلال وظيفتها في البيئة الاجتماعية التي تؤدي فيها تلك اللغة وظيفتها .

وقد أخذت الدراسات الوظيفية في السنوات الخمس الأخيرة تركز على المجالات المتعلقة بالأسلوب والمستويات اللغوية وأسس الترابط في النص cohesion ، وذلك من خلال تحليل النصوص text analysis وهذا المصطلح يطلق على الدراسة الوظيفية لمكونات النص اللغوي سواء أكان هذا النص عبارة عن عمل أدبي مطبوع written text ، أم كان مجرد نص منطوق oral text . ولكن نظرا لأن اختلاف نوعي النص (المكتوب والمنطوق) يثير قضايا تفصيلية مختلفة ، فقد انفردت اللغة المستعملة في التحاور والمناقشات بمصطلح خاص يدل دلالة مباشرة على نوع الدراسة ، وهذا المصطلح هو « تحليل المحادثة » discourse analysis وفي هذا المجال يكون التركيز على ظواهر تبرز في لغة الكلام خاصة ، مثل النبر والتنغيم ، والتقسيم المقطعي للكلمات ، وايقاع الكلام ، وتقسيم الكلام الى وحدات لغوية حسب المعلومات التي يريد المتكلم التعبير عنها .

* * *

المراجع

ـ أحمد مختار عمر (١٩٧٦) « دراسة الصوت اللغوي » . عالم الكتب ، القاهرة .

ـ تمام حسان (١٩٧٣) « اللغة العربية معناها ومبناها » . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

ـ مصطفى لطفي (١٩٧٦) « اللغة العربية في اطارها الاجتماعي » . معهد الانماء العربي ، بيروت .

ـ يحيى أحمد (١٩٨٤) « المعنى بين الاتجاه التجريدي والاتجاه الوظيفي » . المجلة العربية للعلوم الانسانية ، المجلد الرابع ، ص ص ٥١ ـ ٧٠

— Berry, M (1982) 'Review of Halliday 1978' **Nottingham Linguistic Circular**, No. 11, pp. 64-94.

— Butler, Chris S. (1989) 'Systemic models: Unity, diversity and change.' **Word** 40 pp. 1-35.

— Chomsky, N. (1965) **'Aspects of the Theory of Syntax'** MIT Press Cambridge, Mass.

— Danes, F. (1966) 'A Three-Level Approach to Syntax' **TLP** 1m pp. 225-240.

— Dikm Simon C. (1978) **'Functional Grammar'** North-Holland Publishing Company, Nether Lands.

— Firbas, J. (1959) 'Thoughts on the Communicative Function of the Verb in English, German and Czech' **BSE** 1, pp. 39-63.

— Firbas, J. (1966) 'Non-Thematic Subjects in Contemporary English' **TLP** 2, pp. 239-254.

— Firbas, J. (1971) 'On the Concept of Communicative Dynamism in the Theory of Functional Sentence Perspective' **Sbornik Praci Filosoficke Fakulty** Brnesk University A 19, pp. 135-144.

— Firth, J.R. (1950) 'Personality and Language in Society' Reprinted in Firth (1957).

— Firth, J.R. (1951a) 'Models of Meaning' Reprinted in Firth (1957).

— Firth, J.R. (1951b) 'General Linguistics and Descriptive Grammar.' Reprinted in Firth (1957).

— Firth, J.R. (1957) **'Papers in Linguistics 1934-1951** 'Oxford University Press.

— Halliday, M.A.K. (1973) **'Exploration in the Functions of Language'** Edward Arnold.

— Halliday, M.A.K. (1978) **'Language as Social Semiotic.'** Edward Arnold.

— Halliday, M.A.K. (1985) **'An Introduction to Functional Grammar'** Edward Arnold.

— Hengeveld, K. (1989) 'Layers and Operators in Functional Grammar,' **JL**, 25, No. 1, pp. 127-157.

— Hymes, D. (1971) 'On Communicative Competence.' in: J.B. Pride and J. Holmes (eds). **Sociolinguistics** Harmondsworth: Penguing Books.

— Langendoen, D.T. (1968) **'The London School of Linguistics.'** Cambridge, Mass; MIT Press.

— Sampson, G. (1980 **'Schools of Linguistics'** Hutchinson; London.

— Schlesinger, I.M. (1989) 'Instruments as Agents: On the Nature of Semantic Relations.' **JL**, 25 No. 1, pp. 189-210.

— Vachek, J. (1966) **'The Linguistic School of Prague.'** Indiana University Press.

— Wilson, D. (1978) 'Introduction to Semantics. Lecture Notes.' Department of Linguistics and Phonetics U.C.

الدراسة الإحصائية للأسلوب
بحث في المفهوم والإجراء والوظيفة

سعد مصلوح
أستاذ مشارك بكلية التربية الأساسية ـ الكويت

فاتحة البحث :

يقول الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) في (الاتقان) : (وقال الهذلي في كامله :) (اعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفراني : العدد ليس بعلم ، وإنما اشتغل به بعضهم ليروج به سوقه)(١) . وقد سيقت مقالة الزعفراني هذه في حق طائفة من العلماء اشتغلت بتتبع بعض المؤشرات الكمية في الأسلوب القرآني . ولكنها ـ على قدمها ـ تكاد تكون تعبيراً عن شكوك مترادفة يطرحها كثير من المعاصرين في جدوى المعالجة الإحصائية للأساليب(٢) . وتستند هذه الشكوك إلى بدهية تبدو ظاهرة الصدق ، فقد لُحظ أن جمهور أئمة النقاد من لدن أرسطو إلى العصر الحديث عالجوا باقتدار أعقد مشكلات النص الأدبي دون أن يحسوا حاجة ملحة تلجئهم إلى اصطناع الطرق الإحصائية والاستدلال بنتائجها . بل إن المقاربة الإحصائية لم تحظ عند عدد من أعلام اللسانيين المحدثين مثل سوسير وبلومفيلد وتشومسكي بنصيب ملحوظ من العناية . على أن ذلك لم يطعن على هؤلاء الأعلام ، ولم يؤخر منزلتهم بين أهل العلم . وإذا كان الدرس الأدبي واللساني كلاهما قد كان ولم يكن إحصاء فما وجه الضرورة إذن في اصطناعه ضرباً من ضروب المُقاربة للظاهرة اللسانية بعامة ، والأسلوبية خاصة ؟

---

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ١ / ٢٤٤ .

(٢) انظر : على سبيل المثال لا الحصر : صلاح فضل ، علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ، كتاب النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، ط ٣ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ، وشفيع السيد : الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

والحق أن هذا الاعتراض القديم الجديد يعتضد أيضاً بظهور عدد وافر من الإشكالات المعرفية والمنهجية التي أثارتها الظاهرة الأسلوبية نفسها ، وما تزال تتردد في أدبيات هذا العلم دونما جواب حاسم . وحسبنا هنا أن نشير إلى رؤوس من هذه المسائل : فما حد الأسلوب ؟ ، وهل يعرَّف بالإضافة إلى المنشيء بوصفه اختياراً ؟ أم إلى ذات الرسالة بوصفها شفرة لغوية ؟ أم إلى المتلقي بوصفه مجموعة من المثيرات والمنبهات التي تستدعي انفعالات ومواقف وأحكاماً معينة(٣) ؟ وهل ثمة مشروعية معرفية لاختصاص ظاهرة الأسلوب بعلم قائم برأسه بحيث يكون من العلوم المتجاذبة الاختصاص interdisciplinary؟ أم أن دراسة الأسلوب ينبغي أن تكون فرعاً من علم آخر ؟ وإذا صح الفرض الأخير فأي العلوم في هذه العلاقة يكون أصيلاً وأيها يكون تابعاً ؟ وكيف تتحدد العلاقة بين الأصيل والتابع ؟

وينتقل الخلاف حول هذه المسائل المنهجية إلى معسكر اللسانيين مع اتفاق جمهرتهم على اعتبار ظاهرة الأسلوب موضوعاً من موضوعات العلوم اللسانية ، وذلك حين ينظرون في أمر العلاقة بين الدرس الأسلوبي والدرس اللساني ، هل هي علاقة فرع بأصل ؟(٤) أم أن كليهما أصل بنفسه ؟ وما كان المكون الأسلوبي من بنية النص ، أتراه ينتشر على كافة مستويات التحليل الصوتية والصرفية والنحوية على ما يقول شاتمان S. Chatman أم أنه مستوى قائم بنفسه على قول جالبيرين Galperin(٥) ؟ على أن المدارس اللسانية تتفاوت تفاوتاً كبيراً في مدى ما توليه من عناية لدراسة ظاهرة الأسلوب ، وفي تحديد موضع المكون الأسلوبي من ثنائيات كثيرة اشتهرت بين النقاد اللسانيين ، مثل ثنائية الشكل والمضمون ، وثنائية النمط والانحراف (أو الأصل والعدول) ، وثنائية النطق والتدوين ، وثنائية لغة الفكر ولغة اللسان ، وثنائية اللغة والكلام ، وثنائية الجملة وما وراء الجملة . وهو اختلاف ينتج آثاراً بعيدة المدى على المستويات النظرية والتطبيقية وإجراءات التحليل . وثمة أيضاً مسألة تتعلق بالخيار الأسلوبي ، أهو خيار يتم فيه التشكيل الأسلوبي عن وعي واختيار وإرادة من المنشيء أم أنه عملية خاضعة للغة بوصفها من المعطيات التاريخية القاهرة والمهيمنة على عملية الإبداع(٦) .

تلكم السلسلة التي لا نهاية لها من الخلافيات لم تحسم بعد ، ولا نتوقع لها حسماً قريباً . إنها أسئلة تكاد تكون أبدية ،

---

(٣) أدت هذه الثلاثية إلى تقسيم الأسلوبيات إلى أسلوبيات تعبيرية ، وأسلوبيات أثرية وأسلوبيات موضوعية . وانظر عرضاً مفصلاً لهذه الاتجاهات وغيرها في :

1-H. F. Plett, "Concepts of style : A Classificatory and a Critical Approach", Language and Style, Vol. no 4, Fall, 1977, PP. 268-9.

2- W. O. Hendricks, "The Notion of Style", Language and Style, Vol. V111, No. 1, Winter, PP. 35-43.

(٤) حول العلاقة بين الأسلوبيات واللسانيات انظر

Nils Erik Enkvist, "Linguistic Stylistics" Mouton, 1973, PP. 16-17.

(٥) نوقش هذان الرأيان بالتفصيل في :

Nils Erik Enkvist "On the place of Style in Some linguistic theories" in Literary style : A symposium" ed. S. Chatman, Oxford Univ. Press, 1971, PP. 52-3.

(٦) الرأي الأخير هو لرولان بارت وللمزيد من التفصيل ينظر :

Roland Barthes, "Style and its Image", in Literary Style, Op. cit, P. 8.

وأيضاً عبد الله صولة : « الأسلوبية الذاتية أو النشوئية » ، مجلة فصول ، مج ٥ ، ع ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٨٩ .

وستظل دائماً محاور للحوار والخلاف بين أهل العلم . وكل هذه الخلافات وارد على أصل قضية الأسلوب بما هو ظاهرة ، وعلى قضية الأسلوبيات بما هي علم أو مجال معرفي متميز . ومن البدهي أن قضية المعالجة الإحصائية للأسلوب لن تكون بمنجى من تأثير هذه الخلافيات سواء من جهة المفهوم أو الإجراء أو الوظيفة ، بل من جهة الحاجة إليها أصلاً .

وإذا كان من الصعب أن يُستوفى القول في جميع ما سبق من قضايا ، إذ يفضي بنا ذلك إلى الخروج عن أصل الغاية التي نصبت لها هذه الدراسة – وكان من المحالات المنهجية أيضاً أن نُعرض عنها بالكلية في هذا المقام ، لوثاقة العلاقة القائمة بينها وبين سلسلة التصورات المنهجية والتحليلية التي تشكل قوام البحث . لذلك كان سَوَاءُ الأمر هو أن نستفرغ الوسع في استقصاء ما يتصل من هذه المعضلات الخلافية بقضية الدراسة الإحصائية للأسلوب اتصالاً مباشراً ، وفي إرجاء الحديث المفصل حول الفروع والجزئيات ، مع الإشارة إليها في مظانها ، ليستقيم لنا البحث في أمر الإحصاء الأسلوبي من حيث المفهوم والإجراء والوظيفة . وهذه الثلاثة المحاور تقع تحتها منظومة المشكلات النظرية والتطبيقية التي يثيرها الدرس الإحصائي للأسلوب . وتشكل في الوقت نفسه البنية الأساسية لهذا البحث على الوجه التالي :

١ ـ مبحث المفهوم ، ويشمل :

١ ـ ١ ـ الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي .

١ ـ ٢ ـ ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي .

٢ ـ مبحث الإجراء ، ويشمل :

٢ ـ ١ ـ المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية .

٢ ـ ٢ ـ التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية (أسلوبيات المقال) .

٢ ـ ٣ ـ أسلوبيات المقام .

٢ ـ ٤ ـ التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام / المعنى / المقال .

٢ ـ ٥ ـ التشخيص الأسلوبي .

٢ ـ ٦ ـ المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص .

٢ ـ ٧ ـ النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبي .

٢ ـ ٨ ـ إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوبي .

٣ ـ مبحث الوظيفة ، ويشمل :

٣ ـ ١ ـ مفهوم للقياس الأسلوبي الإحصائي .

٣ ـ ٢ ـ مجالات تطبيقه

٣ - ٣ - أنماط المقاييس الأسلوبية .

٣ - ٤ - مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي .

٤ - كلمة خاتمة : عن قضايا العربية ، والمعالجة الإحصائية :

وفي ما يلي يعالج البحث هذه المسائل على الترتيب السابق ذكره .

١ - مبحث المفهوم

١ - ١ - الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي :

لا شك أن ظواهر السلوك اللغوي لدى أي جماعة لغوية إنما تتصف ، في بعض مستوياتها الاتصالية على الأقل وفي بنية شفرتها ، بالوحدة والتجانس ، لأنها لو لم تكن كذلك لاستحال التواصل بين المتكلمين بها . وأول الشروط لتحقيق التفاهم أن يكون المرسل والمستقبل كلاهما على علم بالشفرة المشتركة ، وبتحققها الفيزيقي من حيث رموزها ، وعلاماتها ، وقواعد تأليفها ، ومفاتيح حلها .

بيد أن التنوع في تجليات الشفرة اللغوية الواحدة حقيقة تشهد بها الملاحظة ، ويصدقها العلم ، فالسلوك اللغوي يتباين تبايناً ظاهراً بين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة ، حتى إن التجارب المختبرية لتقطع بأن الفرد الواحد لا يكرر كلمة واحدة عند أدائها بجميع خصائصها الأولى في ظرفين مختلفين ، وهكذا تتنازع السلوك اللغوي عوامل جغرافية محلية ، وانتماءات اجتماعية موحدة Group affiliations وانتماءات اجتماعية متعارضة Cross affiliations[٧] في خطوط ودوائر متداخلة ومتقاطعة حتى يبلغ التنوع مداه ، مُشكِّلاً ما اصطلح على تسميته بلهجة الفرد idiolect ، وهي مجموعة السمات المميزة للسلوك اللغوي عند فرد بعينه في جماعة لغوية بعينها .

هذا التنوع في إطار الوحدة هو ما حاولت النظرية اللسانية الحديثة تفسيره من خلال ثنائية اللغة والكلام Langue/ Parole عند سوسير ، أو ثنائية الكفاءة والأداء Competence/Performance عند تشومسكي على خلاف بين الثنائيتين في المنطلق الفلسفي ، ومن ثم في الإجراءات التحليلية والغايات[٨] . غير أن النظرية اللسانية الحديثة قامت في الأساس على افتراض الوحدة والتجانس ، وصرفت عنايتها في المقام الأول إلى دراسة ما هو عام ومشترك في إطار ما سمي باللسانيات التقريرية deterministic linguistics ، وشغلت دراسة التنوعات والفروق المحل الثاني من الاهتمام ، واضطلعت به مجموعة من العلوم تدخل ضمن ما يسمى باللسانيات الاحتمالية Probabilistic linguistics . وإلى هذه

---

(٧) سعد مصلوح : الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٨) عن الأصول الفنية والفلسفية لنظرية تشومسكي انظر : جون ليونز : نظرية تشومسكي اللغوية ترجمة حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٠٧ - ٢١٠ وص ٢٤٧ - ٢٥١ . وصلاح محمود قاني : أزمة النحاة في التاريخ ، جدة ، ١٩٣٦ ، ص ٩ - ١٦ ، ص ١٧ - ٢٢ وجون سيرل : تشومسكي والثورة اللغوية ، مجلة الفكر العربي ، ع (٨/ ٩) ، ١٩٧٩ ، ص ١٢٤ - ١٦٧ .

المجموعة من العلوم تنتمي الأسلوبيات اللسانية Linguostylistics ويتوزع مباحث الأسلوبيات اللسانية المعاصرة اتجاهان أو مدرستان متناقستان ، هما بحسب تصنيف بيير جيرو Pierre Guiraud : مدرسة الأسلوبيات التقليدية Traditional Stylistics التي وضع أصولها بالي Bally ، ومدرسة الأسلوبيات الحديثة new Stylistics التي اشتقها جاكوبسون Jacobson من الاتجاه البنيوي لمدرسة براغ . وتتفق المدرستان على تعريف الأسلوب بأنه الصيغة المميزة للنص . غير أن الطائفة الأولى تبحث عن مصدر تعريفاتها في دراسة الخواص الأسلوبية للنظام (أو الشفرة) The Code على حين تلتمسه الطائفة الثانية في وصف البُنى الداخلية للرسالة The message[٩] .

ونحن اذا اعتبرنا الصيغة المقترحة للأسلوبيات اللسانية عند بالي ومدرسته من جهة ، ثم عند جاكوبسون ومن نهج نهجه من جهة أخرى ، ثم اعتبرنا كذلك العوامل الاجتماعية والنفسانية الفاعلة في تشكيل الرسالة ـ أدركنا ما عليه موقف الأسلوبيات اللسانية من تعقد ، فهي دراسة تتقاطع مع اللسانيات التقريرية (بوصفها إطاراً مرجعياً لوصف التنوعات حتى داخل النظام نفسه) ، وتكملها في آن معاً . كذلك تتقاطع هذه الدراسة مع اللسانيات الاجتماعية (في مبحث محددات المقام ، وفي تحديد الإطار المرجعي للتنوع الاجتماعي) ، ومع اللسانيات النفسانية (في مبحثي الشخصية والنمو) ، ومع النقد الأدبي (في معالجة النص الأدبي ، الذي هو من أعظم التنوعات اللغوية تميزاً) . ويمتاز الدرس الأسلوبي من كل علم من هذه العلوم جميعاً بخصوصية تحدد له مجال بحثه ، فهو يفارق (اللسانيات التقريرية) باحتفائه بمبدأ التنوع ، وهو لا يلتمس من اللسانيات الاجتماعية إلا بعض الأطر المرجعية المعينة على التصنيف ، وهو بإزاء اللسانيات النفسانية يختص بالسلوك اللغوي ـ السوي عادة ـ دون سائر أنواع السلوك البشري الأخرى . وهو بإزاء النقد الأدبي إنما ينصرف إلى السلوك اللغوي في النص ، وإلى التشخيص بالأصالة والتقويم بالنسبة ، وهو إذا عالج في النص جوانب أخرى مما يهم الناقد الخالص فليس إلا من خلال المكون اللغوي وما يتصل بينه من قضايا ، وهي ـ لحسن الحظ ـ كثيرة وخطيرة .

وموجز القول أن الدرس الأسلوبي يهتم بدراسة مظهر هام من مظاهر التنوع في السلوك اللغوي ، وينتمي بذلك إلى (اللسانيات الاجتماعية) ، على حين تقوم (اللسانيات التقريرية) على إهمال مبدأ التنوع وافتراض الوحدة والتجانس والمثالية في ظروف التواصل اللغوي . وعن هذا يعبر تشومسكي بأوضح عبارة إذ يقول :

(إن النظرية اللسانية مَعْنِيّة ، أولاً وقبل كل شيء بإنسان مثالي في سلوكه اللغوي ، تكلماً وسماعاً ، يعيش في جماعة لغوية متجانسة تمام التجانس . وهو عارف بلغته تمام المعرفة ، ولا يخضع في تطبيقه هذه المعرفة أثناء أدائه اللغوي الفعلي لتلك الظروف التي لا صلة لها بالجانب النحوي ، مثل محدودية الذاكرة ، والارتباك ، والعوارض التي تتوزع اهتمامه وانتباهه ، وما يمكن ارتكابه من أخطاء عشوائية أو مميزة .

(٩) Pierre Guiraud, "Immanence and Transitivety of Stylistic Critera", in literary style : A symposium", op. cit. P. 16.

ذلك هو الموقف ـ كما يبدو لي ـ لدى مؤسسي اللسانيات العامة الحديثة . ولم يطرأ بعد من الأسباب المقنعة ما أدى إلى تعديل هذا الموقف »[١٠] .

ذلكم الفرد المثالي في سلوكه اللغوي ، وتلك الجماعة اللغوية المتجانسة التي تمارس التواصل اللغوي في ظروف مثالية ليس إلا فرضاً نظرياً تنطلق منه مباحث النظرية اللسانيات . وإذن فقد كتب على اللسانيات الاحتمالية ، ومن بينها الأسلوبيات اللسانية مواجهة مشكلة التنوع اللغوي ، أو ـ بعبارة أخرى ـ امتحان فروض (اللسانيات التقريرية) ، وتكملة نواقصها ، والإسهام في معالجة أوجه القصور في النظرية اللسانية الحديثة .

من هنا تبرز وثاقة العلاقة بين الدرس الأسلوبي وأهمية المعالجة الاحصائية لظاهرة الأسلوب ، بل بين (اللسانيات الاحتمالية) في مجملها والإحصاء ، فما دام التنوع هو موضوع الدراسة فلا بد من رواة لغويين informants يتم اختيارهم من الجماعة اللغوية ويتحقق في سلوكهم التنوع ، ولا بد من اختيار عينات من النصوص تمثل المجتمع الإحصائي Statistical Population إذا لم يتيسر دراسة المجتمع نفسه . وهو الأمر الغالب دائماً ، ولم يكن بُدٌّ كذلك من إقامة الاختيار ، سواء للعينات أو الرواة ، على أساس يضمن دقة النتائج وسلامة الأحكام ، ومن وسائل علمية يمتحن بها ثبات هذه الأحكام وصدقها . فماذا كان موقف الدراسات اللسانية عموما حيال الاستعانة بالمعالجة الإحصائية للمادة اللغوية الحافلة بمظاهر التنوع والاختلاف؟

يقرر فرانك آنشين Frank Anshen أن الدراسات اللسانية قد سلكت حيال اعتبار التنوع ومعالجته إحصائياً واحداً من مسالك ثلاثة :

أما المسلك الأول فهو تجاهل التنوع ، والاعتراف بأن كل عضو من أعضاء الجماعة اللغوية المعينة هو متكلم مثالي بالضرورة ، ومن ثم له الحق في أن يكون المتحدث الوحيد باسم جماعته في هذا المجال ، إذ هي بدورها جماعة مثالية متجانسة في سلوكها اللغوي ولما كان هذا التجانس لا وجود له على الحقيقة ـ وكانت دراسة التنوع اللغوي مرادة في ذاتها لأهميتها النظرية ، ولأنها قوام علوم لسانية بأسرها ـ وجدنا آنشين يطلق على هذا الاتجاه تسمية لا تخلو من سخرية ، إذ يسميه اتجاه (عَدِّ عن ذا) (! ignore it) .

وأما ثانيها فقد توسط بين الأمور ، وطالب بتقييد المادة المدروسة بالبيئة والمقام . وإن كان ذلك قد جرى على نحو غامض لا يمكن الاطمئنان إلى أسسه وإجراءاته ونتائجه .

---

(١٠) N. Chomskey, "Aspects of the Theory of Syntax" Mass., 1965, PP. 3-4.

وأما ثالثها فقد آثر اللجوء إلى المعالجة الإحصائية لضبط طرق اختيار الرواة والعينات ضبطاً علمياً ، وبحول البيانات غير الرقمية إلى بيانات رقمية ، ويختبر الصدق والثبات في النتائج ، ويستكنه الدلالات الإحصائية للأرقام(١١) .

ولا شك أن المسلك الأخير هو الحل العلمي المنهجي لمعالجة ظاهرة التنوع اللغوي على نحو علمي منضبط ، بل إن أهمية الإحصاء قد ثبتت لكثير من علوم اللسانيات التطبيقية مثل اللسانيات التاريخية على سبيل المثال(١٢) . أما في الأسلوبيات اللسانية فالحاجة إليه أشد إلحاحاً ، لأنها لا تقارب السلوك اللغوي بما هو ظاهرة متنوعة فحسب ، بل تقاربه أيضاً بما هو استعمال لغوي متميز بالقياس إلى غيره . وبذلك يتجاوز اللجوء إلى الإحصاء هنا دائرة الجواز إلى دائرة الندب ، بل إلى دائرة الوجوب إذا أريد للتشخيص الأسلوبي وللأحكام النقدية الناتجة عنه أن تناط جميعها بأوصاف ظاهرة منضبطة .

١ ـ ٢ ـ ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي

ثمة مفاهيم تكتسب بشيوعها في الاستعمال العام وضوحاً زائفاً ، حتى إذا ما رازها العلماء واختبروها ، وتناوشتها المدارس العلمية على اختلاف أصولها ومناهجها وإجراءاتها البحثية لكشف أمرها عن قدر لا يستهان به من الغموض والتعقيد . وإلى هذا الصنف من المفاهيم ينتمي مصطلح (الأسلوب) ، سواء في مصنفات اللسانيين أو النقاد(١٣) . وتحرير هذا المفهوم جدير بأن يكون مطلباً علمياً لذاته . بيد أن التزام البحث بقضية المعالجة الإحصائية للأسلوب سوف يضطرنا إلى أن نقبل نوعاً من الحد هو إلى التفسير أقرب منه إلى التعريف ، فعلماء اللسان والنقاد ـ على وجه الإجمال ـ يرون في الأسلوب واحداً من تجليات التنوع في السلوك القولي . إلا أن ماصدقات هذا التنوع من اللساني أوسع منها عند الناقد . وفرق ما بين الرجلين هو فرق في الغاية تتبعه سلسلة من الفروق ، فغاية اللساني هو الكشف عن أسرار الظاهرة اللسانية ، وما سوى ذلك من غايات هو عنده تالٍ وتَبَع . وغاية الناقد هو قراءة العمل الأدبي وتفسيره وتقويمه ، وما سوى ذلك عنده من الغايات تالٍ وتَبَع وينشأ من ذلك أن النص الأدبي هو واحد من مظاهر استخدام اللغة التي يوليها اللساني عنايته في بحث الأسلوب من منظوره الخاص . أما الناقد فالنص الأدبي هو كل بضاعته ، والموضع الوحيد لتأمله ونظره . وبدهي أن المكون الأسلوبي اللساني هو بالنسبة إليه واحد من مكونات أخرى ، لا يكمل عمله إلا بالوقوف

(١١) Frank Anshen, "Statistics for Linguists", Newbury House publishers, U.S.A., 1978, PP. 2-3.

(١٢) عن الإحصائيات المستعملة في اللسانيات التاريخية انظر :

-Milka Ivic, "Trends in Linguistics" Trans. by Muriel Heppell, 2nd Printing, Mouton, 1970 PP. 219-220.

-D. L. Olmsted, "Lexicostatistics as" Proof "of Genetic Relationship", Anthropological Linguistics", Vol. 3, No. 4, PP. 9-14.

-H. A. Gleason, Jr, "Counting and Calculating for Historical Reconstruction", Anth. Linguistics, Vol. 1, No. 2, PP. 11-32.

(١٣) عن مفهوم الأسلوب انظر : سعد مصلوح ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢٣ - ٢٩ .

عليه ، وينقص عمله بالوقوف عنده . تلك هي المنطقة التي يتقاطع عندها عمل اللساني والناقد ، ثم يتجاوزها كل منهما ماضياً إلى غايته ، إنها منطقة الوصف والتشخيص ، وسنعود إلى هذه القضية بفضل بيان في فقرة قادمة . وحسبنا هنا أن نشير إلى سعة ماصدقات مفهوم (الأسلوب) في البحث اللساني ، فهو إذا أضيف إلى فرد كان أسلوباً فردياً ، وإذا أضيف إلى فئة من فئات المجتمع كان أسلوباً فئوياً ، وإذا أضيف إلى عصر بعينه كان أسلوباً مميزاً لحقبة من حقب تاريخ اللغة ، وإذا أضيف إلى جنس من أجناس القول كان أسلوباً نثرياً أو شعرياً أو قصصياً أو مسرحياً ، وإذا أضيف إلى الواسطة الناقلة كان أسلوباً صحفياً أو إذاعياً أو مكتوباً أو مقروءاً . وإن القارىء لواجد في هذا العرض المختصر أمرين : سعة ماصدقات المفهوم عند اللساني والقياس إليه عند الناقد ، وتقاطع الاهتمامات بين اللساني والناقد على اختلاف الوسائل والغايات بينهما .

ويمكن أن نتلمس مجال المعالجة الإحصائية بين تعريفين شهيرين من تعاريف (الأسلوب) .

الأول : تعريف يحد الأسلوب بأنه مفارقة departure (أو انحراف deviation)[14] عن أنموذج آخر من القول ينظر إليه على أنه معيار norm. وبالمقارنة بينهما يقع التمييز بين (النص المفارق) و (النص - النمط) . ويشترط لجواز المقارنة تماثل المقام بينهما .

والثاني : تعريف يحد الأسلوب بأنه اختيار Choice أو انتقاء Selection يقوم به المنشىء لسمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة .

إن هذين التعريفين - وإن كان لهما من طابع البساطة ما يكاد يبلغ مبلغ البداهة - يثيران من الإشكالات النظرية أو المنهجية أكثر مما يحلان ، فأولهما يقتضي معرفة بخصائص التعبير الأصيل (أو النمطي) (أو المعتاد) ليكون في الامكان قياس التعبير المعدول deviant إليه . وهو أمر لا يمكن أن يكون موضع اتفاق أو إجماع ، كما أن السبيل إليه صعبة متوعرة المسالك . وثانيهما يلزمنا بمعرفة قائمة الأبدال المتاحة ، تلك التي يُعمل المنشىء فيها فكره بالاختيار والاستبعاد . والأسئلة التي يطرحها هذا التعريف كثيرة متشعبة ، لعل من أهمها : هل لكل هذه القائمة وجود بالفعل ؟ وهل من الميسور التوصل إلى صياغتها ولو على وجه التقريب ؟ . ثم ماذا عن طبيعة هذا الاختيار : أتراه يتم من المنشىء عن وعي وقصد ؟ أم أنه يتم بطريقة جبرية لا سيطرة حقيقية عليها للمنشىء ؟[15]

(١٤) انظر مناقشة بارت لهذا المفهوم في المرجع السابق ذكره ؟ .P وأيضاً لما تسليفلد توودروف في دراسته له بعنوان :
"The Place of Style in the Structure of the Text", in Literary style : A Symposium" Op. Cit, PP. 30-1.
(١٥) ثمة دراستان هامتان في فكرة (الاختيار) هما :
-Louis T. Milic, "Rhetorical Choice and stylistic option", in literary Style, Op. cit, PP. 77-88.
-Jane R. Walpole, "Style as Option" in College Composition and Communication", Vol. XXXI, No. 2, 1980, PP. 205-212.

بيد أن من المرجح حقاً أن هذه الإشكالات هي التي تفتح الباب لتدخل المعالجة الإحصائية للأسلوب على نحو يمكن أن يفيد في تحرير كثير من التصورات النظرية والإجراءات البحثية . وهو ما سيعرض له هذا البحث فيما بعد . ونبادر هنا إلى تأكيد أن ما بين التعريفين من وجوه التكامل هو أوسع من وجوه الاختلاف أو التناقض . ويرجح التعريف الثاني نظيره من الوجهة العملية - فيما نرى - لأمور ، منها أولاً : أن الاختيار أمر تصدقه تجربة الأدباء فيما يكتبون . وثانياً : لأن القول بأن الأسلوب هو تعبير معدول عن أصل معتاد يمكن أن يؤدي إلى القول بأن كل تعبير جاء على الأصل دون عدول هو خلو من الجمال . وليس ذلك صحيحاً على إطلاقه . وثالثاً : لأن الانحراف عن النمط ومفارقته يمكن أن يعد شكلاً من أشكال الاختيار ومحصلة له . ورابعاً : لأن مفهوم الاختيار يفتح المجال لتجميع مفردات الظاهرة الأسلوبية وضم شتاتها في منظومة بحثية واحدة ، ذلك أن الاختيار امر يفترض أن يقوم به المنشيء على كافة مستويات التواصل بدرجات متفارقة . ومن ثم فهو ليس محض اختيار لغوي وحسب ، بل هو محكوم من جهة بامكانات المقال ، ومن جهة أخرى بمقتضيات المقام Context of situation . وتشمل مقتضيات المقام عوامل كثيرة ، منها مصدر الخطاب ، والمقصود بالخطاب ، وموضوعه ، والوسيلة المعتمدة في الإبلاغ ، وجنس الخطاب ، والعلاقة بين مصدر الخطاب والمقصود به ، والحضور اللحني أو العيني للمخاطب ، والمسرح الذي تجري عليه وقائع الخطاب ، وغير ذلك كثير مما سنعرض له في حينه .

وأياً ما كان المفهوم الذي يعتمد أساساً للتحليل ، فثمة أمران تحسبهما موضع اتفاق بين الدارسين :

أولهما : أن الأسلوب مفهوم احتمالي في جوهره . وهو بهذه الصفة مستحق لأن يكون موضوعاً للمعالجة الإحصائية إذا شئنا إحكام الوصف والتشخيص .

وثانيهما : أن الأسلوب بماصدقاته المختلفة لا يمكن تحليله تحليلاً شافياً إلا في ضوء التحليل الشامل للغة المعنية ، ذلك أن هذا التحليل الشامل هو بمثابة تحديد لخلفية الصورة (أو الأرضية) The background التي تبرز بالقياس إليها الشكل The foreground، فلا بد من قياس المتنوع إلى المتجانس ، والخاص إلى العام ، يقول هاليداي Halliday: (إذا كان لعالم اللسان أن يأمل في الإسهام في تحليل الأدب الإنجليزي ، فإن عليه أولاً أن ينجز وصفاً شاملاً للإنجليزية العصر على كل المستويات)(١٦) .

وإذا كان الوصف الشامل للغة هو الأساس المعتبر لفحص الظاهرة الأسلوبية فإن التشخيص الإحصائي للأسلوب لا يمكن أن يستغني فيه أو به عن التشخيص الإحصائي لبناني اللغة ، وذلك في إطار الظاهرة المدروسة على أقل

---

(١٦) M-A. K. Halliday, "The Linguistic Study of Literary Texts", Proceedings of the Ninth International Congress of Linguists, ed. Huracede Lunt, The Hangue, 1964, P. 302.

تقدير . ومن هنا تنشأ علاقة وثيقة بين اللسانيات الإحصائية والأسلوبيات الإحصائية ، بحيث تتولى الأولى بيان الخصائص المشتركة في الاستعمالات اللغوية وتقوم الأخرى بالدراسة الدالة للخصوصيات والفروق . أما حين يتعذر وجود الوصف أو الإحصاء الشامل ـ كما هو الحال في العربية ـ فإن قصارانا أن نقيس انحرافاً إلى انحراف ، أو اختيارا الى اختيار . وسبيلنا إلى ذلك هي المقارنة بين الخصائص الأسلوبية لأكثر من نص عند منشيء واحد ، أو عند أكثر من منشيء ، أو في نوع بعينه من النصوص عند عدد من المنشئين ، أو في جزء من أجزاء نص بعينه إلى غيره من أجزاء النص ، أو في مدونة كاملة .

٢ ـ مبحث الإجـراء

٢ ـ ١ ـ المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية :

٢ ـ ١ ـ ١ ـ تعريف : نعني بالمتغيرات الأسلوبية Stylistic Variables مجموعة السمات اللغوية (بالمفهوم الأوسع لهذا المصطلح) ، التي يعمل فيها المنشيء بالاختيار أو الاستبعاد ، وبالتكثيف أو الخلخلة ، وباتباع طرق مختلفة في التوزيع ليشكل بها النص ، وحينئذ تصبح المتغيرات الأسلوبية خصائص مميزة Stylistic features أو مميزات Dis Criminators ، ومن ثم ينبغي التمييز بين مفهوم المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية ، من حيث إن المتغيرات الأسلوبية هي مادة خفل متاحة من جهة الإمكان العقلي على الأقل أمام جميع المنشئين ، ليعمل فيها كل منهم بما سبق بيانه من طرق لتكون في النص خصائص أسلوبية . وإذن يكون المتغير خاصية أسلوبية بالقوة ، تتحول في النص الى خاصية أسلوبية بالفعل .

٢ ـ ١ ـ ٢ ـ أنواع المتغيرات الأسلوبية

المدخل الأساسي لتصنيف المتغيرات الأسلوبية هو الواسطة الناقلة المستخدمة في الرسالة اللغوية (أو النص) ، فللإلقاء والأداء الشفهي أسلوبيات تفارق أسلوبيات النص المسطر على الأوراق . ويمكن تصنيف المتغيرات الأسلوبية إجرائياً وتبعاً لذلك إلى متغيرات شكلية وصوتية وصرفية وتركيبية ودلالية . ونود هنا أن نورد ملاحظ ثلاثة :

أولها : أن المتغيرات الشكلية ينصرف معظمها الى النص المدون ، وتعالج الصورة الطباعية أو التدوينية التي يظهر بها النص على الورق ، ومظاهر التشكيل الجمالي للحروف بما هي كم فيزيقي يدرك بالبصر . ولا ينفي ذلك أن يكون لهذه التشكيلات الجمالية أبعاد أخرى على المستوى الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو الدلالي .

ثانيها : أن المتغيرات الأسلوبية بمختلف أنواعها يمكن اعتبارها على مستويين : مستوى الجملة في ما نطلق عليه مصطلح (نحو الجملة) Sentence Grammer ومستوى النص في ما اصطلح على تسميته (نحو النص)[١٧] . Text Grammar .

---

(١٧) لبيان التمييز بين هاتين المصطلحين انظر :

Teun A. Von Dijk, "Some Aspects of Text Grammar : A Study in Theoretical Linguistics and Poetics", Mouton, The Hague, 1972, PP. 10-12.

-Wilbur Pickering, "A Frame Work for Discourse Analysis", Summer Institute of Linguistics. Publication No. 64, 1980, P. 5

ثالثها : أن ما ذكر من أنواع المتغيرات هنا إنما ذكر على سبيل التمثيل لا على جهة الاستقصاء والحصر . وقد سوغ ذكرها أنها من أكثر المتغيرات سيرورة في البحث الأسلوبي ، وهي أطوعها للمعالجة الإحصائية ، وفي ما يلي قائمة بالمتغيرات الأسلوبية المختارة :

أولاً : من المتغيرات الشكلية :

(١) الشكليات التي تميز الشعر من النثر (قسمة البيت إلى شطرين) .

(٢) توزيع الأبيات (الأسطر) على الصفحة .

(٣) الأشكال الهندسية البديعية .

(٤) نظام الفراغات على الصفحة .

(٥) فنون البديع القائمة على التصحيف والتحريف .

(٦) طول الكلمة (مقيسا بعدد الحروف) .

(٧) طول الجملة (مقيسا بعدد الكلمات بحسبان الكلمة كيا فيزيقيا متصلا مسبوقاً وملحوقاً بفراغ)[١٨] .

(٨) أنواع من الجناس (المركب والمتشابه) .

(٩) علامات الترقيم[١٩] .

ثانياً : من المتغيرات الصوتية :

(١) التوزيع النسبي لفئات الفونيمات[٢٠] .

(٢) أنواع المقاطع (المفتوحة / المغلقة)[٢١] .

(٣) التشاكل المقطعي isosyllabism[٢٢] .

(٤) الكلمات الموحية onomatopoetic.

---

(١٨) هذا المعيار لتحديد الكلمة هو المعيار المعترف به إحصائياً بالنسبة للنصوص المدونة . وقد عول عليه كاتب هذا البحث في دراسة خاصة لنوع المفردات (انظر حاشية رقم ٢٤) . وأيضاً :
-Jan Helbich, "Statistical Methods on Evaluating Words for Indexing Purposes" in Prague Studies in Mathematical Linguistics Academia, Prague, 1972, No. 4, P. 66.

(١٩) علامات الترقيم هي أحد المتغيرات التي يمكن استخدامها في قياس أسلوبية طول الجملة وتنوعها . انظر :
George A. Miller, Langage and Communication", New york, Toronto, London, 1963, PP. 226-7.

(٢٠) قامت بعض الباحثات باستخدام مقياس كاي ٢ في دراسة توزيع فونيمات الصوائت في خمس معلقات جاهلية انظر :
Mary C. Bateson, "Stuctural Continuity in Poetry", Mouton, 1970, PP. 60-57.

(٢١) يرى بعض النقاد ارتباطاً بين حسن الجرس في الشعر وشيوع المقاطع المفتوحة انظر : إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٦٥ ، ط ٣ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٥ .

(٢٢) عن التشاكل المقطعي انظر :
A. W. DeGroot, "Phonetics in its Relation to Aesthetics", in Manual of Phonetics, ed. B. Malmberg, Amsterdam, 1968, P. 538.

(٥) أنساق نبر الكلمات Word-Stress (أو أشكال الوزن العروضي) .

(٦) قافية الصدارة alliteration .

(٧) الجناس بأنواعه (التام والناقص) .

(٨) السجع .

(٩) نظم التقفية ومنها :

(أ) القافية التامة True rhyme (ويراعى فيها التطابق التام) .

(ب) لزوم ما لا يلزم .

(ج) القافية البصرية eye rhyme (وتقوم على التطابق في الرسم الكتابي دون النطق) .

(د) القافية الناقصة half rhyme (وتقوم على التشابه لا التطابق في النطق ، ومنها ما يسمى بمصطلح العروضيين الإكفاء والإجازة والسناد بأنواعه)[٢٣] .

(هـ) القافية السمعية ear rhyme (ويراعى فيها تطابق الانطباع السمعي دون الرسم الكتابي) .

(١٠) القلب .

(١١) تشاكل البدايات anaphora .

(١٢) التشريع .

(١٣) طول الكلمة (مقيسا بعدد المقاطع أو الفونيمات) .

(١٤) تماثل الصوائت assonance .

(١٥) تماثل الصوامت Consonance .

(١٦) انسجام الصوائت Vowel harmony .

(١٧) حسن الوقع euphony . (ويرتبط بالشيوع النسبي لفئات معينة من الأصوات وهي الصوائت ، والصوامت الرنانة resonants الأنفية والجانبية والترددية وأنصاف الصوائت في مقابل الفئات الأخرى : الاحتباسيات والاحتكاكيات . كذلك يرتبط حسن الوقع ـ كما أسلفنا بالشيوع النسبي للمقاطع المفتوحة في مقابل المقاطع المغلقة) .

(١٨) تقابل السمات الفارقة distinctive features .

(١٩) التخالف الصوتي dissonance .

ثالثاً : من المتغيرات الصرفية :

(١) أقسام الكلم ؛ (الاسم ، الفعل ، الصفة ، الظرف .

---

(٢٣) عولجت ظاهرة القافية العامة والناقصة بالتفصيل في :

س. موريه : الشعر العربي الحديث ١٨٠٠ ـ ١٩٧٠ : تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي ، ترجمة شفيع السيد وسعد مصلوح ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٥ ـ ٢٢٦ .

(٢) الصيغ الصرفية . (الأفعال ، الجموع ، المصادر ، المشتقات) .

(٣) مبتكرات الصيغ .

رابعاً : من المتغيرات التركيبية :

(١) المركبات النحوية : (المركب الجري / الظرفي / النعتي / البدلي / العطفي) .

(٢) أنواع الجمل : (اسمية / فعلية ، بسيطة / مركبة / معقدة ، إنشائية / ، خبرية) .

(٣) التنافر والتعقيد التركيبي .

(٤) جميع مباحث علم المعاني في البلاغة العربية .

(٥) المجاز بالحذف (من مباحث علم البيان) .

(٦) البعد التركيبي من المقابلة .

(٧) البعد التركيبي من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل (بالمصطلح البلاغي) .

(٨) فنون بلاغية من مباحث علم البيان والبديع مثل :

(التفويف ، والعكس ، واللف والنشر ، والابتداء والتخلص والانتهاء ، والجمع والتفريق والتقسيم ، ورد الأعجاز على الصدور ، وغير ذلك)

(٩) الصحة النحوية grammaticality .

(١٠) الجواز النحوي acceptability

خامساً : من المتغيرات الدلالية :

(١) الوحدات المعجمية lexemes .

(٢) السجل المعجمي register .

(٣) المفردات القديمة archaism .

(٤) المفردات الدخيلة .

(٥) التركيز والتشتت في توزيع المفردات .

(٦) المولد .

(٧) تنوع المفردات[٢٤] .

(٨) الثروة اللفظية[٢٥] .

---

(٢٤) انظر : سعد مصلوح : قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب ، دراسة تطبيقية على ثلاثة من كتابات العقاد والرافعي وطه حسين ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز ، مج ١ ، ١٩٨١ ، ص١٤٩ - ١٦٩ .

(٢٥) صاغ المعادلة الخاصة بقياس الثروة اللفظية ييرجيرو . وانظر نقداً لهذه المعادلة وتطبيقاتها في :

Marie Tesitelova "On The SO-Calld Vocabulary Richness", in Prague Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, 1972, No. 3, PP. 104-115.

(٩) البعد الدلالي للاستعارة (بأنواعها : التجريدية / الإحيائية animation التشخيصية Personification) .

(١٠) البعد الدلالي للتشبيه والمجاز المرسل والكناية .

(١١) فنون بديعة في التراث البلاغي مثل : الطباق ، والتدبيج ، ومراعاة النظير ، وإيهام التناسب ، والإرصاد ، والمشاكلة ، والرجوع ، والتورية ، والاستخدام ، والتجريد ، والمبالغة ، والتبليغ ، والإغراق والغلو ، والتفويف والعكس . . الخ) .

سادسا : من متغيرات ما فوق الجملة[٣٦]

(١) طول الفقرات وتوزيعها .
(٢) هرمية البنية المنطقية للنص .
(٣) انفتاح النص أو انغلاقه[٣٧] .
(٤) هرمية البنية النحوية : (الكلمة ← المركب ← العبارة ← الجملة ← الفقرة) .
(٥) الربط بين الجمل .
(٦) التوافق والتخالف في مباني الجمل .
(٧) وسائل السبك Cohesion (صوتية / حرفية / تركيبية / معجمية) .
(٨) المعلومات المقدمة given information[٣٨] .
(٩) معدل ورود المعلومات rate of information[٣٨] .
(١٠) الالتفات (على مستوى النص) pronominalisation .

تلكم الأنواع من التغيرات الأسلوبية ذكرت هنا لا قصدا إلى الحصر . ويمكن القول ـ على وجه الإجمال ـ إن أي خاصية لغوية مائزة distinctive أو فائضة redundant[٣٩] هي متغير أسلوبي بالفعل وخاصية أسلوبية بالقوة . وهي بذلك قابلة لأن تكون موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية بهدف التشخيص الأسلوبي للنص ، أو للكشف عن أنواع التشكيل الأسلوبي الذي خضعت له من قبل المنشيء .

---

(٣٦) ثمة خلاف في تحديد الوحدة الحاملة للأسلوب : أهي الجملة أم ما فوق الجملة . ومن القائلين بالأول ريتشارد أوهمان انظر :
R. Ohmann, "Literature as Sentences" in Essays on the Language of Literature, eds. S. Chatman and S. Levin, Boston. 1967, PP. 232-3.

على حين يرى أ. هيل أن السمات الأسلوبية تخص مستوى الجملة وتنفرد الأسلوبيات بمستوى ما فوق الجملة . انظر :
A. Hill, "Essays in Literary Analysis", Austin, Texas, 1965, P. 69.

(٣٧) انفتاح النص أو انغلاقه ، إحدى الخصائص الأسلوبية التي يعول عليها بعض الباحثين لتشخيص الفرق ما بين لغة النساء ولغة الرجال . انظر :
Thomas J. Farrell, "The Female and Male Modes of Rhetoric", College English, Vol. 40, No.-8, April, 1979, PP. 909-910.

(٣٨) W. Longacre, Op. Cit, PP. 71-74 and 79-81.

(٣٩) التمييز بين الخواص المائزة والفائضة ودورها في التشكيل الأسلوبي انظر :
A. W. Degroot, OP. Cit, PP. 537-8.

٢ ـ ١ ـ ٣ : المتغيرات الأسلوبية والطراز النحوي :

تشتمل قائمة المتغيرات الأسلوبية على تصورات ومصطلحات لسانية ، وعلى مفاهيم يكثر استخدامها في البلاغة المدرسية . ومعلوم أن التعاريف التي تساق لأكثر هذه التصورات ، وتوظيف ماهو معروف منها في التحليل الأسلوبي إنما يختلف باختلاف المدارس والاتجاهات اللسانية ، فكثير منها ليس موضع اتفاق وإجماع ، ضرورة أن هذه المدارس يخالف بعضها عن بعض في المنطلق الفلسفي والغاية ومناهج التحليل وإجراءاته .

وتطرح هذه الحقيقة البدهية على القائم بالتحليل الأسلوبي ضرورة تحديد الطراز النحوي grammatical model الذي يعتمده أساسا لتحديد مفهوماته ، ومن ثم لتحديد المنهج وإجراءات التحليل وطرق القياس . وقد جهل فضيلة هذا الأمر ـ على أهميته البالغة ـ كثير من الذين عالجوا بعض مسائل تاريخ العربية أوبنيتها أو ظواهرها الأسلوبية ، حين استخدموا هذه المصطلحات ملقين إياها مُلْقى المسلمات ، على توهم وضوح مفاهيمها واستقرارها وثباتها . وليس هذا الظن صوابا بإطلاق . ولا يتسع المجال هنا لتتبع أشهر الطرز النحوية واستعراض علاقتها بالدراسة الأسلوبية بعامة والإحصائية منها بخاصة . بيد أننا هنا نعيد ما سبق أن أشرنا إليه في موضع آخر من أن (الطرز النحوية جميعها ـ بما في ذلك الطراز التقليدي ـ كلها قابل من حيث المبدأ لأن تشكل أساسا منهجيا للبحث الأسلوبي)[٣٠] . هذا وإن كان من الطبيعي أن تتفاوت الطرز في مدى كفاءتها ووفائها بمتطلبات الوصف الدقيق للخصائص الأسلوبية .

٢ ـ ٢ : أسلوبيات المقال :

يقصد بأسلوبيات المقال التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية Stylization أو بعبارة أخرى ـ تنظيم السمات اللغوية في النص على نحو تتحول به من مجرد كونها بنودا في قائمة المتغيرات إلى خصائص أسلوبية مائزة للنص .

وينبغي هنا إيراد عدد من الملاحظ العامة :

الأول : أن قائمة المتغيرات الأسلوبية التي سبق إيرادها هي محصلة رصد وتأمل لعدد غير قليل من الدراسات الأسلوبية . وقد يكتسب بعضها الصفة الجامعة Universal بحيث يمكن أن تصادفه في اللغات على اختلافها ، وقد يكون لبعضها طابع من الخصوصية يجعله وقفا على لغة بعينها . كما أن أهمية بعضها قد يتفاوت من لغة إلى لغة بحسب خصائص بنيتها وقوانينها .

الثاني : أن هذه القائمة ليست جامعة ولا مانعة ، ولا يعد أن يجتهد مجتهد فيضيف إليها ، أو ينقص منها ، أو يعدل من العلاقات بين وحداتها بما يؤديه إليه تأمله للنصوص واجتهاده في رصد خصائصها .

الثالث : من المحال أن يستخدم منشىء واحد لا في نص واحد ولاً في مجموعة من النصوص جميع المتغيرات الأسلوبية التي سبق ذكرها . وإنما يتحقق التشكيل الأسلوبي باختيار عدد منها يتم باستخدامه تمايز الأساليب[٣١] .

---

(٣٠) سعد مصلوح . الأسلوب . . . ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣١) هذا خلافاً لما يتصوره معظم الباحثين من إمكان ذلك بل وجوبه . يقول صلاح فضل : (لا يمكن الوصول إلى نتائج عامة دون حصر شامل لكل الخواص في جملة النص) (علم الأسلوب ، ص ٣٠٦) . وانظر رداً على هذه الفكرة في :
سعد مصلوح : دراسات نقدية في اللسانيات العربية المعاصرة ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٨٩م ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

<u>الرابع</u> : إن التشكيل الأسلوبي عملية مركبة تتم في نسيج متشابك معقد على جميع المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية في آن معاً .

<u>الخامس</u> : أن تعقد عملية التشكيل الأسلوبي يقابلها صعوبة مماثلة من جانب الباحث عند محاولته فك تداخلات النسيج ، وتشخيص الخصائص المائزة ، واستكناه دلالاتها .

<u>السادس</u> : أن المستويات السابق ذكرها تتفاوت في مدى طواعيتها للتشكيل الأسلوبي . وتحتل المتغيرات الدلالية قمة القابلية للتشكيل ، يليها المتغيرات الصرفية والتركيبية . أما المتغيرات الصوتية فهي أكثر خضوعا لنظام اللغة ، ومن هنا تبدو مهمة الشاعر في التشكيل الأسلوبي صعبة بالقياس إلى غيره من المنشئين ، وبها يتفاوت الشعراء في قدراتهم وخصائص شاعريتهم .

<u>السابع</u> : أن القول بقيام نص ما على متغيرات أسلوبية معينة لا ينفي إمكان وقوع أبدالها أو نقائضها من المتغيرات في النص نفسه ، أو في غيره من نصوص المنشىء الواحد . وإنما الفيصل في تقويم دورها في التشكيل الأسلوبي هو لدرجة الشيوع وطرق التوزيع .

<u>الثامن</u> : أن الاختيار ، والشيوع ، والتوزيع ، هي العوامل الثلاثة التي تحدد متضافرةً التشكيل النهائي لأسلوب النص . وبها تتحقق مفارقة النص للمعيار المحايد .

هذه الملاحظ الثمانية هي أهم ما ينبغي اعتباره عند النظر في شأن المتغيرات الأسلوبية والطريقة التي تتحول بها من مجرد قائمة صماء إلى خصائص أسلوبية فاعلة في التشكيل الأسلوبي للنص . بقي أن نقرر أن جميع ما سبق إيراده مما هو واقع تحت تسمية المتغيرات الأسلوبية إنما يمثل القسيم الأول في عملية التشكيل الأسلوبي ، ونعني به القسيم المقالي . وهذه الحقيقة تفتح باب القول في أمر القسيم الثاني وهو القسيم المقامي . وكلا القسيمين يرتبط بالآخر أوثق ارتباط في هذا الصدد . ومن ثم كان لابد أن نتخذ من مفهوم المقام ومحدداته context parameters موضوعا للفقرة التالية .

<u>٢ - ٣ : أسلوبيات المقام :</u>

من جوامع الكلم التي تتردد في كتب السلف مقولتان ، أولاهما : (لكل مقام مقال) والأخرى : (البلاغة هي موافقة الكلام لمقتضى الحال) . وقد اكتسبت هاتان المقولتان في القديم والحديث طابعا تعليميا . ولكنهما تقرران من الوجهة العلمية مبدأ تطبق على صحته جميع الاتجاهات والمدارس في العلوم اللسانية خاصة والإنسانية عامة ، ألا وهو وجود علاقة لا يمكن تجاوزها ـ تنظيرا أو تحليلا ـ بين المقال وما يكتنفه من ظروف ومواقف وسياق اجتماعي . ولأمر ما جعل المفسرون والأصوليون من المعرفة بأسباب النزول أصلا من أصول تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام لا يقومان إلا به . وما المعرفة بأسباب النزول إلا استحياء للمقام لا مندوحة عنه لفهم المقال[٣٦] .

---

(٣٦) انظر : السيوطي : المرجع السابق ذكره ، ج ١ / ص ١٠٧ ـ ١١٠ . وقد ناقش هذه المسألة أيضاً : تمام حسان . انظر : العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٠ .

وإذا كان تحليل المقال في سياقه المقامي واجبا في اللسانيات الاجتماعية والتاريخية والنفسانية فإنه في مجال التحليل الأسلوبي أوجب . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الاختيارات الأسلوبية لا تحكمها ظواهر اللغة الخالصة فحسب ، بل تحكمها كذلك محددات المقام . ونعني بها الخصائص التي تحدد الظرف الاجتماعي ـ المادي الذي سيق في إطاره الكلام ، سواء أكان منطوقا أم مكتوبا Socio-physical envelope .

والعلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر ، فكما أن المقال دليل على المقام ، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال . وتظل العلاقة الجَدَليَّة قائمة بينهما طوال عملية الممارسة اللغوية ، (فحين يتكلم زيد إلى عمرو يكون عمرو متهيئا لاستنباط الطريقة التي صنف بها زيد مقام الكلام ، أي أنه ـ على سبيل المثال ـ سيلحظ نظرة زيد إلى مستوى الألفة بينهما أو إلى ما ألزم زيد نفسه باتباعه أثناء الكلام من التأدب اللائق . وسيؤدي ذلك إلى تأثير مرتد ، أي أن الأفكار التي كونها زيد حول ما استنبطه عمرو من أفكار عنه تؤثر على نظرة عمرو إليه ، كما تؤثر أيضا على تصنيفه هو ـ أي زيد ـ لمقام الكلام مع عمرو ، ومن ثم تؤثر على أسلوبه[٣٣] .

وهكذا يتبين لنا أن العلاقة التي تحكم المقام والمقال ـ في الموقف الحي ـ ليست بالبساطة التي تبدو بها بادي النظر .

على أن ثمة جانبا آخر يزيد من تعقد تلك العلاقة ، ذلك أن ثمة فنونا من القول والكتابة كالمعاريض والتوريخ والسخرية وغيرها تعتمد في تشكلاتها الأسلوبية وفي بلوغ غايتها من التأثير والإبلاغ على المفارقة القائمة بين أجزاء المقال[٣٤] ، أو المفارقة القائمة بين المقال والمقام[٣٥] . وما ينشأ عن هذه المفارقات من خذلان للتوقع يتحقق به التأثير الأسلوبي المراد . ومن ثم فإن العلاقة بينهما في هذا الصدد يراد لها أن تخالف قصدا عن المألوف والمتوقع ، على نحو لا يتحقق الغرض من المقال إلا به ، وهو نمط من العلاقة العكسية غير المباشرة لا يقل أهمية في هذا المجال عن العلاقة الإيجابية المباشرة بين المقولتين .

وبالنظر إلى ما تتمتع به فكرة المقام من أهمية محورية في عملية التشكيل الأسلوبي ـ على النحو الذي سلف بيانه ـ وبالنظر إلى أن اعتبار محددات المقام وإدخالها في المعادلة الإحصائية لتشخيص الأساليب يواجه الأسلوبيات الإحصائية بتحدٍّ حقيقي يندر مثيله في التشخيص الإحصائي لأسلوبيات المقال ـ نقول : نظرا لما تقدم كان لزاما أن نعرض بالبيان لهذه المحددات، وللكيفية التي يمكن أن تكون بها موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية .

ثمة محاولات مختلفة بذلها مشتغلون بعلوم اللسان وبالدراسات الاجتماعية لوضع صيغة جامعة لمحددات المقام تكون لها القابلية للتطبيق عند تصنيف المقامات والمقالات في مختلف اللغات . ولا شك أن الفروق الثقافية بين الجماعات الكبرى والجماعات الصغرى واختلاف المقامات في تفاصيلها الدقيقة ذات التأثير المحتمل على تشكيل الأسلوب ـ كل أولئك يجعل مهمة وضع التصنيف الجامع لمحددات المقام أمرا لا ينقاد للباحثين في يسر . ومن ثم ، لا

---

(٣٣) N. Enkvist, Linguistic Stylistics, P. 63.

(٣٤) مثاله قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » (آل عمران : ٢١) إذا ما قورنت بقوله تعالى : « وبشر الصابرين » (البقرة : ١٥٥) .

(٣٥) مثاله قوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » (الدخان : ٤٩) إذا ما قورنت بقوله تعالى : « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » (النبأ : ٣٠) .

وجود لصيغة نهائية أو مثالية من هذا النوع . وعلى من يستخدم أيا من هذه الصيغ المقترحة أن يعيد النظر فيها لاستيفاء ما يراه ناقصا ، واستبعاد العناصر غير ذات التأثير على الظاهرة موضوع الدراسة .

ولعل النموذج الذي اقترحه دافيد كريستال D.Crystal وديرك دافي D.Davy من أكثر نماذج محددات المقام بساطة وشمولا وقابلية للتطبيق في مجال تشخيص الأساليب ، ويتخذ هذا النموذج الشكل التالي(٣٦):

(أ) محددات التفرد individuality
ـ اللهجة
ـ العصر
(ب) محددات الخطاب
ـ واسطة الاتصال median
(كتابة ، كلام شفهي)
(واسطة بسيطة / واسطة مركبة)
ـ المشاركة participation
ـ (أداء فردي ، حوار)
(مشاركة بسيطة / مشاركة مركبة)
(ج) محددات المجال province
مثال : لغة العبادة ، الإعلان ، القانون ... الخ
(د) محددات الموقف الاجتماعي

وتتصل بالمكانة الاجتماعية النسبية للمشاركين في عملية الاتصال من حيث الرسمية ، والتأدب ، والقرابة ، وعلاقات العمل .

(هـ) المحددات الشكلية modality

وتشمل ما يوجد من فروق في صيغة الاتصال كالرسائل ، وبطاقات البريد ، والملاحظات والبرقيات ، والتقارير والمقالات العلمية ، والمتون الدراسية .

(و) العوارض الشخصية singularity

وتختلف عما يندرج تحت عوامل التفرد من جهة كونها عوارض مؤقتة وطارئة ويمكن استخدامها في التلاعب أو المناورة . ويتم إقحامها في الموقف لإحداث تقابل لغوي متعمد (ومثالها أن يلوي أحدهم لسانه بصيغة لغوية يقلد بها الطبقة الراقية أو لكنة أعجمية) . أما عوامل التفرد فتمتاز بالدوام والثبات .

---

(٣٦) N. Enkvist, Op. Cit. PP. 60-61.

٢ ـ ٤ : التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام/ المعنى/ المقال :

عالج هذا البحث فيما مضى من فقرات جانب التغيرات الأسلوبية المقالية ، وجانب محددات المقام ، مقترحا أحد النماذج التي أثبتت كفاءتها في هذا الصدد ، ونعني به نموذج كريستال ودافي على ما سبق بيانه .

بيد أن عملية التشكيل الأسلوبي لا يمكن حصرها في ثنائية المقال والمقام ، ذلك أن هذا الحصر إنما يغفل الضلع الثالث من مثلث التشكيل الأسلوبي وهو جانب (المعنى) أو (المكون الدلالي) ، كما يغفل الإشارة إلى الآلية mechanism التي تتحول بها المعاني إلى (نظم نحوية) ثم إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) وتتمثل تلك الآلية في وظائف اللغة Language Functions ، وقد تولى هاليداي تحديد دور (المكون الدلالي) و (وظائف اللغة) في تشكيل الخصائص المائزة للمقال ، وقدم صيغة هذه العلاقة تستحق التوقف عندها بشيء من البيان[٣٧] .

يميز هاليداي ما بين وظائف اللغة عند الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة ، وما يطرأ على هذه الوظائف من تطور بنمو الطفل وانتقاله إلى مرحلة النضج . ويرى هاليداي أن الوظائف اللغوية عند الطفل مرتبطة بحاجاته ارتباطا مباشرا . ومن ثم نرى لديه شكلا لغويا واحدا يتكرر كلما أراد التعبير عن حاجة بعينها دون اعتبار للأبدال الأخرى المتاحة . وبذلك يمكن القول إن النظام اللغوي عند الطفل في طفولته الباكرة يتشكل من مجموعة من التنوعات المشروطة والمقيدة تقييدا مباشرا بالمواقف والمقامات ، أي أن ما يريد الطفل أن يعبر عنه هو الذي يحدد التركيب اللغوي تحديدا مباشرا .

وخلال المسار الذي يقطعه الطفل نحو النضوج تتوارى الوظائف المتعددة تدريجيا ليحل محلها نظام وظيفي هو أمعن في الرمزية والتجريد وإن كان أبسط في التركيب من سابقه . ويتشكل هذا النظام من ثلاث وظائف كبرى macrofunctions هي : الوظيفة التصورية ideational ، أو الوظيفة التعاملية interpersonal والوظيفة النصية textual .

يتمثل جوهر (الوظيفة التصورية) في التعبير عن التجربة وعما يتضمنه الموقف من تقويم للأحداث والأشخاص والأفكار ، ومن جوانب عاطفية تأثيرية . ويؤخذ من ذلك أن هذه الوظيفة معنية بالتعبير عن التجربة تعبيرا يشمل العمليات التي تجري داخل نفس الإنسان وخارجها ، أي يشمل الظواهر القائمة في العالم الخارجي وظواهر الوعي البشري ، كما يشمل العلاقات المنطقية التي يمكن استنباطها من هذه الظواهر .

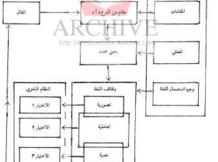
وتعبر (الوظيفة التعاملية) عن دور المتكلم في مقام الكلام ، وما يلزم به نفسه من قيم وأعراف في تعامله مع الآخرين . وهذه الوظيفة من وظائف اللغة هي التي تعين على تأسيس العلاقات الاجتماعية وترسخها ، وهي التي من خلالها تتحدد الفئات الاجتماعية ، وتتشكل وتقوى شخصية الفرد ، إذ إن تمكينه من الاتصال بالآخرين والتعامل معهم يعينه على التعبير عن ذات نفسه وعلى تطويرها .

---

(٣٧) أخذنا هذا العرض المفصل لنظرية هاليداي عن :
roger T. Bell, "Sociolinguistics, Goals, Approaches, and Problems", London, 1976, PP. 84-7.

أما (الوظيفة النصية) فتختص ببناء الحدث اللغوي أي (المقال) ، وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ، ولقوانين النحو ، ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها .

وتتكامل هذه الوظائف الثلاث الكبرى لتقوم ، من خلال نظرية نحوية قائمة للغة معينة ، بإقامة علاقات مفصلية بين (المكون الدلالي) من جهة ، وكل من المكونين (الاجتماعي) و (اللغوي) من جهة أخرى . ويرى هاليداي أن (الدلالة) تمثل مستوى تركيبيا وسيطا بين أوجه الاستعمال الاجتماعية للغة والأشكال اللغوية ، أي أنه إذا غاب هذا العنصر الدلالي الحاسم فإن أي شكل لغوي يمكن أن يعبر به عن أي وجه من وجوه استعمال اللغة . ومن ثم تكون الوظائف الكبرى للغة - كما سبق البيان - آلية تتحول بها المعاني إلى (نظم نحوية) ، ثم في نهاية الأمر إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) . وفي الشكل التالي تمثيل للعلاقة بين العناصر المكونة لثلاثية التشكيل الأسلوبي : المقام والمعنى والمقال .



ونحاول الآن أن نلتمس في الشكل السابق توضيحا للآليات والعلاقات المتضمنة في عملية التشكيل الأسلوبي . ولنبدأ قراءة الشكل من اليمين :

يبدأ الشكل في أقصى اليمين بما هو عام من مقامات ومعان واستعمالات للغة ، ويعمد المتكلم أو المنشيء إلى هذا العامّ فيقوم بعزل عدد محدود من مجموع المقامات الممكنة (وقد اكتفى الرسم بالاشارة إلى مقام واحد منها على سبيل التمثيل وأطلق عليه تسمية المقام «أ») . ثم يقوم باختيار ما يناسب المقام المختار من المعاني ، وكذلك باختيار وجه واحد من وجوه الاستعمالات اللغوية الممكنة يناسب ما وقع عليه اختياره من مقام ومعنى . وبهذه الاختيارات الثلاثة تتحدد الوظائف اللغوية ودورها . ويدخل جميع ما وقع عليه اختيار المنشيء في دائرة ماهو « خاص » ، ثم إن كل وظيفة من الوظائف الثلاث تتطلب إجراء اختيارات معينة من مجموع النظام اللغوي للغة المعنية . ومن مجموع ذلك كله يتشكل المقال الذي يتم تشكيله وصياغته للتعبير عن مقام بعينه .

ونعود الآن إلى نموذج كريستال ودافي لنتعرف ـ من خلال استطلاع الشكل السابق ـ تلك العلاقة القائمة بينه وبين نموذج هاليداي . وحينئذ سيتبين لنا أن نموذج كريستال ودافي وما شاكله يحتل في شكل هاليداي المربع الأول مما هو « عامّ » ، وأن إعمال محدداته في تشكل مقام بعينه ومقال بعينه يحتل المربع الأول مما هو « خاص » . وأنه باستخدام كلا النموذجين تتكامل العناصر اللازمة لوصف عملية التشكيل الأسلوبي بعناصرها الثلاثة : المقام والمعنى والمقال .

بقيت كلمة أخيرة تتعلق بإعمال نموذج كريستال ودافي في تحديد المقامات ، فبعض أوصاف المقام قد تتلازم بحيث يمكن بالنص على وجود أحدها حجب أوصاف أخرى بطريق التضمين ، أو استبعاد أوصاف أخرى بطريق التنافي ، أي أن بعض الأوصاف قد يتضمن ـ أو قد ينفي ـ بالضرورة أوصافا أخرى . ويوجب هذا على الباحث أن يقوم بتنظيم محددات المقام بحيث يقتصر على المحددات الأساسية دون حشو ، وفضول ، فلا يضيف إليها ماهو معلوم وجوده بالضرورة ، أو ماهو معلوم غيابه بالضرورة . هكذا يرتبط المقام بالمقال على نحو يتحدد فيه المقال بالمقام ، ويستكشف فيه المقام من خلال المقال[٣٨] . ولعل حاجتنا إلى هذين الأمرين جد ملحة لاسيما عند الدراسة الدلالية والأسلوبية للنصوص المدونة في تراثنا القديم .

٢ ـ ٥ : التشخيص الأسلوبي :

فرق ما بين التشكيل الأسلوبي Stylization ـ وهو ما سبق الحديث عنه ـ والتشخيص الأسلوبي Stylistic diagnosis الذي هو موضوع هذا المطلب هو أن الأول عمل تركيبي يقوم به المنشيء ، أما الثاني فنشاط تحليلي يقوم به الباحث . وهدف الأول إنتاج النص أما هدف الثاني فهو الكشف عن الهوية الأسلوبية للنص . ومادة الأول هي المتغيرات الأسلوبية أما مادة الثاني فالتصورات والإجراءات المنهجية . وكما يقوم التشكيل الأسلوبي على محاور الاختيار والتوزيع والشيوع فلابد أن يقابل ذلك من جهة الباحث عمل يكشف به عن أجدر المتغيرات الأسلوبية بأن تكون

---

(٣٨) انظر نموذجاً لاستكشاف المقام من خلال المقال في :

Deborah Schiffin, "Discovering the Context of an Utterance", Linguistics, Vol. 25. 1987, PP. 11-32.

خصائص أسلوبية مائزة للنص ، أي تلك التي يمكن أن توصف بأنها اختيارات للمنشىء ، وعن درجات شيوع هذه الاختيارات وأنماط توزيعها .

وإذا كانت تقنيات المعالجة الإحصائية من الكفاءة بحيث تعين الباحث على الكشف عن درجات الشيوع وأنماط التوزيع فإن القطع باختيارات معينة للمنشىء أمر هو من الصعوبة بمكان . وثمة حالات نادرة ـ بالنسبة لأدباء العربية ـ يصرح فيها المنشىء باختياره قولا أو كتابة . كما أن من الممكن في حالات أخرى الاستدلال بمسودات النصوص التي أعمل فيها المنشىء قلمه بالاستبقاء والاستبعاد(٣٩) . على أن الباحث في غيبة مسودات النصوص ـ وهو الظرف الغالب ـ لا يمكنه أن يعثر على دليل مباشر يحدد الخصائص المستبعدة ، علما بأن الاستبعاد له في ميزان التشخيص الأسلوبي ما للاستبقاء من أهمية . وإذن فليس أمام الباحث إلا طريق افتراض الفروض واختبارها على ما سيأتي بيانه .

ويهدف التشخيص الأسلوبي الإحصائي إلى تحقيق غايات ثلاث تتدرج هرميا على النحو التالي :

(١) الوصف الإحصائي الأسلوبي للنص للكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة فيه .
(٢) التحليل الإحصائي للنص .
(٣) الحكم التقويمي ، أو ما يمكن الاصطلاح على تسميته (نعوت الأسلوب) .

وترجع خاصية التدرج والهرمية بين هذه الغايات إلى أن الوصف أساس لا غنى عنه في التحليل ، وأن كليهما أساس لا غنى عنه في الحكم والتقويم . ولدارس الأسلوب دراسة إحصائية أن يستبعد الغاية التقويمية بالكلية وأن يقنع في عمله بالوصف والتحليل . إما لأن الحكم والتقويم خارجان عن مهمة البحث (كما في البحوث الهادفة إلى الكشف عن المؤلف المجهول(٤٠) ، أو ترجيح نسبة نص ما إلى منشىء بعينه من بين عدد من الاحتمالات البديلة) . وإما لأن الوصف والتحليل قد لا يؤديان إلى حكم تقويمي يطمئن الباحث إليه . ويتحصل من ذلك أن الغايتين الأوليين متلازمتان غالبا . أما الغاية الثالثة فغير لازمة على وجه الضرورة . أما الأبحاث التي تتغيا تمييز نعوت الأساليب فلا مندوحة لها من التوغل في مجال الحكم التقويمي شريطة أن تسلم مقدمات الوصف والتحليل إلى حكم موضوعي منوط بأوصاف ظاهرة منضبطة .

وتنتظم إجراءات التشخيص الأسلوبي في مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة الفرض وفيها يحدد الباحث المتغيرات الأسلوبية التي يرجح مسئوليتها عن التميز الأسلوبي للنص المدروس اعتمادا على خبرته واطلاعه على ما سبق من دراسات ، أو على وضع استجابات عدد من المتلقين موضع الاختبار .

---

(٣٩) انظر :
- مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥١ ـ ٢٧٧ .
- حسين عيسى : الإبداع في الفن والعلم ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٩م ، ص ١٢٨ ـ ١٣٢ .
(٤٠) انظر :
سعد مصلوح : تحقيق نسبة النص إلى المؤلف : دراسة أسلوبية إحصائية في الثابت والمنسوب من شعر شوقي ، مجلة عصور ، مج ٣ ، ع ١ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٨ ـ ١٣٢ .

الثانية : مرحلة اختبار الفروض . وتقوم على معالجة النص المدروس إحصائيا بهدف إثبات صحة الفروض أو بطلانها . وتشتمل هذه المرحلة على جانبين : أولهما جانب الوصف الإحصائي ، والثاني جانب التحليل الإحصائي وسنخص هذه المرحلة ببيان فيه شيء من التفصيل ، إذ هي الغاية الأساسية من هذا البحث .

الثالثة : مرحلة الاستنتاج . وهي الثمرة المرجوة من وضع الفروض واختبارها .

٢ ـ ٦ ـ المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص

أشرنا في غير هذا البحث إلى أن كثيراً من الدراسات والرسائل الجامعية التي اعتمدت الوسيلة الإحصائية لمعالجة النصوص ، ولاسيما نصوص الأدب لم تأخذ من الإحصاء إلا وظيفته البدائية الأولى ، ونعني بها وظيفة العد ، أو الحصر Counting[41] . وهذه الوظيفة ـ وإن كانت من أساسيات العمل الإحصائي ـ ليست إحصاء Statistics بالمفهوم العلمي المنتج ، فلقد تجاوزت وظيفة الإحصاء عملية الحصر والعد لإجمالي المفردات وأقسام الكلام وأنواع الجمل وغير ذلك ، لتعطي مزيدا من البيانات القابلة للتوظيف في مجال الكشف عن أدق خواص النص على كافة المستويات التحليلية المختلفة . ليست الغاية إذن هي الحصول على أرقام مطلقة عارية من الدلالة ، ولكنها الوصول إلى الأرقام والبيانات النسبية القادرة على إنتاج مقارنات دالة .

وإذا كانت مرحلة اختبار الفروض هي المرحلة التي يتجلى فيها دور المعالجة الإحصائية للنصوص فإن ذلك لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة هامة ، وهي أن التدخل الإحصائي يبدأ مع مرحلة وضع الفروض وربما قبلها . إننا في الدرس الإحصائي أمام أحد خيارين : فإما أن نخضع للفحص مادة تمثل مجتمعا إحصائيا كاملا Statistical population ، كديوان شعر ، أو عمل أدبي برمته ، أو مدونة كاملة . وإما أن نستغني عن ذلك ـ مختارين أو مجبرين ـ باختيار عينات Samples يشترط بها أن تكون جيدة التمثيل للمجتمع الإحصائي المطلوب دراسته . واختيار العينات ـ وهو الطرف السائد ـ مطلب له ضوابطه وقواعده في مبحث العينات والاحتمالات ؛ حيث تتحدد خصائص العينة وحجمها بالنسبة للمدونة أو المجتمع الإحصائي . ومن هنا فإن الإحصاء يبدأ غالبا قبل مرحلة الوصف والتحليل ، أي عند اختيار العينات المدروسة . وعلى الباحث الذي تلجئه ظروف بحثه إلى اصطناع المعالجة الإحصائية وليس له بها سابق خبرة كافية ـ أن يناقش مع بعض المتخصصين في الإحصاء مسألتين مبدئيتين :

أولاهما : تحديد نوع العينة وحجمها ، فالحل العلمي الدقيق لهذه المسألة يوفر على الباحث وقتا طويلا وجهدا مضنيا قد يضيعهما بلا جدوى ، كما يستنقذ الباحث من متاهات أحرى به أن يتجنبها من أول الطريق .

الثانية : هي اختيار أساليب المعالجة الإحصائية المناسبة لاختبار فروضه ولنوع العينة وحجمها .

---

(٤١) سعد مصلوح : (الأسلوب . .) ، ص ٧ ، وأيضاً :
عثار محمود القاضي : مقدمة في طرق الإحصاء الاجتماعي ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٢ - ٤ .

ويتصل بما سبق أوهام تشيع في بعض الدراسات الإنسانية التي تستخدم المعالجة الإحصائية ؛ منها ما سبق أن ذكرنا من الخلط البين بين العد والإحصاء ، ومنها : الاعتقاد بأن الخطأ في اختيار نوع العينة الجيدة التمثيل يعوضه زيادة حجم العينة . والحق أن الأمر على النقيض تماما ، فزيادة حجم العينة إذا بني على خطأ في اختيار نوعها يزيد من فرص فساد النتائج . ومنها : الاعتقاد بأن هذا النوع من الدراسات إنما يتفاضل بحسب ما تمتاز به الطرق الإحصائية المختارة من دقة . والحق أن مقياس التفاضل هو موافقة الطرق المستخدمة لطبيعة البيانات العددية الخاضعة للمعالجة(٤٢).

وليس ينتظر من مثل هذا البحث تقديم تعريف مفصل بالطرق الإحصائية الممكن استخدامها في دراسة الأسلوب ، فمكان ذلك هو متون الإحصاء . لكن ذلك لا يعفي من محاولة لإضاءة هذه الطرق على نحو يزيل الوحشة القائمة بين كثير من النقاد واللسانيين وهذا الأسلوب المنضبط في معالجة النصوص .

ومادام مفهوم الدرس الإحصائي للأسلوب يتضمن بالضرورة مفهوم المقارنة بين أكثر من متغير أسلوبي في نص واحد ، أو بين متغير واحد في أكثر من نص ، أو بين أكثر من متغير في أكثر من نص ـ فإن هذا المفهوم يستدعي طرقا إحصائية معينة تفيد في تحقيق التشخيص الأسلوبي سواء على مستوى وصف النص أو على مستوى تحليله .

نبدأ الآن أولا بتحديد لأهم الطرق الإحصائية المستخدمة في الوصف ، ثم نثني بما يستخدم منها في التحليل أو (الاستدلال) الإحصائي . وتشمل طرق الوصف إمكانات كثيرة أهمها وأكثرها شيوعا في الإحصاء الأسلوبي (واللساني) ما يلي :

أولا : مقاييس الوصف الإحصائي :

(١) قياس كثافة المتغير الأسلوبي density

ومثاله قياس كثافة نوع معين من أنواع الجمل (الاسمي/ الفعلي/ البسيط المركب/ المعقد/ الإنشائي/ الخبري) . ويتحقق بقسمة عدد الجمل من النوع المراد قياسه على المجموع الكلي لعدد الجمل المكونة النص(٤٣) . ومن ذلك في العربية قياس كثافة المجاز density of metaphor بقسمة عدد المركبات المجازية على العدد الكلي للمركبات اللفظية المجازية وغير المجازية collocations في النص(٤٤).

(٢) قياس النسبة بين متغيرين أسلوبيين ratio

وذلك بقسمة تكرارات أحدهما على تكرارات الآخر . ومن ذلك قياس نسبة الأفعال إلى الصفات (معامل بوزيمان)(٤٥)، أو نسبة الجمل البسيطة إلى المركبة ، أو نسبة المركبات المجازية إلى الحقيقية .

---

(٤٢) فؤاد البهي السيد : علم النفس الإحصائي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٦٤ .

(٤٣) انظر : Curtis W-Hayes, "A study in Prose Style, Edward Gibbon and Ernst Hemingwaye", in Statistics and Stylistics, ed. L. Dolezel and R.W. Baily. New York, 1969, PP. 80-81.

(٤٤) انظر : سعد مصلوح : في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة : دراسة تطبيقية لقصائد من أشعار البارودي وشوقي والشابي ، مجلة الحياة الثقافية ، تونس ، ٤٦ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ، وما بعدها .

(٤٥) سعد مصلوح : (الأسلوب ...) ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٣) قياس النزعة المركزية للمتغيرات Centeral tendencies

(وبيان ذلك أن تميز نص أو منشيء ما باستخدام جمل طويلة مثلا لا يعنى انعدام الجمل القصيرة ، بل كل مايعنيه أن ثمة نزعة مركزية غالبة إلى استخدام الجمل الطويلة مع وجود إمكان محتمل لورود الجمل القصيرة بتكرارات أقل . وهكذا الأمر في رصد الخواص الأسلوبية الأخرى) وأهم مقاييس النزعة المركزية . الوسط الحسابي arithmetic mean ، والوسيط median ، والمنوال mode والوسط الهندسي geometrical mean [٤٦]

(٤) قياس تشتت بيانات المتغيرات dispersion

حين تتفق النصوص في نزعة مركزية واحدة فإن ثمة احتمالات لإمكان التمييز بينها باستخدام مقاييس التشتت ، أى قياس الدرجة التى تتجه بها البيانات الرقمية للانتشار حول قيمة وسطى . ومن أهم مقاييس التشتت : المدى range ، والتباين variance والانحراف المعيارى standard deviation [٤٧]

(٥) قياس التوزيع الاحتمالى للمتغيرات probilistic distribution

ويقصد به قياس تكرارات متغير أسلوبى ما (وليكن المتغير (أ) بوصفه واحدا من أبدال متاحة (ولتكن أ ، ب ، ج ، . . . ن) في ارتباطه بمقام معين . وسيأتى مناقشة النموذج الرياضى الذى يمكن الاحتكام إليه في وصف الأسلوب عند تعدد الاحتمالات .

(٦) قياس معامل الارتباط بين المتغيرات .

ومثاله قياس ارتباط الحدوث بين متغيرين أسلوبيين (كالارتباط بين طول الجملة والبساطة أو التركيب فيها) ، أو بين متغيرات أسلوبية معينة ومتغيرات المقام (كالارتباط بين طول الجملة واختلاف الوسط الناقل media ، أو بينه وبين اختلاف شكل النص بين البرقية والرسالة البريدية) ، أو بين المتغيرات الأسلوبية والأحكام النقدية التقويمية (كالارتباط بين طول الجملة أو تنوع المفردات والحكم بصعوبة الأسلوب) [٤٨] .

ثانيا : طرق الاستدلال الإحصائى .

بينا ـ فيما سلف ـ أهم طرق الوصف الإحصائى وأكثرها شيوعا في الدراسة الإحصائية للأسلوب . وقد يكون الوصف كافيا بذاته ليشكل أساسا مقنعا لاختبار المتغير الأسلوبى أو العلاقة بين المتغيرات ، وتحديد أهميتها في التشخيص الأسلوبى لنص ما ، إما بالاعتراف بها سمة مائزة للنص ، وإما باستبعادها واعتبارها من السمات الفائضة redundant features . وأمثل الحالات التى يكتفى فيها بالوصف الإحصائى هى تلك التى يجرى فيها الوصف على المجتمع

---

(٤٦) المرجع السابق : ١٥ .

(٤٧) F. Anshen, Op. Cit, PP. 17-18.

(٤٨) استخدم ل . دوليجيل معامل الارتباط في التشخيص الأسلوبى للعلاقة بين طول الجملة وطول الكلمة في نصوص اللغة التشيكية . ولقد ثبت وجود معامل ارتباط عال بينها إلا في الشعر . انظر :
L. Dolezel, "A Framework of Statistical Analysis of Style", in "Statitics and Stylistics", Op. Cit, PP. 19-20.

الإحصائي . أما عند اللجوء الى فحص عينات من المجتمع الإحصائي فقد تنشأ الحاجة الى استجلاء الدلالة الإحصائية للبيانات المستخرجة من العينات بغية استنتاج المميزات الرئيسة للأصل (أو المجتمع الإحصائي) ، وحينئذ ينحو الباحث (نحو التعميم العلمي للظاهرة التي يبحثها ، ويهدف الى استنتاج خواصها الإحصائية في صورتها العامة . ولذا يسمى هذا النحو الاستدلال الإحصائي ، لأنه يستدل على الخواص الإحصائية للأصل من الخواص الإحصائية لإحدى عيناته أو بعضها ، أي أنه يستنبط صفات الكل من الجزء أو الأجزاء التي تنطوي تحت إطاره . . . والمشكلة لاتقف عند هذا الحد ، بل تمتد في جوهرها الى الكشف عن مدى صحة ذلك الاستنتاج ودلالته الإحصائية ، فنستطيع أن ندرك مدى ثقتنا في تعميم نتائج الأبحاث المختلفة التي تقوم بإجرائها) (٤٩) .

وجدير بالذكر هنا أن بعض ما سلف بيانه من طرق الوصف الإحصائي صالح للاستخدام في مجال الاستدلال الإحصائي . ومن أهمها قياس التباين والانحراف المعياري ومعامل الارتباط . ويبقى أن نعرض لمقياس يعتمد عليه اعتمادا كبيرا في اختبار الدلالة الإحصائية أسلوبيا ولغويا ، وهو مقياس كاي^2

(١) مقياس كاي^2 : Chi - Square (٥٠)

يعتبر مقياس كاي^2 من مقاييس التوزيعات الحرة التي لاتعتمد على شكل التوزيع التكراري ، ويكثر استخدامه في البحوث الأسلوبية واللغوية الإحصائية لاختبار دلالة التكرارات على المستوى التوزيعي ، وإن كانت إمكانات استخدامه أوسع من ذلك بكثير . وتقوم فكرة المقياس على اختبار دلالة الارتباط بين ظاهرة ما والبيانات العددية المتعلقة بتوزيعها . (مثال ذلك : الارتباط بين جنس المتكلم ذكرا أو أنثى واشتمال الكلام على ظواهر صوتية أو تركيبية أو أسلوبية معينة) . ونحن ـ في هذه المسألة بين فرضين : إما أن الارتباط بين جنس المتكلم وهذه الظواهر هو ارتباط منعدم ويسمى هذا الفرض : فرض العدم أو الفرض الصفري null hypothesis وإما أن يكون ثمة ارتباط دال بين الأمرين . ويقوم المقياس باختبار فرض العدم . وينشأ عن رفض فرض العدم . قبول الفرض البديل (أي إثبات وجود العلاقة) ، كما أن عكس ذلك أيضا صحيح . ويتم الاختبار بإدخال التوزيع الفعلي (أو التوزيع المشاهَد) للظواهر مع التوزيع المتوقع لها في معادلة وهي : إيجاد ناتج طرح رقم التوزيع الفعلي من رقم التوزيع المتوقع ، ثم تربيع ناتج الطرح وقسمته على الرقم المتوقع . وتتم هذه العملية بالنسبة لكل خانة من خانات الجدول ، ثم نقوم بإيجاد المجموع الكلي لنواتج هذه العملية في جميع خانات الجدول .

وتقدم لنا المعادلة السابقة طريقة حساب مقياس كاي^2 . أما حساب دلالة المقياس (أي حساب المستوى الذي يمكن عنده رفض فرض العدم) فيلزم له حساب درجة الحرية degree of freedom . (وهي حاصل ضرب عدد الصفوف الأفقية في جدول التوزيع المعنيّ باستثناء الصف الخاص بالمجموع الكلي مطروحا منه واحد صحيح × عدد

(٤٩) فؤاد البهي السيد : المرجع السابق ذكره ، ص ٤١٦ - ٤١٣ .
(٥٠) انظر : F. Anshen, Op. Cit, PP. 23-25.
ومن تطبيقاته في العربية انظر :
ـ أحمد طاهر سليمان : علاقة الهمس والجهر بالمعاني في المفضليات العربية - دراسة إحصائية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، مج ٩ ، ع ٣٤ ، ربيع ١٩٨٩م ، ص ٣٦ .

الأعمدة الرأسية للجدول باستثناء عمود المجموع الكلى ، مطروحا منه واحد صحيح . وثمة جداول إحصائية جاهزة تحدد المستوى الذى يمكن عنده رفض فرض العدم (أى إثبات العلاقة) مع كل درجة من درجات الحرية .

(٢) مقياس النسبة الحرجة z - score (٥١)

يفيد هذا المقياس في إجراء حساب مباشر لدلالة فرق المتوسطات ، أى لتحديد ما إذا كان الفرق بين متوسطى مجموعتين من القيم كافيا لاعتباره دالا من الوجهة الإحصائية أم لا . ويتطلب هذا المقياس معرفة مايأتى :

(أ) متوسط القيم في المجموعتين المعنيتين .

(ب) عدد المشاهدات في كل مجموعة .

(ج) حساب درجة التباين Variance لكل مجموعة (مربع الانحراف المعيارى) .

أما المعادلة الخاصة به فتكون بإيجاد : الفرق بين متوسطى قيم المجموعتين ثم قسمته على الجذر التربيعى لحاصل جمع (درجة تباين المجموعة الأولى مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها + درجة تباين المجموعة الثانية مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها) .

تلكم هى أهم الطرق الإحصائية المعتبرة عند اللسانيين والأسلوبيين في معالجة النصوص اللغوية . وننتقل الآن الى التعريف بمفهوم النموذج الرياضى في التشخيص الأسلوبى وأنواعه .

٢ - ٧ . النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبى .

يكثر ظهور المعادلات الرياضية في الدراسات الإحصائية للأسلوب بما يشكل حاجزا نفسيا بين كثير من المهتمين بأمر النص اللغوى - والأدبى خاصة - وهذا النوع من الدرس الطقلى ، وربما كان للألفة في ذلك دخل كبير . وقد أمحضتُ هذه الفقرة لمناقشة فكرة النماذج الرياضية المستخدمة في التشخيص الأسلوبى mathematical models وأنواعها ، وكيفيات استخدامها في فحص الأساليب .

يقصد بالنموذج الرياضى الصياغة التجريدية للعلاقة القائمة بين المتغيرات الأسلوبية على النحو الذى تشكل به خاصية أسلوبية مائزة . بذلك يكون النموذج الرياضى صياغة للمقياس الأسلوبى في شكل معادلة رياضية تلخص العلاقة بين المتغيرات الاسلوبية في المقياس . وينشأ مما سبق توقع اختلاف النماذج الرياضية الأسلوبية بحسب حظها من التجريد أو البساطة ، فأبسط النماذج هو ما كان خاصا بالكشف عن خاصية أسلوبية واحدة . أما حين يضبط النموذج العلاقة بين أكثر من خاصية أسلوبية فمن المتوقع أن تكون المعادلة أشد تركيبا حتى إذا افترضنا وحدة المقام . أما إذا اختلفت مواصفات المقام ، واختلفت ، تبعا لذلك ، عدد الخصائص المفحوصة وعلاقتها بعضها ببعض من جهة ، وعلاقتها بالمقام من جهة أخرى ، فحينئذ يكون على النموذج ان يخطو في سلم التركيب درجة أعلى من سابقيه .

(٥١) انظر :
F. Antosch, Op. Cit, PP. 25-26.
محمد جلال : القياس النفسى : المقاييس والاختبارات ، دار الفكر العربى ، ١٩٨٥ ، ص ٣٦٨ - ٣٣١ .

وتتنوع النماذج الرياضية المستخدمة في فحص الأسلوب باعتبار آخر ، ونعني به تعدد فروع الرياضيات نفسها . وقد حددها هـ . ب . ادموندسون H . P.Edmundson فسلكها في نوعين رئيسين هما : النماذج الحتمية deterministic models ، والنماذج الاختيارية stochastic models . وتشمل النماذج الحتمية بحسب تصنيف ادموندسون : (٥٢)

(١) النماذج الهندسية geometric models وتمثلها بحوث هيردان Herdan (٥٣).

(٢) النماذج التحليلية analytic models وتمثلها بحوث زيف Zipf (٥٤)

(٣) النماذج المنطقية Logical models ومن دعاتها لويس ميليك Louis Milic (٥٥).

(٤) النماذج الجبرية algebraic models ومنها دراسات هايس Hayes (٥٦)

أما النماذج الاختيارية فتشمل :

(١) النماذج الاحتمالية probablistic models

(٢) النماذج الإحصائية Statistic Models

ويمثل هذين الاتجاهين أودني يول O . Yule ولوبوموار دوليجيل L . Dolezel .

ويرى د . د . تالنتير D.R. Tallentire أنه لا بأس باعتبار هذا التصنيف أساساً للنظر . بيد أنه أورد عليه ملحظين :

__أولهما__ : (أن هذه الأنواع ليست منقطعة الصلة بعضها ببعض كما يوحي بذلك الرسم التوضيحي الذي قدمه ادموندسون ، فالمنطق والتحليل أساسيان لنماذج الاحتمالات والنماذج الإحصائية ، كما أن هذين النوعين يعتبران فرعا واحدا من فروع الرياضيات) .

---

(٥٢)
D. R. Tallentire, "Mathematical Modelling in Stylistics, its extent and General Limitations", in : Computer in Literary and Linguistic Research, ed. R. A. Wisbey, Univ. of Cambridge, 1971, P. 118.

(٥٣) ينتمي النطور الذي يقترحه هيردان إلى الهندسة الإسقاطية Projective Geometry وهي الرع من فروع الهندسة التي يعامت أشرح الهندسة الإقليدية من المجال الذي حصرت نفسها فيه ، وهو دراسة السطوح المستوية ، ودراسة الأشياء في أبعادها الثلاثة المعيارية : الطول والعرض والارتفاع ، وهو ما يعرف بهندسة المجسمات . ويرى هيردان أن الثنائية الهندسية المتمثلة في (النقطة) و(الخط) يمكن ربطها من الترتيب بثنائية (النمط) و(الفرد) Type-Token في دراسة اللغة . أما تالنتير فيرى أن النموذج الهندسي يعد أقل النماذج الرياضية اتصالاً بالأسلوبيات . انظر :
D. R. Tallentire, Op. Cit. PP. 120-121.
وانظر تطبيقاً لهذه الثنائية الرياضية في دراسة لكاتب هذا البحث عن تنوع المفردات عند الرافعي بالمخطوطة حسين لكاتب هذا البحث (مرجع سبق ذكره الحاشية ٢٤) .

(٥٤) عن جهود زيف في اللسانيات الرياضية انظر :
Milka Ivic, Op. Cit, PP. 217-218.

(٥٥) يتحقق النموذج المنطقي - كما يتصوره لويس ميليك بإجراء عملية اختصار تراكيبي للجملة يتوصل به الباحث إلى أبسط صيغة تكون عارية من كل ما يمكن أن يعد حلية أسلوبية ، ثم تجري مقارنة هذه الصورة المبسطة بالجمل الواردة فعلاً في النص . وهذا تكون الصورة المبسطة بنية تراكيبية تجردت صياغتها صياغة منطقية وتسمى بالجملة النواة Kernal Sentence أو جملة ما قبل التأسلب Pre-Stylized وانظر لمزيد من التفصيل :
سعد مصلوح : (الأسلوب ...) ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٥٦) من أوضح الدراسات دلالة على الجهد هايس دراسته للأساليب النثرية عند جيبون وهمنجواي (انظر حاشية رقم ٤٣) .

والملحظ الثاني فحواه أن كل فرع من الفروع الستة يمد الدراسات الأسلوبية بنموذج محدد . وهذا لاينفي إمكان استخدام توليفات من هذه النماذج الأساسية في دراسة المشكلة الواحدة . وقد أنجزت دراسات ناجحة باستخدام مزيج من هذه النماذج [٣٢] .

وتتفاوت النماذج الحتمية بأنواعها المختلفة : الهندسية والتحليلية والمنطقية والجبرية في قدرتها على استيعاب العلاقات في التشخيص الأسلوبي ، فأقلها حظاء وشيوعا النموذجان الهندسي والتحليل ، ولا كذلك المنطقي والجبري ، فهما ـ بهذا الترتيب ـ أكثرها شيوعا . ويستفاد مما سبق أمور :

أولها : أن مفهوم النموذج الرياضي في التشخيص الأسلوبي أعم من مفهوم النموذج الإحصائي الاحتمالي ، أو أن التشخيص الإحصائي الاحتمالي هو واحد من عدة نماذج رياضية ممكنة التطبيق في مجال التشخيص الأسلوبي . (ويلحظ هنا أننا اعتبرنا النموذجين الإحصائي والاحتمالي بحسب تصنيف ادموندسون نموذجا واحدا) .

ثانيها : أن موضوع هذا البحث يوجب علينا أن نصرف اهتمامنا الأصيل الى معالجة النموذج الرياضي الاختياري . أما النماذج الرياضية الحتمية فمجالها هو دراسة التشخيص الأسلوبي بإطلاق ، وليس خصوص التشخيص الأسلوبي الإحصائي .

ثالثها : أن الملحظ السابق ـ وإن كان صحيحا بوجه عام ـ يرد عليه استثناء في مايتصل بالنموذج الجبرى ، لأسباب : منها قدرته على حصر التنوعات اللغوية التي تشكل قائمة الاختيار ، أو تحدد مجال الاحتمالات التي يمكن تصنيفها الى : (تعبير ـ نمط) و (تنوعات انحراف) . كما أن ثمة صلة نحوية بين النموذج الجبرى والأنحاء الجبرية ، ولاسيما النحو التوليدى التحويلى . وسنرى حين نعرض لمشروع فوليجل في التشخيص الأسلوبي الإحصائي احتفاءه الشديد بمقولات النحو التحويلى ، وإيمانه بقدرتها على تزويد النظرية الأسلوبية الإحصائية بما يمكنها من أداء مهمتها على الوجه المأمول . لذلك كان من المفيد ـ فيما نرى ـ أن نعرض بشيء من التفصيل للنموذج الرياضي الجبرى من بين النماذج الحتمية وبتفصيل أشد للنموذج الإحصائي الاحتمالي إذ هو المقصود بالأصالة .

أولا النموذج الجبرى .

الأنحاء الجبرية ـ ومن بينها الطراز التوليدى التحويلى ـ وثيقة الصلة بالرياضيات من جهة ، وبالمنطق من جهة أخرى ، إذ إن قوامه هو استخدام نماذج شكلية (أوصورية) في اللسانيات النظرية وفي الوصف التحليلي لتراكيب اللغة . وعلى الرغم من أن استخدام الصياغة الشكلية ينحي غالبا قضية التنوعات الراجعة الى تمايز الأفراد واختلاف المقامات ـ فقد أثبت النحو التوليدى قدرة على استيعاب التنوعات من خلال استخدامه لمقولتي التوليد والتحويل . وترجع أهميته في هذا المجال الى اهتمامه بالمستوى التركيبي (أى مستوى النظم) Syntactic level ، وهو مستوى يحظى بعناية الأسلوبيين الذين يقدمون الايثارات التركيبية على الخيارات المعجمية في تشخيص الاساليب . وقد وجد هؤلاء

(٣٢) D. R. Tallentire, Op. Cit. P. 119.

ضالتهم . في كثير من مقولات التحويليين مثل مقولة الكفاءة والأداء/ Competence performance ، ومقولة البنية الباطنة والبنية الظاهرة deep/ surface structure بالإضافة الى الإجراء التحليل المتمثل في قواعد التحويل transformational rules . وكان في ذلك عون لهم على تمييز الفروق بين الأساليب بطريقة علمية منضبطة .

ولقد دفعت الحاجة الى تطويع قواعد التحويل للدرس الأسلوبي بعض العلماء مثل وليام لابوف W. labov الى القول بوجوب التمييز بين نوعين من القواعد ، أولهما القواعد الملزمة (أو مانؤثر تسميته قواعد الوجوب Categorical rules) والقواعد الاختيارية (ونسميها قواعد الجواز Variable rules) ورأى أن الحاجة ماسة الى نوع من التحليل النحوي تعمل فيه القواعد في نسبة مئوية معينة من الحالات وتتخلف عن العمل في الحالات الباقية . ويلحظ اينكيفست Enkvist أن اقتراح لابوف قد أطلع الباحثين على مثال للكيفية التي يمكن بها تزويد النحو التحويلي بقواعد تقيس الاحتمالات قياسا كميا . وهاهوذا تلخيص للمعادلة الرياضية الإحصائية التي اقترحها لابوف .

يبدأ لابوف فيلحظ أن القواعد السائدة في النحو التحويلي تتخذ صيغة عامة هي :

X ——> Y/A-B

وتفسير ذلك أنه حينما ترد X في الوسط A-B فإن كتابتها تعاد لتصبح Y . ولاتعمل القاعدة إلا إذا توافر هذا الشرط وتسمى مثل هذه القواعد بالتعليمات الوجوبية Categorical instructions بيد أننا إذا أدخلنا في التحليل قواعد جوازية optional rules ـ على نحو مافعل تشومسكي في تصوره الأول الذي نشره عام ١٩٥٧ ـ أمكننا أن نتجنب الوقوع في تلك المشكلة العويصة ، مشكلة تحديد ظروف الإعمال والإهمال بالنسبة للقاعدة . ويرى لابوف أن الحل الأمثل هو إدخال قواعد للتنوع Variable rules تتضمن كمية محددة يرمز إليها بالرمز ф وتشير هذه الكمية الى التمثيل النسبي للحالات التي تنطبق عليها القاعدة ، بحيث تكون هذه الحالات جزءا من تركيب القاعدة نفسها . وهذا التمثيل النسبي هو نسبة الحالات التي تنطبق عليها القاعدة بالفعل بالنسبة الى المجموع الكلي للجمل أو الأحداث الكلامية التي يمكن أن تنطبق عليها القاعدة بالشروط التي حددتها للوسط ، اذا افترضنا أنها من القواعد الوجوبية .

وتتدرج قيمة K_0 في قواعد التنوع بين الصفر والواحد الصحيح . أما في القواعد الوجوبية فليس لها إلا قيمة ثابتة هي الواحد الصحيح . وتأخذ قاعدة التنوع الاحتمالي شكل المعادلة الآتية :

$$ф = 1 - K_0$$

حيث تمثل K_0 المدخلات المتغيرة التي تتضمنها المعادلة ، تلك التي ترسم حدود تطبيقها . وكلما زادت قيمة K_0 ضاق مجال العمل بالنسبة للقاعدة ، أو ـ بعبارة أخرى ـ قلت نسبة الحالات التي تنطبق عليها القاعدة . وحين تتعدد عوامل المدخلات يتعدد الرمز المقابل لها في المعادلة على هذا النحو

$$(K_0 - X K_1 - β K_2 \cdots γ K_n)$$

وتمثل $K_0 \ldots K$ ثوابت يجرى تحديدها بالاختبار الامبريقي .

أما الرمزان X - ~ فيمثلان أوزان هذه العوامل .

وقد صممت المعادلة بحيث إذا اشتملت بعض تفرعات الجمل المدروسة على أحد الثوابت الموجبة أدى ذلك إلى نقص قيمة K_o . وهكذا يتسع مجال تطبيق القاعدة بتناقص قيود تطبيقها وزيادة قيمة φ .

وحين تعطى الثوابت المختلفة قيما تتحدد في ضوء اختبار المادة ودراستها ينبغي ترتيب الثوابت في تسلسل هرمى . ويقوم معيار الترتيب على أساس البدء بالقيد (أى العامل الثابت) الذى يحوز الوزن الأكبر ، ثم الذى يليه . . . وهكذا .

وخلاصة القول أن استخدام النماذج الجبرية التى تمدنا بها قواعد التحويل يمكن أن تتم بطريقتين تختلفان بساطة وتركيبا ، في الأولى يجرى إحصاء تكرارات استخدام المنشىء لقاعدة معينة أو للمجموعة من القواعد . ومن المتوقع أن يتفاوت المنشئون في إيثارهم قواعد معينة على غيرها ، مما يشكل سمة أسلوبية نحوية يمكن اعتمادها في المقاربة الأسلوبية . أما الطريقة الثانية فهو مركبة نسبيا ، إذ تقوم على تزويد النحو نفسه بنوع من قواعد التنوع يختلف عن قواعد الوجوب والجواز في النحو التحويلي التقليدى .

ثانيا : النموذج الإحصائي الاحتمالي .

هذا النوع من النماذج الرياضية هو أقدرها فيما نرى على تقديم النموذج الموفق الذى يمكن الباحث من التعبير الصورى عن تميز الأساليب باعتبارات مختلفة . ويكاد ترقى هذه المقولة إلى أن تكون موضع اتفاق بين أكثر الدارسين لظاهرة الأسلوب ، إذ هو أكثرها انسجاما مع طبيعة هذه الظاهرة . ولعل في ماسلف من حديث عن الأساس النظرى للإحصاء الأسلوبي ومفاهيم الأسلوب مايعزز صحة هذا الرأى ويثبت صوابه .

وحين نذكر النماذج الإحصائية الاحتمالية في الدرس الأسلوبي تبرز جهود عالمين من أعلام هذا الاتجاه هما اودنى يول ولوبومودار دوليجيل . وقد صاغ أولهما واحدا من أهم المقاييس وأكثرها حساسية في مجال تمييز البصمة الأسلوبية ، وهو ما أصبح يعرف بخاصية يول Yule,s Characteristic [٤٨] . أما ثاني الرجلين فكان من بين جهوده دراسة مفصلة أرادها أن تكون (إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوبي) A Framework of Statistical Analysis of Style ، وقد توافرت لهذه الدراسة ميزة الدقة والشمول على نحو يجعل منها مشروعا بحثيا يمكن ـ في حالة استيعابه ـ أن يكون منطلقا للبحث في كافة مجالات الإحصاء الأسلوبي ، ولمناقشة ما يثيره من قضايا ومشكلات . وفي مايلى عرض لمشروع دوليجيل حاولنا أن نستوفى فيه الدقة والتبسيط في آن معا .

(٤٨) تلك الخاصية التي استخدمها كاتب هذا البحث في دراسته للمخطوطات المجهولة (انظر حاشية ٤٠) . وتوجد مناقشة مفصلة لخاصية يول في مقال بافال فاساك (بالروسية) ، واستخدام لها في تحقيق نسبة نص من نصوص القرن التاسع عشر :
Paval Vasak : "Metodi ustanovlenyia Spornogo avtarstva" (Methods of Determination of Disputed Authorship), in Pragan Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, No. 3, 1972, PP. 143-161.

٢ ـ ٨ إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوبي (مشروع دوليجيل) (٥٩)

٢ ـ ٨ ـ ١ . الأسلوب مفهوم احتمالي

تقوم النظرية الإحصائية للأسلوب ـ عند دوليجيل ـ على أساس مقولة بسيطة هي أن (الأسلوب مفهوم احتمالي) . ويمتاز المفهوم الاحتمالي بسمتين أساسيتين :

الأولى : أنه في عالم الاحتمالات لايتوقف وقوع الظاهرة (أ) على وجود الشرط (س) ، بحيث توجد بوجوده وتنعدم بانعدامه . لكن الذي يقال هو أن الظاهرة (أ) تقع في وجود الشرط (س) باحتمال معين ، أي أن وجود الشرط (س) لايمتنع معه وقوع الظواهر (أ) أو (ب) أو (جـ) . . الخ . ولكن تختلف درجات الاحتمال . وهذا هو الأمر القابل للقياس الإحصائي ، ويسمى بالتوزيع الاحتمالي Probability distribution .

والسمة الثانية للمفهوم الاحتمالي هي أن التوزيع الاحتمالي يصف توقع حدوث الظاهرة في مجتمع إحصائي مثالي . لكننا نستطيع ـ عمليا ـ أن نكتفي بملاحظة وقوع الظاهرة بعينات ممثلة للمجتمع الإحصائي . ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جميع العينات أن تتجانس تجانسا تاما في توزيع الظاهرة المدروسة . فالمشاهد بالتجربة أن قيم الاحتمالات تتأرجح حول قيمة معينة تأرجحا غير ذي دلالة من الناحية الإحصائية . وهنا يتجلى التوزيع الاحتمالي (الذي سبقت الإشارة إليه في السمة الأولى) في شكل آخر يسمى بالتوزيع التكراري للعينة Sample frequency distribution .

ويرى دوليجيل أن ثمة براهين قوية على أن كلتا هاتين السمتين تتجلى في الخواص الأسلوبية للنصوص . وينشأ عن تقرير الصفة الاحتمالية للظواهر الأسلوبية وجوب تحديد الصفة العامة للأسلوب على أساس من درجة الحضور (أو الغياب) لأشكال معينة من التعبير ، لأن هذه الأشكال هي نتيجة لإيثارات المنشيء أكثر من كونها نتيجة عادات ثابتة . إن العادات الثابتة تؤدي إما الى الاستعمال المطلق وإما الى الكبت المطلق لبعض أشكال التعبير . وهذا الأمر غير وارد في الأسلوب . ولذلك كان من الأرجح أن ننظر الى الأسلوب على أنه نتاج إيثار واختيار لا أنه نتيجة عادات ثوابت . وإذن فالسمات الأسلوبية هي اتجاهات وليست عادات .

على أن القياس الإحصائي قادر على تحديد الدلالة الإحصائية لتأرجح قيم العينات حول القيمة الاحتمالية ، أي أنه قادر على التوصل الى القرار الصحيح : إما بإهمال التأرجح واعتباره غير ذي قيمة وإما بالاعتداد به . من ثم يمكن بالقياس الإحصائي الكشف عن الاتجاهات الأسلوبية المستقرة Stylistic Stability المختفية وراء التأرجحات الظاهرة . ونستظهر مما سبق أمرين هامين :

أولهما : اعتبار الخواص الأسلوبية اتجاهات لا عادات .

---

(٥٩) هذا عرض لإطار العمل الذي اقترحه دوليجيل للكيفية التي تصاغ بها معادلة رياضية لتشخيص الخصائص الأسلوبية للنص في علاقاتها بعضها ببعض ، وفي علاقاتها بالمقام ، مع إعطاء كل خاصية وزنها الحقيقي في المعادلة ككل .

L. Dolezel, "A Framework for the Statistical Analysis of Style", in Statistics and Stylistics, OP.Cit, PP. 57-65.

والثاني أنها اتجاهات مستقرة تختفي وراء مايبدو من تأرجح لقيمها في العينات . والتسليم بهذين الأمرين ـ عند دوليجيل ـ يمكن أن يجعل من المعالجة الإحصائية نظرية أسلوبية تمتاز بالكفاءة ، وليس مجرد مظهر ثانوي من مظاهر النظرية الأسلوبية لكنه يقرر أن الطريق الى تحقيق ذلك مايزال طويلا ، وأن مشروعه هذا ليس إلا خطوة على الطريق .

ويبرز دوليجيل في مشروعه أهمية ثنائية الكفاءة/ الأداء في إمداد النظرية الأسلوبية بالخلفية العامة المناسبة لتفسير التنوع الأسلوبي . وهو يعد عمليات التشكيل الأسلوبي مكونا أساسيا من مكونات مقولة (الأداء) . أما مقولة (الكفاءة) فإنها تشكل خلفية ضرورية لأى نظرية أسلوبية . ومن خلال بعض الملاحظ النقدية التي يبديها على نظرية (الأداء) يحدد لنا الشروط المتوقعة في أى مخطط كامل للأداء ، فيرى أن على هذا المخطط :

(١) أن يفسر السمات البراجماتية للسلوك اللغوى .
(٢) أن يفسر الفروق الجوهرية بين النصوص .

إن على هذا المخطط ـ بعبارة أخرى ـ أن يعطى وصفا لعملية التشكيل الأسلوبي Style - Formation Process التي يتجلى فيها تأثير السمات البراجماتية من جهة ، كما أنه مسئول ـ من جهة أخرى ـ عن كشف الفروق الأسلوبية بين النصوص .

٢ ـ ٨ ـ ٢ ـ عملية الاختيار .

عملية الاختيار هي مكون أساسى من مكونات عملية التشكيل الأسلوبي . وهي في جوهرها ، اختيار شكل تعبيرى واحد من بين مجموعة أبدال متاحة ويكون الاختيار في أبسط حالاته بين بديلين . أما في الحالات المعقدة فيكون الاختيار بين عدد كبير من الأبدال .

ويحكم عملية الاختيار عوامل براجماتية يمكن تصنيفها الى نوعين :

(١) عامل ذاتي : subjective ويشمل الإيثارات اللغوية للمتكلم ، وطابع تفكيره ، ومهاراته الأسلوبية .

(٢) عامل موضوعى : Objective ويشكله المقام Context (بتوسيع مفهومات هذا المصطلح) . وهذا العامل مستقل عن المتكلم ، وإن كان يمارس تأثيره من خلاله . ويشمل العوامل المتعلقة بالاتصال اللغوى . مثل شكل اللغة : منطوقة أو مكتوبة ، وشكل الخطاب : فردى أم حوارى ، وجنس القول . . الى غير ذلك من العوامل وكلا هذين النوعين من العوامل البراجماتية حاضر دائما أثناء إنتاج النص . ويمكن ـ نظريا ـ استنباط ثلاثة احتمالات للعلاقة بين العوامل الذاتية والموضوعية في تشكيل الأسلوب .

الاحتمال الأول : قد يخضع الاختيار عند المنشىء لإيثاراته الخاصة ، وينحى تماما اثر المقام (العامل الموضوعى) . ويمكن التمثيل لهذا النمط بشاعر تسيطر خواصه الأسلوبية المميزة على جميع قصائده في جميع

الموضوعات . ويحقق هذا هيمنة العامل الذاتي عنده وتنحية العامل الموضوعي . ويسمى هذا النمط من المنشئين : (المنشيء المتحرر من المقام) Context - -Free Speaker .

الاحتمال الثاني : أن يكبت المنشيء إيثاراته الفردية كبتا تاما ، ويخضع تمام الخضوع لما يمليه المقام . ويمكن التمثيل لذلك بكتابات الأجهزة الإدارية وكتاب الدواوين ، حيث يسود العامل الموضوعي وينحى العامل الذاتي تنحية تامة . ويسمى مثل هذا (المنشيء الخاضع للمقام) Context - Bound Speaker

الاحتمال الثالث : أن يضبط المنشيء اختياراته تبعا لما يتطلبه المقام . وهو العامل الموضوعي الذي يتجاوز الفرد Supra U indivdual context ولكنه يحتفظ في الوقت نفسه بتفرده . وخصوصيته التي تميزه عن غيره من المنشئين ومثل هذا المنشيء يسمى المنشيء الحساس للمقام context u Sensitive Speaker إذ هو يخضع اختياراته . . . الخ

والنمط الثالث هو أكثر الأنماط شيوعا ، ومثاله المنشيء الذي يحتفظ بخصوصياته الأسلوبية ، وهو - مع ذلك - ينوع مابين أسلوبيه منطوقا ومكتوبا . والملاحظ أن المنشيء الواحد لا يلزم نمطا واحدا من الأنماط الثلاثة بل قد يراوح في أسلوبه بينها جميعا ويمكن القول بأن هذا النوع من الأسلوب هو حصيلة تدافع قوتين : العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية . وهما تعملان في اتجاهين متضادين ، وتحاولان السيطرة على الساقة الاتصالية في لغات البشر .

٢ - ٨ - ٣ . البنية الإحصائية للنص

تتحدد البنية الإحصائية للنص بمجموع الخواص التي تثبت له بالقياس . ويمكن أن تصاغ المعادلة العامة للبنية الإحصائية للنص كما يلي . ص = $\{ خ_{1} ، خ_{2} ، . . . خ_{ن} \}$

حيث ص = نص ، خ = خاصية ، (. . . . وتشير إلى جميع خواص النص التي تم فحصها . ويطلق على هذه المعادلة :

المعادلة المبدئية للنص Elementary - Text Formula وهي معادلة معيبة نظرا لما نتوقعه من عدم تجانس القياسات الإحصائية للخواص المختلفة ، وهو مايجعل من جمعها في معادلة واحدة مشكلة إحصائية تتطلب حلا . وحين ندخل في الاعتبار التصنيف المقامي القائم على أساس ماهو موجود من العوامل البراجماتية المؤثرة في انتاج النص يتحصل لنا أن مجموع نصوص لغة ما (ويرمز لها بالرمز : ص (ل) ، حيث ل = لغة ، ص = نص) يمكن تصنيفها باعتبارين :

الأول : أن تصنف تبعا للعوامل الذاتية . وينتج لنا هذا التصنيف ص ($ك_{ى}$) .

حيث ص = نص ، و ($ك_{ى}$) = منشيء أو متكلم بعينه مع تنوع المقامات . ويصبح مدلول ص ($ك_{ى}$) هو مجموعة النصوص التي ينتجها منشيء بعينه بقطع النظر عن اختلاف المقامات .

الاعتبار الثانى : أن تصنف تبعا للعوامل الموضوعية . وينتج لنا هذا التصنيف ص (قي) ، حيث (قي) = مقام بعينه . ويصبح مدلول الرمز ص (قي) هو مجموعة النصوص التى تنتج في مقام معين بقطع النظر عن اختلاف المنشئين .

ولما كانت الجهة منفكة بين التصنيفين فإنه يحصل لنا باجتماعها ص (ك ق ي ج) ، أى مجموعة النصوص التى ينتجها منشىء معين في مقام معين . ومن الطبيعى أن نتوقع خلو بعض المجموعات من هذا النوع ، ضرورة أن المنشىء المعين لا يتوقع منه أن يكتب في جميع المقامات .

وقد نتساءل : كيف يحدد الباحث العوامل الذاتية والموضوعية التى يتم على اساسها تصنيف مجموع نصوص اللغة : ص (ل) . والجواب ان هذه العوامل يمكن تحديدها امبريقيا ، فالتصنيف البراجماتى هو إطار تجريبى امبريقى للتحليل الإحصائى يمكن تحديده دون أن نعرف شيئا عن البنية الإحصائية للنصوص . وتتحول النصوص بعد تحديدها على هذا الأساس البراجماتى الى مجتمعات إحصائية . وبذلك يمكن استخدامها لتحديد الخصائص الإحصائية للنصوص .

ولقد سبق لنا الحديث عن المعادلة المبدئية للنص ، ووصفناها بأنها معيبة مع بيان الحيثيات هذا الحكم . ومن ثم لم يكن بد من تهذيب هذه المعادلة . وأول مراحل هذا التهذيب أن نتخلص منها بعض الخصائص التى تعوق عملية التشخيص الإحصائى للنص . ولدينا ـ عادة ـ نوعان من هذه الخصائص :

الأول : خصائص مافوق الأسلوب Supra - Stylistic Features

ويقصد بها بعض الخصائص التى تتجاوز الخيار الأسلوبى ، وتفرض نفسها على جميع المنشئين فلا تنقاد للتشكيل الأسلوبى . وليس لهذا النوع من الخصائص اللغوية ما يؤهله لتشكيل سمات مائزة بين الأساليب . وسنرمز له بالرمز (خ ـ ل) ، حيث خ = خاصية و ل = لغة .

ومثل هذه الخصائص ـ وإن لم تكن مادة للتشكيل الأسلوبى ـ هى خلفية ضرورية لإدراك الفروق الأسلوبية بين النصوص . وإلى هذا النوع نعزى الفونيمات والجرافيمات (أى وحدات نظام الهجاء) .

والثانى : خصائص ما دون الأسلوب Sub - Stylistic Features

ويندرج تحت هذا المفهوم خصائص يثبت من فحص ص (ك ق ي ج) أنها تتسم بعدم الثبات non-stationary ، أو أنها تتأرجح تأرجحا ذا دلالة إحصائية . وتمثل هذه الخصائص تحديا حقيقيا للنظرية الإحصائية في دراسة الأسلوب . ولامفر أمام الباحث من عزل هذا النوع واستبعاده ، لكى تستقيم البنية الإحصائية للنص .

وحين يتم عزل هذين النوعين من الخصائص غير الأسلوبية يصبح من الممكن إجراء أولى خطوات تهذيب المعادلة المبدئية للنص ، حيث تحصل لنا : المعادلة المبدئية لأسلوب النص elementary text - Style formula . ولا يسمح

بدخول المعادلة إلا للمتغيرات الأسلوبية التي يثبت بالفحص الإحصائي أنها سمات أسلوبية . وصيغة هذه المعادلة هي :

ص = (خ س١ ، خ س٢ ، . . خ سن) . حيث خ س = خاصية أسلوبية ، أما ١ ، ٢ ، . . ن فهي مجموع الخواص الأسلوبية بما فيها الخواص التي ترتبط بخواص سبق ورودها ارتباطا على وجه اللزوم .

وتتجه الخطوة التالية في تهذيب المعادلة الى استبعاد الخواص التابعة ، أي المتضمنة في خواص أخرى على وجه التلازم ، واستبقاء الخواص الأسلوبية الأساسية والمستقلة دون غيرها . وتنتج هذه الخطوة : **المعادلة المخفضة لأسلوب النص** reduced text - style Formula ، وهي :

ص = (خ١ ، خ٢ ، . . . خن) ، حيث تساوي خى في هذه المعادلة خاصية أسلوبية مستقلة (وحيث يكون عدد الخواص المستقلة ن أصغر من مجموع الخواص المستقلة والتابعة) .

٢ - ٨ - ٤ . مادة الفحص والفروض

على الباحث أن يجري فحصه الإحصائي على فئات النصوص من النوع ص (ك ق ى ج) ، أي نصوص منشىء معين في مقام محدد . ويرمز الى المجموع الكلي للنصوص ص (ك ق ى ج) بالرمز ص (قج) ، ويعني مجموع فئات النصوص في مقام محدد بقطع النظر عن اختلاف المنشئين . وتشكل ص (قج) المدونة الأساسية للمادة التي تخضع للفحص بهدف تحديد البنية الإحصائية للنصوص . وثمة احتمالان متعارضان يمكن أن يؤدي الى أحدهما فحص التجانس في (خى) (أي الخواص الأسلوبية المستقلة) . ولكل منهما تفسيره :

أولها : أن تتأرجح قيم (خى) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (ك ق ى ج) من المدونة ص (قج) تأرجحا ذا دلالة إحصائية . وحينئذ يمكن اعتبارها خواص مستقرة في نصوص منشىء بعينه بحيث تميزه تمييزا واضحا عن غيره من المنشئين ، أي أنها خاصية أسلوبية ذاتية . وسنرمز لهذه الخواص بالرمز (ش - خى) حيث ش = شخصية .

ثانيها : أن تتأرجح قيم (خى) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (ك ق ى ج) من المدونة ص (قج) تأرجحا غير ذي دلالة إحصائية ، أي أن (خى) تبدو متجانسة في جميع المدونة . وحينئذ ينبغي أن تعزى (خى) الى **الخواص الأسلوبية الموضوعية** objective stylistic characteristics لأنها خواص تتجاوز الفرد Supra-individual وسيكون رمزها (ض - خى) ، حيث ض = موضوعية .

على أن ثمة احتمالا ثالثا هو أن تتجانس (خى) في أسلوب بعض المنشئين دون بعض ، مع افتراض وحدة المقام (قج) . ويفسر دوليجيل هذا الاحتمال بأنه تشابه فيأسلوب الأفراد أكثر من كونه خواص أسلوبية موضوعية .

وتعود الى فحص الخواص الأسلوبية الذاتية (ش - خى) من جديد لكي تحدد ماكان منها ذاتيا خالصا ، وما كان ذاتيا موضوعيا (ش ض - خى) ، وذلك بتعريضها للاختبارين التاليين :

الأول : يقارن الباحث فيه بين مدونتين على الأقل تنتميان الى مقامين مختلفين ، ولنرمز لهما بالرمز ص (قى) والرمز ص (قن) . وعليه أن يفحص في مقارنته الخواص الأسلوبية الذاتية (ش ـ خ ى) . ثم يرى الباحث هل تختلف المسافة التي تتأرجح فيها قيم (ش ـ خ ى) بين المدونتين ص (ق ى) و ص (ق ﻫ) ؟

الثاني : يحسب الباحث متوسط قيمة (ش ـ خ ى) في المدونتين ص (ق ى) و ص (ق د) ثم يرى هل تختلف القيمتان اختلافا دالا ؟ وإذا كان الجواب عن السؤالين السابقين بالإيجاب فإن الخواص الذاتية المميزة لاتكون ذاتية خالصة ، بل هى خواص ذاتية موضوعية (ش ض ـ خ د) في آن معا . فهى ذاتية باعتبار تأرجح قيمها الدال خلال المدونة ، مما يعني ثباتها لدى المنشىء الواحد واختلافها عند سائر المنشئين . وهى موضوعية بحكم اختلاف مسافة تأرجح قيمها أو اختلاف متوسط قيمة التأرجح باختلاف المقام . أما الخواص التي لاتلبي متطلبات الاختبارين السابقين فتكون ذاتية خالصة (ش ـ خ) . وهكذا يتحصل لنا مما سبق ثلاثة أنواع من الخواص الأسلوبية هى :

(١) خواص أسلوبية ذاتية خالصة (ش ـ خ ى) .

(٢) خواص أسلوبية ذاتية موضوعية (ش ض ـ خ ى)

(٣) خواص أسلوبية موضوعية خالصة (ض ـ خ ى)

ومن هذه الأنواع تتشكل الصورة الأخيرة لمعادلة التشخيص الإحصائي الأسلوب ، ونعني بها :

المعادلة المحددة لأسلوب النص Specified text - Style Formula

وتتخذ الصيغة الآتية :

ص = (ش ـ خ ١ ، ش ـ خ ٢ . . . ش خ ك ، ش ض ـ خ ك١٠ ، ش ض ـ خ ك٢٥ . . . ش ض ـ خ م ، ض ـ خ م١٠ ، ض ـ خ . . . ض ـ خ م٢٠ ، ن)

وتعني هذه المعادلة ببساطة أن الخواص المحددة لأسلوب النص (ص) تساوى مجموع الخواص الأسلوبية المستقلة (لا التابعة) بأنواعها الثلاثة : الذاتى (ش ـ خ ١ . . . ش ـ خ ك) والذاتى الموضوعى (ش ض ـ خ ك١٠ . . . ش ض ـ م) ، والموضوعى (ض ـ خ م١٠ . . . ض ـ خ ن)

وتتميز المعادلة المحددة لأسلوب النص بأنها تمثل النص تمثيلا شكليا باستخدام منظومات من مكوناته المستقلة المتنوعة ، كما أنها تعبر عن الدرجة التي تسهم بها المكونات الذاتية والموضوعية في تشكيل النص ، وما يتمتع بها كل منها من وزن خاص . كذلكم تظهر لنا هذه المعادلة أسلوب النص في هيئة بنية إحصائية مركبة . وهكذا يمكن تشخيص أسلوب النص إحصائيا بتجزئته الى عدد محدد من المكونات الأسلوبية الموصفة القابلة للقياس الدقيق . ويمثل هذا

الإنجاز في رأى دوليجيل أهم إسهام يقدمه المفهوم الإحصائى لنظرية الأسلوب . وجدير بالذكر أن صفة الذاتية والموضوعية في المعادلة لاتحددها الخواص اللغوية ، بل العوامل البراجماتية المتحكمة في توليدها .

٢ ـ ٨ ـ ٥ . خلاصة

يخلص لنا مما سبق :

أولا : أن التوصل الى المعادلة القادرة على تشخيص البنية الإحصائية لأسلوب النص قد مر بالمراحل الآتية :

(١) المعادلة المبدئية للنص .
(٢) المعادلة المبدئية لأسلوب النص .
(٣) المعادلة المختصرة لأسلوب النص .
(٤) المعادلة المحدّدة لأسلوب النص .

ثانيا : أن المعادلة المحدّدة لأسلوب النص تتنوع بحسب العوامل الذاتية والموضوعية التى تحكم الاختيار من البدائل .

ثالثا : أن الاختيار من بين مجموعة الابدال المتاحة إذا كان محكوما بالعوامل الذاتية الخالصة كانت صيغة المعادلة هى :

ص = (ش ـ خ$_{1}$ ، ش ـ خ$_{2}$ ، ... ش ـ خ$_{ن}$)

رابعا : اذا كان الاختيار محكوما بالعوامل الموضوعية الخالصة فإن المعادلة تكون كما يلى :

ص = (ض ـ خ$_{1}$ ، ض ـ خ$_{2}$ ... ض ـ خ$_{ن}$)

خامسا : إذا كان الاختيار محكوما بعوامل ذاتية موضوعية كانت صيغة المعادلة :

ص = (ش ض ـ خ$_{1}$ ، ش ض ـ خ$_{2}$ ، ... ش ض ـ خ$_{ن}$)

سادسا : أن الحالات الثلاثة السابقة تفترض وجود نصوص متجانسة تجانسا تاما . وهذا استثناء . أما الغالب فهو أن تتألف النصوص من الأنواع الثلاثة السابقة وتعبر عن ذلك المعادلة المركبة التى سبق إيرادها .

سابعا : ينبهنا دوليجيل ـ في ختام مشروعه ـ الى مشكلة هامة فحواها أن الخواص الأسلوبية المتطابقة لغويا قد تختلف طبيعتها الإحصائية باختلاف النصوص أو باختلاف أنواع النصوص ، فقد يكون طول الجملة خاصية ذاتية في نص ، وموضوعية في نص آخر ، وذاتية موضوعية في نص ثالث . وينشأ عن ذلك اختلاف وظيفة الخاصية في عملية التشخيص . إنها في النص الأول صالحة لأن تكون مميزا لأسلوب المنشيء الفرد ، وفي الثانى لا تصلح البتة لهذه الوظيفة . أما حين تكون الخاصية ذاتية ـ موضوعية فإن صلاحيتها لتمييز فردية الأسلوب تكون مقيدة بمنطقة معينة ، أى أنها لا تكون مميزا إلا في حدود مقام واحد ثابت . وهذه المشكلة ـ عند دوليجيل ـ من أكبر المشكلات التى تواجه النظرية الإحصائية في التحليل الأسلوبى صعوبة وخطرا ، ولم تلق حتى الآن ماهى جديرة به من اهتمام .

ثامنا : قد يتخذ من هذا التعارض المثير للدهشة في التفسيرات المتنوعة للخواص الأسلوبية دليل على وجود نقص في النظرية . غير أن النقص في النظرية ليس هو وحده المسئول عما يشيع في نتائج الأسلوبيات الإحصائية من مظاهر التردد والتناقض . ذلك أن التفسيرات ذات طابع افتراضي ظاهر . كما أن الحساب الدقيق لهذه المادة صعب بسبب العلاقة المعقدة بين (النص ـ العينة) و (النص ـ المجتمع) .

يضاف الى ذلك أن وضع حدود مرضية للمجتمع الإحصائي للنص (أو المجتمعات) هو مهمة معقدة ، لأن المجتمعات الإحصائية هي بالنسبة لدراسة النصوص مجموعات مفتوحة ، أي لايمكن وقوعها تحت حصر .

وأخيرا : يقرر دولجيل أن الأمل معقود على استخدام الحاسوب للتوسع في معالجة مجموعات كبيرة ومتكاملة ـ وبها نتمكن من الاختبار العلمي للفروض الأساسية في نظرية الأسلوبيات الإحصائية . ولابد من تضافر الجهود في هذا الاتجاه ليكتسب هذا الدرس صفة المنهج العلمي الحديث عن جدارة .

٣ ـ مبحث الوظيفة

٣ ـ ١ . القياس الأسلوبي الإحصائي

نحاول بهذا المبحث الثالث أن نستوفي أنحاء التقسيم المقترح لهذه الدراسة ببيان للكيفيات والمجالات التي يمكن بها وفيها توظيف الإحصاء في دراسة الظاهرة الأسلوبية . ونحسب أن أول ما ينبغي البدء به هنا هو بيان مفهوم القياس الأسلوبي الإحصائي ، واستخداماته ، ومجالات تطبيقه .

القياس الأسلوبي الإحصائي هو : (صيغة شكلية تؤسس علاقة بين المتغيرات أو الخصائص ومايمتاز به النص من غيره من النصوص ، أو مايستدعيه من أحكام ونعوت) .

٣ ـ ٢ . مجالات تطبيقه .

وينشأ مما سبق وجود وجهين لاستخدام القياس الأسلوبي :

أولهما : تأسيس علاقة بين المتغيرات الأسلوبية بهدف الكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة ، (وهو الهدف الوصفي)

ثانيهما : تأسيس علاقة بين الخصائص الأسلوبية المائزة بهدف الكشف عن نعوت الأسلوب . (وهو الهدف التقويمي) ، كلا الهدفين واقع في مجال التشخيص الأسلوبي ، إلا أن أولهما ينصرف الى تشخيص الأساليب ، وثانيهما ينصرف الى تشخيص نعوت الأساليب .

ويشكل كلا هذين الاستخدامين بابا واسعا يدلف منه الباحثون الى ميدان عريض ، ويستشرفون فيها آفاقا رحبة للبحث الأسلوبي . وتتسع مجالات التطبيق والإفادة من المقاييس الأسلوبية الإحصائية لتشمل :

(١) في اللسانيات الاجتماعية : Sociolinguistics : قضايا الاستعمال الاجتماعي للغة ، والسجل اللغوي register ، وتحليل الخطاب discourse Analysis ، ومقامات اللغة Pragmatics of langyage

(٢) وفي اللسانيات التاريخية historical linguistics : قضايا تمايز الأساليب باعتبار العصر ، والتغير التاريخي للأساليب dynamic Stylistics وفحص الوثائق التاريخية اللغوية .

(٣) وفي اللسانيات النفسانية قضايا اللغة والفكر ، واللغة والشخصية ، والعقلانية والانفعالية ، ومبحث الإبداع .

(٤) وفي اللسانيات الأدبية : قضايا تمايز أساليب الأفراد ، والكشف عن المؤلف المجهول ، وتصحيح نسبة النصوص ، وتحقيق قضايا الانتحال والوضع والتقليد ، وتمييز نعوت الأساليب ، وتشخيص العلاقة بين المنشىء وشخصياته الروائية أو المسرحية ، وأنماط اللغة الأدبية ، والترتيب التاريخي لأعمال المنشئين ، وبحث الأنواع الأدبية ، وجماليات التشكيل اللغوي للنص الأدبي .

(٥) وفي الدراسات التربوية : قضايا المعجم الأساسي ، والثروة اللفظية ، وقابلية النصوص للقراءة readability ، والتشويق والإثارة في تشكيل لغة النصوص التعليمية .

هذا الى مجالات أخرى كثيرة في علم الاجتماع ، وعلم الثقافات ، وعلم المعلومات ، والسيميائيات ، وعلوم الإعلام نوردها لا على وجه الحصر وإنما لنشير بها الى ما ينتظر الأسلوبيات الإحصائية من مهمات جسام في جميع ميادين الدراسات الإنسانية على تنوعها ورحابتها .

٢-٣ . أنماط المقاييس الأسلوبية .

تتعدد أنماط المقاييس الأسلوبية بحسب المبدأ الذي تستند إليه ، ومن الأهمية بمكان أن نحدد هذه الأنماط ، فذلك أنسب المداخل لمناقشة قضية كثر حولها الجدال واختلطت فيها الأوراق ، ونعني بها مبدأ شمولية القياس الأسلوبي ، ومدى شرعية افتراض المقاييس وتجاوزها حدود اللغة التي استنبطت فيها الى غيرها من لغات البشر . وسنعود الى ذلك في مايلي من حديث .

ويمكن أن نستظهر مبادىء أربعة تقوم على أساسها الاستدلال بالمقاييس الأسلوبية الإحصائية .

(١) **مبدأ رياضي** : وإليه تنتمي المقاييس الأسلوبية التي تقوم على حساب العلاقة بين الكميات في صيغة معادلة رياضية ، ومنها حساب التباين ، والانحراف المعياري ، والارتباط ، وكاي٢ ، والنسبة الحرجة وسائر طرق الاستدلال الإحصائي .

(٢) **مبدأ لغوي** : يقوم على الكشف عن الدلالة اللغوية للعلاقة بين المتغيرات الأسلوبية المقالية ، ومنه مقاييس طول الجملة ، وأنواعها ، والمفاتيح المعجمية وغير ذلك مما يقيس الشيوع والتوزيع لمتغيرات المقال .

(٣) **مبدأ منطقي** : وهو حساب رياضي للمتغيرات الأسلوبية يستمد حجيته من موافقته لبديهيات المنطق . ومن هذه المقاييس قياس تنوع المفردات Vocabulary diversification الذي استنبطه ت . م . جونستون T.M. Jonston . وقد أقامه على أساس من رد مجموع مفردات الكلمات التي يتشكل منها النص Tokens الى الأنماط الأساسية بعد حذف جميع تكراراتها Types ، ثم قياس التنوع بطرق ذات دلالات مختلفة بحساب النسبة بين المجموع الكلي للكلمات وأنماطها .

(٤) مبدأ تقسان : وأكثر المقاييس التي تقوم على مبدأ تقسان تستمد أساسها من الفروض العلمية في الدراسات النفسانية . وإلى هذا النمط ينتمي معامل بوزيمان Busemann,s Coefficient لقياس درجات الانفعالية والعقلانية في الأسلوب عن طريق حساب النسبة بين الأفعال والصفات ، وقد أوحى بفكرة المقياس له ما لاحظه من دراساته في اللسانيات النفسانية للغة الأطفال ، إذ لاحظ غلبة الأفعال على الصفات فيما يحكونه من قصص ، وتغير هذه النسبة باتجاهها نحو الانخفاض بنمو الطفل ونضوج قدراته وملكاته الفكرية والإدراكية . وهكذا تشكل هذا الفرض العلمي في إطار البحوث النفسانية . وجرى اختباره فأسفر عن إمكانات طيبة في قياس درجة الاستقرار العاطفي ، وقياس أنماط الشخصيه ، وحظها من الانفعالية والعقلانية .

ولقد كانت هذه الملاحظة العلمية منطلق بوزيمان لوضع هذا المقياس الأسلوبي ، ومنطلق من جاءوا بعده لتطويره . وأصبح ممكنا به اختبار الفوارق الأسلوبية بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وبين الأسلوب العلمي والأدبي ، وبين الشعرية والنثرية ، وبين لغة الفرد ولغة الحوار ، وبين لغة الرجال ولغة النساء ، وبين لغة الصغار ولغة الكبار ، ولغة الأنواع الأدبية ، وقياس الخط الدرامي في القصة والمسرحية والرواية [٦٠] .

٣ - ٣ . مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي :

نعود هنا - في ضوء ما تقدم - لمناقشة مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي بمحاولة للإجابة عن هذا السؤال الهام : إلى أي مدى يجوز للغات أن تتقارض المقاييس الأسلوبية فيما بينها ، وأي حجية تكون للمقياس إذا جاوزنا به حدود اللغة التي استنبط فيها إلى غيرها من لغات البشر ؟ (ومن الضامن لتلك المقاييس أن تتحول إلى كليات معرفية مهما اختلفت الألسنة التي تجرى عليها ؟ أفليس من الطبيعي أن نختبر الجهاز الإجرائي أولا ؟ بل أليس بديهيا أن نعمل على استنباط هذا الجهاز من صلب المدونة التي تتخذها مناطا لبحثنا التطبيقي ؟) [٦١] .

ولأن هذه التساؤلات تتردد في غير موضوع ومن غير باحث قبلنا - ولاشك - مستحقة لأن تكون موضع اعتبار . وعلينا - لدى مناقشتها - أن ننبه إلى أنها لاترد إلا على النمط الأخير من المقاييس ، إذ إن حجية المقاييس القائمة على المبدأ الرياضي أو المنطقي ثابتة في كل لسان ، كما أن حجية المقياس القائم على مبدأ لغوى في إطار اللغة الواحدة ليست موضع خلاف . من هنا كان حظ المحاولة التي بذلت لإعمال معامل بوزيمان وتطبيقه على المادة العربية من النقد والمناقشة موفورا . وقد كان من كاتب هذه السطور رد مفصل في غير هذا المكان على ما أثير من ملاحظات وحسبنا هنا أن نقول : إن مثل هذا المقياس إذا كان قد استنبط من لغة بعينها فإن ذلك يمنحه شرعية الفرض العلمي الذي يبقى قابلا للإثبات أو النفي بحسب ما يؤدى إليه الجهد التطبيقي . وقد أثبتت الدراسات التي أجريناها عليه في الألمانية والانجليزية والفرنسية

---

(٦٠) انظر : سعد مصلوح : (الأسلوب . .) ، ص ٥٩ - ٦٢ و ١٢٣ - ١٢٥ .

(٦١) من رسالة كريمة تلقاها كاتب هذا البحث من الدكتور عبد السلام المسدي مؤرخه في ١٩٨٤/٤/١٠م . يعلق على استخدامنا لمعامل بوزيمان في التشخيص الأسلوبي ، وقريب من ذلك ما ورد في :

صلاح فضل : علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ، ص ٣٢٦ . وانظر ردنا عليه في : دراسات نقدية في اللسانيات العربية المعاصرة ، ص ٧٦ - ٧٨ .

أما اللسانيون فقد مال كثير منهم إلى تزكية هذه التجربة وتأكيد أهميتها . وانظر في ذلك عرضاً وافياً للكاتب في : مازن الوعر : دراسات لسانية تطبيقية ، دمشق ، دار طلاس ، ط ١ ، ١٩٨٩ ، ص ١٦٣ - ٢٠٠ وقد ضمنه المؤلف وجهة نظره في إيجابيات التجربة وسلبياتها .

صدقه وقدرته على أن يكون مؤشرا كاشفا لأنواع الأساليب . ولم تكن درجة صدقه على العربية بأقل منها في غيرها من اللغات .

بيد أن الاحتراز الأساسي - في هذا المقام - إنما ينصرف الى المتغيرات اللغوية الأسلوبية الداخلة في الكميات المقيسة ، إذ ينبغي تحديدها تحديداً قاطعا ونافيا لكل لبس . ومن ثم كان لابد من تكييف المقاييس من هذه الوجهة لتكون صالحة للتطبيق ومحققة للغاية المنوطة بها . إن هذه المتغيرات . وإن اتفقت في طبيعتها اللسانية العامة (صوتية كانت أو صرفية أو تركيبية أو دلالية) هي تصورات ذات ماصدقات مختلفة باختلاف النظم اللغوية المعينة ، ومن ثم نتوقع اختلاف حدود الفونيمات وأنواع المورفيمات والجمل والحقول الدلالية من لغة الى لغة ، كما نتوقع أيضا اختلاف التبويب والتقعيد وإجراءات الوصف باختلاف الطرز النحوية . ومن هنا كان تحرير مفاهيمها وتحديد ماصدقاتها وعلاقاتها النظامية ضرورة منهجية لاترخص فيها . بيد أن اختلاف هذه المفاهيم ، وخصوصية المباني والاستعمالات الأسلوبية في لغة ما لاينفي ما للظاهرة الأسلوبية من طبيعة لسانية عامة ، وهي بذلك إحدى الجوامع اللسانية Linguistic Universals التي لا تخلو منها لغة ، ولا تختص بها إحداها دون سائرها .

٤ - كلمة ختامية : عن قضايا العربية والمعالجة الإحصائية

لعل استبصار الآفاق الرحبة التي تعد بها المعالجة الإحصائية ، بله الحاسوبية (٦٢) ، لنصوص اللغة تقضي بنا الى ضرورة وضعها في جانٍ موضعها من الهموم العلمية للباحث العربي المعاصر . ولاشك أن رصد ماتم إنجازه في هذا المقام ربما كان أيسر مثالا من تعداد المجالات التي تتطلع العربية الى اقتحامها والإفادة منها . (٦٣) .

بيد أننا نشير هنا الى عدة مجالات تمثل بالنسبة لجمهرة الباحثين أحلاما تستعصي على التحقيق إلا باستنفار الجهود وتضافر المؤسسات العلمية القادرة على التخطيط والمتابعة والإنجاز .

أولها : إنجاز وصف دقيق للعربية المعاصرة على اختلاف تنوعاتها الإقليمية ، والاجتماعية .

وثانيها : إنجاز المعجم التاريخي للعربية .

وثالثها : إنجاز الأطلس اللساني العربي .

ورابعها : الإسهام الجاد من اللسانيين في صياغة نظرية نقدية تستوفي الشرائط العلمية والموضوعية في دراسة النص الأدبي بأجناسه المختلفة .

وفي كل ماتقدم نحسب أن إعمال المعالجة الإحصائية والحاسوبية في دراسة نصوص العربية قديمها وحديثها هو أمر لايمكن تجاوزه بحال .

(٦٢) لا يفوتنا أن ننوه هنا بكتاب نبيل علي : اللغة العربية والحاسوب ، (القاهرة ، دار تعريب ١٩٨٨) ، وهو دراسة تستجيب الى حاجة لسانية جادة . وقد أورد المؤلف في ملحقه قائمة ثرية ببحوث مقترحة في مجال اللسانيات الحاسوبية مطبقة على اللغة العربية (ص ٥٣٦ - ٥٥٠) .

(٦٣) قطع معهد الخرطوم الدولي للغة العربية (التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) شوطاً في إنجاز مشروع الدراسات الإحصائية على اللغة العربية . وكان لكاتب البحث شرف الإشراف على بعض مراحله . ولكن ضعف الإمكانات وضخامة المشروع أوقفاه دون إتمامه . وانظر لكاتب البحث ، (مؤشرات لغوية إحصائية في عناوين الصحافة العربية : مصر - ليبيا - السودان) ، في (دراسات إحصائية استطلاعية في العربية المعاصرة) ، الخرطوم ، ١٩٨٨ ، ص ١ - ٣٣ .

الاقتضاء في التداول اللساني

عادل فاخوري
الاستاذ بقسم الفلسفة - جامعة الكويت

مثلما ان اللزوم المنطقي logical implication هو محور علم المعاني، كذلك الاقتضاء implicature هو من أهم المفاهيم التي يقوم عليها علم التداول Pragmatics . وبالرغم من التقارب بين هاتين العمليتين، إلا أن ثمة فوارق حاسمة دعت غرايس Grice ، واضع هذا المفهوم، الى اشتقاق مصطلح جديد من المصدر « implicate » ذاته وتخصيص عملية الاستدلال التي تجري في التداول اللفظي باسم الـ implicature تمييزا لها عن الـ implication المتعارف عليها.

في التراث العربي، أي في كتب المنطق والأصول والبلاغة، تستعمل نفس لفظة « اللزوم » أو « الاستلزام » للدلالة بنوع عام على أية واحدة من عمليتي الاستدلال المذكورتين، دون تفرقة[1] . انما، نظرا للاختلاف الجوهري بينهما، أخذنا بمصطلح « الاقتضاء » المستعمل في أصول الفقه بمعنى شبيه بمفهوم غرايس، للدلالة على الاستدلال التداولي، وحصرنا لفظة « اللزوم » بالاستدلال المنطقي وحده.

خلافا للزوم، يستند الاقتضاء إلى مبادىء عامة تقع خارج تنظيم اللغة وتهدف الى الاتصال القائم على التعاون. ومع ذلك فللاقتضاء تأثير فعال على بنية اللغة ذاتها.

من أهم ميزات الاقتضاء، انه يقدم تفسيرا صريحا لمقدرة المتكلم على ان يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما يعبر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة. فبالنسبة للمثل :

أ : كم الساعة ؟
ب : لقد أذن العصر .

(١) هكذا يقال مثلا يلزم من كل غراب أسود أن بعض الغربان سوداء بمعنى اللزوم او الاستنتاج المنطقي . وكذلك يقال مثلا أن قول « رأيت البارحة في القطار » من لازم قائله قول « كنت البارحة في القطار » ، بمعنى اللزوم التداولي .

لا يستطيع علم المعاني وحده أن يمدنا إلا بالتوضيح الآتي على الأكثر :

أ : أنا أرغب أن تقول لي (كم الساعة ؟)

ب : لقد (أذّن العصر) في وقت سابق لاستفسارك.

لكن من الظاهر، لكل من يتكلم العربية، ان المراد بهذا التخاطب يتجاوز بكثير التطوق الحرفي. فالحوار يقصد بالتفصيل:

أ : أرغب أن تقول لي (كم الساعة) بحسب التوقيت المحلي المتعارف عليه دوليا، في اللحظة التي أتكلم فيها معك الآن، إذا كان باستطاعتك ذلك.

ب : بالحقيقة انا لا أعرف الوقت الدقيق الآن، لكني استطيع أن أفيدك بخبر يمكّنك من أن تستنتج الوقت على وجه التقريب وهو (ان أذان العصر قد مضى) منذ فترة وجيزة.

ولا ريب ان هذا المقصود التفصيلي بالذات، أي الاستخبار عن الوقت الدقيق ومحاولة إفادة المعلومات على قدر المستطاع، لا يمكن الوصول اليه كليا بواسطة علم المعاني، بل لابد من اللجوء الى الاقتضاء التخاطبي لسد الثغرة الحاصلة بين القول حرفيا وبين ما يُبَلَّغ المستمع.

ومن فوائد الاقتضاء كذلك انه قادر على إحداث تبسيط في بنية الأوصاف الدلالية semantic description ، كما في مضمون هذه الأوصاف. فاذا ما قارنا بين المثلين الآتيين:

١ ـ فتح سمير قنينة البيبسي وشربها دفعة واحدة.
٢ ـ بيروت عاصمة لبنان والقاهرة عاصمة مصر.

نجد أن معنى واو العطف في المثل الأول يغاير جزئيا معناها في المثل الثاني. فالواو في (١) تدل على التعقيب بحيث انه من الصعب تصور عكس الترتيب الزماني، إذ قولنا :

شرب سمير قنينة البيبسي دفعة واحدة وفتحها :

يبدو غير معقول: بينما في (٢) لا تفيد الواو أكثر من مطلق الاشتراك والجمع، أي تماما المعنى الذي يحدد جدول الصدق لرابط الوصل (∧)، وهو صدق المركب فقط عند صدق الطرفين:

ب	ج	ب ∧ ج
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ك
ك	ك	ك

وبالتالي، فإن عكس ترتيب الطرفين لا يغير شيئا في المعنى. فقولنا:

القاهرة عاصمة مصر وبيروت عاصمة لبنان

لا يختلف مع قولنا في المثل (٢). لأن تقييم (ج ∧ ب) هو مرادف لتقييم (ب ∧ ج) كما يستبان من الجدول الآتي:

ب	ج	ج ∧ ب
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ك
ك	ك	ك

أمام هذه الاشكالات، لا يجد علم المعاني من حل سوى الادعاء بأن الواو يشوبها الالتباس، إذ تحتمل عدة معانٍ مختلفة، أو الزعم أن معاني الكلمات هي بنوع عام غامضة ومضطربة تتقلب مع تغير السياق والتركيب. لكن في الحالة الأولى، يلزمه تشعب المعاني حتى بالنسبة لأبسط الكلمات. فمثلا عند اعتبار الجملتين:

العَلَم أبيض
العَلَم أبيض وأحمر وأزرق

يضطر علم المعاني لأن يضفي كل مرة على كلمة «أبيض» معنى مختلفا فهي في الجملة الاولى تعني «كليا أبيض» وفي الثانية «جزئيا أبيض».

وفي الحالة الأخرى، أي عند الزعم أن المعاني في اللغات الطبيعية غير مستقرة، يعجز هذا العلم عن كيفية تحديد معنى الكلمة المتغير، عند كل وقوع لها.

أما مفهوم الاقتضاء فهو بلاشك يقدم الحل الأنسب، إذ يقرر ان الفاظ اللغة الطبيعية انما تنزع الى المعاني الموحدة الثابتة، لكن من طبيعة هذا الكنه الدلالي ان تتعلق به غالبا لواحق متغيرة يقتضيها السياق وفقا لقواعد معينة.

وأخيرا، من ميزات الاقتضاء، بالاضافة الى ما سبق، انه استنادا الى عدد قليل من المبادىء، قادر على تفسير كثير من الامور التي تبدو في غاية التفاوت والتباعد.

المعنى غير الطبيعي

من الواضح انه عند تلفظ ما، غالبا ما نستطيع أن نستدل على توابع مختلفة، لكن هذه التوابع ليست واقعة جميعا تحت المعنى المقصود إبلاغه، اي المعنى المقصود به أن يدرك انه مقصود، وهو ما يسميه غرايس «المعنى غير الطبيعي» non-natural meaning. وتحتها تلك الاستدلالات التي أطلقنا عليها اسم «المقتضيات» implicature هي

من المعاني التي يراد إبلاغها على النحو المذكور، وهي بالتالي، الى جانب المقول what is said أو المنطوق، تشكل القسيم الثاني للمعنى غير الطبيعي . لذلك كان لابد من ربط نظرية الاقتضاء بنظرية المعنى غير الطبيعي .

تتمحور نظرية الاتصال(٢) عند غرايس H.P.Grice حول ما يخصه باسم « المعنى غير الطبيعي » أو « الدلالة غير الطبيعية »(٣) non - natural meaning، وبالاختصار « المعنى غ ط » أو « الدلالة غ ط » meaning nn . لتعيين هذا المفهوم وتمييزه مما عداه يستعرض غرايس مختلف الاستعمالات التي تقبلها لفظة « meaning » في التداول العادي .

فالتمييز العام الذي ينطلق منه هو التفرقة بين الاستعمال الذي يحتمل القصد والاستعمال الذي لا يحتمله .

هكذا مثلا في العبارات الآتية :

الغيوم تعني أو تدل على المطر

الاحمرار يعني أو يدل على الخجل

تقطيب الحاجبين يعني أو يدل على الاستياء

تكون الدلالة طبيعية، من حيث أن الأمور الدالة ، أي الغيوم والاحمرار وتقطيب الحاجبين، لم تحدث قصداً من قبل شخص ما، للدلالة على المطر والخجل والاستياء على التوالي، بل إن دلالتها تعود لمجرد علاقة علية بين الدال والمدلول. ومن الواضح أنه في هذا الاستعمال لا تنطوي كلمة « معنى » أو كلمة « دلالة » على القصد البتة .

بينما في أمثلة أخرى، كأن يتكلف احدهم تقطيب حاجبيه ليدل على استيائه ، أو يلوح بيده لالقاء التحية على صديق، أو في أثناء التخاطب المعهود، لاشك ان الدلالة مقصودة من قبل المُرسِل. فالتلويح مثلا هو فعل قام به المرسل قصدا لإبلاغ صديقه التحية .

بين الدلالات التي تحتمل القصد يميز غرايس عدة أنواع تختلف ما بينها باختلاف موقف المتلقيّ من القصد الدلالي بالذات .

ففي بعض الحالات، كما في حال ترك احدهم بيته مضاءً عند غيابه لإيهام السارق بوجوده فيه، أو كما في حال تعمد تقطيب الحاجبين لأظهار الاستياء، لابد لقصد المرسل حتى يتحقق، أن يبقى خفيا عن المتلقي . فدراية المتلقيّ بقصد المرسل تتضارب ولاشك مع تحقيق هذا القصد. فلكي يعني البيت المضاء للسارق أنه ليس خاليا، من الضروري ان يكون السارق جاهلا بأن صاحب البيت انما تركه مضاء ليقصد بذلك عدم خلو البيت . فإن عرف

---

(٢) هذه النظرية معروضة في عدة مقالات نشرها غرايس خلال فترة من الزمن تزيد على عشر سنوات .
راجع :

Meaning, philosophical Review, Vol. 66. 1957

Utterer' Meaning, sentence – Meaning and Word Meaning, Foundations of Language, Vol 4, 1968.

Utterer's Meaning and intentions, philosophical Review, Vol. 78, 1969.

(٣) كلمة «meaning» الانكليزية قد تؤدى بالعربية بكلمة «معنى» أو بكلمة «دلالة» ، دون فرق لكن . الاستعمال الشامل لكلمة «meaning» يقربها بالأحرى من كلمة «دلالة» ذات المفهوم العام . بينما لفظة «معنى» تميل إلى الاستعمال ذي الطابع القصدي .

السارق قصد صاحب البيت فشل تحقيق القصد. وكذلك بالنسبة لتقطيب الحاجبين، إذ متى أدرك المتلقي قصد المُرسِل بَطُلَ ان يدل التقطيب على المعنى الطبيعي اي الإستياء.

إلى جانب هذا النمط من الدلالة القصدية، ثمة نمط آخر حيث الدراية بالقصد لا تتنافى مع تحقق الدلالة. لنفترض مثلا اني ناولت صديقاً لي صورة فوتوغرافية تمثل إمرأته في أحضان رجل ما، قاصدا بذلك الدلالة على أن امرأته تخونه، فلاشك ان قصدي يتحقق إذا ما أدرك الصديق أن هذه الصورة تعني ان امرأته تخونه، وهو يتحقق حتى وإن درى الصديق قصدي أن اعني له ذلك بعرض الصورة عليه. انها، في هذا المثل، مع أن دراية المتلقي بقصد المرسل لا تتنافى مع تحقق القصد، إلا أنها غير منوطة به : فدراية القصد ليست شرطا ضروريا لتحققه. فلو وقع صديقي صدفة على الصورة دون علمي، أو لو أني تصرفت بشكل يستطيع معه ملاحظتها، دون ان اظهر له قصدي بالدلالة على خيانة امرأته، فإنه سيدرك بلا ريب الرسالة التي تحملها الصورة[٤].

بالنسبة لفئة من الدلالة القصدية لا يكفي حتى تصح، ان لا تتنافى دراية المتلقي بقصد المرسل مع تحقق قصد الدلالة، بل لابد من الدراية لتحقق القصد المذكور. فلا يستطيع المرسل أن يُبلغ شيئا الى المتلقي إلا اذا استطاع ان يبلغه قصده بالدلالة على ذلك. هذه الفئة من الدلالة القصدية هي ما يخصها غرايس باسم « الدلالة غير الطبيعية ». هكذا مثلا ، إذا التقيت بشخص ما في الشارع ولوحت له بيدي أو قلت له « مرحبا » فإني بذلك أقصد إلقاء التحية عليه. لكن قصدي هذا لن يتحقق إلا إذا درى الشخص به. فحالما يدرك المتلقي قصدي يتحقق هذا القصد، وبالعكس أي أنه إذا لم يدر به فلن يتحقق. إذا ان دراية قصد الدلالة غير الطبيعية هو شرط لابد منه لتحقيق القصد. بهذا الصدد يقول سورل « إن للاتصال بين الناس خصائص عجيبة ينفرد بها عن سائر أنماط السلوك الإنساني. ومن عجيب تلك الخصائص انه إذا حاولت أن أقول شيئا لشخص ما، فحالما يدري أني أحاول أن أقول له شيئا، ويدري ما أحاول أن أقوله له بالضبط، أكون « عند توفر بعض الشروط » قد نجحت في إبلاغه ذلك. بل إنه طالما يدري أني أحاول أن أقول له شيئا، ولم يدر ما أحاول أن أقوله له، فإني أكون لم أنجح كليا بإبلاغه ذلك »[٥]. أو وفقا لتعبير غرايس : أن تدل على شيء ما دلالة غير طبيعية هو أن تدل عليه بواسطة دراية المتلقي لقصد الدلالة عليه. فقصد الدلالة عليه إنما هو قصد الدلالة عليه بواسطة دراية القصد.

من هذا التحليل يتبين لنا أن خصوصية الانعكاس هي خصوصية جوهرية للاتصال القصدي. فحتى يحصل الاتصال القصدي بالمعنى الحصري للكلمة، لا يكفي ان يتم توصيل المحتوى بشكل قصدي، بل لابد بالإضافة الى ذلك ان يُقصد توصيل أن هذا المحتوى قد أريد توصيله بشكل قصدي. فعمل التوصيل ينعكس على ذاته ويشكل جزءا مما يجري توصيله[٦].

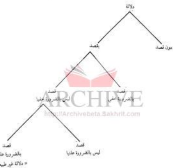
---

(٤) أغلب الدلالات الاجتماعية هي فئة من هذا النمط ، مثل ارتداء الأزياء الدالة على المكانة أو الرتبة (بزة الجنرال) أو على نشاط أو عمل ما (ثياب السهرة أو الرياضة) ، ومثل اقتناء واستعمال بعض الأشياء الخاصة بطبقة اجتماعية (اقتناء سيارة رولز رويس) .

(٥) Speech Acts, P. 47

(٦) لكن هذا لايعني ان توصيل المحتوى وتوصيل هذا التوصيل هما فعلان متغايران . وإلا وجب في كل فعل دلالي غير طبيعي ان يكون عند المرسل قصد أول للدلالة على المحتوى للمتلقي ، وقصد ثان للدلالة على القصد الأول ، وقصد ثالث للدلالة على الثاني ، وهكذا إلى مالا نهاية له . وبالتالي تعذر توصيل أي شيء .

كل أنواع الدلالات السابقة التي أتينا على ذكرها، يمكن إجمالها بالمشجر الآتي :



مع الأخذ بعين الاعتبار ان : خفي = غير علني .

قواعد التخاطب

يقوم مفهوم الاقتضاء أصلا على نظرية خاصة في كيفية استعمال اللغة. فالممارسة اللغوية، بحسب غرايس، نشاط عقلاني يهدف إلى التعاون مابين المتخاطبين. لذلك كان لابد من افتراض توجيهات أو قواعد، صادرة عن اعتبارات عقلية، تدبر السلوك التخاطبي وتجعله فعالا وناجحا. هذه التوجيهات أو القواعد تسير بهدي مبدأ شامل يطلق عليه غرايس اسم « مبدأ التعاون » the co – operative principle الذي ينص على مايلي :

مبدأ التعاون : إجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه، في مرحلة حصولها، الغرض أو المآل المُسَلَّم به من التخاطب المعقود.

أما القواعد، أو كما يسميها غرايس « الحِكَم » maxim ، التي تندرج تحت هذا المبدأ الشامل ، فيجري تصنيفها إلى أربع مقولات، مقتبسة عن كانط، هي : مقولات الكمية والكيفية والإضافة والجهة .

١ ـ مقولة الكمية : وهي تخص كمية المعلومات التي يجب توفيرها . وتؤدى بالقاعدتين :

I. اجعل مشاركتك تفيد على قدر ما هو مطلوب ، من أجل تحقيق أغراض التخاطب الحالية .
II. لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب .

٢ ـ مقولة الكيفية : وتتعلق بالقاعدة العامة « حاول أن تكون مشاركتك صادقة true » التي تتخصص بقاعدتين هما :

I. لا تقل ما تعتقد انه كاذب .False
II. لا تقل ما تفتقر الى دليل واضح عليه .

٣ ـ مقولة الاضافة : وتنفرد بقاعدة واحدة هي : اجعل مشاركتك ملائمة . هذه المقولة المجملة تخفي ولاشك كثيرا من المشاكل العويصة، كمعرفة طرق افتتاح الكلام، وأنواع التدخل المناسب، وتغيير موضوع المحادثة، وحسن التخلص واختتام التخاطب الخ . . .

وأخيرا :

٤ ـ مقولة الجهة : وهي لا تهتم كسائر القواعد بما هو مقول أو منطوق، بل بكيفية قوله أو النطق به . قاعدتها العامة هي : كن واضحا . وعنها تتفرع القواعد :

I. احترز من الغموض obscurity .
II. احترز من الالتباس .ambiguity
III. تحرَّ الايجاز .
IV. تحرَّ الترتيب .

وبالاختصار ، هذه القواعد ترسم للمشاركين ما يجب عليهم أن يقوموا به، لكي يتم التخاطب بالطريقة المثلى من التعاون والعقلانية والفعالية . بالطبع هذا لا يعني أن عليهم ان يتبعوا القواعد المذكورة حرفيا في كل الأحوال والأوقات . إذ، قلما يستمر التخاطب العادي على هذا المنوال . بل المقصود من ذلك انه، حتى عندما لا يجاري التخاطب ما ترسمه القواعد المذكورة، يظل السامع يفترض، خلافا للظاهر، ان المتكلم مازال يأخذ بهذه القواعد، ولو على مستوى أعمق، حتى يتسنى له التوصل الى معنى ما . فمن دون تقدير هذه القواعد يستحيل التواصل بين الناس .

توضيحا لذلك، إليك المثل الآتي :

أ : اين سمير ؟

ب : هناك « فيات » حمراء أمام بيت سعاد .

فجواب (ب)، إذا أخذ حرفيا، لا يفي بسؤال (أ) . فهو يبدو، على الأقل أنه يخالف مقولتي الكمية والاضافة . لكن مع ذلك، لا نعتبر أن (ب)، بجوابه، لا يعير اهتماما لما قاله (أ)، وبالتالي يرفض مبدأ التعاون، بل تقديرا منا بأن هذا المبدأ مازال ساريا، نحاول أن نجد العلاقة بين مكان سمير ومكان الفيات الحمراء. فإذا افترضنا كما يعرف (أ) و (ب) أن سميراً يملك فيات حمراء، اقتضى الجواب ان سمير هو في بيت سعاد .

إن أهمية القواعد والحِكم المذكورة بالنسبة إلى اللغة تعود إلى انها تسمح باستدلالات تتجاوز المحتوى الدلالي للعبارات التي يُتلفظ بها. ولذلك يَخُصّ غرايس هذه الاستدلالات باسم « الاقتضاء التخاطبي Conversationals implicature »، تمييزا لها عن اللزوم أو الاستلزام المنطقي entailment, logical implication، أو أيضا الاستنتاج المنطقي logical consequence، الذي ينحصر بالاستدلالات المبنية على المضمون الدلالي فقط. فالاقتضاء يعتمد، بالإضافة إلى المضمون، على مطالب معينة تتعلق بطبيعة التخاطب القائمة أساسا على التعاون .

هذا الاقتضاء التخاطبي يجري بطريقتين مختلفتين على الأقل، وذلك طبقا للموقف الذي يتخذه المتكلم من القواعد. فقد يراعي المتكلم القواعد والحكم بشكل صريح او حرفيا، تاركا للمخاطب مهمة توسيع وتظهير ما قيل باللجوء الى استدلالات مباشرة انطلاقا من مراعاة المتكلم للقواعد. ففي الاستخبار الآتي :

أ : نفد البنزين من سيارتي !

ب : هناك محطة عند زاوية الشارع .

لابد للسائل أن يستدل من جواب (ب) أن هذا يعلم ان المحطة مفتوحة وأن فيها بنزينا، وإلا لما كان متعاونا. هذا النوع من الاقتضاء التخاطبي الذي يقوم على مراعاة القواعد، نريد أن نطلق عليه مع لفنسن Levinson اسم « الاقتضاء المتعارف » أو « النموذجي » standard implicature .

أما الاقتضاء على الطريقة الأخرى، فيحصل عندما يُخِل المتكلم، عن قصد وعلانية، بحكم التخاطب وقواعده، أو كما يعبر عن ذلك غرايس عندما يستخف Flout المتكلم بهذه القواعد. فعندما يعلن مثلا أحد الأشخاص امام حضور نسائي ان :

فلانا مات بذلك المرض

أو أن :

فلانا أجريت له عملية في أحد المواضع .

خارقا بذلك قاعدة الجهة التي تفرض الوضوح، فمن الواضح ان كلامه يقتضي انه يتجنب خدش مشاعر الآخرين .

نظرا لأهمية كل من الاقتضاء المتعارف والاقتضاء الذي ينجم عن خرق القواعد، ينبغي لنا ان نعرض بالتفصيل أمثلة على كل منها وذلك وفق علاقتها بالقواعد.

الاقتضاء التخاطبي المتعارف

الكيفية

إذا قلت مثلاً :

الجامعة مغلقة

فقولي يقتضي أني اعتقد ذلك، بحُكم قواعد الكيفية. هذا ما نشير إليه بالرمز « + > » على النحو الآتي :

الجامعة مغلقة + > أنا أعتقد أنها مغلقة وعندي دليل واضح على ذلك.

إن الاقتضاء المذكور هو الذي يعطي تفسيرا لما يسمى بإشكال مور Moore's Paradox ، أي للتلفظ الذي يجمع بين الاثبات وعدم الاعتقاد كادعائي بأن :

الجامعة مغلقة ولكني لا اعتقد ذلك.

إذ، من الواضح، أن أمثال هذه العبارة غير مقبولة في التداول فهي تحتمل نوعا من التناقض. لكن تناقضها ليس من النوع المنطقي ، لان كون الجامعة مغلقة وكوني لا اعتقد ذلك لا يتنافيان، بل قد يتفقان. بينما إذا استلزمنا منطقيا، استنادا إلى التعريف أو قاعدة المحمولات، من القول « الجامعة مغلقة » أن « الجامعة غير مفتوحة » وركبنا من هذين القولين عبارة شبيهة بالسابقة، أي عبارة تجمع بين الملزوم وسلب اللازم لـ كان قولنا :

الجامعة مغلقة ومفتوحة

مستحيلا منطقيا. إذ كون الجامعة مغلقة وكونها مفتوحة هما حدثان لا يمكن أن يجتمعا البتة[٧].

هذا النوع من الاقتضاء التداولي، الذي يصح على الجمل الخبرية، ينطبق أيضا على الجمل الانشائية كالوعد والأمر والاستفهام. يكفي لذلك أن نعمم قواعد الكيفية المقصورة على الصدق بالنسبة للجمل الخبرية، بحيث أنها تتطلب الصراحة في كل أنواع الجمل. فعندها يقتضي السؤال مثلا :

هل عندك سيارة ؟

جهل السائل لذلك، ووجود الرغبة في معرفة الأمر. إذن :

هل عندك سيارة ؟ + > أنا لا أعرف ذلك وأريد معرفته.

الكمية

مجاراة هذه المقولة تقدم بعضا من أهم نماذج الاقتضاء المتعارف standard لنفترض أن أحداً قال :

لأحمد خمسة عشر ولدا

فذلك يقتضي أن لاحمد خمسة عشر ولدا فحسب، بالرغم من أنه لا يتنافى مع حقيقة هذا القول ان يكون عند أولاد أحمد عشرين. لكن اقتضاء القول لكون أحمد عنده فقط خمسة عشر ولدا، يعود الى أنه لو كان لأحمد عشرون

(٧) علاوة على ذلك ، ثمة فرق آخر بين الاقتضاء الذي نحن بصدده واللزوم المنطقي ـ وهو ان اللازم المنطقي ينجم عما هو مقول ، بينما ينجم المقتضى التداولي عن فعل القول ذاته .

ولذا لكان على المتكلم بحُكم قاعدة الكمية التي تفرض الإخبار بقدر ما هو مطلوب، أن يقول ذلك. فبما أنه لم يفعل، كان بالتالي يريد إبلاغ المستمع ان لأحمد فقط خمسة عشر ولدا.

مثل آخر: عندما يصرح المتكلم بأن:

العَلَم أحْمَـر

فبما أنه لم يُضِف نعوتا أخرى تخبر عن الألوان التي يمكن أن يحتويها العلم، كأن يقول مثلا « العلمَ أحمر وأزرق وأبيض »، يقتضي قوله ان يكون « كل العَلَم أحمر » أو « العلم فقط أحمر ».

كذلك إذا فرع سمعنا هذا الحوار :

أ : كيف كانت مباراة الفريق الوطني أمس في كرة القدم ؟

ب : لقد سجّل الفريق إصابات رائعة.

وعلمنا فيما بعد أن الفريق الوطني قد خسر مع تلك المباراة، فسوف نعتبر أن جواب (ب) كان يدفع الى التضليل، إذ أن (ب) لم يقدم كل المعلومات التي تتطلبها ظروف السؤال.

من هذه الأمثلة يتضح أن القاعدة الفرعية الأولى من مقولة الكمية التي توصي بإعطاء المعلومات التامة التي تتطلبها الحال، هي القاعدة الأساسية التي يُعتمد عليها لمثل هذا النوع من الاقتضاء. فتطبيق القاعدة، يرتبط التلفظ utterance عادة باقتضاء تداولي يجعل من الحكم المقصود أقوى الأحكام التي يمكن إطلاقها في الظرف الحالي وأكثرها إفادة.

الإضافة

إن هذه المقولة يعود الفضل في تقديم أوسع لائحة من المقتضيات . بل إن البعض يذهب إلى أن مقولة الإضافة هي عامة لدرجة أنها تستوعب سائر المقولات . من قبيل المقتضيات المتعلقة بالاضافة ، اقتضاء الأوامر الصادرة من أجل تعاون راهن ، وفوري . وعليه :

ناول الملح !

+ > ناول الملح الآن !

إن قاعدة الإضافة هي التي تتيح ، أكثر من أية قاعدة أخرى ، الايجاز في التخاطب والتخلي عن ذكر أمور مفروغ منها . فعندما يشير عابر سبيل لسائق نفد البنزين من سيارته ، إلى أن :

هنالك محطة عند زاوية الشارع

من الواضح أن قوله يقتضي أن تكون المحطة مفتوحة وان يوجد فيها بنزين . وأحيانا ما يكون الاقتضاء على درجة أكبر من الحقاد مما يستوجب بعض التفكير . ففي الحوار :

أ : يبدو أن سميرا منقطع عن النساء هذه الأيام .

ب : لكنه كثيرا ما يتردد إلى العاصمة .

لا بد ، حتى يتم لنا فهم استدراك (ب) ، أن نفترض وجود تناسب ما بين ردّ (ب) وملاحظة (أ) . لكن ذلك لا يستقيم لنا إلا عند تقدير عدة معلومات مشتركة بين (أ) و (ب) . منها مثلا أن سميرا نادرا ما يأتي إلى العاصمة ، وأنه يسكن في منطقة لا تتيح له الاختلاط بالنساء ، وأن لا داعٍ يجعله يتردد الآن إلى العاصمة سوى حاجته إلى الجنس اللطيف . إلى ما هنالك .

لا شك أن مثل هذه التقديرات هي التي تسد الثغرات التي تظهر أحيانا بين ردود المتخاطبين ، وتبرر بالتالي وجود القاعدة التي تعتمد عليها ، أعني قاعدة الإضافة .

الجهة

أخيرا ، ثمة أنواع أخرى من الاقتضاء تحصل عن مراعاة قاعدة الجهة . هكذا مثلا : اذا لجأ المتكلم إلى الإطناب وقال للمستمع :

أدر مقبض الباب باتجاه عقارب الساعة حتى نهاية الحركة ، ثم اجذبه برفق نحوك .

فطلب المستمع ، في سياق ما ، يقتضي ، وفقا للقاعدة الفرعية الثالثة التي تنص على الايجاز ، ان يكون المخاطب جاهلا بتفاصيل فتح الباب المذكور وأن يكون المستمع راغبا في عدم إحداث تشويش ما .

من بين قواعد الجهة ، قد تكون القاعدة الفرعية الرابعة ، التي تتوخى مراعاة الترتيب ، هي الأهم . ففي مثل العبارات الآتية :

١ ـ وصلت الطائرة ونزل الركاب .
٢ ـ صرخ بصوت عظيم ومات .
٣ ـ ذهب فوزي إلى الدكان واشترى قنينة عصير .
٤ ـ أمطرت السماء وارتوى العشب .

تقتضي الواو ، بسبب قرائن خارجية متنوعة ، الترتيب الزماني . وهذا ما يفسر غرابة العبارات المذكورة إذا ما قلبنا المتعاطفين وقلنا :

١ ـ نزل الركاب ووصلت الطائرة .
٢ ـ مات وصرخ بصوت عظيم .
٣ ـ اشترى فوزي قنينة عصير وذهب إلى الدكان .
٤ ـ ارتوى العشب وأمطرت السماء .

بينما ذلك لا يضير في عبارات أخرى حيث الواو مستعملة بالمعنى المطلق . فقولنا :

بيروت عاصمة لبنان ودمشق عاصمة سوريا

لا يختلف بتاتا عن قولنا :

دمشق عاصمة سوريا وبيروت عاصمة لبنان .

من هذا التفسير بواسطة الاقتضاء ، يتبين لنا كيف أنه يمكن التخلص من الاحراج الناجم عن إسناد أكثر من معنى معجمي لحرف الواو . فلسنا بحاجة إلى ادعاء وجود لفظتي «و» أو أكثر : واحدة تدل على مجرد الاشتراك في الصدق ، وأخرى تدل ، بالإضافة إلى ذلك ، على الترتيب الزماني . إذ ان الترتيب الزماني ، وغيره من المفاهيم الاضافية ، ليست سوى مقتضيات تنجم عن القرائن الخارجية عند مراعاة القاعدة الفرعية الرابعة لمقولة الجهة . [٨]

الاقتضاء التخاطبي الحاصل عن خرق القواعد

النوع الثاني من الاقتضاء يحصل عند خرق إحدى القواعد بشكل صريح وسافر ، أو كما يعبر عن ذلك غرايس ، عند الاستخفاف Flouting بالقواعد أو استغلالها exploitation . هذا بالطبع مع احترام مبدأ التعاون العام ، لأن المتكلم إذا انحرف عن استعمال موافق للتحكم بالقواعد ، احتاج المستمع على الأقل إلى تقدير مبدأ التعاون ، حتى يتوصّل عبر استدلالات متتابعة إلى المقتضى الذي يقصد المتكلم إبلاغه . أما البُغية من هذا الخرق فهي توليد الصور البيانية .

إليك عرضا مسهباً للصور التي تنجم عن خرق قواعد التخاطب :

الكمية

١ ـ خرق القاعدة الأولى .

إذا سُئِلَ أستاذ فلسفة عن رأيه بأحد طلابه في هذه المادة واكتفى بالجواب بأن « الطالب لا يتوانى عن متابعة المحاضرات ، وهو يجيد تماما اللغة الانكليزية » ، فهو يكون بذلك قد أخلَّ بالقاعدة الأولى لمقولة الكمية لأنه لم يقدم المعلومات اللازمة . وبما أن الإخلال لا يمكن إرجاعه إلى قصور في معرفة الاستاذ ، إذ مَن أدرى منه بمقدرة تلميذه ، فلنفترض إذن أنه تجنب التصريح بالافادة المطلوبة خوفا من الاحراج . أما داعي الإحراج في هذا السياق فلا يمكن أن يكون سوى اعتقاده بأن الطالب فاشل في الفلسفة . لا ريب أنه كان بمستطاع الاستاذ أن يرفض اللعبة ويمتنع بالتالي عن الإجابة ، لكن بمجرد أنه فعل ذلك فقد أظهر حسن نيته في التعاون . إذن ، بالرد قَصَدَ الاستاذ أن يُبلغ مراده للمخاطب بشكل غير صريح ، متوسلا طريقة بيانية تعرف باسم التعريض أو التلويح .

(٨) هذه النظرة التداولية الحديثة تقابل موقف قدماء النحاة العرب . فعند هؤلاء ان الواو لا تفيد سوى مطلق الاشتراك والجمع ، أي انها بحد ذاتها لا تدل على أكثر من التشريك في المعنى العام . فإن أفادت غير ذلك من ترتيب زمني ، ومصاحبة وتعقيب أو مهلة ، وخسة أو شرف .. الخ ... فذلك يكون بمقتضى القرائن الخارجية .

من باب العبارات التي تُخل بالقاعدة الأولى ، يمكن اعتبار كحد أقصى البيهيات tautology البيّنة ، كقولنا مثلا :

الحرب هي الحرب !

إما أن تجيء سعاد أو لا تجيء !

ان فعل الأمر فقد فعله !

فؤاد فيه ما فيه !

فهذه العبارات لا تُبلغ ، على صعيد القول أو المنطوق ، شيئا على الإطلاق . ولا فرق بين بعضها البعض من حيث شروط الصدق ، إذ أنها كلها تعود إلى صور منطقية صحيحة هي على التوالي :

∧ س (حا (س) ← حا (س)

ب ∨ ~ ب

ب ← ب

ق (سُ ق (س ، فؤاد) ، فؤاد)

لكن مع ذلك ، فالتلفظ بمثل هذه الأقوال يحمل ، بمقتضى التداول ، مدلولات أخرى مختلفة عن المنطوق . إذ أنه لما كانت البيهيات قاصرة عن إفادة المُرام ، كان لا بد للمستمع ، إذا صح تقديره ان المخاطب راغب في التعاون معه ، ان يصل إلى الاقتضاء مفيد . ففي حال قول « الحرب هي الحرب ! » ، قد يكون المقتضى مثلا أن من طبيعة الحرب جلب الهول والدمار والتهجير ، إلى ما هنالك . وفي العبارة الثانية ، أي « إما أن تجيء سعاد أو لا تجيء ! » ، فقد يفهم المستمع في سياقٍ ما أن المراد هو : هدّىء روعك فالاضطراب لا يؤدي إلا إلى مضرتك في كلا الاحتمالين . في الثالثة ، فالفحوى الذي يقتضيه الكلام هو ان الأمر لا يعنينا والشخص المقصود هو الذي يتحمل مسئوليته . وأما أخيرا قولنا « فؤاد فيه ما فيه » فهو دليل على ما في هذا الفؤاد من هموم ومعاناة . من الواضح أن أمثال هذه العبارات تُستعمل عادة إما للتخلص من موقع حرج أو لاختتام الكلام . لذلك يتعلق إدراك تفاصيل مقتضياتها بسياق ومقام التلفظ .

٢ ـ خرق القاعدة الثانية للكمية أي « لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب » .

اذا أراد شخصٌ مجرد الاستفسار عن صحة خبر ما ، ولم يكتف المجيب بالتصديق على الخبر ، بل راح يتكلف الإدلاء برأي وراء الآخر لا يترك شاردة ولا واردة ، مُصرا على صحة كلامه بشكل لا يقبل النقض ، فمن المتوقع ان يلفت مثلُ هذا القدر ، إن كان مقصودا ، انتباه السامع إلى أن المجيب يلمّح بذلك إلى أنه غير موقن من صحة الخبر .

<u>الكيفية</u>

ان الاخلال بقواعد وحِكم مقولة الكيفية يوفّر لنا أكثر أنواع الصور البيانية .

١ ـ خرق القاعدة الأولى أي « لا تَقُل ما تعتقد أنه كاذب » .

١ ، ١ . التهكّم : شخص ما ، بعد أن بَلَغَهُ أن أحد الأصحاب سرّب بعض أسراره إلى أحد منافسيه في العمل ، يعلن ، أمام حضور على علم بذلك : « فلان هو من الأصدقاء الذين يمكن الوثوق بهم » . لا ريب أن كذب هذا التصريح ظاهر لأي مستمع ، لأن ما صرح به الشخص المذكور لا يطابق ما يفكر به . فإذا افترض المستمع أن المتكلم لم يرفض مع ذلك التعاون في الحديث بل أراد أن يوصل أمراً ما ، فلا بد له أن يبحث عن قضية لها علاقة بما قيل . والأرجح أن القضية المقصودة هي ، في هذا السياق ، نقيض ما صرح به المتكلم .

٢ ، ١ . الاستعارة : اقتضاء المعنى المستعار له يجري في أغلب الأحيان بطريقة مشابهة لفهم التهكم . فالمنطوق الحرفي للاستعارات هو لغو ساقط . هكذا مثلا ، هتاف المتيم لعشيقته :

أنت القمر

لا يمكن أن يعني به أنها ذلك الجرم الذي يدور حول الأرض ، بل إنه يريد أن يصفها بأمر له علاقة ما بالقمر . وبما أن الأمر في مثل هذا المقام يستحيل أن يكون النقيض ، فمن الأرجح أنه يريد أن يُسند إليها صفة شبيهة بتلك للقمر ، كالبياض والحسن الخ . . .

بالنسبة إلى نفس الاستعارة ، قد يختلف المعنى المستعار له وفقاً للظروف والأحوال . فالعبارة :

رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر من فولاذ

تعني ، لدى المعجبين بتاتشر ، فضائل الحزم والقدرة . أما إذا قيلت من أحد الخصوم الذين يريدون الحط من سمعة تاتشر ، فإنها تدل على رذائل الخشونة وعدم المرونة وفقدان الأنوثة ، بالرغم من أن كل هذه الصفات تشترك في القوة .

من الممكن ، كما يشير إلى ذلك غرايس ، جمع الاستعارة مع التهكم ، بحيث يترتب على ذلك مستويات من الاقتضاء . مثلا ، إن قال أحدهم عن امرأة قبيحة :

أطلّ القمر

فالانتقال يكون أولا من القمر إلى الحسناء ، ومن ثم إلى نقيضها أي إلى المرأة القبيحة . هذا النوع من التراكيب البيانية المتعددة لا يقتصر فقط على الاستعارة والتهكم ، بل يشمل سائر الصور كما سنفصل ذلك في بحث مستقل .

٣ ، ١ التعريض أو التلويح : ثمة إخلال لقاعدة الكيفية يقع حين التلفظ بخطأ صارخ كما في هذا الحوار :

أ ـ أليست بيروت في ليبيا ؟

ب ـ وكذلك دمشق في أرمينيا .

حيث (ب) ، بورده الظاهر الكذب ، يلوح إلى خطأ (أ) .

٤ ، ١ التفريط litote : ومثاله أن يقال عن رجل حطم كل شيء بأنه « شرب قليلا » أو « تناول كأساً » .

٥ ، ١ الإفراط أو المبالغة hyperbole : كل فتاة تحلم بضابط .

الإضافة

من الصعب إيجاد أمثلة يحصل فيها الاقتضاء عن خرق حقيقي لقواعد هذه المقولة . إذ أنه من النادر إعطاء جواب لا يمكن إلّا اعتباره غير ملائم بالنسبة إلى سياق ما . ففي الحوار التالي :

: ألا تعتقد يا صاحبي ان فلانة عجوز قبحاء !

ج : (باضطراب) الطقس جميل جدا اليوم . أليس كذلك ؟

يمكن تفسير الجواب ، على أنه إنكار لاقتراح (أ) وتلميح له بأنه ارتكب هفوة أو زلة لسان . ولكن ، في ظرف آخر ، قد يقتضي الجواب أيضا لفت نظر (أ) مثلا الى وجود ابن أخ فلانة بالقرب منه .

مثل آخر حيث الاقتضاء هو شبه مألوف :

الابن : لنذهب إلى السينما يا أبي !

الاب : ماذا عن الفروض المدرسية ؟

حيث الأب يريد ان يذكّر ابنه بأنه ليس حرا بعد للذهاب إلى السينما .

الجهة

يمكن ايجاد أمثلة على الإخلال بالوضوح بالنسبة لكل قاعدة فرعية من هذه المقولة .

١ ـ الالتباس : يعني الغرابس هنا الالتباس القصدي الذي يريد المتكلم ان يُبلِّغه إلى السامع على أنه كذلك . وهذا يقع حينا تحتمل العبارة معنيين أو أكثر ، دون ان توجد قرينة تمنع من ذلك . أما المعاني المرادة ، فقد تكون كلها حقيقية على سبيل الاشتراك في اللفظ ، أو بعضها حقيقيا وبعضها مجازيا ، أو كلها مجازية . من الالتباس المبنى على الاشتراك قول[٩] أحد العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل ، ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي :

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وفارقْتَه إذ أعوزتك المآكلُ

وما اخترت رأى الشافعي تديّنا ... ولكنّما تهوى الذي منه حاصلُ

وعما قليلٍ أنت لاشك صائرٌ ... إلى مالكٍ ، فافطُن لما أنا قائلُ .

فإنك ههنا يصلح ان يكون مالك بن انس صاحب المذهب ، ويصلح ان يكون مالكا خازن النار .

ومن باب الاشتراك في اللفظ هذا السؤال الطريف من مقامات الحريرى « أيحل للصائم أن يأكل نهارا » ، اذ أن النهار اسم مشترك بين « ضد الليل » و « فرخ الحبارى » .

---

(٩) راجع : ابن الأثير ، المثل السائر ، القسم الثالث ، صص ٧٧ - ٧٨ .

في بعض الالتباسات ، قد يرجح معنى على آخر ولو كان بعيدا . من أمثلة ذلك ما يحكيه غرايس عن الجنرال البريطاني الذي بعث عند احتلاله مدينة السِّنْد Sind رسالة يقول فيها باللاتينية « Peccavi » . فترجمة هذه الكلمة تعني حرفيا بالانكليزية I have sinned أي أني أخطأت . لكن من حيث اللفظ ، واضح أن الترجمة الانكليزية مجانسة للعبارة I have Sind ، التي تعني « أني أملك السند » . بالطبع ، لا تحتمل الرسالة بحد ذاتها أي لبس . انها ، لما كانت اللغة المكتوبة بها غريبة عن المرسِل والمتلقي ، كان لا بد من الترجمة . ولا شك أنه عند التلفظ بالترجمة يظهر الالتباس . فالمعنى الحقيقي للعبارة اللاتينية محتمل ، إذ قد يكون الجنرال البريطاني ، مثلا ، خالف الأوامر ليحتل السند . لكن معنى اللفظ المجانس هو المقصود على الأرجح .

٢ ـ الغموض . ما يدفع المتكلم للإخلال بالوضوح هو أنه ، يريد حين إبلاغ المخاطب أمرا ما ، إخفاء ذلك الأمر عن أشخاص آخرين حاضرين ، تفاديا لالتزام أو إحراج أو جرح شعور . هكذا مثلا إذا أحب رجل أن يدعو امرأته إلى المسرح دون إشعار أولاده المتواجدين حولها بذلك فقد يتوجه إليها بالقول : ما رأيك بالميم سين راء حاء ؟ كذلك مثلا ، إذا أراد رجل استعمال عبارات تتضمن كلمات نابية وبذيئة ، أمام حضور نسائي ، فقد يكتفي بالإلماع أو بكلمات مجزوءة . كقوله فقط « الشحوس منحوس »[١٠] دون أن يكمل .

٣ ـ التطويل والإطناب . لنفترض ورود المقطع الآتي في مقال ناقد موسيقي :

أصدرت السيدة فلانة سلسلة من الأصوات تشبه أغنية « إنت عمري »

بدلا من قوله : غنت السيدة فلانة أغنية « أنت عمري »

فلا شك أن التطويل المقصود يقتضي ان إداء المرأة كان بعيدا كل البعد عن مفهوم الغناء الحقيقي .

خصائص الاقتضاء التخاطبي

لتعيين الاقتضاء التخاطبي ، لا يكفي الاعتماد على الحدس والحزر ، بل لا بد للمخاطب أولا أن يأخذ بعين الاعتبار للمعطيات الآتية :

I المدلول الحقيقي للألفاظ المستعملة .
II مبدأ التعاون والقواعد المندرجة تحته .
III سياق العبارة اللفظي والحالي .
IV المعلومات الخلفية السابقة .
V كون المعطيات I - IV مشتركة بينه وبين المتكلم .

---

(١٠) الجملة الأصل هي : ولو طلقوا على قناة قابوس

ومن ثم عليه أن يتبع الطريقة العامة الآتية حتى يتوصل إلى المقتضى المطلوب :

I قال المتكلم إنّ : ب

II لا داعي للتفكير بأن المتكلم لا يراعي القواعد ، أو على الأقل مبدأ التعاون .

III لكي يقول المتكلم إنّ ب ، ويراعي حقا القواعد ومبدأ التعاون لا بد له أن يفكر بـ ج .

IV على المتكلم ، إن صح أنه متعاون ، أن يعرف أن ثمة معرفة مشتركة[11] بيني وبينه بأنه لا بد من افتراض ج .

V لم يقم المتكلم بأي عمل يمنعني من التفكير بأن ج .

VI فالمتكلم إذن يريدني أن أفكر بأن ج ، وأنه ، عند قوله ب ، أراد اقتضاء ج .

من الطريقة التي يجرى بها الاقتضاء ، يمكن تبيان الخصائص الأساسية التي تتمتع بها هذه العملية . غرايس يستخلص الميزات الآتية :

١ ـ قابلية النسخ cancellability ، أو قابلية الإلغاء defeasibility .

ان قابلية النسخ هي من المفاهيم الحاسمة في علم التداول ، إذ أن معظم أنواع الاقتضاء تتمتع بهذه الخاصية . فالاقتضاء القابل للنسخ هو الذي يمكن إبطاله بإضافة مقدمة أو أكثر إلى المقدمات الأصلية . وهو بذلك يشبه الاستقراء ويخالف الاستنباط واللزوم المنطقي . ففي الحجج المنطقية يستحيل إلغاء الاستنتاج في أي حال من الأحوال . مثلا ، في القياس الآتي :

كل إنسان حيوان

كل حيوان فان

كل إنسان فان

تلزم النتيجة بالضرورة ، مهما زدنا على المقدمات من قضايا صادقة أو كاذبة حتى لو كانت هذه القضايا مناقضة للنتيجة . أما في الاستقراء ، فكما هو معروف قد تُبطِل قضيةٌ جديدة النتيجه السابقة . مثلا ، من سبق له ان استدل من مشاهدة ألف خروف وملاحظة ان كل واحد منها أبيض أن كل الخراف بيض ، لم وقع بصره على خروف أسود ، فلا بد له أن يتخلى عن استنتاجه السابق ، إذ أن المقدمة المستجدة تجعل النتيجة السابقة غير صحيحة . فالقياس الآتي :

---

(١١) بالمعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب أن ج ، نعني على وجه التدقيق أن : المتكلم يعرف ج ، والمخاطب يعرف ج ، والمتكلم يعرف ان المخاطب يعرف ج ، والمخاطب يعرف ان المتكلم يعرف ج ، والمتكلم يعرف ان المخاطب يعرف ان المتكلم يعرف ج ... إلى ما لا نهاية له .

شاهدت ألف خروف
كل واحد من الألف خروف هو أبيض
الخروف الواحد بعد الألف هو أسود
كل الخراف بيض
هو بالطبع عقيم .

كذلك حال الاقتضاء ، إذ ليس من العسير ابطال مفعوله . لنعتبر هذا الاقتضاء المباشر بالنسبة لمقولة الكمية :

لأحمد ثلاثة مؤلفات
+ > لأحمد ثلاثة مؤلفات فحسب .

فإنه يكفي لإبطال المقتضى ، إضافة جملة اعتراضية من النوع الآتي :

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، إن لم يكن أكثر .

بل إنه ممكن إنكار الاقتضاء بشكل صريح دون الوقوع في التناقض ، فيقال مثلا :

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، بل عشرة
لأحمد ثلاثة مؤلفات ، وربما أكثر .

علاوة على ذلك ، قد ينعدم الاقتضاء ، إذا ما اتضح من سياق التلفظ ان المقتضى المحتمل لم يكن من مراد المتكلم . فلو سأل مثلا رئيس اتحاد الكتاب ، الذي يشترط على الكاتب للانتهاء إليه ان يكون له ثلاثة مؤلفات ، أحد زملاء أحمد مستفسرا :

هل لأحمد العدد المطلوب من الكتب ؟

فالجواب بأن :

لأحمد ثلاثة مؤلفات

لا يقتضي بالطبع قصر عدد الكتب على ثلاثة ، كما اقتضى الأمر في المثل الأول . اذ أنه يتضح من السياق ان الاستخبار هو عن استيفاء أحمد شروط الانتهاء في التأليف وليس عن العدد المضبوط لكتبه .

بسبب ميزة قابلية النسخ هذه ، يستحيل تأدية الاقتضاء بعلاقة معينة بين المعاني الحقيقية للألفاظ على غرار اللزوم المنطقي . [١٢]

---

(١٢) أنظر بهذا الصدد ، راجع : Lakoff, G., 1975

٢ - عدم الانفكاك non - detachability .

يعدم الانفكاك يقصد غرايس ان الاقتضاء يتعلق بالمضمون الدلالي لما هو مقول ، وليس بالصورة اللغوية . وبالتالي ، يستحيل انفكاك المقتضيات عن التلفظ Utterance بمجرد إبدال الألفاظ بمرادفات لها . هذه الخاصية تعود إلى كل اقتضاءات التخاطب ، باستثناء الاقتضاءات التي تنجم عن قواعد الجهة modality ، لكون الاقتضاءات الأخيرة ترتبط بصورة التلفظ . لنأخذ مثلا عبارة تهكمية تقتضي عكس المنطوق ، كقولنا :

زيد عبقري

حيث المقصود هو ان :

زيد أبله .

فإذا ما استعملنا مكان العبارة الأولى ، في السياق ذاته ، أية جملة من الجمل الآتية :

زيد نابغة
زيد دماغ كبير
زيد إنسان خارق

فلا شك أنها سوف تشارك العبارة السابقة في مقتضى التهكم ذاته .

على وجه التحديد ، إن تعلق الاقتضاء بما هو مقول يقع على مستوى التمثيل الدلالي semantic representation بما في ذلك بعض خصائص الصورة النطقية ، وهذا لا يمكن ان يحصل لا عن البنية السطحية غير المفسرة للعبارة ولا عن مجرد شروطها الصدقية .

أما عن امتناع تعلق الاقتضاء بالبنية السطحية غير المفسرة ، فلأن البنية السطحية قد تحتمل عدة تفسيرات ، ينتج عن أحدها مقتضى ما ولا ينتج عن الآخر . لنتأمل في معنى العبارات الملتبسة من النوع الآتي :

لم تُصب كل الرصاصات الهدف

فهذه تتقبل تفسيرين ، الأول يؤدى بالصيغة المنطقية :

$\bigwedge$ (رصاصة (س) ← ~ أصابت ((س ، الهدف))

أي بالقضية الكلية السالبة ومعناها :

لا رصاصة أصابت الهدف

والثاني بالصيغة :

∼ ⋀ س (رصاصة (س) ⟵ أصابت ((س ، الهدف))

أي بسلب القضية الكلية ومعناها :

ليس كل الرصاصات أصابت الهدف .

فالتفسير الثاني فقط يقتضي كون : [١٣]

بعض الرصاصات أصابت الهدف

بينما لايجري هذا الاقتضاء على التفسير الأول .

وأما عن عدم الاكتفاء بشروط الصدق لتعيين الاقتضاء ، فلأنه غالبا مايستحيل تقدير المقتضيات انطلاقا من هذه الشروط وحدها . هكذا مثلا اذا اخذنا عبارتين على الصيغتين الآتيتين :

ب

ب ∧ (ب ⟵ ب)

فلا ريب انهما تشتركان بشروط الصدق ذاتها ، إذ انه كلما صدقت ب كانت ب ∧ (ب ⟵ ب) صادقة أيضا ، وبالعكس . لكن ، إذا قارنا بين العبارتين الآتيتين للصيغتين المذكورتين :

لقد وقع الامر

لقد وقع الامر ، واذا ماوقع فقد وقع (اى قد وقع ما وقع)

يبدو ان الثانية فقط تختص بالاقتضاء :

لاجدوى من التحسر على ماقد حدث .

وعليه ، بعض المقتضيات على الاقل ينجم عن البنية الدلالية أو المنطقية لما هو مقول وليس عن شروط الصدق بالذات . إذن ، بوجه عام ، لايكفى اعتبار شروط الصدق لحسبان المقتضيات بل لابد من الرجوع إلى التمثيل الدلالي أو الصوره المنطقية للعبارات .

ان استتباع مقتضيات مختلفة لتلفظات متساوية في شروط الصدق لكنها متباينة في الصور المنطقية ، هو الذي يسمح بالتمييز بين عدة تلفظات تكاد تكون مترادفة ، وذلك بتبيان الفروق الدلالية القائمة على اختلاف في

(١٣) لاحظ انه يوجد اقتضاء تداولي ولكن لالزوم منطقي ، إذ قد يحدث سلب القضية الكلية ويكون القضي كاذبا .

المقتضيات ، وهو بالتالي يتيح تفسير التباين في الأسلوب ، أى في اختيار العبارات التى تتمتع بشروط الصدق نفسها .

بهذه الخاصية الموسومة بعدم الانفكاك ، يتم فصل الاقتضاء التخاطبي عن غيره من أنواع الاقتضاء التداولي كالاقتضاء العرفي والافتراض presupposition . فبالنسبة إلى الافتراض يظهر ان الاقتضاء يرتبط بالصوره اللغوية وليس بالمعنى ، إذ ان قولنا مثلا :

لم يفلح زياد في الوصول إلى القمة ،

يفترض أن :

زيادا حاول الوصل إلى القمة .

بينما قولنا :

لم يصل زياد إلى القمة

وهو قول مرادف للأول ، لايبدو أنه يفترض ذلك .

٣ - قابلية الحسبان Calculability

هذه الميزه تعنى أنه بالامكان إقامة دليل أو حجة على أى مقتضى من المقتضيات بالطريقة التى سبق تفصيلها ، وذلك بالانتقال من المعنى الحرفي للتلفظ إلى المقتضى المطلوب ، إستنادا إلى مبدأ التعاون والقواعد .

٤ - اللاعرفية non - Conventional

أخيرا ، يتميز الاقتضاء التخاطبي بكونه لاعرفيا ، أى بكونه لايشكل جزءا من المعنى العرفي للألفاظ . إذ أن الوصول إلى المقتضى لايتم إلا من بعد معرفة المعنى الحرفي ، وكذلك من بعد اعتبار السياق وتطبيق قواعد التخاطب . ومما يؤكد لاعرفية الاقتضاء هو ان التلفظ قد يصدق بينما يكون المقتضى كاذبا ، وبالعكس فقول المتكلم :

ضرب عادل زيدا

يقتضي وفقا لقاعدة الكمية ان :

عادل لم يقتل زيدا بضربه

وإلا يكون المتكلم قد رفض التعاون وذلك بإعطاء معلومات غير وافية بالمطلوب . مع ذلك ، لايمنع ان يتلفظ المتكلم بالجملة المذكوره في مقام تصدق فيه ويكذب مقتضاها ، وذلك بغية تضليل المخاطب . أما العكس ، أى أن يكذب التلفظ ويصدق المقتضى ، فيحصل في المجازات الكنائية ، كقولنا مثلا :

يجلس الأسد على عرش الغابة

الذى هو دون شك كاذب ، بينما مقتضاه وهو كون الأسد يسود على الغابة صادق .

وأيضا مما يثبت لاعرفية الاقتضاء هو أن عبارة ما ذات معنى واحد قد تستتبع مقتضيات تختلف باختلاف المواقف والمقامات . بل إنه في مقام معين يستحيل احيانا تحديد مجموعة المقتضيات التى تصدر عن تلك العباره . فالقول :

عادل آلة

قد يقصد به أن عادلا بارد ، أو انه لايتوقف عن العمل ، أو أنه لايتبصر في الأمور الخ . .

انواع الاقتضاء

في تناولنا للاقتضاء التخاطبي ، تطرقنا إلى تقسيم هذا الاقتضاء إلى نوعين : اقتضاء خصصناه باسم «المتعارف» أو «النموذجي» standard وهو الاقتضاء الناجم عند مراعاة المتكلم للقواعد والحكم ، واقتضاء أكثر تعقيدا يحصل في حال استخفاف Floating المتكلم بالقواعد المذكوره .

لكن يمكن ، من منظور آخر ، تفريع الاقتضاء التخاطبي ، كما فعل غرايس ، إلى قسمين مختلفين هما : الاقتضاء العام generalized ، وهو الذى يحصل دون أن يوجد بالضروره سياق حالي معين ، واقتضاء خاص يتطلب وجود مثل هذا السياق : مثال الاقتضاء الخاص الاستدلال من القول :

تبدو القطة في غاية الانشراح

على ان :

القطة أكلت الجبنة .

لأن هذا الاقتضاء لايجوز إلا إذا وردت العباره الأولى في مجرى حديث معين كالآتى :

ـ أين اختفت قطعة الجبنة ؟

ـ تبدو القطة في غاية الانشراح .

وكذلك اقتضاؤنا لـ :

سمير هو السارق

من الخبر أن :

سمير اشترى شقة .

لايصح إلا استنادا لمعرفتنا بظروف وأحوال مخصوصة ، كحصول سرقة بنك ، وعدم تواجد سمير في هذه الفترة ، وكون سمير معدوم الحال الخ . . ومن شواهد الاقتضاء العام اقتضاء الاسم النكره أن لايمت مسماه بصلة قريبة إلى المتكلم . فقول مثلا :

دخلت بيتا واسعا

يقتضي أن

البيت ليس لي .

إذا ما قارنا بين تفريع الاقتضاء التخاطبي السابق إلى اقتضاء متعارف يراعي الحكم واقتضاء مجازي يستغلها ، وبين التفريع الثاني الجديد إلى اقتضاء عام واقتضاء خاص ، نجد أنهما يتقاطعان بدرجات متفاوتة من التوزيع :

	اقتضاء متعارف	اقتضاء مجازي
اقتضاء عام		
اقتضاء خاص		

فمعظم التلفظات utterance التي تستغل الحكم تندرج تحت الاقتضاء الخاص . هكذا مثلا لايمكن تفسير التهكم دون الرجوع إلى مزاعم وافتراضات assumption خلفية . بينما يبدو أن ثمة استعارات كقولنا :

الهلال منجل

وهيهيات مثل :

فؤاد فيه مافيه

الحرب هي الحرب

تفيد المطلوب بشكل مستقل نسبيا عن السياق .

بين أصناف المقتضيات التخاطبية المذكوره ، تكتسب المقتضيات العامة أهمية خاصة بالنسبة للنظرية اللسانية . ذلك انه من العسير تمييز هذه المقتضيات عن المضمون الدلالي semantical للألفاظ ، فاقترانها بالألفاظ الملائمة هو أمر مألوف في كل السياقات العادية .

من قبيل هذا الصنف المقتضيات المنوطة بمقولة الكمية ، والتي تحصل بين العبارات التي تتدرج على نحو سُلّمي scalar من الاكثر إلى الاقل بحيث ان السابق يستلزم اللاحق . ففي هذه الحال يقتضي الاقل سلب الأكثر . فمثلا بالنسبة للزوج المرتَّب بحسب الكثره : (كل ، بعض) يقتضي اثبات البعض سلب الكل . فقول المتكلم :

بعض الأساتذه حضروا الندوة

يقتضي : لم يحضر كل الاساتذة الندوة.

والاستدلال التداولي على ذلك هو أنه :

لو كان المتكلم في حالة تسمح له بأن يثبت العباره الأقوى ، أي ان كل الاساتذة حضروا الندوة، لكان خالف القاعدة الأولى من قواعد الكمية حين قضي بأن بعض الاساتذة حضروا الندوة ، لكن بما أن المخاطب يفترض تعاون المتكلم معه وبالتالي عدم رغبته بخرق قاعدة الكمية دون تنبيهه إلى ذلك ، فهو يعتبر ان المتكلم يريد إبلاغه ، أنه ليس في حالة تجيز له إثبات العباره الأقوى ، بل انه يعرف ان ذلك الاثبات غير صادق .

من أمثلة هذه المقتضيات السُلّمية المجموعات المرتبة التالية :

< ممتاز ، جيد >

< دائما ، غالبا ، أحيانا >

< واجب ، حلال >

< بالضروره ، بالواقع ، بالامكان >

< و ، أو >

< ن ، . . . ، ٣ ، ٢ ، ١ >

حيث اللاحق يقتضي نفي السابق .

اقتصرنا حتى الآن على استعمال كلمة «اقتضاء» لما أسميناه بالاقتضاء التخاطبي . لكن الاقتضاء ، بمفهوم غرايس ، هو مصطلح عام يشمل كل أنواع الاستدلالات التداولية التي يمكن الوقوف عليها . فالمقتضى عامة هو القسم من المعنى غير الطبيعي nn – meaning الذي يقابل المنطوق أو المقول What is said المحدد بشروط صدق العبارات .

بالإضافة إلى الاقتضاء التخاطبي ، وهو الاقتضاء الذي يرتكز على الحكم والقواعد التي سبق تصنيفها ، يتطرق غرايس إلى نوع من الاستدلال غير المشروط بالصدق ، مباين للاقتضاء التخاطبي ، يخصه باسم الاقتضاء

العرفي conventional implicature . فالاقتضاء العرفي لاينجم عن مبادىء تداولية عليا كَحِكَم وقواعد التخاطب ، بل انه يعود إلى المفردات المعجمية بالعرف أو بالاتفاق by convention.

من أمثلة الاقتضاء العرفي :

فلان ذكي لكنه كسول

فلفظة «لكن» لها نفس المضمون المشروط بالصدق الذى لحرف العطف «و» ، إذ أن الجملة المركبة بواسطة «لكن» تصدق في حال صدق الجملتين الفرعيتين معا وهما في مثلنا «فلان ذكي» و «فلان كسول» . إنما بالاضافة إلى ذلك تقتضي لفظة «لكن» تنافرا بين طرفي القضية المركبة . فقولنا السابق يستدعي عرفا ان أحد المتخاطبين لم يكن يتوقع ان يكون فلان كسولا . ومن الواضح ان هذا النوع من الاقتضاء لايتعلق ، كماهو الحال مع المقتضيات غير العرفية ، بحكم أو بقواعد إضافية ، بل فقط بالمفردات نفسها .

كذلك ، من باب الاقتضاء العرفي الدلالةعلى المنزلة الاجتماعية المنوطة ببعض الألفاظ فعندما تقول بالإفرنسية :

tu es le directeur (أنت المدير)

Vous etes le directeur (أنتم المدير)

لايوجد فرق بين الضمير « Vous » (أنتم) حين استعماله للمخاطب مفرد والضمير « tu » (أنت) من حيث شروط الصدق . اما الاختلاف بينهما يرجع إلى المقتضى العرفي اللاحق بالضمير (Vous) والدال على علو منزلة المخاطب .

خلافا للاقتضاء التخاطبي ، لايتصف الاقتضاء العرفي بأي من الخصائص التي يتميز بها الأول . وبالفعل ، فالمقتضيات العرفية هي غير قابلة للنسخ non-cancellable، إذ أنها لاتعتمد على افتراضات assumption حول طبيعة السياق يمكن إلغاؤها . وهي كذلك قابلة للانفكاك detachable لأنها لاتتعلق إلا بمفردات لفظية مخصوصة ، وهي بالتالي تزول عند ابدال المفردات بألفاظ مرادفة لها . فهكذا مثلا ، عند إحلال واو العطف محل «لكن» يبطل مقتضى التنافر بالرغم من بقاء شروط الصدق ذاتها .

وأخيرا فالمقتضيات العرفية لايمكن حسبانها Calculated بالاستعانة بقواعد تداولية ومعلومات سياقية ، لأنها حاصلة بالعرف والاتفاق . فهكذا مثلا ليس من طريقة تخولنا الاستدلال على تنافر وتعاند بين القضيتين المعطوفتين بـ «لكن» انطلاقا من معرفة شروط صدق هذه الأداة . لذلك ، فإنه من المتوقع ان يكون مضمون المقتضيات العرفية محدودا نسبيا .

علاوة على أنواع المقتضيات التي سلف ذكرها ، توجد أنواع أخرى غير عرفية ، تنجم عن قواعد ومبادىء مختلفة . فثمة قواعد آداب principles of politeness تنتج مقتضيات معقدة جدا . وعلى العموم كل ضوابط يؤخذ بها في استعمال اللغة ، يقابلها مقتضيات تنجم إما عن اتباع هذه الضوابط أو عن استغلالها .

من هذا التشعب لأنواع المقتضيات يظهر لنا ان المضمون المشروط بالصدق لتلفظ ما ، أي المنطوق باصطلاح غرايس ، لايشكل سوى جزء ضئيل من المعنى التام لهذا التلفظ :



المراجع

فاخوري ، عادل ، اللسانية التوليدية والتحويلية ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٨ .

Brown, P. and Levinson, S,. **Universals in language usage: Politeness. Phenomena.** in E. Goody, Questions and politeness, Cambridge, 1978.

Ducrot, O., **Les echelles argumentatives**, paris, Minuit, 1980

Grice, H.P. **Meaning, philosophical Review**, 67, 1957

————, **Logic and Conversation**, Harvard Univ. 1967. Halvossen. P., **the Syntax and Semantics of. Cleft Construction, Austin: Univ of texas, 1978**

Horn, L.R., On the Semantic Properties of the Logical Operators in English. Indiana Univ. 1972.

Jacques, F., **Dialogiques**, Paris, PUF, 1979

Karttunen, L.& Peters, S. **Conventional Implicature**, 1979

Keenan, E.O. **The Universality of conversational Implicature.** In: **language in Society**, 5, 67-80, 1976.

Levinson, S., C. **Pragmatics**, Cambridge, 1983

Mc Cawley. J., **Conversational Implicature and the lexicon, 1978**

Recanati, F., **Les enonces performatifs**, Paris, minuit, 1981

Sadock. J., M., **On Testing for Conversational Implicature,** 1978

Schiffer, S.R., **Meaning**, Oxford, 1972

Sperber, D.,& Wilson, D. **Irony and the use**, 1981

Wunderlich, D. **Linguistiche Pragmatik, frankfurt,** 1972

محاولة ألسنية في الأعلال

أحمد الحمو
أستاذ في جامعة تلمسان في الجزائر .

أولا : مقدمة في اللسانيـــات

تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في أن الأولى تقوم على مراقبة الوقائع اللغوية دون أن تفضل بعضها على حساب بعض باسم بعض المبادىء الجمالية أو التربوية، اذ أن علم اللسان يعتمد على الرؤية العلمية وليس على الرؤية الافتراضية التي كثيرا ما لجأت اليها علوم القواعد القديمة انطلاقا من معيار الخطأ والصواب. لذلك تقف الألسنية الحديثة ذات الرؤية العلمية المجردة على النقيض من علم القواعد التقليدي ذي الرؤية المعيارية الافتراضية، وهي رؤية لم تنج منها قواعد لغة من اللغات بما في ذلك علم النحو العربي ـ كما سيتضح لنا في سياق هذه الدراسة ـ على الرغم من اعترافنا بالمجهودات الهائلة التي بذلها علماء النحو والصرف العرب مما يندر لها نظير في اللغات الأخرى .

كذلك تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في نظرتها الى اللغة باعتبارها في المقام الأول أصواتا لغوية تآلفت ضمن نسق معين، وهذه الصفة الصوتية للغة هي التي تحظى باهتمام الباحثين الألسنيين. أما الكتابة فهي أمر طارىء على اللغة وحديث العهد نسبيا. لقد وجدت اللغة البشرية بصيغتها الصوتية منذ مئات آلاف السنين، ومازال معظم البشر حتى اليوم يتكلمون دون أن يستطيعوا القراءة والكتابة؛ ثم إن المرء يتعلم كيف يتكلم قبل أن يتعلم كيف يقرأ، واستعمال الكتابة أمر لاحق على استعمال اللغة وليس العكس. ومن المدهش حقا أن نجد بهذا الخصوص واحدا من علماء العربية القدامى قد توصل الى هذه الحقيقة الهامة في دراسة اللغة، وهو ابو الفتح بن جني، حيث ذكر في كتاب «الخصائص» : «باب القول على اللغة وما هي : اما حدها فانها

أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »[1]. وقوله إنها «أصوات» يعني أنه يستبعد جانب الكتابة في دراسة اللغة، تماما كما يفعل الدرس اللغوي الحديث. لكن هذا الاكتشاف المثير لابن جني لم يترك أثرا في الدرس اللغوي عند علماء العربية القدامى، ربما لأنه جاء متأخراً زمنياً، حيث عاش ابن جني في القرن الرابع الهجري، اي بعد ان كان علم النحو العربي قد اختط طريقه وتصلب عوده. وعلى العموم سوف نرى ان ابن جني قد توصل بمجهود فردي إلى عدد من الحقائق العلمية التي تطابق الى حد بعيد ما يقرره الدرس اللغوي الحديث والتي خالف بها علماء عصره ومن سبقه دون أن يستطيع مع ذلك تعديل مسار الدرس اللغوي عند علماء العربية.

هناك نقطة أخرى أبرزتها اللسانيات الحديثة، وتنطلق من سابقتها، هي ان اللغة مجموعة من الدلائل. إن كل لفظة أو عبارة هي دليل لغوي، ولهذا الدليل اللغوي وجهان: وجه صوتي ويسمى الدال، ووجه قيمي هو المدلول، أي قيمة الدليل ومعناه. فاذا تغير الدال أو جزء منه استتبع ذلك تغير في المدلول. وعلى سبيل المثال ليس الفرق بين (كَتَبَ) و (كَاتَبَ) هو فقط في الصورة الكتابية من حيث زيادة حرف الألف في الثانية، بل هو فرق صوتي قبل كل شيء أي أنه اختلاف الدال في الأولى عن الدال في الثانية. ويشتمل الدال في الأولى على ألف قصيرة (الفتحة) تلي فاء الفعل، بينما يشتمل الدال في الثانية على ألف طويلة تلي فاء الفعل، أي أن الفرق هو في طول المصوت الداخلي الذي يلي فاء الفعل، فهو صوت قصير في الأولى وطويل في الثانية، وهو فرق طفيف كما نرى. لكن هذا التغير الطفيف في الدال أدى الى تغير في المدلول، اذ ان مدلول (كَتَبَ) غير مدلول (كَاتَبَ). لكن علم النحو العربي لم ينظر الى المسألة من جانبها الصوتي ليبحث عن الأثر الذي يحدثه تغير الدال في المدلول، بل اكتفى بمحاولة استنباط القواعد التي تضبط تغير الصوت. ولذلك نظر إليها من جانبها الكتابي فقط[2].

هذا الموقف الذي اتخذه علماء النحو والصرف في وضع قواعد العربية، أي الرؤية المعيارية الافتراضية والوقوع تحت تأثير خداع الكتابة، هو ما سوف يطبع الدرس اللغوي عندهم وهو الذي سوف يؤدي الى التعقيد الذي تعرفه اليوم قواعد اللغة العربية.

ثانيا : الاعلال من منظور لساني

ولايضاح هذا الواقع اخترنا مسألة في علم الصرف ما زالت تثير حتى اليوم كثيرا من اللغط حولها وتسبب للدارسين صعوبات جمة، وهي مسألة الاعلال. وقد سمي الاعلال كذلك نسبة الى حروف العلة، وهي الواو والياء والألف ثم يلحقون بها الهمزة. أما أنها حروف علة فلأنها كما يقول الاستراباذي «لا تسلم ولا تصح، أي لا تبقى على حالها في كثير من المواضع عند مجاورتها لما يخالفها من الحركة والحرف، فهي كالعليل المنحرف المزاج المتغير حالا بحال»[3]. وواضح من هذا التعريف أنه لا يستجيب لطبيعة اللغة، وهي طبيعة فيزيائية قبل كل شيء، فكلام

(١) ابو الفتح عثمان بن جني : الخصائص . تحقيق محمد علي النجار (دار الكتاب العربي بيروت (بلا تاريخ)) ، ج ١ ص ٣٣ .
(٢) للمزيد من المعلومات حول هذه القضايا اللسانية ، انظر : اندريه مارتينه : مبادىء اللسانيات العامة ـ ترجمة د . أحمد الحمو (منشورات وزارة التعليم العالي ـ دمشق ١٩٨٥) ، ص ١١ و ص ١٩ .
(٣) رضي الدين الاستراباذي : شرح الشافية . نقلا عن د . عصام نور الدين : أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب . (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٢) ، ص ٢٠٨ .

أصوات اللغة أشخاص آدميون يصيبهم الاعتلال والمرض وتعتري أمزجتهم انحرافات وتقلبات. لذلك ترفض اللسانيات الحديثة مثل هذه النظرة وترى أصوات الواو والياء والألف وكذا الحركات على أنها مصوّتات بخلاف بقية أصوات اللغة كالسين والميم التي تعتبرها من الصوامت. كذلك لا تميّز النظرة الحديثة بين الواو والياء والألف من جهة وبين الضمة والكسرة والفتحة من جهة أخرى الا في طول المدة الزمنية، فتعتبر الأولى مصوتات طويلة وتعتبر الثانية مصوتات قصيرة. أما الهمزة التي ألحقها النحاة العرب بحروف العلة في مسألة الاعلال فسوف نرى لاحقا أنها لا تدخل في عداد المصوتات. بل هي من الصوامت.

ومما يجدر ذكره هنا أن ابن جني قد تنبه الى الطبيعة الواحدة لكل من حروف المد (حروف العلة) والحركات، حيث ذكر في «باب مضارعة الحروف للحركات، والحركات للحروف» من كتاب الخصائص : «أن الحركة حرف صغير، ألا ترى أن من متقدمي القوم من كان يسمي الضمة الواو الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والفتحة الالف الصغيرة». ثم يقرر: «فاذا ثبت أن هذه الحركات أبعاض للحروف ومن جنسها، وكانت متى أشبعت ومطلت نمت ووفت جرت مجرى الحروف»[4].

لكن النحاة العرب اعتبروا ان الحركات خارجة عن الكلمة وذات قيمة ثانوية، فعاملوها غير معاملتهم لحروف المد. وسوف نرى لاحقا انهم أخطأوا في ذلك مما أدى بهم الى استنباط قواعد غير دقيقة. كذلك سيتضح لنا في سياق هذا البحث أن الحركات تقوم بوظيفة مطابقة لوظيفة حروف المد، فكلها من المصوتات. وقد تنبه الشيخ الرئيس ابن سينا بدوره في «رسالة أسباب حدوث الحروف» الى الطبيعة الواحدة لحروف المد والحركات، بل ذكر أيضا نسبة الأولى الى الثانية من حيث طول المدة الزمنية في النطق، حيث قال: «ولكني أعلم يقينا ان الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف الى حرف. وكذلك نسبة الواو المصوتة الى الضمة، والياء المصوتة الى الكسرة»[5]. واذا كان ابن سينا لم يقرر بشكل نهائي نسبة المصوت الطويل الى المصوت القصير من حيث المدة الزمنية، أهي ضعف أم أضعاف، فإن الرأي قد استقر حاليا على أن المصوت الطويل يعادل ضعف المصوت القصير وأن الحركة تعادل من حيث زمنها نصف زمن حرف المدّ. لكن ما يلفت النظر أن ابن سينا قد استعمل مصطلح «مصوت» في وصفه لحروف المد والحركات. والحقيقة أنه استعمل ايضا مصطلح «صامت»، مما يعني ان الألسنية الحديثة لا تنفرد بهذا الاكتشاف، أي تقسيم أصوات اللغة الى صامت ومصوت، بل ان من علماء اللغة العرب من عرف هذا التقسيم ولكن دون ان يترك أثرا في مسار علم النحو والصرف. وهكذا ميز ابن سينا بين الواو الصامتة والواو المصوتة، وبين الياء الصامتة والياء المصوتة. أما الألف فلا تكون الا مصوتة. وقد وجد أن الواو الصامتة قريبة من الفاء في مخرجها وأن الياء الصامتة قريبة من السين والزاي.[6] كذلك عرف ابن جني مصطلح «مصوت» واستعمله في كتاب «الخصائص»، حيث ذكر في «باب في مطل الحروف» مايلي : «والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة. وهي الألف والياء والواو»[7].

---

(٤) الخصائص ٢/٣١٥ - ٣١٦

(٥) الشيخ الرئيس ابي علي الحسين بن عبدالله بن سينا : رسالة اسباب حدوث الحروف ، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى علم . (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٨٣) ، ص ٨٥

(٦) المرجع نفسه ، ص ٨٣ - ٨٥

(٧) الخصائص ، ١٢٤/٣

ولنبدأ الآن في مسألة الاعلال. يعرف علماء الصرف الاعلال بأنه «ما تتعرض له أصوات العلة من تغييرات، بحلول بعضها محل بعض، وهو ما يسمونه (الاعلال بالقلب)، أو بسقوط أصوات العلة بكاملها، ويسمونه (الاعلال بالحذف)، أو بسقوط بعض عناصر صوت العلة، وهو ما يسمونه (الاعلال بالنقل أو التسكين)»[٩]. فيما يلي سوف نعالج الحالة الأولى، أي الاعلال بالقلب. وسوف نستشهد على ذلك بمثال ما يسميه الصرفيون «الفعل الأجوف»، أي ماكانت عينه (الحرف الثاني) حرف علة، مثل (قالَ) و (باعَ). يقول الصرفيون أن أصل (قالَ) هو (قَوَلَ) وأن أصل (باعَ) هو (بَيَعَ) وأنه لما تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا، فصارت (قَوَلَ : قالَ) و (بَيَعَ : باعَ). لكنّ الصرفيين لم يوضحوا لنا لماذا تنقلب كل من الواو والياء الى ألف اذا تحركتا وانفتح ما قبلهما. علما بأن مخرج كل مصوت من هذه المصوتات الثلاثة ـ الواو والياء والالف ـ مختلف عن مخرج الأخر. ثم ان تغير المصوت في الدليل اللغوي يعني تغير الدال، وتغير الدال يؤدي الى تغير المدلول ـ كما أسلفنا ـ، أي أن (قَوَلَ) لا يمكن أن تكون (قالَ) لما بينهما من فروق في المصوتات. والأمر الثاني ـ وهو الأهم ـ أن الصرفيين لم يخبرونا من أين جاءوا بهذا الأصل المزعوم (قَوَلَ وبَيَعَ) الذي بنوا عليه نظريتهم. إن لغة العرب لم تعرف هذا النوع من الألفاظ ولم ترد لها أشباه في أخواتها الساميات، علما بأن النحاة والصرفيين القدماء لم يلتفتوا الى اللغات السامية الأخرى، شقيقات العربية ـ في محاولة تقعيد اللغة العربية. وبديهي أن الألسنية الحديثة ترفض أن تبني على ما هو خارج اللغة أو ليس منها، فكيف إذا كان قائما على مجرد وهم او افتراض. ومع ذلك لابد للمرء أن يتساءل من اين جاء الصرفيون بهذا الأصل المزعوم، ولماذا افترضوه دون سواه. الجواب يكمن فيما يسمى عندهم «الميزان الصرفي». لقد وجدوا أن أكثر ألفاظ العربية يمكن ردها الى أصول ثلاثية، أي ذات ثلاثة صوامت، فوضعوا وزن (فَعَلَ) ليشتقوا منه بقية الأوزان. ولذلك سموا الصامت الأول فاء الفعل والثاني عينه والثالث لامه نسبة الى صوامت الوزن (فَعَلَ).

وواضح من ذلك انهم اولوا اهتمامهم للصوامت دون المصوتات التي اعتبروها مهملة لا تثبت على حال ولا يصح الركون اليها. وهكذا راحوا يزنون الافعال والاسماء من مجردة ومزيدة. ولكن عندما وصلوا الى ما يسمى بالفعل المعتل، اي ماكان فيه حرف علة، لم يستجب الوزن الذي وضعوه لهذه الحالة، اذ ان وزن (قالَ) لا يمكن ان يكون (فَعَلَ)، لذلك كان لابد من الزعم والافتراض. لقد وجدوا ان الصوت الثاني في الصيغ الأخرى المشتقة من الفعل الاجوف إما أن يكون واوا كما في (قال يقول قولا)، واما ان يكون ياء، كما في (باع يبيع بيعا). ومن هنا تفتقت أذهانهم عن هذا الاصل المزعوم (قَوَل وبَيَع). ولقد اكد لنا ابن جني توهّم النحاة لذلك الاصل، حيث ذكر في الخصائص :

«هذا الموضع كثير الايهام لاكثر من يسمعه، لاحقيقة تحته، وذلك كقولنا: الاصل في قام قوَم وفي باع بيع.. وليس الامر كذلك، بل بضده، وذلك انه لم يكن قط مع اللفظ به الا على ما تراه وتسمعه.

وانما معنى قولنا : انه كان اصله كذا : انه لوجاء مجيء الصحيح ولم يُعَلل لوجب ان يكون مجيئه على ما

---

(٩) د. عبدالصبور شاهين : المنهج الصوتي للبنية العربية (مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠) ، ص١٦٦ . وانظر أيضا الشيخ أحمد الحملاوي : شذا العرف في فن الصرف (القاهرة ١٩٦٩) ص٥٨ وص١٦٢

ذكرنا . فأما ان يكون استُعمل وقتا من الزمان ، ثم انصرف فيما بعد الى هذا اللفظ فخطأ لا يعتقده احد من اهل النظر»[٩].

الا ان هذا الاصل المزعوم قد أوقعهم في تعقيدات لا حصر لها ، حيث واجهوا من الكلمات ما تحققت فيه شروطهم دون ان تنقلب الواو او الياء الى الف . لذلك راحوا يحصون الالفاظ ويضعون الشروط والقيود حتى بلغ عددها عشرة شروط[١٠] مما جعل مسألة الاعلال من اعقد مسائل الصرف العربي .

وقد جرت في العصر الحاضر محاولات شتى لتبسيط مسألة الاعلال على يد دارسين عرب وأجانب وفيما يلي سوف نستعرض بايجازاتهم هذه المحاولات قبل ان نعرض لرأينا في هذه المسألة محاولين وضعها في اطارها الصحيح .

رأى فريق من علماء الساميات ان الافعال المعتلة ذات أصول ثنائية وليست ثلاثية وأن اصل (قال) هو (قُلْ) واصل (يقول) هو (يقُلْ) وانما جاءت الالف في (قال) والواو في (يقول) من اطالة الصوت الداخلي القصير - اي حركة القاف - مما جعل هذه الافعال تدخل في نظام الفعل الثلاثي .

والرأي الثاني الذي قال به بعض علماء الساميات لا يبتعد كثيرا عن موقف علماء الصرف العرب .

لقد رأى هذا الفريق أن الافعال المذكورة كانت منذ البدء ثلاثية وأن المصوتات الطويلة (حروف العلة) فيها جاءت نتيجة القلب أو الحذف : إن أصل (قال) هو (قَوَلَ) وأصل (قيل) هو (قُوِلَ) وأصل (يَقُولُ)[١١] . وواضح أن كلا الفريقين قد اعتمد على الظن والتخمين وأن نظرياتهم لم تخرج عن كونها محض افتراض قد يصح وقد لا يصح ، ولذلك لا يمكن الركون الى أقوالهم مهما اظهرت من الحذق والاتساق المنطقي . أخيراً جرت محاولة ثالثة على يد الدكتور عبدالصبور شاهين جمع فيها بين الرأيين السابقين واقترب بذلك كثيرا من الحقيقة . لقد وجد أن أصل (قال) هو (قول) وإنما سقطت الواو في الأصل مما أدى الى التحام المصوتين القصيرين - الفتحة التي على القاف والفتحة التي على الواو - في مصوت طويل واحد هو الألف باعتبار أن الصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين ، أي أن حرف المدّ يعادل حركتين قصيرتين . وقد مثّل ذلك من خلال استعمال الحرف اللاتيني أو الكتابة الصوتية : إن (قَوَلَ) هي qa w ala ، فإذا سقطت الواو (w) اتصلت الفتحتان القصيرتان قبلها وبعدها فصارت الكلمة (قال) : q a a l a ، وكل ما حدث هو اسقاط الواو للتخلص من ثلاثية المقطع في (قَوَلَ) واستبدال مصوت طويل بذلك هو الألف[١٢] . لقد حاول د . شاهين في هذا التفسير أن يستفيد من بعض معطيات اللسانيات الحديثة ، لاسيما ما يتعلق منها بنسبة المصوتات القصيرة الى الطويلة ، الا انه وقع مع ذلك في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الصرفيون القدامى عندما انطلق من اصل مفترض غير موجود ، هو (قَوَلَ) . ولقد رأينا أن هذا الأصل المزعوم لم تعرفه اللغة العربية وأن النحاة قد ابتدعوه من لدن أنفسهم لمطابقة الميزان الصرفي (فَعَلَ) الذي كان أيضا من وضعهم . وفي رأينا أن الحل الأمثل ينبغي أن ينطلق مما هو موجود في اللغة فعلا دون اللجوء الى افتراضات ومزاعم لا أساس لها .

---

(٩) الخصائص ج ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(١٠) انظر شذا العرف ص ١٦٢

(١١) انظر هنري فليش : العربية الفصحى . تعريب الدكتور عبدالصبور شاهين . (دار المشرق - بيروت ١٩٨٣) ، ص ٢٠١ .

(١٢) انظر د . عبدالصبور شاهين . المنهج الصوتي للبنية العربية ، ص ٨٢ - ٨٥ و ص ١٩٢ - ١٩٥

وفي سبيل ذلك سوف نستعرض أولا اسناد الفعل الأجوف الى ضمائر الرفع في الماضي والمضارع ثم نحاول استنباط القواعد التي تضبط عملية التحول التي تطرأ على هذا النوع من الأفعال :

الماضـــي

الشخص / جنس		المتكلم	المخاطب	الغائب
مذكر	مفرد	قلْ ـ تُ بعْ ـ تُ	قلْ ـ تَ بعْ ـ تَ	قالَ باعَ
	مثنى		قلْ ـ تما بعْ ـ تما	قال ـ ا باع ـ ا
	جمع	قلْ ـ نا بعْ ـ نا	قلْ ـ تم بعْ ـ تم	قال ـ و باع ـ و
مؤنث	مفرد		قلْ ـ تِ بعْ ـ تِ	قال ـ تْ باعَ ـ تْ
	مثنى		قلْ ـ تما بعْ ـ تما	قال ـ تا باعَ ـ تا
	جمع		قلْ ـ تنّ بعْ ـ تنّ	قلْ ـ نَ بعْ ـ نَ

المضـــارع

الشخص / جنس		المتكلم	المخاطب	الغائب
مذكر	مفرد	أ ـ قولُ أ ـ بيعُ	تَـ ـ قولُ تَـ ـ بيعُ	يَـ ـ قولُ يَـ ـ بيعُ
	مثنى		تَـ ـ قول ـ ان تَـ ـ بيع ـ ان	يَـ ـ قول ـ ان يَـ ـ بيع ـ ان
	جمع	نَـ ـ قولُ نَـ ـ بيعُ	تَـ ـ قول ـ ون تَـ ـ بيع ـ ون	يَـ ـ قول ـ ون يَـ ـ بيع ـ ون
مؤنث	مفرد		تَـ ـ قول ـ ين تَـ ـ بيع ـ ين	تَـ ـ قولُ تَـ ـ بيعُ
	مثنى		تَـ ـ قول ـ ان تَـ ـ بيع ـ ان	تَـ ـ قول ـ ان تَـ ـ بيع ـ ان
	جمع		تَـ ـ قُلْ ـ نَ تَـ ـ بِعْ ـ نَ	يَـ ـ قُلْ ـ نَ يَـ ـ بِعْ ـ نَ

ان نظرة فاحصة على صيغ الفعل الماضي سوف تكشف لنا بوضوح تام أنها تشترك في الأعم الأغلب بجذر واحد هو (قُلْ . . qul) ، ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى صيغ الفعل الماضي عند اسناده الى الشخص الغائب، حيث يبدو أن جذره هو (قال qal) باستثناء جمع الاناث، حيث يعود الجذر الى حالته الأصلية (قُل . .). لنلق الآن نظرة ثانية على صيغ الفعل المضارع وسوف نرى أنها تشترك جميعا بجذر واحد هو (: . قُول . . qul) باستثناء جمع الاناث في المخاطب والغائب، حيث أن جذرها هو جذر الماضي (قُلْ . .) . إذا استثنينا الآن ـ وبصورة مؤقتة ـ مسألة تصرف الفعل الماضي مع الشخص الغائب لتبين لنا أن للفعل الأجوف جذرين، واحداً للماضي هو (قُلْ . .) وآخر للمضارع هو (. . قول . .) وأنه لا فرق بينهما إلا في طول الصوت الداخلي، فهو قصير في جذر الماضي وطويل في جذر المضارع. ثم إن هذين الصوتين من جنس واحد : حركة الضمة في جذر الماضي وحرف المد الواو في جذر المضارع. وتبعا لذلك نستطيع أن نقرر الآن أن جذر المضارع قد نتج عن إطالة الصوت الداخلي القصير في جذر الماضي : .

قُلْ ← قُول ، مما يعني أن الواو أو الياء اللتين قامت من أجلهما أكثر قواعد الاعلال ليستا أصليتين في
qul qul

الكلمة ، بل نشأتا عن إطالة الصوت القصير في الجذر الأصلي . وسوف يتأكد لنا ذلك لاحقا من خلال استعراض بقية المشتقات .

لنعد الآن إلى جذر الماضي مع الشخص الغائب (قال)، الذي يمتاز عن مثيله مع المتكلم والمخاطب بوجود حرف ألف في وسطه، فما هي هذه الألف ومن أين جاءت ؟

لكي نقرر في أمر هذه الألف ينبغي أن نقارن بين صيغة الماضي عند اسناد الفعل الى الشخص الغائب وبين صيغته عند اسناده الى المتكلم والمخاطب .

وهنا نلاحظ أن صيغته في الحالة الثانية تتألف من الجذر (قُلْ . .) مضافا إليها لاحقة تتغير حسب الشخص والعدد والجنس . فاللاحقة (. . نا) في (قُلْنا) مشتقة من ضمير الرفع المنفصل (نحن)، واللاحقة (. . تَ) في (قلتَ) مشتقة من (أنتَ) أو أنها صيغة مختصرة من هذا الضمير . وكذلك فإن اللاحقة (. . تما) في (قُلْتما) مشتقة من الضمير (أنتما)، واللاحقة (. . تُم) في (قُلْتم) من الضمير (أنتم)، و(. . تِ) في (قُلْتِ) من الضمير (أنتِ) و (. . تنَّ) في (قُلْتنَّ) من الضمير (أنتنَّ) .

هذا يعني أن اللواحق المذكورة هي صيغ مختصرة من ضمائر الرفع المنفصلة وأنها تدل على الشخص والعدد والجنس . أما في حالة اسناد الفعل الماضي الى الشخص الغائب فإن اللواحق أمرها مختلف . وباستثناء (نَ) أي نون النسوة في (قُلْنَ) ـ وهي صيغة مختصرة من (هنَّ) فإن بقية اللواحق لا تدل على الشخص بل على الجنس والعدد فقط . ان (. . تا) في (قالَتا) تدل على التأنيث والتثنية، لكنها لا تدل على الغيبة . وكذلك (. . تْ) تاء التأنيث في (قالَتْ) تدل على التأنيث والافراد ولا تدل على الشخص الغائب ولا علاقة لها بضمير الرفع (هي) مثلما لا علاقة للاحقة (كَكَه تا) في (قالتا) بضمير الرفع (هما) .

أما اللاحقة (. . و) في (قالوا) فإنها ليست أكثر من علامة لجمع الذكور سواء في الأفعال أو في الأسماء. وإذا كانت تقترن في الأسماء مع النون إلا أنها قد تفقدها في حالات معينة معروفة. ثم إنها تقترن بالنون في الفعل المضارع (يقولونَ).

هذا يعني أن وجود النون أو عدمه لا يغير شيئا من مدلول (. . و) والتي تدل على الجنس والعدد دون الشخص. ويكفي أن نشير الى أنها تدل في المضارع على جمع الذكور للشخص الغائب وللشخص المخاطب، أي أنها لا تختص بشخص دون شخص مما يؤكد أنها لا تحمل دلالة على الشخص. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن اللاحقة (. . ا) في (قالا) التي تدل على التثنية، ولذلك سماها القدامى (ألف الاثنين). وهي تدل على التذكير لخلوها من تاء التأنيث مقارنة مع اللاحقة (. . تا) في (قالتا). أخيرا يبقى لدينا الصيغة (قالَ)، وهي صيغة قد خلت ظاهريا من لاحقة تضاف اليها لتدل على مادلت عليه اللواحق الأخرى عند اسناد الفعل إلى الشخص الغائب .

لكن الحقيقة ان صيغة (قالَ) ليست خالية تماما من اللواحق ، إذ إن الفتحة التي في آخر الفعل هي لاحقة حقيقية تدل على مادلت عليه زميلاتها من اللواحق الأخرى . فإذا كانت الألف ـ وهي مصوت طويل ـ تدل على التثنية فلماذا لاتدل الفتحة ـ وهي مصوت قصير ـ على الافراد ، علما بأن الفتحة تعادل نصف الألف وهي من جنسها كما رأينا . وإذا كان المرء يجد صعوبة في قبول هذه الفكرة فلأن علم الرسم العربي يبرز المصوتات الطويلة دون القصيرة ، أي أننا نكتب الألف دون الفتحة وكذلك الواو دون الضمة ومثلها الياء دون الكسرة . أما من حيث النطق فلا تقلّ الوظائف الطويلة التي تؤديها المصوتات القصيرة في شيء عن الوظائف التي تؤديها مثيلاتها من المصوتات الطويلة . وبالتالي لا مناص لنا أن نقر بأن الفتحة في (قالَ) هي لاحقة حقيقية تدل على مادلت عليه بقية اللواحق مع الشخص الغائب ، أي على الجنس والعدد . وهنا لابد أن يرتسم في ذهننا السؤال المشروع التالي : إذا كانت هذه اللواحق الخمسة ـ باستثناء نون النسوة ـ تدل على الجنس والعدد فقط ، فما الذي يدل على الشخص الغائب إذن ؟ إذ لابد من دالّ يدل عليه . وجوابنا أن الألف التي في وسط الفعل (قالَ) هي الدال الممكن الوحيد على الشخص الغائب . ونستطيع أن نبرهن على ذلك بأنه حيث دلّت اللواحق على الشخص لم تظهر هذه الألف . فهي لم تظهر عند اسناد الفعل إلى الشخص المتكلم لأن لواحق الفعل تدل عليه بالمثل ، بل لم تظهر عند اسناد الفعل إلى الشخص الغائب في جمع الاناث لأن نون النسوة قد دلت عليه .

ماذا يعني ذلك ؟ يعني أن الالف دخيلة على الفعل مثلما أن اللواحق دخيلة عليه أيضا . أي أن الالف لم تنشأ عن انقلاب الواو في (قَوَلَ) ولا عن انقلاب الياء في (بَيَعَ) ، بل أضيفت هذه الألف إلى الفعل من خارجه ، وهذا يلغي فكرة (الاعلال بالقلب) من الأساس . وقد رأينا سابقا أن الواو بحدّ ذاتها ليست أصيلة في الفعل بل هي ناشئة عن اطالة المصوت الداخلي القصير ـ أي الضمة في (. . قُلْ) ـ لتصبح مصوتا طويلا في جذر المضارع ، أي واوا في (. . قُول . .) ، وبالتالي ليس من شأنها أن تنقلب أو تتحول بل هي خاصة بجذر المضارع وحده .

لقد توصلنا حتى الآن إلى فكرتين أساسيتين جديدتين بشأن الاعلال ، تقوم الأولى على أن حرف المدّ في جذر المضارع قد نشأ عن إطالة المصوت الداخلي القصير في جذر الماضي ، وليس عن أصل مزعوم مثل (قَوَلَ) و (بَيَعَ) .

وتقوم الفكرة الثانية على أن ـ الألف في (قالَ) و (باعَ) دخيلة على جذر الفعل وتؤدي وظيفة محددة هي الدلالة على الشخص الغائب لخلوِّ اللواحق من هذا المدلول . فيما يلي سوف نتوسع قليلا في شرح هاتين الفكرتين : بخصوص مبدأ استخلاص بعض صيغ العربية من بعض عن طريق إطالة المصوتات الداخلية القصيرة استطاع هنري فليش [١٣] أن يحصر الصياغة الأسمية في اللغة العربية في سبع صيغ أساسية خالية تماما من المصوتات الطويلة وبين كيف أن اللغة العربية قد طورت من هذه الصيغ السبع أخرى كثيرة يبلغ عددها سبعا وعشرين صيغة ، وذلك عن طريق ما أسماه «التحول الداخلي» أي من خلال اشباع المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلا . كما بيَّن أن الأمر نفسه شائع في صيغ الأفعال وأن بعض الصيغ قد انشقت من بعض بواسطة إطالة المصوت الداخلي القصير ، مثل : فَعَلَ . فاعَلَ ، تفعَّل . تفاعَل [١٤] ، مما يشير الى أن الظاهرة شائعة جدا في اللغة العربية وأننا لم نأت ببدعة في اللغة حينما نسبنا أصل جذر المضارع إلى جذر الماضي . ثم إن العربية قد اتبعت هذا المنهاج مع الصوامت مثلما اتبعته مع المصوتات .

أليست صيغة (قتَّل) مشتقة من صيغة (قتَل) وذلك من خلال تضعيف الصامت الأوسط في الفعل ، أي من خلال ما يسمى تشديد الحرف ؟ وقياسا على ذلك فإن إطالة المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلاً هي ظاهرة مشابهة ، وما ينطبق إذن على الصامت ينطبق أيضا على المصوت . لقد انشقت (قاتَل) من (قتَل) بواسطة اشباع الفتحة التي تلي الصامت الأول فانقلبت إلى ألف ، وكذلك انشقت (قتَّل) من (قتَل) بواسطة مضاعفة الصامت الثاني ، أي أن اشباع الفتحة في (قاتَل) يشبه تشديد التاء في (قتَّل) ، فهي تؤدي كلها في نهاية المطاف إلى مضاعفة عنصر صوتي داخل النسج ، سواء أكان صامتا أم مصوتا . وما يقال هنا عن التضعيف ينطبق بالطريقة نفسها على قُل . . ← قُول . . أو بِع ← بيع . . . ، مما يعني أن جذر المضارع مستنتج من جذر الماضي بواسطة اطالة أو مضاعفة المصوت الداخلي القصير . ونستطيع بطريقة معكوسة أن نبرهن على أن الصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين . لقد عرف عن بعض العرب أنهم يعمدون في حالة المقطع المديد (صامت + مصوت طويل + صامت مضعف) إلى تقسيم الصوت الطويل الى مصوتين قصيرين منفصلين بواسطة همزة ، فبدلاً من قراءة (ولا الضالّين) يقرؤون (ولا الضَّألّين) حسب رواية ابن جنّي [١٥] . هذا يعني أننا نستطيع تجزئة المصوت الطويل إلى مصوتين قصيرين مثلما نستطيع تجزئة الصامت المضعف إلى صامتين متماثلين .

أما بخصوص المبدأ الثاني في أن الألف في (قالَ) و (باعَ) دخيلة على جذر الفعل وليست ناشئة عن انقلاب الواو أو الياء ، فهناك أكثر من شاهد على ذلك . إن الألف التي في اسم الفاعل ، مثل : قائل وبائع ، هي الألف نفسها التي في الفعل الماضي (قال) و(باع) ، أي أن تلك الألف تدل على الفاعل ولا شيء غيره . وقد تنبه قديماً إلى ذلك ابن مضاء الأندلسي في كتابه «الرد على النحاة» عندما ذكر أن النحاة يقولون في مثل (زيد ضارب عمرا) ، أن في (ضارب) ضميرا مستترا تقديره هو فاعل ، لكن ابن مضاء يرى أن (ضارب) تدل على الصفة وصاحبها فلا داعي للتأويل [١٦] .

---

(١٣) هنري فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٦ وما يليها .
(١٤) المرجع نفسه ، ص ١٤٨ وما يليها .
(١٥) الخصائص ج ٣ ، ص ١٤٧
(١٦) ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٤٧) ، ص ١٠٠

وصاحب الصفة هو الفاعل . وإذا كان ابن مضاء لم يحصر الدالّ على الفاعل في الألف وتركه بلا تحديد ، إلا أنه اقترب كثيرا من الصواب عندما رأى أن شيئاً ما في اسم الفاعل يدل عليه وأنه لا حاجة بالتالي إلى تقدير ذلك الفاعل تقديراً . أما الصرفيون فيقولون بأن أصل (قائل) هو (قاوِل) وأصل (بائع) هو (بايِع) وأن الهمزة قد انقلبت عن الواو في (قاوِل) وعن الياء في (بايِع) ، وكانوا قبل ذلك قرروا بأن الألف في (قال) قد انقلبت عن الواو في (قَوَلَ) كما انقلبت في (باع) عن الياء في (بيع) ، مع أن الواو في (قاوِل) هي الواو نفسها في (قَوَلَ) والياء في (بايِع) هي الياء نفسها في (بَيَعَ) .

كيف اذن انقلبتا الى ألف في (قال) و (باع) بينما انقلبتا إلى همزة في (قائل) و (بائع) ، علماً بأن الألف لم تزل قائمة في هاتين الصيغتين الأخيرتين ؟ ان اطراد القاعدة يقتضي أن تكون الألف في اسم الفاعل قد انقلبت عن الواو والياء وليس الهمزة . لكن الحقيقة أنه لا الألف ولا الهمزة قد انقلبتا عن الواو أو الياء المفترضتين . ويبدو أن هناك من الصرفيين من تنبه إلى ذلك فابتدع تفسيرا مختلفا ، وهو أن الهمزة في (قائل) و (بائع) قد انقلبت عن الألف في (قال) و (باع) وليس عن الواو في الصيغة المفترضة (قاوِل) أو عن الياء في الصيغة المفترضة (بايِع)[١٧] . ان هذا الافتراض يعني أننا هنا أمام سلسلة لا متهية من الانقلابات التي لا تخضع لقانون ، حيث أن الواو في (قَوَلَ) والياء في (بَيَعَ) قد انقلبتا الى الالف في (قال) و (باع) ثم انقلبت الألف الجديدة نفسها إلى همزة في (قائل) و (بائع) . لكن هذا الفريق من الصرفيين لا يخبرنا من أين جاءت الألف في صيغة اسم الفاعل ، مع أنها تقع في الموقع نفسه الذي تقع فيه الألف في الفعل الأجوف . مما يؤكد أن هذه الألف التي في اسم الفاعل هي الألف في الفعل الأجوف وأنها لن تنقلب بالتالي إلى همزة .

ان هذا الاختلاف في التفسير ناتج عن عدم توصل علماء الصرف إلى حقيقة التغيرات التي تطرأ على المصوتات وإلى عدم فهمهم للطبيعة الفيزيائية لهذه المصوتات . وسوف نعود إلى مسألة أصل الهمزة في سياق هذا البحث . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الألف في الفعل المنقوص هي الألف نفسها التي رأيناها في الفعل الأجوف وفي اسم الفاعل . وسواء أوردت هنا مقصورة أم ممدودة فإن هذا لا يغير شيئا من واقع الأمر ، لأنه شأن من شؤون علم الرسم العربي . ان الألف لاترد في الناقص الواوي أو اليائي إلا في صيغة الماضي عند اسناده إلى الشخص الغائب ، مثل : (قضى) و (بكى) و (دعا) ، باستثناء حالات قليلة تظهر فيها الألف في المضارع أيضا ، مثل : (سعى - يسعى) . هذا يعني أن الألف في الفعل المنقوص تسلك السلوك ذاته الذي رأيناه في الفعل الأجوف . لكنها لا تظهر هنا إلا مع المفرد المذكر ، بينما تختفي مع المثنى والجمع والمؤنث بسبب دخول لواحق العدد والجنس على الفعل . أما مع المفرد المذكر فإن اللاحقة التي تدل على العدد والجنس ، أي الفتحة ، هي ذات طبيعة واحدة كالألف بحيث تندمج معها وتختفي ، لأنه لا يمكن تحريك الألف بالفتحة . فالألف في الفعل المنقوص دخيلة على جذر الفعل وتدل على الشخص الغائب وليست منقلبة عن واو أو ياء .

وكما رأينا في الفعل الأجوف فإن الواو والياء في مضارع الفعل الناقص ليستا أصليتين بل نتجتا عن إطالة المصوت القصير في صيغة الماضي . إلا أنهما تظهران في ماضي الفعل الأجوف في هيئة مصوت قصير ، بينما تظهران في

---

(١٧) انظر عبده الراجحي : التطبيق الصرفي (بيروت : دار النهضة العربية ١٩٨٤) ، ص ٧٦ .

ماضي الفعلِ المنقوص في هيئة حرف صامت . وسوف نرى لاحقا أن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، مما يجعل المبدأ الذي استنبطناه في حالة الفعل الأجوف يصح أيضا في حالة الفعل المنقوص ، أي أن جذر المضارع قد نشأ عن جذر الماضي من خلال اطالة المصوت القصير .

اذا كان المصوت الطويل في جذر المضارع قد نتج عن إطالة المصوت القصير في جذر الماضي ، فما هو أصل الواو والياء الصامتتين في المصدر (قَوْل) و (بَيْع) ؟ ان ما درج علماء الصرف على تسميته بالمصدر ليس مصدراً في حقيقة الأمر بل هو مشتق من جذر المضارع ، مثلما أن جذر المضارع قد اشتق بدوره من جذور الماضي ، اي أن (قَوْل) قد اشتقت من (. . قُول . .) وأن (بَيْع) قد اشتقت من (. . بيع . .) ، مما يعني أننا أمام متوالية اشتقاقية :

جذر الماضي ⟵ جذر المضارع ⟵ الإسم

أو : قُلْ ⟵ قُول ⟵ قَوْل

وتفصيل ذلك كما يلي :

ذكرنا أن جذر المضارع (. . قُول . .) و (. . بيع . .) قد نتج من جذر الماضي (قُل . .) و (بِع . .) وذلك بواسطة اطالة المصوت الداخلي القصير في هذا الأخير . كما ذكرنا أيضا أن المصوت الطويل يعادل ضعفي المصوت القصير ، أي أن المصوت الطويل يتألف من مصوتين قصيرين :

فتحة + فتحة = ألف طويلة
ضمة + ضمة = واو طويلة
كسرة + كسرة = ياء طويلة

ولو نظرنا الآن الى جذر المضارع (. . قُول . .) و (. . بيع . .) لوجدنا أنه يشتمل على مصوت طويل نتج عن اندماج مصوتين قصيرين . وبمقارنة بالاسم (قَوْل) و (بَيْع) سوف يتضح لنا أن النصف الاول من المصوت الطويل في جذر المضارع قد سقط وحل محله مصوت قصير من نوع آخر هو الفتحة ، ولذلك تحركت القاف في (قَوْل) والباء في (بَيْع) بالفتحة . لكن النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع قد بقي على حاله وظهر في هيئة واو صامتة في الاسم وياء صامتة في الاسم الثاني .

ويمكننا تمثيل ذلك على الشكل التالي :

ان جذر المضارع (. . قُول . .) عبارة عن ق + ـُ + ـُ + ل
وكذلك جذر المضارع (. . بيع . .) عبارة عن ب + ـِ + ـِ + ع

وعندما حلّت الفتحة في الاسم محلّ المصوت القصير الأول من جذر المضارع صارت على الشكل التالي :

ق ـَ + ـُ + ل
ب ـَ + ـِ ع

هذا يعني أن الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (بَيْع) ليستا سوى النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع ، وأن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، فكأن (قَوْل) هي في أصلها (قَ ـُ ل) وأن (بَيْع) هي في أصلها (بَ ـِ ع) . ولو جربنا نطقها على هذا الشكل ، أي نطق الضمة دون صامت قبلها ونطق الكسرة دون صامت قبلها أيضا لوجدنا أنه لا يختلف كثيرا عن نطق الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (بَيْع) مع فارق واحد ، هو أننا ننطق في أول الضمة وكذا في أول الكسرة بصوت الهمزة ، وبتسهيل الهمزة نحصل على التوالي على واو صامتة وعلى ياء صامتة ، مما يؤكد أن كلا من الواو الصامتة والياء الصامتة ليستا في الأصل سوى مصوت قصير ، أي ضمة في حالة الواو وكسرة في حالة الياء بعد تسهيل الهمزة التي في أول كل منهما . أما من أين جاءت الهمزة ولماذا ، فهذا ما سوف نشرحه بعد قليل في مبحث الهمزة . ولو أردنا التعبير عن ذلك بلغة اللسانيات الحديثة لقلنا بأن جذر المضارع في (.. قُول ..) و (.. بيع ..) يشتمل على مصوت طويل بينما يشتمل الاسم (قَوْل) و (بَيْع) على مصوت مزدوج مؤلف من مصوتين قصيرين متعارضين : فتحة وضمة في (قَوْل) وفتحة وكسرة في (بَيْع) . وما قلناه عن المتوالية الاشتقاقية :

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم

يمكن التعبير عنه على الشكل التالي :

مصوت قصير ← مصوت طويل ← مصوت مزدوج

بقي أن نشير إلى أن تحول مصوت طويل إلى مصوت مزدوج لا يقتصر في اللغة العربية على الحالة التي نحن بصددها ، بل هنالك حالات أخرى أيضا يحدث فيها مثل هذا التحول . وحالة النصب في الفعل المضارع المعتل الآخر اذا كان منتهيا بالواو أو الياء هي حالة مماثلة يتحول فيها المصوت الطويل إلى مصوت مزدوج . ان فعل (يدعو) ينتهي بمصوت طويل في حالة الرفع ، لكنه ينتهي في حالة النصب (لن يدعوَ) بمصوت مزدوج هو الواو الصامتة والفتحة . وكذلك فعل (يرمي) في حالة الرفع و (لن يرميَ) في حالة النصب . والفرق بين حالتنا السابقة وهذه الحالة هو أنه في حالة الاسم (قَوْل) و (بَيْع) حلّت الفتحة محل النصف الأول من المصوت الطويل في جذر المضارع ، بينما حلّت الفتحة في حالة الفعل المضارع المنصوب (لن يدعوَ) و (لن يرميَ) محلّ النصف الثاني من المصوت الطويل ، أي أن الواو الطويلة والياء الطويلة في الحالة الأولى قد تحولتا إلى فتحة متبوعة بضمة وإلى فتحة متبوعة بكسرة في (قَوْل) و (بَيْع) ، بينما تحولتا في الحالة الثانية إلى ضمة متبوعة بفتحة وإلى كسرة متبوعة بفتحة في (يدعوَ و يرميَ) ، وهكذا نتج في الحالتين مصوت مزدوج .

ثالثا : حقيقة الهمزة

أوضحنا حتى الآن أن فكرة انقلاب الصوتات بعضها عن بعض فكرة غير صحيحة وأنها قد قامت على افتراض وجود أصول متوهمة اخترعها النحاة من بنات أفكارهم لمطابقة الميزان الصرفي الذي وضعوه . كذلك بيّنا أن أقصى ما يمكن أن يحدث للمصوت هو أن يتحول إلى مصوت من جنسه أو إلى مصوت مزدوج ـ كما رأينا آنفا . أما ما خلا ذلك فوهم لا أساس له . ولكن ماذا عن انقلاب الصوتات إلى همزة حسب ادعاء الصرفيين ؟ انهم يقولون بانقلاب

الواو في (قاول) إلى همزة في (قائل) وانقلاب الياء في (بايع) إلى همزة في (بائع) ، أي أنهم يفترضون أصل (قائل) : قاول وأصل (بائع) : بايع انطلاقاً من الأصول المفترضة (قَوَلَ) و (بَيَعَ) . وواضح أن الصرفيين هنا قد لجأوا مرة ثانية إلى الافتراض والظن ، مما ترفضه اللسانيات الحديثة . والأمر الثاني أن الهمزة ليست من جنس المصوتات بل هي من الصوامت ، وهذا مالم ينكره القدماء . لكنهم مع ذلك أخطأوا في فهم الهمزة . وقبل أن نبحث عن أصل الهمزة في أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) سوف نستعرض بايجاز موقف القدماء من الهمزة لتبين الأسباب التي جعلتهم يقعون في الخطأ .

لقد أجمع القدماء تقريبا على أن الهمزة من الأصوات المجهورة ، مع أن الدراسات الصوتية الحديثة لم تترك مجالا للشك في أن الهمزة لا تدخل في عداد المجهورات . ويرى فريق من الدارسين اليوم أن الهمزة صوت مهموس ويفضّل فريق آخر أن يعتبرها لا مجهورة ولا مهموسة [١٨] .

ويبدو أن من أسباب وقوع القدماء في الخطأ أنهم قد أخذوا بما أورده سيبويه في «الكتاب» حول الهمزة دون تمحيص . لقد ذكر سيبويه أن الهمزة واحدة من الأصوات التسعة عشر التي عدّها مجهورة وعدّ من بينها أيضا المصوتات الطويلة الثلاثة : الألف والواو والياء [١٩] ، مما سوّغ له ولمن بعده القول بامكانية انقلاب المصوتات إلى همزة .

ماهي حقيقة الهمزة إذن ؟

ينبغي التأكيد قبل كل شيء أن الهمزة ليست من حروف المباني وأن وجودها أو عدمه لا يغير شيئا من مدلول الكلمة بخلاف بقية أصوات اللغة التي يؤدي استبدال واحد منها بغيره أو سقوطه إلى ظهور نَسْج صوتي جديد يحمل مدلولا مختلفاً . وعلى سبيل المثال ، ان قولنا (يومنون) دون همزة لا يدل على غير ما يدل عليه قولنا (يؤمنون) بنطق الهمزة .

وفي المقابل لو أسقطنا من كلمة (يومنون) حرف النون مثلا لظهر لدينا نَسْج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يومون)* . ولو أبدلنا من الميم قاف لظهر لدينا أيضا نسج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يوقنون) . وهذا ما تدعوه في اللسانيات الحديثة «الوظيفة التمييزية» . وتعني هذه الوظيفة أن غياب صوت لغوي من أصوات النسج الصوتي أو حلول صوت لغوي آخر مكانه يؤدي إلى ظهور نسج صوتي جديد بمدلول جديد ، لأن كل صوت لغوي يميز من خلال وجوده أو عدمه وكذلك من خلال موقعه أيضا بين نسج صوتي وآخر . ولذلك سمّيت وظيفته بالوظيفة التمييزية . أما غياب الهمزة في النسج الصوتي فلا يؤدي الى ظهور نسج صوتيٍّ جديد ولا الى تغير في المدلول الذي يحمله النسج ، لأن وظيفة الهمزة ليست تمييزية بل هي «وظيفة تباينيّة» قبل كلّ شيء . ومعنى الوظيفة التباينية أن الصوت اللغوي يساعد في أن يسهل على السامع عملية تحليل الكلام الى وحدات متعاقبة [٢٠] . ان وظيفة التباين

---

(١٨) انظر كمال محمد بشر : علم اللغة العام ـ الأصوات (القاهرة : دار المعارف بمصر ١٩٨٠) ص ١١٣ .
(١٩) سيبويه . الكتاب (القاهرة : مطبعة بولاق ١٣١٦ هـ) ، ج ٢ ص ٤٠٥
(٢٠) انظر : اندريه مارتينيه ، مبادىء اللسانيات العامة ، ص ٥١ .
* والأصح يومّون .

هذه غالبا ما تكون منوطة بالنبر في أكثر اللغات المعروفة . لكن الهمز في حقيقته ليس الا نوعا من أنواع النبر . وكانت العرب تنبر بأشكال مختلفة منها الهمز والمدّ .

ثم ان تعريف ابن سينا للهمز في «رسالة أسباب حدوث الحروف» يؤكّد هذه الحقيقة فالهمزة عنده «حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير» [٣١]

كذلك فالهمز لغة هو الضغط أو النبر ، لذلك لا عجب ان العرب كانت تسقط الهمز من كلامها في مناسبات كثيرة ، ومنها قولهم [٣٢] «وَيْلُمِّه» بمعنى ويلٌ لأمّه ، وحكاية أحمد بن يحيى قول المرأة لبناتها وقد خلا الأعرابي بهنّ «ألي السَوْ تَبْتَبه» (تريد : أفي السوءة أنتِه) . كما ورد في القراءات اسقاط الهمزة في مواضع عديدة ، منها قراءة الكسائي «بما أنزِليك» (البقرة ٤) وقراءة ابن كثير «انها لَحْدى الكبر» (المدثر ٣٥) . أخيرا ذكر ابن جني أن أصل لفظ الجلالة (الله) هو «الاه» فحذفت الهمزة وأضيفت (ال) التعريف ، وكذلك كلمة (الناس) فأن أصلها «أناس» [٣٣]

الا انه تواجهنا في اللغة العربية ألفاظ تبدو فيها الهمزة أصلية لأوّل وهلة بحيث لا يمكن اسقاطها أو تسهيلها او ابدالها . ويتجلى هذا الامر على نحو خاص عندما تكون الهمزة متحركة ، كما في مطلع الالفاظ التالية : أحوال ، أسرى أو اذا وردت في موقع العين مثل : سأل وسئل وسؤال أو في موقع اللام مثل : بدأ ودرأ وما فتيء .

لنتأمّل نطقنا للاسماء المبدوءة بأداة التعريف (ال) اذا وقعت في أول الكلام ، كقولنا : الرجل ، الباب الخ . . . انه لا يخطر ببالنا أننا نبدأ هنا بنطق الهمزة مع أننا لا نملك نطق صوت الالف في مطلع هذه الالفاظ دون نطق الهمزة في أولها . ذلك ان الهمزة تشكل جزءاً لا يتجزأ من مطلع (ال) التعريف مثلما لا يعمد على الرسم في اللغات الاخرى الى كتابة همزة في مطلع هذا النوع من الصوتات مع ان الهمزة موجودة . ومثال ذلك في الالمانية Achten (احترم) و Essen (أكل) و Irdisch (دنيوي) ، وفي الانجليزية After (بعد) و Us (حالة المفعول من ضمير المتكلم الجمع) و Increase (زيادة) ، وفي الفرنسية Amour (حُبّ) و Eau (ماء) و homour (دعابة) ، وفي الفارسية «است» (يكون) و «ايشان» (هم) و «اسب» (حصان) و «آب» (ماء) . و «اطاق» (غرفة) .

وفي كلّ هذه الامثلة توجد همزة في مطلعها لانها مبدوءة بمصوت . لكن اللغات الاخرى لا تكتب الهمزة بل تكتب المصوت فقط لان الهمزة ليست الا جزءا من المصوت اذا ورد غير مسبوق بصامت . ودليل ذلك ان صوت الهمزة يختفي من مطلع هذه الامثلة جميعا حالما يصبح مصوت المطلع مسبوقا بحرف صامت ، ومثال ذلك في الالمانية ان كلمة Essen (أكل) تصبح Messen (قاس ، كال) اذا دخل عليها الصامت (m) في اولها ولا يبقى فيها اثر للهمزة ، ومثلها في الانكليزية كلمة Increase اذا دخلت عليها an (اداة التنكير) ، وفي الفرنسية تختفي الهمزة من مطلع Amour اذا دخلت عليها أداة التعريف فتصبح l'amour ، وفي الفارسية تختفي الهمزة ايضا من مطلع

(٣١) رسالة اسباب حدوث الحروف ، ص ٧٢
(٣٢) انظر الخصائص ج ٣ ، ص ١٥٠ - ١٥١
(٣٣) المرجع نفسه .

واست» اذا دخلت عليها الهاء فتصبح «هست» (بمعنى موجود) ، مما يشير الى ان ما كان في مطلع تلك الكلمات ليس همزة بل مصوتا وأن الصوامت التي ادخلت عليه تحركت به فاختفى صوت الهمزة .

وقياسا على ذلك فان ما يتوهمه المرء من وجود همزة في (سأل) ومشتقاتها ليس الا مصوّتا داخليا ، اي ان الهمزة في (سأل) هي في حقيقة امرها ذلك المصوت القصير الذي نسميه فتحة والهمزة في (سئل) هي كسرة ، والهمزة في (سؤال) هي ألف ممدودة ليس الاّ .

ولو كتبنا كلمة (سؤال) هكذا «سُآل» بلا همزة فسوف ننطقها بلفظها الاصلي نفسه ، لان الهمزة ليست الا من خداع الكتابة . ويمكننا هكذا تطبيق المبدأ المذكور على بقية الامثلة .

يبقى اخيرا نوع واحد من انواع الهمز اذا ورد في آخر الكلمة بعد الالف ، مثل : ماء ، هواء وغير ذلك ، وقد شرح ابن جني هذا النوع من الهمز بما يقترب كثيرا مما قلناه عن وظيفتها التباينية بالمفهوم اللساني الحديث. لقد ورد في «الخصائص» تحت «باب في مطل الحروف» ما يلي : « والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللّينة المصوتة . وهي الالف والياء والواو . اعلم ان هذه الحروف اين وقعت وكيف وجدت فيها امتداد ولين الا ان الاماكن التي يطول فيها صوتها ، وتتمكن مدتها ، ثلاثة . وهي أن تقع بعدها الهمزة ، أو الحرف المشدد ، أو أن يوقف عليها عند التذكر . فالهمزة نحو كساء ، ورداء ، وخطيئة ، ورزيئة ، ومقروءة ، ومخبوءة . وانما تمكن المد فيهن مع الهمز أن الهمزة حرف نأى منشؤه ، وتراخى مخرجه ، فاذا أنت نطقت بهذه الاحرف المصوتة قبله ، ثم تماديت بهن نحوه طلن ، وشعن في الصوت ، فوفين له ، وزدن في بيانه ومكانه ، وليس كذلك اذا وقع بعدهن غيرها وغير المشدد ، الا تراك اذا قلت : كتاب ، وحساب ، وسعيد ، وعمود ، وضروب وركوب ، لم تجدهن لدنات ، ولا ناعمات ، ولا وافيات مستطيلات ، كما تجدهن كذلك اذا تلاهن الهمز أو الحرف المشدد»[٢٤] . ويستفاد من قول ابن جني ما يلي :

١ ـ ان الهمزة تختلف عن بقية الصوامت في الوظيفة التي تؤديها داخل النسج الصوتي .

٢ ـ ان وظيفتها هي اطالة المصوت الذي يقع قبلها وابرازه أكثر من سواه .

وهذه الوظيفة يؤديها النبر عادة ، وبالتالي فان ابن جني قد أشار هنا بخصوص الهمزة الى ما نعنيه في اللسانيات الحديثة بالوظيفة التباينية . فإذا فهمنا الهمز على أنه نوع من أنواع النبر اتضح لنا لماذا كان الهمز شائعا في بعض لهجات العرب دون بعضها الآخر ، ولماذا رفض الرسول (ﷺ) أن يخاطبه أعرابي «يانبيء الله» لأن الهمز لم يكن شائعا في لهجة قريش[٢٥] . وبما أن هذا هو حال الهمزة ، فما حقيقة وجودها في أسماء الفاعل مثل (قائل) و (بائع) ؟

من المعلوم أن عين اسم الفاعل تكون متبوعة دائما بكسرة ، أي بمصوت قصير اصطلح على تسميته بالكسرة ، مثل (قاتل ، مانع ، طالع ، الخ . . .) . الا أن أسماء الفاعل التي اشتقت من أصل ثنائي أو معتل لا يوجد فيها في مكان العين سوى المصوت القصير ، أي الكسرة . وبما أن الألف في اسم الفاعل قد باعدت بين فائه وبين تلك الكسرة ، صرنا ننطق بالكسرة عارية عن أي صامت قبلها .

(٢٤) الخصائص ، ٣/١٢٤ ـ ١٢٥ .
(٢٥) انظر الخصائص ، ١/٢٨٣ .

وبناء عليه فإن ما يوجد في مكان العين من اسم الفاعل (قائل) و (بائع) هو الكسرة فقط ولا شيء سواها . ونستطيع أن نكتب أسماء الفاعل هذه على الشكل التالي : (قا ـِـ ل) بدلا من (قائل) و (با ـِـ ع) بدلا من (بائع) . لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد هنا همزة ، إلا أن وجودها ليس ناشئا عن انقلاب الواو في (قاوِل) أو انقلاب الياء في (بايِع) ، بل يرتبط بما ذكرناه سابقا عن خصائص الهمز فالهمزة تقوم هنا بوظيفة الفصل بين مصوتين متتابعين : الألف الطويلة والكسرة القصيرة . والسبب الثاني لوجود الهمزة هنا هو أن المرء لا يستطيع لأسباب فيزيولوجية أن ينطق بالمصوت لوحده عاريا عن أي صامت قبله دون أن يبدأ بنطق الهمزة . فلا نستطيع نطق ألف قصيرة (فتحة) ولا طويلة لوحدها دون أن نبدأ بنطق همزة في أولها ، والشيء نفسه ينطبق على الواو والياء سواء أكانتا حرف مدّ أو حركة قصيرة . هذا يفسر ما قلناه آنفا عند الحديث عن أصل الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (بَيْع) ، إذ أن هذين الصوتين ليسا سوى ضمة بعد تسهيل الهمزة الالزامية التي في أولها بالنسبة للواو ، وكسرة بعد تسهيل الهمزة الالزامية التي في أولها بالنسبة للياء . لذلك نستنتج أن الهمزة التي توهمها الصرفيون في عين اسم الفاعل ليست في حقيقة الأمر سوى للصوت القصير غير المسبوق بحرف صامت ، ووجود الهمزة تابع لوجود ذلك الصوت وليس نتيجة انقلاب عن واو أو ياء لا وجود لها أصلا . ولتوضيح هذه الفكرة أكثر سوف نقوم بالتجربة البسيطة التالية :

نأخذ اسم الفاعل (قائل) ونحلله إلى الوحدات الصوتية التي يتألف منها نسجه الصوتي : قائل = صامت (قاف) + مصوت طويل (ألف) + صامت (تاء) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) ولو أسقطنا الآن من هذا النسج الحرف الصامت الذي في موقع العين ، أي التاء ، فإن مايتبقى هو تماما اسم الفاعل (قائل) :

صامت (قاف) + مصوت طويل (ألف) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) = قا ـِـ ل = قائل .

ونستطيع اجراء مثل هذه التجربة على كلمات أخرى ، مثل : (قابل) باسقاط الباء أو (قاحل) باسقاط الحاء ، وسوف نحصل على نتيجة مماثلة .

والأمر نفسه يصح في اسم الفاعل (بائع) . فلو أخذنا اسم الفاعل (بارع) وأسقطنا حرف الراء من موقع العين مع الابقاء على الكسرة التي لحقت بالراء ، فإن مايتبقى هو بالضبط اسم الفاعل (بائع) ، أي (با ـِـ ع) . وهكذا يتضح بكل جلاء أن أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) هي نُسُج صوتية خلا موقع العين فيها من حرف صامت وبقيت الكسرة لوحدها في موقع العين ، وهي الكسرة التي تلحق عادة عين اسم الفاعل في غير المعتل .

ذكرنا آنفا بأن الهمزة صوت مهموس عند بعض علماء الأصوات في العصر الحاضر وغير مجهور ولامهموس عند فريق آخر ، لكنها على أي حال ليست مجهورة . ماذا إذن وقع علماء الصرف العرب في الخطأ حين عدوها مجهورة ؟ أغلب الظن أن سبب ذلك يعود الى ماذكرناه عن طبيعة الهمزة التي يرتبط نطقها غالبا بنطق المصوتات . وبما أن المصوتات مجهورة ، فان نطقها قد أثر في نطق الهمزة فبدت لهم هي الأخرى مجهورة . وهذا ماسهل عليهم القول بإمكانية انقلابها عن المصوتات كما رأينا . ويستطيع كل انسان أن يتفحص بنفسه الجهر والهمس في أي صوت لغوي يشاء . الا يكفي أن يضع المرء ابهامه وسبابته على عنقه حول منطقة الأوتار الصوتية ، فإذا شعر باهتزاز الوترين كان الصوت مجهورا ، وإلا كان مهموسا . ولو جرب أن ينطق باحدى كلمتي (قائل) و (بائع) لشعر بكل وضوح باهتزاز

الوترين الصوتيين في موقع العين ، مما يقدم دليلا اضافيا على أن عين (قائل) و (بائع) عبارة عن مصوت قصير مجهور هو الكسرة .

رابعا : استنتاجات

لقد تطرقنا في سياق هذا البحث إلى أمور عديدة ومختلفة . وفيما يلي سوف نرى مايترتب عليها بالنسبة لعلم النحو العربي :

أولا : ذكرنا بأن الفتحة التي تلحق بنهاية الفعل الماضي في (قالَ) و (باعَ) ليست حركة اعراب أو بناء ، بل هي دال على مدلول هو الافراد والتذكير ، مثلما أن ألف التثنية هي دال بدورها ، ومدلولها التثنية والتذكير . ويترتب على ذلك بأن قول النحاة في إعراب (قالَ) : «فعل ماض مبني على الفتح» قول لا سند له ، لأن هذه الفتحة في نهاية الفعل غير الفتحة التي تلحق بآخر الاسم . وما يصدق على الفتحة هنا يصدق على جميع الحركات التي تلحق بآخر الفعل في اللغة العربية . ان فكرة البناء والاعراب في الأفعال لاتشير إلى أي وظيفة ، اذ مامعنى أن نقول بأن الفعل الماضي مبني على الفتح أو السكون أو ان الفعل المضارع مرفوع بالضمة أو منصوب بالفتحة ؟ ان مثل هذا الكلام لايقود إلى شيء مادام لايشير إلى الوظيفة التي تؤديها الضمة أو الفتحة ولا إلى الوظيفة التي قد يضطلع بها الاعراب أو البناء في الأفعال . كذلك فإن قول النحاة أن الفعل المضارع فعل معرب قول غير صحيح ، لأن الاعراب يعني الرفع والنصب والجر . لكن الفعل المضارع لايكون مجرورا بالكسرة أبدا وكذلك لايكون منونا ، وبالتالي إن الاعراب والبناء صفتان تختصان بالأسماء دون الأفعال ، ولابد إذن من البحث عن المدلولات التي تحملها الحركات عندما تلحق بأواخر الأفعال .

فأما الفعل الماضي فلا تلحق به الفتحة إلا عند اسناده إلى الشخص الغائب ، وقد تعرفنا على المدلول الذي تحمله تلك الفتحة . وفيما عدا ذلك فإن السكون هو الصفة المميزة لآخر الفعل الماضي عند اسناده إلى الشخص المتكلم أو الشخص المخاطب .

وأما الفعل المضارع فيكون على حالات ثلاث : فإما أن تلحق الضمة بآخره ، كقولنا (يقولُ) و (يضربُ) ، وإما أن تلحق الفتحة بآخره ، كقولنا (أن يقولَ) و (أن يضربَ) ، أو أن يكون آخره ساكنا كما في حالة الجزم (لم يقلْ) و (لم يضربْ) .

يقول النحاة بأن الفعل المضارع يكون مرفوعا إذا تجرد من الناصب والجازم . ويترتب على هذا الكلام أن الحالة الطبيعية للفعل المضارع هي الرفع ، وأن النصب والجزم هما حالتان طارئتان على الفعل المضارع . لكن مثل هذا التعليل يسقط من حسابه أي وظيفة يمكن لهذه الحركات أن تشير اليها أو أن تؤديها . والأولى بنا أن نبحث عن هذه الوظائف وتلك المدلولات التي تحملها كل حركة ، فهذه الحركات ليست في حقيقتها إلا دوالّ تدل على مدلولات محددة . ولو أمعنا النظر قليلا في حالة المضارع المرفوع لوجدنا أنه يدل باستمرار على «التقرير والاثبات» شرط ألا تلحق به (قد) التي تفيد التوقع . فقولنا «رأيت محمدا يذهبُ إلى السوق» فيه تقرير واثبات لحدث معين دون ربطه بأي شيء آخر . أما في قولنا : «قلت لمحمد أن يذهبَ إلى السوق» فهذا يعني أن الفعل لم يقع بعد ، وليس هناك

مايؤكد وقوعه مستقبلا ، أي أنه مازال معلقا بظروف مستقبلية . ولذلك نقترح اطلاق صفة «التعليق والاستقبال» على حالة الفعل المضارع المنصوب . وتنطبق هذه الصفة على المضارع المنصوب بأن أو بلن أو باللام سواء أكانت للتعليل أم للجحود .

فكل هذه الحالات تفيد معنى التعليق والاستقبال لحدث معين . أخيرا فإن السكون الذي يلحق آخر المضارع يفيد معنى عدم وقوع الفعل أو الحدث الذي يدل عليه الفعل . وسواء جاء الفعل بعد أدوات النفي أو بعد لا الناهية فإن السكون يشير هنا إلى امتناع حدوث الفعل . ولذلك نقترح اطلاق صفة «الامتناع» على الفعل المضارع اذا لحق بآخره السكون .

ويترتب على هذه النظرة إلى الحركات التي تلحق بالفعل المضارع أمران هاما : أولهما أن النصب والجزم في الفعل المضارع ليسا ناشئين عن أدوات يسمونها أدوات النصب والجزم ، بل عن الوظيفة التي يراد للفعل أن يؤديها في الجملة . فالضمة في آخر الفعل هي دال ومدلوله التقرير والاثبات ، والفتحة هي دال ومدلوله التعليق والاستقبال ، والسكون هو أيضا دال ومدلوله الامتناع . وإذا كنا قد توصلنا إلى ذلك مستعينين بالمعطيات التي وفرتها اللسانيات الحديثة ، فإن بعض القدماء قد توصل إلى ذلك ولكن دون تمكنهم من تقديم برهان على ذلك . ففي معرض حديث ابن جني عن نظرية العامل شكك بالعوامل اللفظية والمعنوية وانتهى إلى القول : «وأما في الحقيقة ومحصول الحديث ، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لالشيء غيره»[26] . والفرق بين ماقرره - ابن جني وبين ماقررناه أن ابن جني قد نسب ظهور الحركات الاعرابية إلى المتكلم ونسبناها نحن إلى الوظيفة التي تؤديها في القول . أما النتيجة فواحدة .

وعندما جاء ابن مضاء القرطبي بعد ذلك بقرنين استند الى كلام أبي الفتح ابن جني واتخذ موقفا مماثلا في كتاب «الرد على النحاة» فقال :

«وقصدي من هذا الكتاب أن أحذف من النحو مايستغني النحوي عنه ، وأنبه على ماأجمع على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لايكون الا بعامل لفظي وذلك بين الفساد . وقد صرح بخلاف ذلك ابن جني وغيره»[27] . لكن ابن مضاء اكتفى بأن نفى فكرة العامل بادلة عقلية ومنطقية دون أن يشرح الوظيفة التي تؤديها تلك الحركات . والأمر الثاني أن تسمية الفعل المضارع لاتشير الى الوظيفة أو الوظائف المنوطة بهذا الفعل في الجملة ، علاوة على كونها غير صحيحة . ان تسمية الفعل الماضي تشير إلى الزمن الذي يقع فيه الفعل ، لكن تسمية المضارع لاعلاقة لها بمسألة زمن الفعل لا من قريب ولا من بعيد ، أي أنها لاتعبر عن الوظيفة المنوطة بهذا الفعل . ثم انها تسمية غير صحيحة لأن المضارع لايضارع غيره في شيء . لقد أطلق النحاة على الفعل المضارع هذه التسمية لاعتقادهم أنه يضارع الاسم - وربما اسم الفاعل بالذات - في حركات الاعراب . وقد رأينا آنفا أن الحركات التي تلحق بآخر الفعل ليست حركات اعرابية كالحركات التي تلحق بآخر الاسم . مثل (كتابٌ وكتاباً وكتابٍ) ، بل هي دوال على مدلولات وظيفية محددة . وبالتالي فإن تسمية هذا الفعل بالمضارع أمر يحتاج لاعادة النظر فيه . لكن هذه التسمية تشير إلى الأساس غير الوظيفي الذي قام عليه النحو العربي منذ بدايته ، وكنا قد أشرنا اليه في بحث سابق[28] . وهو أن النحو العربي قد قام في الأساس لضبط حركة أواخر الكَلِم عندما بدأ اللحن يتفشى على السنة

---

(٢٦) الخصائص ١/١٠٩، ١١٠ .

(٢٧) ابن مضاء : الرد على النحاة ، ص ٨٨ .

(٢٨) انظر مجلة «المستقبل العربي» ، العدد رقم ١٠٦ تاريخ ١٢/١٩٨٧ بعنوان : «حول واقعنا اللغوي» ، ص ٩٧ وما يليها .

الموالي من غير العرب في البلاد التي خضعت للحكم الاسلامي ، وذلك خوفا من ضياع اللغة العربية في تلك الاقطار وخشية من وقوع القرآن الكريم تحت طائلة التحريف والتزوير . ولقد نزل القرآن بلغة معربة يرتبط فيها مدلول الكلمة داخل الجملة بحركتها الاعرابية . فاذا تغيرت الحركة تغير المدلول . واذا كان ذلك الحافز لحركة تقعيد اللغة العربية أمرا مقبولا في البداية ، الا أنه شكل فيما بعد عائقا أمام فهم صحيح لطرائق وآليات عمل هذه اللغة ، وهو أمر مازلنا نعاني منه حتى اليوم .

ثانيا : ذكرنا أن مصوت الألف يدل في الفعل الأجوف والناقص وكذا في اسم الفاعل على الشخص الغائب ، أي أن مصوت الألف هنا هو بمثابة دال على الفاعل . لكن هذا يتعارض مع فكرة أساسية في النحو العربي هي فكرة الضمير المستتر . لقد دأب النحاة على أن يعربوا (قالَ) بأنه «فعل ماض مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو في محل رفع فاعل» . ومادام لدينا دال بارز ومنطوق على الفاعل هو مصوت الألف بالإضافة إلى لواحق الفعل ، فما حاجتنا إلى دال لانراه ولا نلمسه وإنما نفترض وجوده افتراضا . لكن نفي فكرة الضمير المستتر يفرض علينا الاجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بمواضع الضمير المستتر الأخرى :

١ ـ كان مصوت الألف بالاضافة إلى لواحق الفعل هو الدال على الفاعل في الفعل الأجوف والناقص ، فما هو الدال على الفاعل في الفعل الماضي الصحيح اذا أسند إلى ضمير الغائب ؟

٢ ـ ماهو الدال على الفاعل في بعض مواضع الفعل المضارع حيث يقول النحاة بوجود ضمير مستتر ؟

بخصوص الفعل الصحيح مثل (صمتَ وضربَ) يبدو للوهلة الأولى أن لادال على الشخص الغائب لأن لواحق الفعل عند اسناده إلى الشخص الغائب لاتدل الا على العدد والجنس . فما هو الدال على الشخص إذن ؟ والجواب هو «الدالّ صفر» . والدال صفر بالمفهوم اللساني الحديث يعني خلو احدى الصيغ من دال منطوق بالمقارنة مع صيغ أخرى تشتمل على دالّ خاص بها . فإذا كانت صيغ الفعل الماضي تشتمل على دالّ على الشخص عند إسناده إلى ضمائر المتكلم والمخاطب ، وهو الدال المتمثل باللواحق ، فإن خلو صيغة الفعل الماضي من دال خاص بها عند إسناده إلى الشخص الغائب هو دالّ بحد ذاته ، وهذا مايسمى بالدال صفر . وهنا قد يرد إلى الذهن الاعتراض التالي : ماالفرق إذن بين أن نقول بالدال صفر أو بالضمير المستتر ، مادام الدال على الشخص الغائب غير موجود في الحالتين . والجواب على ذلك أنه اختلاف من حيث المبدأ . فالقول بالضمير المستتر يعني القول بوجود شيء غير موجود أصلا ، أما القول بالدال صفر فهو إقرار بعدم الوجود ، ومن ثم اعتبار عدم الوجود هذا دالاً بحد ذاته .

أما بخصوص الفعل المضارع فإن النحاة حددوا مواضع الضمير المستتر كما يلي :

١ ـ عند اسناد الفعل إلى ضمير المتكلم .
٢ ـ عند اسناده إلى ضمير المخاطب المفرد المذكر .
٣ ـ عند اسناده إلى ضمير الغائب المفرد . وواضح من هذا التحديد أن النحاة ينظرون إلى مانعتبره لواحق الفعل على أنها دوال على الفاعل ، ولذلك أطلقوا عليها اسم ضمائر الرفع المتصلة . وعند خلو الفعل من هذه اللواحق ، افترضوا وجود ضمائر استندوا إليها وظيفة الدلالة على الفاعل . أما بوادىء الفعل التي جمعوها في «أنيت»

أو «نأيت» فإنهم اعتبروها من علامات الفعل المضارع واطلقوا عليها لذلك اسم «حروف المضارعة» (كذا !) . لكننا سنرى بعد قليل أن حروف «أنيت» هذه هي دوال حقيقية على الفاعل في الفعل المضارع ، وأن لواحق الفعل التي اعتبروها ضمائر رفع ليست في الواقع أكثر من دوالّ على العدد والجنس ، أي أنها تشارك البوادىء في الدلالة على الفاعل .

لنعد إلى إسناد الفعل إلى ضمائر الرفع التي وضعناه في القسم الأول من هذا البحث ، وسوف نسجل الملاحظات التالية :

١ - يمتاز الفعل المضارع عن الفعل الماضي باشتماله على بوادىء ولواحق ، بينما خلا الفعل الماضي من البوادىء .

٢ - أن بعض صيغ تصريف الفعل المضارع تخلو من اللواحق وتكتفي بالبوادىء ، مثل : تـ/ضرب بالمقارنة مع تـَ/ضرب/ين ،

٣ - أن اللواحق تلحق بالفعل المضارع لمنع اللبس عندما تتشابه البوادىء بحيث لاتستطيع الدلالة على العدد والجنس ، مثل تصريف المضارع مع ضمائر المخاطب .

إن البادئة (أَ . .) في (أقولُ) و (أضربُ) هي اختصار واضح وصريح من ضمير الرفع (أنا) ، وهي تدل على الشخص والعدد ولاتحتاج بالتالي إلى لاحقة إضافية . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن البادئة (نَـ . .) في (نَقولُ) و (نضربُ) ، إذ أنها صيغة مختصرة من ضمير الرفع (نحن) . أما عند اسناد الفعل المضارع الى الشخص المخاطب فيلاحظ ان جميع صيغ تصريف الفعل هنا تشترك ببادئة واحدة هي (تـَ . .) مما استوجب وجود لواحق تدل على العدد والجنس ، أي أن البادئة (تـَ . .) تدل على الشخص المخاطب بينما تدل اللواحق على العدد والجنس . وقد شذت عن هذه القاعدة صيغة واحدة من صيغ المخاطب هي صيغة المفرد المذكر ، حيث خلت من لاحقة تدل على العدد والجنس . وهنا يمكن القول أن الدال صفر يدل على العدد والجنس بالمقارنة مع بقية الصيغ التي اشتملت على لواحق خاصة تدل عليهما . ولاحاجة للتذكير أن اللاحقتين (. . ان) و (. . و ن) تدلان بالترتيب على التثنية والجمع ليس فقط في الفعل المضارع وانما في الأسماء أيضا ، مثل (كاتبان) و (كاتبون) . كذلك يدل المصوت الطويل ، أي الياء في اللاحقة (. . ين) على المؤنث المفرد ، مثل (تضربين) ، وهي موجودة أيضا في الضمير المنفصل (أنتِ) وفي الضمير المتصل (كِ) وفي الضمير الاشاري للمؤنث (اسم الاشارة) ، أي - (هذي) و (هذه) . ويرى هنري فليش أن الضمير (أنتِ) كان قديما (أنتي) والضمير (كِ) كان قديماً (كي) وأن الكسرة الطويلة (الياء) هنا هي بالتالي من مخلفات اللغة القديمة[29] .

عند اسناد المضارع إلى الشخص الغائب نلاحظ وجود نوعين من البوادىء ؛

(يـَ . .) تدل الغائب المذكر و (تـَ . .) تدل على الغائب المؤنث ؛

وعند أمن اللبس أمكن استعمال البادئة (يـَ . .) لجمع الاناث ، مثل (يضربن) و (يأتين) ، وأيضا بهدف التفريق بين الغائب والمخاطب .

---

(٢٩) هنري فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٠ وص ١٣١ .

بقي أن نشير إلى أن التشابه الثانوي بين صيغة المخاطب المفرد المذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المثنى للمذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المثنى المذكر وبين صيغة الغائب المثنى المؤنث يعود الى المنشأ المختلف للبادئة (تَـ . .) في كل حالة . ففي حالة المخاطب يبدو أن التاء مشتقة من ضمائر الرفع للمخاطب التي لايخلو واحد منها من حرف التاء . أما في حالة الغائب فهي علامة للتأنيث ، لاسيما أن دلالة التاء على التأنيث أمر شائع ومعروف في اللغة العربية .

نستنتج مما تقدم أن بوادىء المضارع ليست علامات للمضارع ، لانه لايحتاج إلى مثل هذه العلامات . ويكفي المرء أن يقارن النسيج الصوتي لجذر المضارع مع النسيج الصوتي لجذر الماضي حتى يميز الأول من الثاني . فجذر الماضي من فعل (ضَرَبَ) هو (ضْرِبْ) بعد حذف البوادىء واللواحق .

ويستطيع المرء بنظرة واحدة أن يدرك اختلاف الصوتات بين الجذرين ، مما يكفي معه للتعرف على جذر كل منهما . وقد أشار ابن جني إلى ذلك في «الخصائص» اذ اعتبر أن اختلاف الصوتات بين صيغتي الماضي والمضارع هو بمثابة تعبير عن زمن كل منهما :

«وذلك أنه قد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضي لصيغة المضارع ، اذ الغرض في صيغ هذه المثل إنما هو لافادة الأزمنة ، فجعل لكل زمن مثال مخالف لصاحبه ، وكلما ازداد الخلاف كانت في ذلك قوة الدلالة على الزمان .

فمن ذلك أن جعلوا بازاء حركة فاء الماضي سكون فاء المضارع ، وخالفوا بين عينيهما .

فقالوا : ضرب يضرِب ، وقتل يقتُل ، وعلِم يعلَم»[30] .

لكن النحاة اعتمدوا الشكل المكتوب في تقرير ذلك ، وهو الشكل الذي لاتظهر فيه المصوتات القصيرة (الحركات) ، لذلك راحوا يفتشون عن علامات تدركها العين لاالسمع ووجدوهم في بوادىء الفعل لعدم ورودها في صيغة الماضي واعتبروها من علامات المضارعة . ولو أنهم اعتمدوا الشكل المنطوق لادركوا اختلاف المصوتات بين صيغة الماضي وصيغة المضارع . وأغلب الظن أنهم لم يأخذوا بفكرة جذر الفعل للسبب نفسه ، أي لاعتمادهم الشكل المكتوب دون المنطوق ، حيث أنه لافرق في الكتابة بين الجذرين في الفعل الصحيح . ولو أنهم فعلوا ذلك لفتشوا لبوادىء الفعل المضارع عن وظيفة غير التي ظنوها ، أي وظيفة الدلالة على الفعل المضارع . كما أن هذا الاعتبار أوقعهم في التناقض . فبما أنهم اعتبروا البوادىء مجرد علامات للمضارع أصبحوا مضطرين للتفتيش عن الدوال على الفاعل في اللواحق ، ولم يفطنوا إلى أن بعض هذه اللواحق موجودة في الأسماء أيضا ، مثل (. . ان) التي تدل على التثنية و (. . و ن) التي تدل على جمع المذكر . وبدلا من أن ينسبوها إلى وظيفتها الأصلية ، وهي وظيفة الدلالة على العدد ، نسبوا اليها وظيفة جديدة هي الدلالة على الفاعل .

وهكذا اعتبروها في الأسماء مجرد حروف ، بينما اعتبروها في الأفعال ضمائر رفع متصلة .

وتلخيصا لما تقدم نستطيع أن نقول أن بوادىء الفعل المضارع تشترك مع لواحقه في الدلالة على الفاعل . والدال على الفاعل في قولنا (يكتبون) هو البادئة (يَـ . .) بالاشتراك مع اللاحقة (. . و ن) . ولو أردنا تجريد هذا الدال

---

(٣٠) الخصائص ١/ ٣٧٥ .

من جذر الفعل لحصلنا على دال مركب من جزأين منفصلين : (يـ . . و د) . وتسمي اللسانيات الحديثة هذا النوع من الدوال «الدال المتقطع» ، أي أن (يـ . .) تمثلان الدال المتقطع للمدلول «غائب جمع مذكر»[٣٥] . وإذا نظرنا الى بوادىء الفعل ولواحقه على هذه الصورة أي باعتبارها دوال على الفاعل ، انتفت حاجتنا إلى افتراض وجود ضمائر مستترة مقدرة تقديرا ، مما يخرج بالنحو العربي من دائرة الغيبيات إلى دائرة الموجودات .

ثالثا : ذكرنا بأن هناك متوالية اشتقاقية هي :-

جذر الماضي ⟵ جذر المضارع ⟵ الاسم

وتعني هذه المتوالية أن جذر المضارع قد اشتق من جذر الماضي وأن الاسم قد اشتق بدوره من جذر المضارع ، هذا يعني أن الماضي أسبق من المضارع وأن الفعل أسبق من الاسم . إلا أن مثل هذه النتيجة تخالف ماهو شائع لدى أكثر علماء العربية الذين رأوا أن الاسم سابق على الفعل في الزمان وسموه لذلك مصدرا وأن المضارع سابق على الماضي .

ولا شك أن بعض الأسس غير الصحيحة التي بنوا عليها آراءهم قد قادت الى تلك النتائج الغريبة . ان التعرف على حقيقة الأسبقيات في اللغة يعني اكتشاف الآليات الصحيحة التي تعمل اللغة بموجبها .

ولقد كشفنا بما لايدع مجالا للشك كيف اشتق جذر المضارع من جذر الماضي وكيف اشتق الاسم بدوره من جذر المضارع . ويؤكد هذا الاكتشاف من جديد أن علماء العربية القدامى قد جانبوا الصواب في بعض ماذهبوا اليه ولم يتوصلوا دائما إلى الآليات الحقيقية التي تعمل داخل اللغة . على أننا نجد نقدا قويا لدى ابن جني فيما ذهبنا اليه ، اذ توصل أبو الفتح الى النتائج نفسها التي توصلنا اليها ، وان كان عن طريق مختلف ، وذلك بفضل ماكان يتمتع به هذا الرجل من نظر ثاقب في شؤون اللغة ونظرة علمية تقترب كثيرا من نظرة اللسانيات الحديثة إلى اللغة . لقد ذكر في «الخصائص» تحت عنوان «باب في هذه اللغة : أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ؟» مايلي :

«فإن قلت :

هلا ذهبت إلى أن الاسماء أسبق رتبة من الأفعال في الزمان ، كما وأنها أسبق رتبة منها في الاعتقاد ، واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت اليه ، اذ كان الواجب أن يبدؤوا بالأسماء ، لأنها عبارات عن الأشياء ، ثم يأتوا بعدها بالأفعال التي بها تدخل الأسماء في المعاني والأحوال . . . ؟ قيل يمنع من هذا أشياء :

منها وجود أسماء من الأفعال ، نحو قائم من قام ، ومنطلق من انطلق ، ألا تراه يصح لصحته ويعتل لاعتلاله ، نحو ضرب فهو ضارب ، وقام فهو قائم . . فلذا رأيت بعض الأسماء مشتقا من الفعل فكيف يجوز ان يعتقد سبق الاسم للفعل في الزمان ، وقد رأيت الاسم مشتقا منه ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه . . وأيضا فان المضارع يعتل لاعتلال الماضي ، وان كان أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضي»[٣٦] . ومما يؤسف له حقا أن كثيرا من آراء ابن جني التي خالف بها علماء اللغة ممن سبقوه لم يأخذ بها المتأخرون ممن جاءوا بعده ، مع أنه أصاب بها كبد الحقيقة . ولو أن المتأخرين فعلوا ذلك لوفروا علينا عناء كثيرا وحالوا دون تقهقر اللغة الفصحى أمام العاميات في العصور التالية .

---

(٣٥) مبادىء اللسانيات العامة ، ص ١٠٠

(٣٦) الخصائص ٢/ ٣٣ - ٣٤

مطالعات

صور من تطور لغة الشعر العربي الحديث عن طريق المجاز

أحمد محمد قدور

تمهيد :

يتجه البحث في هذا المقال إلى المجاز والاستعارة ، بوصفهما عنصرين من عناصر التطور الدلالي ، وطرق تحول المعاني . ولابد هنا من تأكيد ماذهبنا إليه في بحوث سابقة من التفريق بين نوعين من الاستعمال المجازي ، أحدهما فني يثير في المتلقي هزة انفعالية ، ويبعث إيحاء ولذة شعورية ، والآخر ، بعضه كان من النوع الأول ، لكنه لطول الاستعمال والتكرار على مدى زمني طويل فقد تألقه الفني ، وانضم إلى رصيد اللغة المعجمي ، وفارق المعجم الشعري الحي ، وغدا بذلك مجازا زاويا ، وبعضه الآخر لم يهدف مستعملوه إلى تحقيق ذلك التأثير الفني أصلا ، إنما وضع أساسا بوصفه نقلا غير تصويري ، وذلك للوفاء بمتطلبات التسمية المعرفية La nomination Cognitive نحو قولنا (رجل الكرسي) ، و (عنق الزجاجة) ، و (الخرطوم) دلالة على الانبوب المطاطي المستعمل في نقل المياه ، و (عين الباب) و (رأس الجبل) وغير ذلك . والأمثلة على هذا النحو الأخير كثيرة ، وهي تمثل مبدأ من مبادىء التطور اللغوي في معظم اللغات الحية . وقد تنبه إلى هذا كثير من الدراسين في القديم والحديث ، في لغتنا وفي غيرها من اللغات المعروفة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المقال مخصص لرصد ذلك الجزء من التحول المجازي من النوع الذي كانَ فنيا ، ثم غدا أسلوبا لغويا ، لأن بين هذين الحدين ضروبا شتى من تطور اللغة عبر المجاز . أما الأمثلة التي كانت مدار البحث والتحليل فهي مستمدة من مجموعة مختارة من الشعر العربي الحديث الذي يمثل مدرسة الإحياء والتراث وامتدادها ، ولاسيما في مصر والشام ، ولا شك في أن النظر المتعمق في (مستوى) الشعر العربي الحديث اللغوي يصحح كثيرا من

المقولات التي غدت (جاهزة) يتداولها الدارسون من غير تمحيص . وإن الطريق إلى تجاوز تلك المقولات لابد أن يكون عن طريق الدرس المتأني لأهم الظواهر الدلالية في الدلالة الحقيقية ، والمجازية والثقافية ـ الرمزية ، وهو ماتتجه إليه أنظار الدارسين المحدثين من النقاد واللغويين .

• • •

١ ـ التطور الدلالي عن طريق المجاز الرمزي :

نقف في هذا البحث عند قسم من أقسام البحث المجازي(٣) ، هو «المجاز الرمزي» ، والتطور الذي سعى إلى تبينه ـ ههنا ـ يتخذ اتجاهين : الأول منهما مختص بطبيعة المجاز وتحوله إلى رمز . فالصورة يمكن استثارتها مرة على سبيل المجاز ، لكنها إذا عاودت الظهور بإلحاح فإنها تغدو رمزا لدى شاعر معين(١) .

ويشكل الاستعمال المتكرر للمجاز لدى الشاعر منظومة رمزية خاصة ، فالصور المجازية التي تشعر بجدتها وابتكارها لدى شاعر مافي عمل من أعماله تغدو بعد ظهورها في أعمال تالية خصائص فنية خاصة .. تتخذ شكل المجاز الرمزي(٢) .

غير أن هذه المنظومة قد تكون مجالا لاشتراك عدد من الشعراء في زمن معين أو ضمن اتجاه فني ، فتغدو عندئذ منظومة عامة تخص جيلا أو اتجاها لدى مجموعة من الشعراء .

وقد ارتبطت صور كثيرة من هذا المجاز بالمراحل القديمة من حياة البشر ، وغدت ـ على الرغم من التقدم الحضاري ـ عالقة في الأذهان ، وشائعة في الاستعمال إلى درجة يمكن أن توصف بأنها محل اشتراك عدد من اللغات . نحو : «الأسد ، والذئب ، والثعلب ، والشمس ، والبدر» .

وقد تنبه كثير من الدراسين إلى هذا النوع من الرمز المجرد لمعان مشتركة لايشكل العدول عنها إلى غيرها جدة أو طرافة . فالمساحة الدلالية لهذه الرموز أضحت واسعة وعامة(٣) .

وفي القصص المعاصرة يجد الدارس عددا من هذه المجازات الرمزية التي انحدرت من صور بلاغية قديمة ، فقدت بسببه كثرة التكرار قيمتها الإيحائية الفنية ، وغدت قريبة من الأساليب اللغوية .

ويمكن أن نعد في هذا الجانب عددا من المجازات الشائعة ، نحو : الأسد ، والنجم والشبل ، والسيف ، والبدر ، والذئب ، والثعلب ، والنسر .. ويلاحظ ـ ههنا ـ كثرة الأساليب المجازية الدائرة حول أمثال هذه الكلمات .

والصور البلاغية الثاوية والاستعمالات المرتبطة بالمراحل القديمة للحياة ، ليست المصدر الوحيد لهذا المجاز الرمزي ، فالمذاهب الأدبية الحديثة أذاعت بين الشعراء رموزا وأشكالا فنية ذات دلالة . ولا يخفى ماللاتجاه الرمزي من أثر في شيوع عدد من الرموز

(١) وارين ويليك ، نظرية الأدب ، ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٧ ، وبخيال ، الفن الرمزي ، ص ١١

* انظر مقالة حول «الدلالة في المجاز والاستعارة» في : الموقف الأدبي ، العدد ١٦٥/ كانون الثاني ١٩٨٥ م اتحاد الكتاب العرب ، دمشق .
ومقالتنا حول «التطور الدلالي في العربية الفصحى» في : عالم الفكر ، العدد الرابع ، المجلد السادس عشر ، ١٩٨٦ م ، وزارة الإعلام ، الكويت

المجازية ، كالبلبل «الشاعر» ، والوتر «الشعر والفن» ، والنسر «الشاعر» . . .

أما الاتجاه الثاني ـ من اتجاهات التطور ههنا ـ فمختص بالتطور اللغوي الدلالي «الحقيقي» وفيه تفقد المجازات معظم قدراتها الإيحائية ، وتغدو دلالات لغوية تضاف إلى رصيد المعجم .

وتتسع العربية لضروب من الاشتقاقات المنحدرة من كلمات شاعت دلالتها المجازية . ونضرب أمثلة قليلة ـ ههنا ـ على أن تتخذ مواضعها في الأجزاء التطبيقية لاحقا ، فالشبل : ولد الأسد إذا أدرك الصيد[3] ، وتتولى أمه اللبؤة رعايته والدفاع عنه ، ومن هنا جاء تشبيه المرأة التي تعطف على أولادها ، وتصبر على تنشئتهم بعد فقد الأب باللبؤة التي ترعى أشبالها وتدافع عنهم . وقد رافق هذه الدلالة المجازية تطور اشتقاقي (من اسم إلى فعل) ، فقيل : أشبلت فلانة بعد بعلها : صبرت على أولادها . . .[4]

ونعرض مثالا آخر هو كلمة «ذئب» التي تدل على حيوان له صفات مشهورة نحو : الخسة والغدر والخبث . ومن المجاز الشائع تشبيه الإنسان بالذئب إذا خبث ، وقد رافق التطور المجازي ظهور اشتقاقات من الاسم «ذئب» إلى الفعل مجردا ومزيدا . فيقال : ذؤب فلان ذآبة : خبث كالذئب ، وتذأبته الريح : أتته من كل جانب فعل الذئب .[5]

وهناك ضرب من الاشتقاق في دلالة «السيف» المجازية ، يتجلى في صوغ الصفة «سيفان» للدلالة على الرجل المشوق كالسيف[6] . إضافة إلى الاشتقاقات الفعلية الأخرى .

وإن استمداد كثير من الصور المجازية القديمة ، وتوظيفها في الشعر الحديث ، كان موضع نقد ، إذ اتجه النظر إليها لدى بعض الدارسين بحسب معايير الجدة والتقليد ، لتسويغ الهجوم على كل قديم إلى درجة الامتهان والابتذال[7] .

واتخذ البحث لدى بعضهم الآخر صورة الانتقاد الساخر ، فمارون عبود يقف عند بناء الصورة في شعر الأخطل الصغير ، ويتناول بعض الدلالات المجازية ، نحو : «الليث والنسر والسيف» ، ويعيب الشاعر على استعمال الأساليب العربية القديمة والمجازات العامية المبتذلة[8] .

وقد فات هؤلاء التفريق بين المجاز الذي يعد في الأساليب المجازية للغة والمجاز الفني الذي يدرس في نطاق الصورة ، ويقوّم على أساس الجدة والابتكار أو الاحتذاء والتقليد .

والأجدى عندنا هو تحليل المجاز من خلال العلاقة بين الشعر الحديث والشعر القديم ، وخصوصية الشعر من جهة ، ومن خلال التجربة الإنسانية الضاربة في القدم من جهة أخرى .

---

(٣) لسان العرب ، ١١/٣٥٢

(٤) أساس البلاغة ، ص ٢٩٨

(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٠

(٦) لسان العرب ، ١٦٦/٩ ـ ١٦٧ ، وأساس البلاغة ، ص ٣٢٧

(٧) جبران خليل جبران ، البدائع والطرائف ، ص ٤٩

(٨) عبود ، مارون ، على المحك ، دار الثقافة ودار مارون عبود ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٠ ، ٤٥ ، ٨٩ .

فالمجازات التي عابها مارون عبود وإيليا حاوي وعصبة الشعرة[٩] وغيرهم على الأخطل الصغير[١٠] لايمكن أن تقتصر على المدلول الضيق للكلمة ، وعلى الرغم من أنها مستمدة من عصر سالف غير عصرنا فقد أصبحت تعني معنى عاما ، هو بمثابة الرمز لمعان متعددة ، مثل القوة والعنف والبأس ؛ وإن استعمال الشاعر كلمة «قبلة» أو «مدفع» عوضا من السيف أو الرمح في هذا المجال لايغير من حقيقة المعنى شيئا ، وبالتالي لايضفي عليه صفة الجدة والطرافة إن لم يسيء إليه . وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأسد ، وهو التشبيه القديم ، فالأسد مازال رمزا للبأس في ذهن البشر برغم تقدمهم المادي في وسائل الفتك[١١] .

وقد تنبه عدد من الدارسين والنقاد إلى صيرورة عدد من الصور القديمة رموزا ومجازات لغوية ، وتشبيهات سائدة . فالفيلسوف «هيجل» يميز بين التطور الدلالي والاستعمال المجازي ، والرمزي . يقول : «... وشيء آخر أمر الدلالة المستخدمة كرمز ، فالأسد على سبيل المثال يعتبر رمز الشجاعة ، والثعلب رمز المكر ، والدائرة رمز الأبدية ...»[١٢] «وصورة الأسد لاتستحضر فينا فقط المعنى الذي لها من حيث هي رمز - البطل - بل تقدم كذلك الموضوع نفسه في وجوده الحسي .»[١٣] .

ويرصد صاحبا نظرية الأدب - وارين وويليك - عددا من المجازات التي تتحول إلى رموز دينية وصوفية ، نحو الشمس ، والأسد والصخرة ، والنمر ...»[١٤] .

وفي الجوانب الدلالية للدكتور فايز الداية مواضع متعددة حللت فيها مجازات وتشبيهات سائدة تصلح دليلا على اشتراك العربية واللغات الأجنبية في كثير من الأساليب المجازية ، نحو : الكلب ، والثعلب ، والذئب ، والخنزير .[١٥]

ويعد شيوع هذه المجازات لدى الشعراء المعاصرين تفسيرا يربط الشعر العربي ، حديثه بقديمه ، ويبدو أن الصلة بين الشعر الحديث والقديم هي التي كانت تزيد في اعتماد الشعراء على محفوظهم ، واستمداد الصورة القديمة ، واعتمادهم عليها اعتمادا كبيرا .

فالشعر يعتمد إلى حد بعيد على التعلم ، وعلى شعر سابق ، كما أنه يمتد تاريخيا في ثقافات متنوعة ، وغالبا ماتستعمل الكلمات في الشعر لتستدعي استعمالاتها الشعرية السابقة ، ومن الطبيعي أن يؤلف شعر حضارة من الحضارات نظاما دلاليا ومجازيا متماسكا[١٦] .

إن لغة الشعر - باختصار - نمط من اللغة الأدبية يعتمد الدلالة المجازية ، والعلاقات السياقية ، ويشكل التاريخ الثقافي عامة ، والاستعمال الشعري خاصة أساسا للغة الشعر الرمزية .

---

(٩) الشيخة ، د. [illegible] محمد ، الأخطل الصغير ، حياته وشعره ، ص ٣٢٠ - ٣٢٥
(١٠) تجدر الإشارة إلى أننا اعتمدنا شعر الأخطل الصغير أساسا للتطبيق ، وقد أحصينا جميع المواضع المتعلقة بهذا الجانب في شعره إضافة إلى أمثلة أخرى اخترناها من الدواوين والكتب الأدبية والنقدية .
(١١) الدقاق ، د. عمر ، نقد الشعر القومي ، ص ١٧٦ - ١٧٧
(١٢) - (١٣) هيجل ، الفن الرمزي ، ص ١٢ - ١٤
(١٤) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٥ - ٢١٤
(١٥) الداية ، د. فايز ، الجوانب الدلالية ص ٢٨٥ - ٢٨٨
(١٦) جي . [illegible] ، [illegible] ، ترجمة محيي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، ص ١٣٤

ولا يعني استعمال المجاز القديم أن الشاعر «تقليدي» غير مجدد، فالمعول عليه ـ ههنا ـ لايكون في استعمال هذه المجازات أو تلك ـ بل في سياقها، وارتباطها بتجربة الشاعر من غير أن تبدو منبتة عنها.

• • •

ونختار أمثلة محدودة لرصد الظاهرة المدروسة، لأن البحث يسعى إلى تقديم مادة صالحة لأن تكون أساسا لبناء أحكام صحيحة، ولتفهم التطور اللغوى عن طريق المجاز، دون أن يدعي الإحاطة بالجوانب الدرسية للمجاز عامة.

ولا يخفى ماللغياب الدرس التأصيل للمجاز من أثر سلبي في دراسة الخصائص الفنية. والحاجة مازال ماسة إلى تكاثف الجهود لإنشاء معجم شعري «صوري» يتقرى الصور المجازية من خلال تطورها التاريخي، ويميز الحديث منها من القديم.

ويماثل خطتنا في هذه الفقرة مارسمناه في الفصل الأول، وخاصة في تقصي الأصول الحسية للدلالة، وتمييز الحقيقة من المجاز. وعمدتنا في هذا الجانب معجم أساس البلاغة للزمخشرى مع مراجعات متعددة للأصول الأخرى من معاجم وكتب لغوية وبلاغية. ويوثق الجانب الحديث من خلال المعاجم الحديثة والدواوين القريبة زمنا من الأخطل الصغير، إضافة إلى اجتهادات مصدرها السماع.

ويسلك بحث المجاز ـ ههنا ـ خطين متعاكسين: الأول: من الحقيقة إلى المجاز، والثاني: من المجاز إلى الحقيقة. ويكون ذلك بتتبع الأصل الحقيقي الذي تطور إلى مجاز، وبتتبع المجاز الشائع الذى تطور إلى استعمال حقيقي أو معرفي.

● العلم، العلم أصلا: الراية أو الجبل، ثم أطلقت على الرجال عن طريق المشابهة. وقد شاع استعمالها إلى درجة غدت تعد في الاستعمال اللغوى. وفي أساس البلاغة مثالان يشيان بالأصل الحسي. يقول: «هو من أعلام العلم الخافقة، ومن أعلام الدين الشاهقة»[17] فالأعلام الأولى مأخوذة من دلالة الأعلام على «الرايات»، والأعلام الثانية مأخوذة من دلالة الأعلام على «الجبال» بدليل ورود الصفتين: الخافقة والشاهقة.

واستعمال كلمة الأعلام للدلالة على الرجال الأفذاذ والمشهورين شائع في العربية على مدى عصور متتابعة. وغدت هذه الدلالة متداولة في كتب التراجم والسير قديما وحديثا[18].

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «علم» للدلالة على الشاعر عروة صاحب عفراء: «علم الهوى من آل عذرة عروة.»[19]. وترد أيضا للدلالة على أحد زعماء الكفاح الوطني الحديث: «ياله من علم في علم..»[20]، وقد جمع الشاعر ـ ههنا ـ بين دلالتي: علم «الرجل»، وعلم «الراية» في نمط يدعى في البلاغة العربية بالمجاز اللغوى.

---

(١٧) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٣١٢
(١٨) من كتب التراجم مثلا: «الدرر الكامنة في أعلام المئة الثامنة» لابن حجر العسقلاني، و«سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي، ومن الكتب الحديثة «الأعلام» لخير الدين الزركلي، و«مشاهير أعلام العرب في مصر»...
(١٩) شعره، ص ٢٨٨
(٢٠) شعره، ص ٣١٢

● الشبل ، الشبل ولد الأسد إذا أدرك الصيد[21] . وفي أساس البلاغة دلالة مجازية من هذه المادة . يقول الزمخشري : «أشبلت فلانة بعد بعلها : صبرت على أولادها ولم تتزوج ، ومنه أشبلت عليه إذا عطفت ، وتقول : هي في إشبالها كاللبؤة على أشبالها»[22] .

والدلالة المجازية ـ هنا ـ واضحة وقد رافقها تطور اشتقاقي (من اسم إلى فعل) . ودلالة الشبل على ولد الأسد مخصصة أصلا ، ثم انتقلت إلى الدلالة على الصغير المرجوّ خيره وبأسه تشبيها له بأشبال الأسد .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الأشبال» بدلالتها المجازية في حقل يضم دلالات أخرى كالأسد والعرين والغيل .. ففي الحديث عن بني حمدان ترد كلمة «الأشبال» في السياق التالي :[23]

ملاعب الصيد من حمدان ما سلبوا
إلا الأهلة والأشبال والقضبا

وفي الحديث عن فتيان الأمة حديثا يرد قوله «ليست من الأشبال فتية أمة ..»[24]

وقوله أيضا : «أشبال ذا الوطن الجريح ..»[25]

● الأسد ، الأسد معروف ، وهو في عرف العرب مثال للشجاعة ، وقد عدّ الإمام عبدالقاهر أمثلة من هذا المجاز في الاستعارة والتمثيل العامي لشيوعه[26] .

وقد مر بنا في تضاعيف هذا الفصل مايدل على صيرورة هذا المجاز رمزا شائعا يرتبط في أذهان البشر بمعاني القوة والبأس والاستبسال .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «أسد» في موضعين ، ففي الحديث عن شباب لبنان يرد قوله : «فقضى على الأسد دهر لاذمام له ..»[27] ، وفي الحديث عن كفاح العراق الحديث يرد قوله : «أسد العراق ..»[28]

ويلحق بالدلالة المجازية الرمزية ـ هنا ـ مايتعلق بالأصل الحقيقي ، فالأسد له أماكن سكن مخصصة الدلالة ، نحو «العرين» و«الغيل»[29] . وقد غدت شائعة الاستعمال بدلالتها المجازية على «الوطن» لارتباطها بأصل المجاز «الأسد» . ولا يخفى على الدارس أن هذا الاستعمال يركز على خصيصة بارزة يشخصها أناس في مجتمع كلامي خاص بوصفها تشبيهات سائدة . ففي «الأسد» تكون السمة البارزة : الشجاعة والإقدام وجها لوجه ، وفي «العرين» تكون السمة البارزة : المنعة والحمى المصون من الاعتداء ..[30]

والمواضع التي وقفنا عندها في شعر الأخطل الصغير

---

(٢١) لسان العرب ، ١١ ، ٣٥٢
(٢٢) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص٢٢٨
(٢٣) شعر الأخطل الصغير ، ص١٢١
(٢٤) ، (٢٥) المصدر السابق ، ص٢٩٨
(٢٦) الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز ، تعليق د . محمد رضوان الداية ود . فايز الداية ، ص ١٣٧
(٢٧) شعره ، ص ١٣٧
(٢٨) المصدر السابق ، ص ٦٧٣
(٢٩) الثعالبي ، أبو منصور ، فقه اللغة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت ، ص ٣٠٢
(٣٠) الجوانب الدلالية ، ص ٣٨٩

تستعمل فيها كلمتا «العرين والغيل» للدلالة على الوطن . ففي حديثه عن «مصرع النسر» ـ المقصود هنا أحد الزعماء ـ ترد كلمة العرين في قوله «ورمى الدهر في العرين الضراغم»[٣١] وفي الحديث عن كفاح لبنان يرد قوله : «إيه لبنان .. أين العرين ؟ ..»[٣٢] ، وفي رثاء أحد الزعماء يرد قوله : «دخل الغيل على رئباله قدر ..»[٣٣]

● الذئب ، الذئب معروف بالافتراس والخسة والغدر ، وفي الأمثلة والآراء المنقولة عن عدد من النقاد والدارسين ـ في هذه الفقرة ـ مايدل على شيوع الدلالة المجازية الرمزية لكلمة «ذئب» ، وقد تنبه «يوجين نيداء» إلى هذا المجاز بوصفه من التشبيهات السائدة[٣٤] .

وفي أساس البلاغة مايؤكد ذيوع الاستعمال المجازي وتطوره إلى الدلالة الحقيقية ، يقول الزمخشري : «من المجاز : هو ذئب في ثلة ، وهم ذؤب ، وذئاب ، وهم من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشطارهم ، وقد ذؤب ذآبة : خبث كالذئب . وأكلهم الذئب أي السنة . وتذأبته الريح : فزعته . وتذأبته الريح : أتته من كل جانب فعل الذئب»[٣٥]

ويتسع التطور ـ هنا ـ لضروب من الاستعمالات المجازية التي رافقها تطور اشتقاقي «من الاسم إلى الفعل مجردا ومزيدا» . ويبدو من خلال ماقدمنا فهم الزمخشري للتطور اللغوي ، وكشفه عن طرفه : المشابهة ، وانتفاء عنصر أساسي من دلالة الكلمة «حركة الذئب ودورانه .. ، خبثه ، افتراسه»

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الذئاب» بدلالتها المجازية في موضع واحد . ففي الحديث عن تحكم المستعمر وأذنابه في الوطن يرد قوله : «ويالمة غدت الذئاب تسوسها ..»[٣٦]

● النسر ، النسر طائر من الجوارح ، حاد البصر ، قوي من رتبة الصقريات ، وهو أكبر الجوارح حجما[٣٧] ، ويمثل النسر في العربية رمزا للقوة والشمم ، والرفعة . وقد ذهب الأستاذ العقاد إلى وأن هناك اشتباها بين النسر والعقاب في استعمال العرب ، جاء من وصف النسر بالصفات التي تنفرد بها العقاب ، فالنسر ليس من عتاق الطير .. ويقع على الجيف ، وقلما يصيد ولا مخالب له ...»[٣٨]

وفي هذا العصر غدا النسر شعارا لكثير من الأقطار العربية[٣٩] ، وفي مجال الطيران تطلق كلمة «نسر» على الطيار امتداحا . وقد وردت بهذه الدلالة في شعر أحمد شوقي .[٤٠]

(٣١) شعره ، ص ٢٤١
(٣٢) شعره ، ص ٢٨٣
(٣٣) المصدر السابق ، ص ٣١٣
(٣٤) الجوانب الدلالية ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥
(٣٥) أساس البلاغة ، ص ١٤٠
(٣٦) شعره ، ص ٢٩٧
(٣٧) المعجم الوسيط ، ٩١٧/٢
(٣٨) العقاد ، عباس محمود ، أشتات مجتمعات ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨
(٣٩) المعجم الوسيط ، ٩١٧/٢
(٤٠) الشوقيات ، ١٥٥/٢ ، الحاشية رقم (٢)

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «نسر» بدلالتها المجازية على البطل والمقاتل الباسل ، ففي حديثه عن جبل لبنان يرد قوله : «قل لوكر النسور قدست وكرا . .»[٤١] ، وفي الحديث عن استغلال الغرب لبنان وجوع أهله يرد قوله : «لبنان مالفراخ النسر جائعة والأرض أرضك . .»[٤٢] وفي رثاء أحد الأعلام يرد قوله : «النسر ذا نزق على هضباته . .»[٤٣] ، وفي قصيدة يرثي فيها «فيصل بن الحسين» ، - وهي بعنوان مصرع النسر - يرد قوله : «ذلك النسر كيف حلق وانقض . .»[٤٤] ، وفيها أيضا : «وهكذا مصرع النسور . .»[٤٥] ، وفي موضعين آخرين ترد كلمة «النسر» متضامة مع كلمة «وكر»[٤٦] .

ونشير إشارة موجزة إلى قصيدة شهيرة لعمر أبي ريشة ، هي قصيدة «نسر»[٤٧] وقد ذهب أحد الدارسين إلى أن نسر أبي ريشة صورة رمزية دلت على اضطرابه وترجحه بين عالم الفن ، والواقع ، وشقائه في حياته على الأرض . .»[٤٨] وفي فخر بدوي الجبل بإباء المناضلين يرد قوله : «نحن النسور ومن نحمى جوانحنا . .»[٤٩] .

ويمكن أن نتبع كلمة «نسر» كلمة أخرى ملازمة لها ، هي كلمة «الوكر» ، والوكر أصلا مكان الطير على شجر[٥٠] ، ثم استعملت للدلالة على المنزل ، يقول الزمخشري : «وكر الرجل : اتخذ طعاما عند بناء وكره أو شرائه . . ومن المجاز : مادار في فكرى نزولك في وكرى»[٥١]

وتمثل دلالة «وكر» على المنزل الذى يتخذه الإنسان تطورا ضمن المحسوسات - من التخصيص إلى التعميم - وقد وردت بهذه الدلالة في أساس البلاغة من غير أن ينص على أنها من المجاز .

غير أن هناك تطورا آخر في الفصحى المعاصرة - مصدره السماع - يتجلى في إطلاق كلمة «وكر» على المكان الذى يتخذ منطلقا للجريمة ، وللدلالة على مخبأ الخارجين على القانون .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «وكر» للدلالة على «الوطن» و «المنزل» ، ففي الحديث عن جبل لبنان يرد قوله : «إيه وكر النسور . .» ، والقصيدة تحمل عنوان «وكر النسور»[٥٢] وفي الحديث عن كفاح لبنان الوطني يرد قوله «أيام وكرك في النسور مقدس»[٥٣] ، وفي الحديث عن أبي الطيب وإخفاق طموحه في إدراك الإمارة ، يرد قوله : «إذن لاثكلت أم الشعر . .

(٤١) شعر الأخطل الصغير ، ص ٤٦
(٤٢) المصدر السابق ، ص ٥٩
(٤٣) المصدر السابق ، ص ١٧٧
(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٦
(٤٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٢
(٤٦) المصدر السابق ، ص ٤٦ ، ٨٦
(٤٧) ديوان أبي ريشة ، ١٥٥/١
(٤٨) الأشتر ، د . محمد صبري ، الشعر في سورية ، ص ١٢٤
(٤٩) بدوي الجبل ، ديوانه ، ص ٣٧٠
(٥٠) الثعالبي ، فقه اللغة ، ص ٣٠٣ ، واللسان ، ٢٩٣/٥
(٥١) أساس البلاغة ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨
(٥٢) شعر الأخطل الصغير ، ص ٤٦
(٥٣) المصدر السابق ، ص ٨٩

وعطل الوكر . .»(٥٤) وفي وصف الهجرة ، والتفاف الصغار حول أمهم ، يرد قوله : «تجمعوا في الوكر حول حمامة جللها الأسى»(٥٥)

● السيف ، السيف : نوع من السلاح وقد شاع استخدامه في القتال في عصور سابقة ، وبلغت أسماؤه أو صفاته خمسين اسما أو صفة(٥٦) ، ومن السيف اشتقوا أفعالا متعددة نحو : سافه : ضربه بالسيف ، واستاف القوم وتسايفوا : تضاربوا بالسيوف ، وأساف وسايف وسيّف وتسيّف . .(٥٧)

ويبدو أن تشبيه الإنسان بالسيف قديم وشائع ، ويدل على ذلك اشتقاق الصفة «سيفان وسيفانة» للدلالة على الرجل والمرأة إذا كانا ممشوقين كالسيف(٥٨) . وفي دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر استعمالات مجازية لمادة «سيف» عدها المؤلف في التمثيل العامي(٥٩) .

ويلاحظ الدارس عددا من التسميات العرفية المتطورة عن طريق المشابهة ، نحو : السيف الساحل الممتد في البحر ، والسمك الذي يشبه السيف ، والليف من السعف . .(٦٠)

ويبدو أن الاستعمال المجازي لكلمة «السيف» تطور قديما إلى الدلالة على الرجل الذي يشبه السيف أو يقلده ، وقد عرف هذا الاستعمال صور متعددة كالتشبيه ، والاستعارة والمجاز المرسل - بإطلاق الجزء على الكل - وفي الفصحى المعاصرة يشيع استعمال كلمة «السيف» للدلالة على المحارب والمناضل في مقام المدح ، ومن هذه الدلالة مواضع متعدّدة في شعر أحمد شوقي وأنور العطار وعمر أبي ريشة وبدوي الجبل . .(٦١)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «السيف» بدلالتها المجازية في عدد من المواضع ، ففي حديثه عن تاريخ الشام وعراقة أهلها يرد قوله :(٦٢)

تسلتهم أمضى السيوف فهذه
لابن الوليد وتلك للجراح

وفي رثاء هنانو يرد قوله : «سقط السيف بعد طول الضراب من يد المجد . .»(٦٣) وفي قصيدة «الجابي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي :(٦٤)

ألا سيف من الإيمان
يسرى السيف مسنونا
يجلي عن سما الأوطان
هذا الذل والهونا

---

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٣٣
(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٧٧
(٥٦) السيوطي ، المزهر ، ٤٠٨/١ - ٤٠٩
(٥٧) لسان العرب ، ١٦٦/٩ - ١٦٧ ، والمعجم الوسيط ، ٤٦٨/١
(٥٨) اللسان ، ١٦٦/٩
(٥٩) الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز ، ص ٢٠٥
(٦٠) لسان العرب ، ١٦٧/٩ ، والمعجم الوسيط ، ٤٦٨/١
(٦١) الشوقيات ، ١٧/٢ ، وظلال الأيام للعطار ، ص ٩٨ ، وديوان أبي ريشة ، ٤٥/١ ، وديوان بدوي الجبل ، ص ٣٣٤
(٦٢) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٣٥
(٦٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٦
(٦٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٤

وفي قصيدة «رائد عربي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي :[65]

يصرع السيف في غمار من المجد
فلا يرتقي سوى الدم غمدا

أنت أغنية السيوف إذا ثا
رت تبني مجدًا وتهدم مجدا

وعن سيف الدولة وأبي الطيب يرد قوله : «سيفان في قبضة الشهباء ..»[66]

ويتخذ المجاز - في الموضع الأخير - شكلا من مجاز الجذور اللغوية الذي يتعمق في معنى الأسماء والألقاب ، ليثير عددا من المدلولات[67] ، فعلي بن حمدان عرف بلقب «سيف الدولة» حتى طغى على اسمه ، والأخطل الصغير يثير في المتلقي بذكر كلمة «سيفان» ثلاثة معان ، هي : معنى السيف السلاح ، ولقب سيف الدولة ، ومجاز : السيف الرجل العلم أي «علي والمتنبي» .

● الشمس ، الشمس : النجم الرئيس الذي ينشر الضياء ، وقد لوحظ معنى «التحول وعدم الاستقرار» في عدد من الدلالات المتطورة قديما ، نحو «شمس فلان إذا ند ، ولم يستقر تشبيها بالشمس في عدم استقرارها .»[68] ، ومنه : «شمس : أظهر العداوة ، ورجل شموس»[69] وقد عدّها الزمخشري في المجاز ، وهي من الدلالات المتطورة التي غدت تدخل في مجال الحقيقة .

ويبدو للدارس من خلال الأمثلة المتداولة في كتب البلاغة[70] أن تشبيه الإنسان رجلا كان أم امرأة بالشمس شائع متداول ، وقد لوحظ فيه معاني الرفعة ، والظهور ، والنور الموجودة في دلالة الشمس الحقيقية ، ويماثل هذا التشبيه ، تشبيه الإنسان بالقمر والبدر والهلال والكوكب والنجم والمصباح .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «شمس» في نوعين من الاستعمال المجازي ، أحدهما : المجاز الذي يتعلق بوصف الرجل أو المرأة بالرفعة والبهاء والجمال . ومنه قوله في رثاء أحد الزعماء :[71]

كفنوا الشمس بريحان وورس
يا لشمس آذنت من عبد شمس

وقوله أيضا : «عربي يصدع الشمس بشمس» وقوله في رثاء فيصل : «أطلعت شمس فيصل منك مصابيح ..»[72] ، وقوله في وصف «سلمى» رفيقة الصبا : «وارتنا إذ غابت الشمس شمسا .»[73]

ويماثل هذا الاستعمال ماورد في شعر بدوي الجبل ، ففي رثاء «غازي» يرد قوله : «مصرع

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٦
(٦٦) المصدر السابق ، ص ١٦١
(٦٧) ريكس ، ك . ك ، المجاز اللغوي ، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص ٥١
(٦٨) الأصفهاني ، المفردات ، ص ٢٦٧
(٦٩) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٢٤١
(٧٠) ابن الأثير ، المثل السائر ، تحقيق ، محمد محيي الدين عبدالحميد ، البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٩ م ، ١/٥٩
(٧١) شعره ، ص ٣١٢
(٧٢) شعره ، ص ٢٥٠
(٧٣) شعره ، ص ٨٣

الشمس . . »[74] ، وفي رثاء «هنانو» يرد قوله : «ووريث الشموس من عبد شمس . . »[75]

ثانيها : مجاز يقترب من الاستعمال الحقيقي في إطلاق كلمة «شموس» على المصابيح الكهربائية الحديثة . وقد ورد منه مثالان ، ففي حديثه عن حياة المدن الحديثة يرد قوله :[76]

والكهرباء هنا تشع شموسها
وسراج أكثر من هناك الأنجم

وفي وصف قصر الحاكم ـ متصرف لبنان ـ يرد قوله : [77]

لمن القصر بدت فيه الشموس
فعل وجه الدجى منها نهار

● المصباح ، المصباح : السراج الذي يستضاء به ، وأصله متطور عن طريق المجاز المرسل ، لأن المصباح هو قرط السراج ، ثم أطلق على السراج والقنديل[78] . ويلاحظ تطور دلالة «صبح» إذا أشرق الصبح إلى الصباحة والجمال والبهاء والنور في الوجه خاصة ومنه ماوراه الزمخشري : «من المجاز : رأيت المصابيح تزهر في وجهه . . »[79]

ويبدو أن دلالة «الصباحة» غدت من التطور الدلالي الذي يعد في باب الحقيقة . أما الدلالة المجازية فتتجلى في تشبيه الإنسان بالمصباح أو استعارته له دلالة على العلم الذي يستضاء بعلمه أو قيادته ، وعلى الإنسان الموصوف بالصباحة والوضاءة رجلا كان أم امرأة . ويظهر في هذين الاستعمالين تطور ضمن المحسوسات : نور الصبح ، وإشراق الوجه ، وتطور من الحسي إلى المجرد : نور الصبح ، ونور العلم والهداية .

وفي التطور عن طريق التسمية العرفية ـ لتطور الأدوات المستعملة ـ عرفت كلمة « مصباح » الدالة على المصباح الكهربائي Lampe electrique[80] ، وتنافسها في مستويات أخرى من الفصحى المعاصرة كلمات أخرى نحو : « النور » و « الضوء » و « لمبة » المعرّبة[81] .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «مصباح» بدلالتها المجازية في موضعين ، ففي حديثه عن امرأة هجرها يقول :[82]

مهلا فمصباحك لم يأتلق
إلا بما من شعلتي تقتبسين

وفي رثاء فيصل يرد قوله :[83]

أطلعت شمس فيصل منك للعر
ب مصابيح من شقوق الغمائم

ويرد الاستعمال الأول إلى الدلالة على النضارة والتألق ، وفي الثاني ، يرد إلى الدلالة على الآمال

(٧٤) ديوانه ، بنوى الجبل ، ص ٢٠٩
(٧٥) ديوانه ، ص ٢٣٦
(٧٦) شعر الأخطل الصغير ، ص ٩٢
(٧٧) شعره ، ص ٢٠٢
(٧٨) لسان العرب ، ٢/٥٠٦
(٧٩) أساس البلاغة ، ص ٢٥٧
(٨٠) المعجم الوسيط ، ٥٠٤/٢ مادة (صبح) ، والمصطلحات العلمية والفنية ، ٢/٨٦
(٨١) المصطلحات العلمية والفنية ، ٢/٨٦ ، وشاهين ، د . عبدالصبور ، في علم اللغة العام ، جامعة حلب (٨٠ ـ ١٩٨١ م) ، ص ٣٥
(٨٢) شعره ، ص ٨٤
(٨٣) شعره ، ص ٢٤٠

والأحلام التي أطلعها شمس فيصل للعرب من خلال الظلام .

وهناك استعمال مجازي آخر يمكن أن يفرد في جانب متميز ، وهو استعارة المصباح للدلالة على نور العلم والهدى دون أن يشير إلى حلم أو الى امرأة موصوفة بالجمال .

ويمثل هذا الاستعمال تطورا من الحسي - دلالة المصباح بأنواعه - إلى المجرد أي النور الذهني والإشراق الفكري .

ويرد من هذا النوع مثال واحد في شعر الأخطل الصغير ، ففي حديثه عن الفن ، يقول :[84]

إني سكبت بها البيان على الطلا
في غزلي وجعلتها مصباحي

وأمثلة هذا الاستعمال كثيرة ، ومنها القديم والحديث ، «فالفيومي» صاحب «المصباح المنير» جعل كلمة «مصباح» عنوانا لمعجمه مثلا . وهناك أمثلة أخرى من الاستعمال الحديث ، منها ماورد في الشعر نحو قول أنور العطار : «ياسنا الفن أنت مصباحي . .»[85] وما ورد في الدراسات الأدبية ، نحو قول أحمد الشايب في تاريخ النقد : «نتخذه مقياسا . . ومصباحا نهتدى به في إنشاء . .»[86]

• النجم ، النجم : اسم لكل واحد من كواكب السماء ، وهو بالثريا أخص[87] ، ويلاحظ الدارس تطورا ضمن المحسوسات من التخصيص إلى التعميم ، فقد خرجت دلالة «النجم» الذى يطلع في السماء إلى كل مايطلع ويظهر[88] ، وهناك تطور دلالي آخر يتمثل في دلالة نجم «على الجزء» ، لأن الدَّيْن كان يؤدى «نجوما» أي لدى كل نجم . ومنه : «أنزل القرآن نجوما . .»[89]

وفي تطور آخر من الحسي إلى الذهني نجد دلالة «التنجيم وهي النظر في النجوم تطورت إلى معنى التفكير والتبصر . «ويقال للإنسان إذا تفكر في أمر لينظر كيف يدبره : نظر في النجوم . .»[90]

وقد أشرنا في تضاعيف هذا الفصل إلى أن دلالة «نجمة» - واحدة نجم السماء - محدثة ، فالنجمة قديما هي شجرة ممتدة على وجه الأرض .[91]

والتطور المجازى يتجلى في دلالة «نجم» قديما و «نجم ونجمة» حديثا على الإنسان العلم أو الرجل الشهير أو الفنان والفنانة .

وفي الأصول القديمة وكتب السيرة والحديث إشارات لامعة إلى هذا الاستعمال ، منها : تشبيه

(٨٤) شعره ، ص ١١٧
(٨٥) العطار ، أنور ، ظلال الأيام ، ص ٥٥
(٨٦) ابراهيم ، طه أحمد ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ، د . ت ، من مقدمة أحمد الشايب ، ص (ي)
(٨٧) لسان العرب ، ١٢/ ٥٧٠
(٨٨) المفردات ، ص ٤٨٣ ، وأساس البلاغة ، ص ٤٤٨ ، واللسان ، ١٢/ ٥٦٨ ، والكليات للكفوي ، ٤/ ٣٣٠
(٨٩) أساس البلاغة ، ص ٤٤٨
(٩٠) لسان العرب ، ١٢/ ٥٧١
(٩١) المعجم الوسيط ، ٢/ ٩٠٥

العلماء بالنجوم في حديث نبوي[92]، وتشبيه أصحاب النبي (ص) بالنجوم في حديث آخر.[93]

ويستفاد من بعض المرويات أن هناك ارتباطا في بعض المعتقدات بين ولادة الإنسان، وظهور نجم جديد يدل عليه.[94]

والتطور الحديث غدا أكثر شيوعا في إطلاق كلمة «نجم ونجمة» على الفنان والفنانة وكل من يوصف بالتألق في مجالات الحياة كالسياسة والاجتماع والفن.. وهذا التطور مماثل لما في اللغات الأجنبية ومتأثر به على مايبدو، ففي الفرنسية «Astre» فنان شهير و«Etoile» أيضا نجم، كوكب أي فنان وراقص عالمي ورجل شهير.[95]

وقد وقفت في أحد امتدادات البحث التوثيقية على عدد من المواضع التي استعملت فيها كلمة «نجم» بدلالتها المجازي في شعر أحمد شوقي.[96]

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «نجم ونجمة» بدلالتها المجازية على العلم من الرجال، والموصوفة بالجمال من النساء. ففي حديثه عن جبران خليل جبران يرد قوله:[97]

ويح لبنان كلما ذر نجم
فيه ولى عن أفقه وانهارا

وفي تحية شعرية يزجيها إلى أحد أمراء آل سعود، يرد قوله: «أيها النجم من سعود رعاك الله..»[98] وفي قصيدة يصف فيها جمال سلمى الكورانية يرد قوله:[99]

وتمشت نجمة في أذن جارتها
لما رأتها وجنت عند مرآها
قصت نجيمتنا الحسناء بدعتها
عن نجمة الشط والأذان ترعاها

• الكوكب والكوكبة: أحد كواكب السماء والنجم[100]، ويبدو أن معنى الإشراق والبريق في دلالة الكوكب تطور إلى تسمية كل مايظهر فيه ذلك كوكبا[101]، وهو تطور ضمن المحسوسات.

أما وصف الرجل بأنه كوكب، فقد جاء في اللسان: «غلام كوكب: إذا ترعرع وحسن وجهه.. وهذا كقولهم له بدر..»، وفي موضع آخر: «والكوكب: سيد القوم»

ويستفاد من ذلك أن القدماء تنبهوا إلى التطور الذي جاء من كثرة التشبيه بكل ذي نور، نحو الشمس والقمر والبدر والمصباح والنجم والكوكب.

(92) المنذري، الترغيب والترهيب، تحقيق مصطفى عمارة، البابي الحلبي بمصر، ط ثالثة، ١٩٥٤ م، ١٠٠/١
(93) الكاندهلوي، حياة الصحابة، تحقيق محمد علي دولة، دار القلم، دمشق، ٢٢/١
(94) ابن كثير، السيرة، تحقيق مصطفى عبدالواحد، البابي الحلبي بمصر، ١٣٨٤ هـ، ١٩٦٤ م، ٢٢٣/١
(95) المنهل الوسيط، ص ٧٢، ٣٤٢
(96) الشوقيات، ١٣٨/١ «نجم سورية»، ٤٥/١ «نجوم الفلك»، ٢/ ١٩٠ «نجم البيانة»
(97) شعره، ص ١٠٠
(98) الهوى والشباب، ص ٣٢
(99) شعره، ص ٥٤ - ٥٥
(100) تختلف دلالة «نجم» عن «الكوكب» في الاصطلاح الحديث. فالنجم: جرم سماوي مضيء بذاته، أما الكوكب فهو جرم سماوي يستضيء بضوء الشمس ويدور حولها. المعجم الوسيط، ٩٩٣/٢، ٩٠٥
(101) لسان العرب، ٧٢٠/١، ٧٢١

وفي التطور المجازي تميل إلى أن تطور كلمة «كوكب» مماثل لتطور كلمة «نجم» ، فالكوكب : الفنان والزعيم والبارع الجمال[١٠٢] .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الكوكب» بدلالتها المجازية على الرجل الشهير أو الزعيم العلم . ففي حديثه عن عراقة الشام يرد قوله :[١٠٣]

هو منبت لكارم هو مطلع
لكواكب هو ملعب لجياد

وفي موضع مماثل يرد قوله :[١٠٤]

الشام منبتهم وكم من كوكب
هاد وكم من بلبل صداح

وفي معجم المسرحيات العربية والمعربة ترد كلمة «كواكب» للدلالة على الممثلين والممثلات ، وقد وردت في العنوان التالي : «فهرس كواكب المسارح التمثيلية من ممثلين ، وممثلات»[١٠٥]

● ● ●

٢ ـ التزامن الحسي :

ويتفرد التزامن الحسي «synesthesie» بجانب من المجاز الحديث في الفصحى المعاصرة ، وهو واحد من سبل التطور الدلالي في الصورة الفنية .

والتزامن هو تعبير يدل على وصف المدرك الحسي الخاص بحاسة معينة بلغة حاسة أخرى أي بالمفردات الدالة عليها ، نحو وصف الصوف بأنه «ممل أو دافئ» ، أو ثقيل أو حلو ، ووصف دوي النفير بأنه قرمزي[١٠٦] .

ويبدو أن هذا المصطلح حديث النشأة ، فقد جاء في معجم المصطلحات العربية أنه ظهر عام ١٨٩١ م في «قاموس القرن»[١٠٧] . ويذهب الدارسون إلى أن «بودلير» هو صاحب الفضل في انتشار المصطلح وتداوله[١٠٨] .

غير أن مايهمنا في هذا الجانب هو دراسة التزامن من وجهة لغوية ـ دلالية تقوم على تحليل الاستعمالات اللغوية الراهنة على أساس البحث المجازي .

ففي نظرية الأدب «لوارين وويليك» يعدّ المؤلفان التزامن شكلاً من أشكال التحول المجازي ، «وهناك حاسة أخرى تعزى في بعض الأحيان للأديب والشاعر بخاصة وهي التزامن «synaesthesia» أو ربط الإدراكات الحسية الناشئة من إحساسين أو أكثر . وأشيعها بين الأدباء ربط السمع بالبصر ، السمع للون ، واختيار صوت البوق قرمزيا ، وغالبا مايكون التزامن الحسي تقنية أدبية وشكلا من التحول المجازي .»[١٠٩]

---

(١٠٢) المعجم الوسيط ، ص ٧٢ ، ٢٤٧ .
(١٠٣) شعره ، ص ١٤٠
(١٠٤) شعره ، ص ٢٣٤
(١٠٥) داغر ، يوسف أسعد ، معجم المسرحيات العربية والمعربة ١٨٤٨ ـ ١٩٧٥ م ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص ٤٩٨
(١٠٦) وهبة ، مجدي ، والمهندس ، كامل ، المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ٨٤
(١٠٧) المصدر السابق ، الموضع نفسه
(١٠٨) مورنيك ، لويس ، الفن والأدب ، ص ١٧ ـ ١٨ ، ومندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، ص ١١٠
(١٠٩) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٦

وفي الجوانب الدلالية ينقل الدكتور فايز الداية تصنيفا للتطور يقوم على نقل الأسماء للمشابهة بين المعاني ، ويعدّ أولمان ـ وهو صاحب التصنيف ـ التزامن واحدا من أقسام نقل الأسماء . «ومشابهة المعاني إمّا تكون :

أ ـ ذات جوهرية : في مشابهة الشكل بين ورقة الكتابة ، والورقة الطبيعية ، وفي المشابهة الوظيفية والمشابهة الموقعية .

ب ـ متزامنة حسيًا : وذلك بتشبيه الصوت باللون «يعزف بطريقة أكثر زرقة» ، واللون بالرائحة «الأبيض المنعش» .

ج ـ انفعالية : عندما يشبه إحساس ما بشيء مادي رابطة بينهما بعض الخواص «صداقة دافئة» ، و«خلق حلو ، طيب»»(١١٠) .

ولعل أقدم تفسير للتزامن ، واتجاه الدرس اللغوي فيه ما أورده الدكتور محمد مندور في الأدب ومذاهبه ، فقد عدّ «التبادل أو التعادل Correspondance اتجاها لغويا خاصا بالبحث في وظيفة اللغة ، وإمكاناتها ، ومدى تقيدها بعمل الحواس ، وتبادل تلك الحواس ، على نحو يفسح أمام الكاتب أو الشاعر مجال اللغة ، وتسخيرها لتأدية وظائف الأدب .»(١١١)

ويعدّ محمد مبارك التزامن ـ من غير أن يسميه ـ نوعا من النقل من الحسي إلى الحسي نحو وصفنا للصوت بالنعومة ، والخشونة ، والوضوح مع أنّ الوضوح للمرئيات لا للمسموعات ، والصفات الأخرى للملموسات .»(١١٢)

ويدخل التزامن لدى بعض الدارسين في المجاز الشائع في لغة الخطاب ، وفي الأدب ، على حين التمس له آخرون أمثلة ترجع إلى الكتاب المقدس والإلياذة والأوديسة»(١١٣) .

ويمكن أن ننتهي من هذا الدرس إلى أننا ننظر إلى التزامن على أنه تطور ضمن المحسوسات ، وأنه يخضع لما تخضع له بقية الأنماط المجازية من ابتذال وبلى بسبب كثرة التداول حتى تغدو بعض أمثلته أقرب إلى التعبير الحرفي منها إلى المجاز الفني أو الصورة المؤثرة انفعاليا . ويظهر هذا التحول من المجاز الفني إلى الاستعمال اللغوي «الحرفي» في بعض الأمثلة التي نقلها صاحبا نظرية الأدب ، نحو «صوت جميل» وصفة «حلو» التي تخص الذوق ثم استعملت لوصف الروائح ، والأنغام ، والمناظر»(١١٤) .

ويبدو من خلال المواضع التي وردت في شعر الأخطل الصغير من هذا النوع «التزامن» أنه يمكن أن نجعل في قسمين استنادا إلى تصنيف «أولمان» وقياسا على أمثلته . ويكون التطور في الأول من حاسة إلى أخرى ، ويكون في الثاني بتطور معطيات حاسة معينة إلى المادي ، والمجرد الذهني ، وهو خروج على الحقل الدلالي للحواس .

---

(١١٠) الداية ، فايز ، الجوانب الدلالية ، ص ٣٠ و Guiraud. la sem- antique. p.49-51
(١١١) مندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، ص ١١٠ ـ ١١١
(١١٢) المبارك ، محمد ، فقه اللغة وخصائص العربية ، ص ٢٦٦
(١١٣) وهبة ومهندس ، المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ٨٤ ، ميشال ، د . أحمد ، الأدب ، بيروت ، عدد (١) سنة (١٩) تشرين الثاني ، ١٩٧١ م ، ص ٣٢
(١١٤) وارين ويليك ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٦

ويضمّ القسم الأول الدلالات المتعلقة بالحواس ، وما ينتج عن تزامنها وتبادلها المواقع التعبيرية من أشكال مجازية ، على حين يضمّ الثاني مجموعة من الدلالات المجازية الذاوية التي تخرج فيها معطيات حاسة معينة من حقلها الدلالي لتغدو استعمالا لغويا متطورا من المجاز .

أ - نقف في هذا القسم عند عدد من الدلالات اللغوية المتطورة عن طريق التزامن : من الحسي إلى الحسي ، أي من حاسة إلى أخرى .

ففي قصيدة بعنوان «الشام منبتهم» يقول الشاعر :[١١٥]

في كل رابية ، وكل خميلة
عصبه تسطع بالشذا الفوّاح

ودلالة : سطع الشذا مماثلة لما عدّه الزمخشري من المجاز ، يقول : «من المجاز : سطعت رائحة المسك ، وأعجبني سطوع رائحته»[١١٦] ويبدو من خلال مراجعة أصول مادة «سطع» أنها مرتبطة أصلا بسطوع الصبح لإضاءته وانتشاره . «يقال للصبح إذا طلع ضوؤه في السماء قد سطع . . أول ماينشق مستطيلا ، وفي حديث السحور : كلوا واشربوا لايهيدنكم الساطع المصعد . . وأشار بيده . يعني الصبح الأول المستطيل . . فلذلك قيل للعمود من أعمدة الخباء سطاع ، ومنه عنق سطعاء إذا طالت وانتصبت»[١١٧]

ومن الواضح أن دلالة «سطع» مرتبطة بحاسة البصر التي تدرك المحسوسات المرئية ثم تطورت دلالة الانتشار والانبعاث في ضوء الصبح إلى الدلالة على كل منتشر أو منبعث ، نحو : سطع الغبار ، وسطعت الرائحة : فاحت وعلت وانتشرت ، وسطع السحاب ، وسطع البرق . . .

وتُصوِّر في دلالات أخرى معنى الارتفاع والاستطالة الموجود في دلالة «سطع الصبح» فقيل : سطاع : عمود الخباء ، وعنق سطعاء ، طويلة ومنتصبة ، ويصح أن يعد في هذا التطور معنى سطع بيديه : رفعهما مصفقا[١١٨]

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمنا» يقول الشاعر :[١١٩]

عرس الأحرار أن تسقي العدى
أكؤسا حمرا وأنغاما حزانى

إن دلالة «تسقي العدى أكؤسا» تعد من المجاز القديم ، ففي «أساس البلاغة : «ومن المجاز : تساقوا كأس الموت ، وساقيته إياها . .»[١٢٠] أي حارب بعضهم بعضا . أما دلالة «الأنغام» فهي مرتبطة بحاسة السمع التي تدرك الأصوات . غير أن الشاعر عمد إلى تجسيد الأنغام وجعلها مما يدرك بالذوق الحسي : الشرب . ويبدو أن دلالة «سقى» متطورة قديما إلى دلالات ذهنية خارجة على الحواس ، نحو :

---

(١١٥) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٣٢
(١١٦) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٢١٠
(١١٧) ابن منظور ، لسان العرب ، ٨/١٥٤ - ١٥٥
(١١٨) المصدر السابق ، ٨/١٥٥
(١١٩) شعره ، ص ١٨٠
(١٢٠) أساس البلاغة ، ص ٢١٥

استقى الأخبار والمعارف أي أخذها وتلقاها من مصادرها .

وفي موضع آخر نجد الشاعر قد عمد إلى تجسيد «الغناء» ، وهو مما يدرك بالسمع وجعله مما يتناول أو يتذوق عن طريق الفم . ففي قصيدة بعنوان «بأبي أنت وأمي» يقول :[121]

غنّني واسكب غناك ولماك
في فمي فتّيت فاك ، هل أراك
وعلى قلبي يداك ورضاك

وفي جانب آخر نجد أمثلة للتراسل بين حاستي اللمس والشم ، ففي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، يقول الشاعر :[122]

ملعب الأحلام ما أحـ
ـلاك حلو المبتسم
وإذا مسّك عطر
في أهازيج النسم
لتبرى الريشة والأو
تار والحبّ النغم

ويدل أصل «مسّ» على اللمس باليد[123] ، ثم تطورت الدلالة إلى كل مايلامس الجسد أو يقع أثره عليه أو يصيبه ، نحو مس الماء والسوط والمرض . . وغيرها من المحسوسات .

وقد نبه الأصفهاني إلى أصل الدلالة ، وما تطور منها من دلالات مجازية ، يقول : «والمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس ، وكني به عن النكاح ، فقيل : مسها . . وكني بالمس عن الجنون ، قال : «كالذي يتخبطه الشيطان من المس» ، والمس يقال في كل ماينال الإنسان من أذى . . .»[124]

ويمكن أن تعد دلالة «مس العطر» من التطور ضمن المحسوسات عن طريق التعميم . وفي مواضع كثيرة ترد مفردات تدل على العطر والشذا والأريج في سياقات تقوم على التجسيد التراسلي .

ففي قصيدة بعنوان «الفردوس» يقول الشاعر :[125]

هل للأزاهير عين لماها خبر
عن شاعر سكب الأطياب في فيها

وفي قصيدة بعنوان «عيد الحبيب» يقول :[126]

النور والعطر رقراقان في أفق
من المباسم مدّ الظن والنظر

وفي قصيدة بعنوان «الصبا والجمال» يعمد الشاعر إلى تجسيد «العبير» في قوله :[127]

سكر الروض سكرة صرعته
عند مجرى العبير من نهديك

---

(١٢١) شعره ، ص ٢٦٣
(١٢٢) شعره ، ص ٣٣٥
(١٢٣) لسان العرب ، ٦/٢١٥
(١٢٤) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص ٤٦٧
(١٢٥) شعر الأخطل الصغير ، ص ٧٣
(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٢١٨
(١٢٧) المصدر السابق ، ص ٤٩

وفي قصيدة بعنوان «مرحبا مصر» يجسد «الأريج» وينقله من الشم إلى اللمس والبصر . يقول :(٣٢٨)

ليس تألو الرياض أن توقظ الزهـ
ـر وأن تجمع الشذا ليس تألـو
تـريـق الأريج سـكـبـا وبـثـا
ـنـا على وجـه مصـر حيـن يطـل

وفي قصيدة بعنوان «لم إن قلبي» يجسّد «الشذا» ويجعله ماء . يقول :(٣٢٩)

وإذا النسيم وأنت في بحـر الشـذا
غـرق دنـا مـن وجـنـتـيـك لـيـلـثـمـا

وفي موضع واحد من قصيدة بعنوان «وردة من دمنا» اجتمع ضربان من التراسل أحدهما من السمع إلى البصر ، والآخر من اللمس إلى البصر . فقد عمد الشاعر إلى تجسيد «الأنين» وجعله مما يرشف بالعين . يقول :(٣٣٠)

وأتينا باحث النجوى بـه
عـربـيـا رشـفـتـه مـقـلـتـاك

ب - ويقف في القسم الثاني عند عدد من معطيات الحواس التي توسعت دلالاتها ، وخرجت من خصوصية التراسل . وسوف يبدو من خلال الأمثلة أن هذه المعطيات تعرّضت لجوانب متعددة من التطور ، حتى عد معظمها في الاستعمال اللغوي ، ولم تعد تشعر إجمالا على أنها مجازية ولو عن طريق الحساسية الأدبية واللغوية .

وهناك «بعض العبارات - وهي طبعا أكثرها ابتذالا - قد قبلها الجمهور ، وتفهمها كصفة الحلاوة التي تطلق قبل كل شيء على الطعم ثم على الصوت واللون واللمس ، بل وأخيرا على السجية الخلقية .»(٣٣١)

وترتبط الدلالة اللغوية لمادة «حلا» بحاسة الذوق : حلا الشيء صار حلوا وحلّى الطعام : جعله حلوا . . غير أن الدلالة خرجت إلى مجموعة من المعاني المجازية . ففي أساس البلاغة : «ومن المجاز : حلي فلان في عيني . . وحليْت الشيء في عين صاحبه ، وهو حلو اللقاء ، وحلو الكلام ، واستحليت هذه الجارية ، واحلولت لي . . وجارية حلوة العينين ، وتحالت المرأة : أظهرت حلاوتها . .»(٣٣٢)

ويظهر التطور - هنا - في ترسع الدلالة وخروجها من التخصيص بحاسة الذوق الحسية إلى الدلالة على كل مايروق ويحسن من منظر ، وسلوك ، وخلق وكلام . . إضافة إلى دلالاتها في وصف معطيات الحواس الأخرى كالشم والسمع . وفي نظرية الأدب ينقل المؤلفان عن «كامبل» صاحب فلسفة البلاغة قوله : إن صفة «حلو» وهي في الأصل تخص الذوق يمكن أن تستعمل الآن للروائح والأنغام والمناظر .»(٣٣٣)

---

(٣٢٨) المصدر السابق . ص ٦١
(٣٢٩) المصدر السابق . ص ٧٢
(٣٣٠) المصدر السابق . ص ١٨١
(٣٣١) هورنبك . الحس والأدب . ص ٧٩
(٣٣٢) الزمخشري . أساس البلاغة . ص ٩٤
(٣٣٣) وارين وويليك . نظرية الأدب . ص ٢٠٩

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «حلا» في مواضع متعددة ، ففي قصيدة بعنوان «وداد» يصف جمال ابنته ، ويقول :[١٣٤]

حــلاوة مهـمـا يـزد
يــوم عليهــا تــزد

وفي قصيدة بعنوان «أحلى الحب» يرد قوله :[١٣٥] «وإن كان أحلى الحب أول قبلة . . .» ، وفي قصيدة بعنوان «عروة وعفراء» ، يقول :[١٣٦]

يمشي لمنزله بنفس مغالب
مرّ الشقا بحلاوة الوجدان

وفي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، ويقول :[١٣٧]

ملعب الأحلام ما أحلى
ملاك حلو التبسم

ففي الموضع الأول ترد كلمة «حلاوة» لوصف الجمال الحسي ، وفي الموضع الثاني ترد كلمة «أحلى» لوصف اللذة الحسية في القبلة ، وفي الموضع الثالث ترد عبارة «حلاوة الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» متطورة في الفصحى المعاصرة إلى معان متعددة ، منها دلالتها على حالات نفسية من حيث تأثرها باللذة أو الألم ، وما يتعلق بالإحساس الداخلي Affectivite[١٣٨] ، وقد ذهب بعض المحدثين إلى عد هذا التطور من التطور غير المحمود الذي لامسوغ له .[١٣٩] وفي الموضع الرابع ترد «ماأحلاك» للدلالة على جمال الطبيعة ، وترد عبارة «حلو التبسم» للدلالة على جمال الإشراقة . وتوظف الدلالة ـ ههنا ـ لوصف جمال لبنان ومظاهر الطبيعة فيه

وتماثل دلالة «مرّ» صار مرّا التطور الذي تبيّناه في مادة «حلا» ، فدلالة «مرّ الشيء» صارا مرّا ، وأمرّ الشيء . . . مرتبطة بحاسة اللذوق التي تميز الطعوم . غير أن هذه الدلالة توسعت إلى وصف كل مستكره من منظر وكلام وأمر . . . وفي أساس البلاغة «ومن المجاز نزل به الأمران : الهرم والمرض ، ولقيت منه الأمرّين ، ومرّ عليه العيش وأمّر ، وما أمرّ فلان وما أحلى . . .»[١٤٠]

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «مرّ» في موضعين ، ففي قصيدة بعنوان «سلي الليل» يرد قوله :[١٤١]

سقيت مرارات الحياة فلم أجد
كمثل الذى يسقيه من كفك الهجر

وفي قصيدة «عروة وعفراء» مرّ بنا موضع وردت فيه كلمة مرّ في قوله : «مر الشقا بحلاوة الوجدان»[١٤٢]

---

(١٣٤) شعره ، ص ١٠٦
(١٣٥) شعره ، ص ٦٧٧
(١٣٦) شعره ، ص ٦٩١
(١٣٧) شعره ، ص ٣٣٥
(١٣٨) عبدالنور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص ٢٨٩
(١٣٩) المبارك ، محمد ، فقه اللغة وخصائص العربية ، ص ٢٣٣
(١٤٠) أساس البلاغة ، ص ٤٢٦
(١٤١) شعره ، ص ٧٦
(١٤٢) شعره ، ص ٦٩١

ونقف في ختام البحث في تطور المواد المتعلقة بالذوق عند تطور الكلمة الدالة على الحاسة نفسها «ذائقة» . والذوق حاسة تُميِّز بها خواص الطعوم بوساطة الجهاز الحسي في الفم ومركزه-اللسان .(١٤٣)

غير أن الذوق لم يعد مقتصرا على الذوق الحسي بل تطوّر إلى معنى «التعرّف» أو الملامسة الحسية ، وتطور إلى الدلالة على مد النظر إلى النساء وتفحص مواطن الجمال فيهن .

وفي الأدب والفن تدلّ مادة «الذوق» على حاسة معنوية ، أو ملكة الإحساس بالجمال ، والتمييز بين حسنات الأثر الفني وعيوبه(١٤٤) . وتطورت دلالة «الذوق» أيضا إلى شؤون الحياة والمجتمع كالذوق في اختيار الملابس ، والذوق في المعاملة والمجاملة ، والذوق في ترتيب المنزل . . .

وفي أساس البلاغة يعدّ الزمخشري دلالة «ذقت الطعام» الأصل الحسي ثم يعدّ الدلالات المتطورة جميعا من المجاز . يقول : «ومن المجاز : ذقت فلانا ، وذقت ماعنده . . وهو حسن الذوق للشعر إذا كان مطبوعا عليه ، وما ذقت اليوم في عيني نوما ، وذاق القوس : تعرّفها ينظر مامقدار إعطائها ، وذق قوسي لتعرف لينها من شدتها ، وقد ذاقتها يدي ، وتذاوق التجار السلعة ، وذاقت كفي فلانة إذا مستها . وفي الحديث «إن الله يبغض الذواقين والذواقات كلما تزوج أو تزوجت مدّ عينه أو مدت عينها إلى أخرى ، أو آخر .»(١٤٥)

ويمكن أن تردّ أمثلة الزمخشري إلى ثلاثة أضرب ، الأول : اللمس «ذاقتها يدي» والثاني : البصر «الذواقون والذواقات» ، والثالث : الحس المعنوي الفني «حسن الذوق للشعر» ، إضافة إلى الأمثلة التي تدل على التعرف ، نحو : ذاق القوس ، تذاوق التجار السلعة . . .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «الذوق» في عدد من المواضع . ففي قصيدة بعنوان «المسلول» ، يقول :(١٤٦)

لا لا أسلم ولا أذوق كـــرى
أنا لست من يحيا لفجـر غـد

وإنّ دلالة «أذوق كرى» من المجاز القديم الذي ذكره الزمخشري ، وقد غدت هذه الدلالة استعمالا لغويا لايثير في المتلقّي هزة انفعالية .

وفي قصيدة بعنوان «هند وأمها» يقول :(١٤٧)

عـرفتهم واحــدا واحــدا
وذقت الـذي ذقتـه مـرتين

وتقترب دلالة «ذقت الذي ذقته» من معنى التعرّف ، ومعاناة الشيء . وفي قصيدة بعنوان «سلمى الكورانية» يقول الشاعر :(١٤٨)

(١٤٣) المعجم الوسيط ، ٣١٨/١
(١٤٤) عبدالنور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص ١١٨
(١٤٥) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ١٤٧
(١٤٦) الديوان ، ص ٢٥٥
(١٤٧) الديوان ، ص ٣١٩
(١٤٨) الديوان ، ص ٥٥

إذا أرتك الجبال الغيد كاسية
فالشط أذوق منها حين عرّاها

وعلى الرغم من أن دلالة «أذوق منها» عامة غير مخصصة ، فإنه من الممكن أن تعد في الذوق الفني الذي يختص بالجمال الحسي .

وفي قصيدة بعنوان «شاعر النيل» يقول :[١٤٩]

أنت والنيل ضفتان لمصر
تنبتان الأذواق والأرزاقا

وإنّ إنبات الأذواق ـ ههنا ـ دلالة مجازية يمكن أن تسلك في الذوق الفني الذي يدل على ملكة الإحساس بالجمال في جميع مناحي الفكر والأدب والفن .

• • •

٣ ـ أثر التطور الدلالي الحديث في تراكيب مجازية شائعة :

ويخصص القول في هذه الفقرة لدرس عدد من التراكيب المجازية «الصور الفنية» ضمن سياقها النظمي syntagmatique . ولعزى جدة الصورة ـ ههنا ـ إلى ورود كلمة متطورة دلاليا فيها ، أو قيامها عليها ، ويلاحظ أثر الترجمة في حداثة عدد من الصور ، إضافة إلى ارتباط بعضها بالسياق الاجتماعي والحضاري الحديث .

وتجدر الإشارة إلى أننا وقفنا عند عدد من الصور المجازية ضمن المواد المحلّلة في القسم الأول ، غير أن اهتمامنا كان موجها إلى رصد التطور الدلالي الحقيقي دون غيره من جوانب التطور ومجالاته .

آ ـ ففي جانب من جوانب الدرس المجازي ـ ههنا ـ نقف عند عدد من الصور المتطورة بتأثير الترجمة ، وما ينشأ عنها من إشراب الكلمة العربية دلالة الكلمة الأجنبية ، فتغدو أكثر ارتباطا بالعصر ومعطياته .

وأول مانقف عنده تركيب وصفي هو «ابتسامة صفراء» ، وتقوم الصورة ـ ههنا ـ على تجسيد الابتسامة وإعطائها صفة لونية «الصفرة» ، وتختص هذه الصفة في نظام الألوان «السيميولوجي» بالدلالة على القلق وعدم الاستقرار والذبول ، وشحوب الحياة .

وقد ذهب الدكتور إبراهيم السامرائي إلى عدّ هذا التركيب الصوري المجازي من التعابير الأوربية المترجمة ، يقول : «ضحكة صفراء أو ابتسامة صفراء ، وهو في الفرنسية Rile jaune»[١٥٠] .

ودل السياق الذي وردت فيه هذه الصورة في شعر الأخطل الصغير على ارتباطها بجو المرض والشحوب ، فالحديث كان عن مرض أحمد شوقي في لبنان .[١٥١]

والتركيب الثاني هو «وجهك المستعار» ، ونميل إلى عدّه تعبيرا مترجما ، أو متأثرا بالعادات الأوربية الحديثة في وضع الأقنعة المستعارة في الحفلات التنكرية . ويبدو ـ ههنا ـ تطور الدلالة الحسي إلى الدلالة على المظهر الكاذب والرياء والخداع .

(١٤٩) شعره ، ص ٢١٤
(١٥٠) السامرائي ، د . إبراهيم ، فقه اللغة المقارن ، ص ٢٨٩
(١٥١) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٩

وفي الفرنسية Masque قناع ، وجه مستعار ، ومظهر كاذب ، ورياء . وbal Masque حفلة راقصة تنكرية .(١٥٢)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد عبارة «وجهك المستعار» في موضع واحد . يقول :(١٥٣)

فـانهب الـعيش لا أبـا لـك نهبـا
واطْـرح عـنـك وجهـك المستعـارا

وفي أحد أعداد مجلة «الأداب» وقفت على التركيب نفسه واردا في شعر خليل حاوي ، وفي افتتاحية العدد .(١٥٤)

والتركيب المجازى الثالث هو «لبس الغار عليه الأرجوان» ، ودلالة «إكليل الغار» مستمدة من الفرنسية على مايبدو . فالغار Laurier إكليل ، وانتصار وتكلل بالمجد .(١٥٥)

وفي المعجم الوسيط «الغار : كان الرومان يتخذون منه إكليلا يتوجون به القائد الظافر أو الشاعر المفلق رمز لمجده .»(١٥٦)

وقد أضفت كلمة «الغار» المتطورة عن طريق إشرابها معنى الكلمة الفرنسية وما تحمله من دلالة ثقافية ، جدة وحداثة في التركيب المجازى الصورى .

ودل السياق على استعمالها للدلالة على المجد والنصر والتضحية . يقول :(١٥٧)

ياجهـاداً صفـق المجـد لـه
لـبس الغـار عليـه الأرجوانـا

وفي سياق صورة فنية ترد عبارة «قوس من النور» للدلالة على شاهنامة الفردوسي ، ويبدو أن هذا التركيب المجازى مستمد من دلالة «قوس النصر» ، وهو عقد من خشب أو نحوه يقام فوق الطريق العام في شكل قوس ويزين بالمصابيح والأعلام ونحوها .(١٥٨) ويقابل هذه الدلالة التعبير الفرنسي Arc de triomphe

يقول الأخطل الصغير :(١٥٩)

قـوس من الـنـور صـاحت تحتـه أمم
وغـايـة من ظـلى غـى الـردى فيهـا

ب - وفي قسم آخر من التراكيب المجازية الحديثة ، ترد مجموعة مستمدة من السياق الاجتماعي والحضارى الحديث .

ونقف عند تركيب وصفي هو «الليالي الحمر» ، وهو تركيب مجازى يدل على انتهاب الملذات في النوادى الليلية ، أو السعي إلى تهيئة الشراب والملذات في مكان آخر .

ودل السياق الذى وردت فيه هذه العبارة على

(١٥٢) عبد النور ، د. جبور ، وإدريس ، د. سهيل ، المنهل الوسيط ، ص ٥٠٤
(١٥٣) الهوى ، ص ٩٥
(١٥٤) مجلة الآداب ، بيروت ، عدد ٧ ، سنة ٩ ، تموز ، ١٩٦١ م ، ص ٢٠٩
(١٥٥) المنهل الوسيط ، ص ٦٧٧
(١٥٦) المعجم الوسيط ، ٢ : ٦٦٦
(١٥٧) الشعر ، ص ١٥٩
(١٥٨) المعجم الوسيط ، ٢ : ٧٦٦ ، المصطلحات العلمية والفنية ، ٣ / ١٩
(١٥٩) الشعر ، ص ٦٦

ارتباطها بالجو الاجتماعي الحديث . ولا يخفى - ههنا - أثر الصفة اللونية «الحمرة» ، فالحمرة من الألوان المهيجة وترمز غالبا إلى اللذة والمتعة الحسية . يقول الأخطل الصغير :(١٦٠)

غنّي يابلبلي ، واسقني ياجدولي
الليالي الحمر لي والشراب

كذب الواشي وخابْ
من رأى الشاعر تابْ
عمره فجر من الحب
وليل من شرابْ

وترد تراكيب متعددة مستمدّة من دلالة «تاج» ، و«عرش» غير أن مايهمنا ههنا هو ارتباط التعابير المجازية بالسياق الاجتماعي والحضاري الحديث .

ففي مناسبة تتويج «ملكة الجمال» ، ترد كلمتا «تاج» و«عرش» في السياق التالي :(١٦١)

الصبا والجمال ملك يديك
أيّ تاج أعزّ من تاجيك
نصبجالحسن عرشه فسألنا
من تراها له فدل عليك

ويلاحظ - ههنا - توسع في الاستعمال المجازي في عبارات غدت شائعة الاستعمال ، نحو «عرش الشهرة» و«عرش العلم» و«عرش البطولة» . ونقف عند تركيب «عرش الحسن» فالعرش في هذا السياق مرتبط بجو عصري هو تتويج ملكة الجمال في حفل ذي رسوم معلومة .

ويبدو أثر التقليد الحديث «تتويج ملكة الجمال» في السياق كله ، فدلالة «التاج» غدت رمزا للتكريم ، ويبدو أنها مستمدة من ضفر التاج لدى الرومان ووضعه على رؤوس الملوك والشعراء والعظماء .

وقد وردت عبارة «ضفر الغار» للدلالة على التكريم في شعر الأخطل الصغير ،(١٦٢) كذلك وردت عبارة «ترى تاجا يضفر» للدلالة على مكانة عمر بن أبي ربيعة وسبقه .(١٦٣)

ونميل إلى عد هذه التراكيب من التراكيب الحديثة دلاليا ، ومجازيا ، ولايخفى أثر التقاليد الاجتماعية الحديثة في تطورها .

ح - ونلمح مواقع التطور الدلالي في تراكيب مجازية شائعة ، وسوف نقف عند ثلاث مواد استمدت منها الصور المجازية .

فالإكليل كلمة معروفة قديما بدلالتها على التاج المزين بالجوهر ، وقد وردت كلمة «التاج» مرادفة كلمة «الإكليل» ، في موضعين من لسان العرب .(١٦٤)

ويبدو التطور الحديث في دلالة «الإكليل» على طاقة من الورد والزهر ، وقد تعددت أغراض الأكاليل في عصرنا ، وأهمها مايقدم في مناسبات الزواج والأفراح ،

(١٦٠) شعره ، ص ٦٩
(١٦١) شعره ، ص ٤٥
(١٦٢) الهوى والشباب ، ص ١٧٦ - ١٧٧
(١٦٣) شعره ، ص ١٥١
(١٦٤) لسان العرب ، ٢١٩/٦ ، ٥٩٥/١١ - ٥٩٦

والأتراح ، وقد ذهب المعجم الوسيط إلى النص على حداثة هذه الدلالة .[١٦٥]

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «إكليل» في عدد من التراكيب المجازية المتطورة من دلالة الإكليل الحسية . ففي الحديث عن «الزهاوي» ترد عبارة «إكليل الأديب»[١٦٦] ، وفي الحديث عن «شاعر النيل» ترد عبارة «أكاليل من زنود وأجياد»[١٦٧] .. وفي الحديث «مصرع النسر» ، ترد عبارة «الأكاليل من ذؤابة هاشم»[١٦٨] ، وفي حديث الشاعر عن شعره يرد قوله : «صنت الأكاليل من نور ومن أرج للمجد ...»[١٦٩] .

وتشير المواضع المذكورة إلى تطور دلالة «الإكليل» المجازية إلى رمز الرفعة والمكانة السامية ، ويرد في الموضع الأخير إشارة إلى أكاليل الفرح في الأعياد . فقصائد الشاعر أكاليل تزدان بها الأعياد ، ومجال الطرب والشعر .

وهناك دلالة مجازية مستمدة من دلالة «الإكليل» في طقوس الزواج المسيحي ، والإكليل - ههنا - غدا رمزا للقاء الحبيبين في يوم الزواج . وترد كلمة «الإكليل» للدلالة على الزواج عن طريق المجاز المرسل في قوله :[١٧٠]

وأنه سوف يسعى سعي مجتهد
حتى يوطىء للإكليل مسراها

وفي شعر عمر أبي ريشة دلالة مماثلة ، يقول :[١٧١]

ودعتنا إلى لقاها فهبنا الـ
ـحب والثلج حامل إكليله

وهناك كلمة أخرى دارت على ألسنة أكثر الشعراء المعاصرين ، وهي «الملاك» ويلاحظ أن هذه الكلمة غدت رمزا للجمال والطهر والبراءة . وقد فارقت هذه الدلالة أصلها الحسي الذي يدل على الرسول الذي يحمل رسالة ، والملك المرسل إلى الأنبياء ، وغدت من المجاز الحديث .

ودلالة «الملاك» محدثة ، وتدل على ملك نوراني يتشكل بأشكال مختلفة .[١٧٢] وقد استعملت هذه الكلمة في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية . وهي واردة في عهده القديم للدلالة على «رسول الرب» أي «ملاك» .[١٧٣]

وفي موضعين من مواضع كثيرة يظهر التطور المجازي . ففي قصيدة بعنوان «عشت فالعب بشعرها» يقول :[١٧٤]

من ملاك في بردتيها مقيم
جسد طاهر وروح كريم

وعيا فيه ترى الحسن حيا

---

(١٦٥) المعجم الوسيط ٢ /٧٩٦.
(١٦٦) شعره ، ص ٢٦٦
(١٦٧) شعره ، ص ٢١٣
(١٦٨) شعره ، ص ٢٢٨
(١٦٩) شعره ، ص ٣١٨
(١٧٠) الفروق والشا ، ص ٢٦١
(١٧١) ديوان أبي ريشة ، ١ /٢٥٤
(١٧٢) المعجم الوسيط ، ٢ /٨٨٦
(١٧٣) سفر التكوين ، الإصحاح ١٦ ، الآية ٧ - ١١
(١٧٤) شعره ، ص ١٣٣

وفي قصيدة بعنوان «أترى يذكرونه» ، يقول :[١٧٥]

قلت أهـواك يامـلاكي فـردت
مقلتـاه . لكـن للعشـم فـوه

ويبدو استعمال كلمة «ملاك» في كلا الموضعين دالا على جمال المحبوب ، وبراءته وطهره . وهي صفات ملحوظة في دلالة «الملك النوراني» . ويمكن أن تعد كلمة «ملاك» رمزا من الرموز الدينية في الشعر الحديث .

وفي مواضع أخرى ، ترد كلمتا «ملاك» و«ملك» للدلالة على المحبوب أو الملك النوراني في سياقات مجازية .[١٧٦]

والهيكل هو بناء البيعة يرتفع أو صحنها ، وموضع في صدر الكنيسة يقرب فيه القربان . وقد نص الوسيط في طبعته الأولى على حدثة هذه الدلالة .[١٧٧]

ويبدو للدارس تطور دلالة «هيكل» في الشعر الحديث عن طريق المجاز إلى معنى مستحدث يدل على بيت الشاعر ، وملاذه ، ومكان ذكرياته ، وأشواقه . ومن الواضح أن هذه الدلالة المجازية متطورة من دلالة «الهيكل» على بيت العبادة وما يحدث فيه من مناجاة وبوح ودعاء .

وفي الشعر الحديث ترد كلمة «هيكل» بدلالاتها المجازية في مواضع كثيرة ، ففي ديوان الشوقيات «هيكل الحرية»[١٧٨] و«هيكل الاسجاح»[١٧٩] ، وفي ديوان أبي ريشة «هو ذا هيكلي ..»[١٨٠] و«ليس في هيكل جمال لشمشوم»[١٨١] ، وفي الشعر المعاصر للطاهر مكي يرد قول فدوى طوقان «أنا هنا وحدي بهيكل ذكرياتي ..»[١٨٢] ، ومن قصائد الشابي المشهورة قصيدة بعنوان «صلوات في هيكل الحب»[١٨٣]

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «هيكل» للدلالة على موضع الذكرى ، والقداسة . ففي وقوفه أمام الصحراء العربية يرد قوله عن نفسه : «إحدى الشموع أمام هيكلك الرهيب»[١٨٤] وفي تحية موجهة إلى نضال فلسطين يرد قوله : «فلسطين ياهيكل الذكريات ..»[١٨٥] وفي سياق الحديث عن اكتشاف الكهرباء يقول على لسانها : «التحجبت .. ولما دنس هيكلي»[١٨٦].

وتشير المواضع الثلاثة إلى استعارة دلالة «هيكل» : بيت العبادة ، وتوظيفها في سياقات مجازية .

ويسوّغ اتجاه الدرس وقوفنا عند جانب آخر من الدلالة ، «فالهيكل» : الضخم من كل شيء ، والفرس ، والبناء المشرف . وتشير الأصول إلى دلالة

(١٧٥) شعره ، ص ٢٦٤
(١٧٦) شعره ، ص ٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٢ ، ٣٢٢ ، «ملاك» ، وص ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٨٧ ، «ملك»
(١٧٧) المعجم الوسيط ، ١٠٠١/٢ ، ط . أولى ، تصوير ، د . ت
(١٧٨) الشوقيات ، ١٥٢/٢
(١٧٩) المصدر السابق ، ١٥٣/٢
(١٨٠) ديوان أبي ريشة ، ١٨٨/١
(١٨١) المصدر السابق ، ٢٤٩/١
(١٨٢) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . أولى ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢٥
(١٨٣) الشابي ، أبو القاسم ، أغاني الحياة ، دار مصر ، القاهرة ، ط . ١٩٥٥ م ، ص ١٢١
(١٨٤) شعره ، ص ١٦٨
(١٨٥) شعره ، ص ٢٩٩
(١٨٦) شعره ، ص ٣٥٣

«هيكل» على أنماط ضخمة من الشجر ، ثم انتقلت إلى الخيل تشبيها ، وفي مرحلة تالية تحولت إلى شكل جديد طارئ على أهل الجزيرة العربية هو «بيت النصارى» ، وفي دلالة «الهيكل» تتضح قدرة العربية على التكيف مع المستحدثات .[١٨٧]

والتطور الحديث في هذا الجانب مستمد من دلالة «البناء» ، ففي الفصحى المعاصرة غدت كلمة «هيكل» تدل على بناء أساسي في المصطلحات الأدبية والفنية والصناعية .

ففي المجال الأدبي النقدي ، يقال مثلا «هيكل القصيدة» و«هيكل القصة» . ويلاحظ أيضا ظهور المصدر الصناعي الجديد «الهيكلية» ، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي structuralisme ، وقد ترجم إلى «بنيوية» ، و«بنائية» ، و«بنيانية» أيضا[١٨٨] .

د ـ وفي مواد أخرى يلاحظ الدارس أثر المجاز في شيوع الدلالة ، ويعد المجاز في هذا الجانب سببا من أسباب التطور باتجاه التعميم .

فالعرس : الزفاف ، والتزويج ، ووليمتها ، غير أنّ هذه الدلالة توسعت عن طريق المجاز في تراكيب شائعة في الفصحى المعاصرة ، نحو : عرس المجد ، وعرس البطولة ، وعرس الأحرار . .

ويلاحظ الدارس إطلاق كلمة «عرس» على الأفراح والمناسبات التي استجدت في حياتنا ، نحو إطلاق كلمة «عرس» على فرحة الاستقلال ، والنصر ، أو الشهادة ، وترتبط الشهادة بدلالة العرس من جانب اجتماعي ووطني ، فقد غدا سماع نبأ الاستشهاد مدعاة لإطلاق الزغاريد ، ومن هنا جاء وصف الشهادة بأنها عرس .

ويمكن أن ننتهي إلى أنّ كلمة «عرس» غدت تطلق على كل فرح مهما كان نوعه ويشكل الاستعمال المجازي في الشعر أساسا لهذا التطور .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «عرس» في مواضع كثيرة ، وسوف نقف عند أهم التراكيب المجازية ، ونحيل إلى الباقي . ففي قصيدة بعنوان «ليالي الجهاد» ، ترد عبارة «عرس البطولة» في السياق التالي[١٨٩] :

أو كقيثارة علاها غبار الـ
مجد غنت عرس البطولة قبلا

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمناه» ، ترد عبارة «عرس الأحرار» ، في قوله[١٩٠] :

عرس الأحرار أن تسقي العدى
أكؤسا حمرا ، وأنغاما حزانى

وفي مواضع أخرى ، ترد كلمة «عرس» للدلالة على الفرح عامة . نحو «نحن عرسان للغناء والشعر»[١٩١]

(١٨٧) الفاية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية في نقد الشعر ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .
(١٨٨) المسدي ، د . عبدالسلام ، الأسلوبية والأسلوب ، ص ٢٠٤ ، وعوريتاك ، الفن والأدب ، ص ٣٢٣ ومندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهب ، ص ١٢٩ ، والموقف الأدبي ، عدد ١٣٥ ـ ١٣٦ ، تموز ـ آب ١٩٨٦ م ، ص ٢٠٠ والفكر العربي المعاصر ، عدد ١٩/١٨ ، شباط ـ آذار ١٩٨٢ م ، ص ٩٧
(١٨٩) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٣
(١٩٠) المصدر السابق ، ص ١٨٠
(١٩١) المصدر السابق ، ص ٣٦

و«حَنَّت لعرسك عرس الشعر . .»[192] ، و«عرس ماجت البشائر فيه»[193] في وصف استقبال روح حافظ ابراهيم في جنة الخلد . و«عرس أهازيجه حمر . .» في وصف ذكرى الاستقلال[194] ، و«عاد العرس مأساة» ، في وصف نكبة لبنان بحكامه بعد فرحة الاستقلال .[195] ، و«إسلام فارس أعراس»[196] في وصف فرحة الفرس بالدين الجديد . وترد أيضا في مواضع أخرى في سياق صور فنية تقوم غالبا على المشابهة .[197]

وتماثل ماوقفنا عنده مواضع متعددة في الشعر الحديث ، ففي شعر أبي ريشة «عرس المجد» و«عروس المجد»[198] ، وفي شعر بدوي الجبل «حلت زغردة العرس لكم» في وصف فرحة الاستقلال[199] ، وفي مختارات الشعر العربي المعاصر ، يرد قول سليمان العيسى «العرس عرس المجد لم تر لمي أشهى وأحلى» وقوله : «أنا من عرينك في الشمال تمرّ بي الأعراس عجلى» ، وقوله : «عرس العروبة . .»[200]

وفي أثرين نثريين : «وإذا هو رأى الأعراس والأفراح أيام فيصل . .»[201] ، «ولكن النكسة حلت والناس في عرس ، فيست الزغاريد في الحلوق ودالت دولة ووئد استقلال . .»[202]

والأحلام هي عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء ، ولكن غلبت «الرؤيا» على مايراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب «الحلم» على مايراه من الشر والقبيح ، ومنه قوله تعالى : «أضغاث أحلام»[203] ، ويستعمل كل واحد منها موضع الآخر .[204]

وفي أساس البلاغة «ومن المجاز : أحلام نائم للأماني الكاذبة»[205] . ويبدو أثر الاستعمال المجازي في تطور دلالة «الأحلام» إلى كل مايدل على الرغبة ، والأمل ، والأمنية والطموح ، إضافة إلى الدلالة على مفهوم «الأحلام» في التحليل النفسي الحديث ، وما استحدثوه من مصطلحات ، نحو «أحلام اليقظة» ، «وهو ضرب من التخيل يرضي الفرد فيه العنان لنفسه فيهيم بين صور خيالية لذيذة مشبعا رغبات لم تشبع في الحياة الواقعية .»[206]

ويبدو أنّ هناك علاقة مابين مايراه النائم في نومه ، وما يتمناه في صحوه وحياته ، وقد شغل تحليل الأحلام نفسيا كثيرا من مدارس التحليل النفسي الحديثة .

---

(١٩٢) المصدر السابق ، ص٧٥
(١٩٣) المصدر السابق ، ص٢١٢
(١٩٤) المصدر السابق ، ص٢٣١
(١٩٥) المصدر السابق ، ص٣٢٨
(١٩٦) المصدر السابق ، ص٧٤
(١٩٧) المصدر السابق ، ص٨٦ ، ١٠٧ ، ١٢١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٣٢١
(١٩٨) ديوان عمر أبي ريشة ، ٤٣٧/١
(١٩٩) ديوان بدوي الجبل ، ص٩٥
(٢٠٠) (٥) ، (٦) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص٢٣٦ ، ٢٣٩
(٢٠١) العطار ، أنور ، ظلال الأيام ، المقدمة ، ص(ن)
(٢٠٢) الدقاق ، د . عمر ، فنون الأدب المعاصر ، ص١٤
(٢٠٣) (٩) يوسف ، آية /٤٤
(٢٠٤) لسان العرب ، ١٤٥/١٢
(٢٠٥) أساس البلاغة ، ص٩٤
(٢٠٦) المصطلحات العلمية والفنية ، ١٦٦/١

وفي شعر الأخطل الصغير ترد تراكيب مجازية كثيرة ، ويبدو أن المجاز ـ هنا ـ تحول إلى حقيقة ، ويؤيد ذلك شيوع الاستعمال في الفصحى المعاصرة .

ونكتفي بالإشارة إلى أهم التراكيب المجازية ، ونحيل بعدئذ إلى الباقي ، ففي مواضع متعددة ترد كلمة «حلم» للدلالة على الأمنية ، نحو «حلم عربي»[٢٠٧] ، وللدلالة على الرغائب «حلم اللهو والشراب . .»[٢٠٨] ، وللدلالة على الآمال «أنشدت أحلامي على فارغ من خشب القلب»[٢٠٩] و«باقصور المنى على شفق الأحلام . . أطلعت شمس فيصل للعرب مصابيح»[٢١٠] و«أعيادك البيض أحلام مجنحة . .»[٢١١] . ومواضع أخرى كثيرة .[٢١٢]

وفي مواضع مماثلة ترد كلمة «الأحلام» في شعر أبي ريشة «مابلغنا بعد من أحلامنا ذلك الحلم الكريم . .»[٢١٣] ، و«يشرح لي أحلامه»[٢١٤] ، و«سرت وملء الشرب أحلامي»[٢١٥] ، ومواضع أخرى[٢١٦] .

وفي مختارات «الشعر العربي المعاصر» ، يرد قول سليمان العيسى «ويجسد الحلم الكبير على شفاه الحاضر . .» و«أهلا فتى العرب وحلمهم . .»[٢١٧] . وفي مقدمة «ظلال الأيام» : «أيام سعدنا بأحلام الشباب» و«وقف شعره على تقديس الألم العبقري فبكى الأحلام الضائعة . .»[٢١٨]

---

(٢٠٧) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٤٩
(٢٠٨) المصدر السابق ، ص ٣٠٩
(٢٠٩) المصدر السابق ، ص ٨٥
(٢١٠) المصدر السابق ، ص ٢٤٠
(٢١١) المصدر السابق ، ص ٣١٨
(٢١٢) المصدر السابق ، ص ٣٢ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ١٠٩ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٥٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٤ .
(٢١٣) ديوان أبي ريشة ، ١/٤٤٤ ، ٤٥٥ .
(٢١٤) المصدر السابق ، ١/٢٩٨
(٢١٥) المصدر السابق ، ١/٢٥٩
(٢١٦) المصدر السابق ، ١/٩٣ ، ٨٤ ، ١٦٩ ، ١٩٥ ، ٣٦٥ .
(٢١٧) مكي ، الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٧ .
(٢١٨) العطار ، أنور ، ظلال الأيام ، المقدمة ، ص (م - ي)

المصادر والمراجع

إبراهيم ، طه أحمد تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ، د . ت
ابن الأثير ، ضياء الدين المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٩ م
ابن كثير السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م
ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، (تصوير) ، د . ت
أبو ريشة ، عمر ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط رابعة ، ١٩٨٦ م
الأشتر ، د . محمد صبري الشعر في سورية بين الحربين ، آمالي مستنسخة في كلية الآداب بجامعة حلب ، ١٩٧١ م - ١٩٧٦ م
الأصفهاني ، الراغب المفردات في غريب القرآن ، دار المعرفة ، بيروت ، د . ت
بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط أولى ، ١٩٧٨ م
الثعالبي فقه اللغة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت
جبران ، جبران خليل البدائع والطرائف ، مكتبة كرم ، دمشق ، د . ت
الجرجاني ، عبدالقاهر دلائل الإعجاز ، تحقيق د . محمد رضوان الداية ، دار قتيبة ، دمشق ، ط أولى ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م
الخوري ، بشارة (الأخطل الصغير) الهوى والشباب ، دار المعارف ، ١٩٥٣ م
شعر الأخطل الصغير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ثالثة ، د . ت
خياط ، يوسف ، ومرعشلي ، نديم المصطلحات العلمية والفنية ، دار لسان العرب ، بيروت ، ١٩٧٠ م
داغر ، يوسف أسعد معجم المسرحيات العربية والمعربة ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨ م
الداية ، د . فايز الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ،
دار الملاح ، دمشق ، ط أولى ، ١٩٨٦ م
الدقاق ، د . عمر ، فنون الأدب المعاصر في سورية ، دار الشرق ، حلب ، ط أولى ، ١٩٧١ م
نقد الشعر القومي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٨ م
رتش ، آ . ك المجاز الذهني ، ترجمة د . عبدالواحد لؤلؤة ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ م
الزمخشري (محمود بن عمر) أساس البلاغة ، تحقيق عبدالرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م
السامرائي ، د . إبراهيم فقه اللغة المقارن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ثالثة ، ١٩٨٣ م
السيوطي المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، البابي الحلبي ، القاهرة ، د . ت
الشابي ، أبو القاسم أغاني الحياة ، دار مصر ، القاهرة ، ط أولى ، ١٩٥٥ م
شاهين ، د . عبدالصبور في علم اللغة العام ، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ م
الشهابي ، مصطفى المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م
شوقي ، أحمد الشوقيات ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٥٣ م
صبو ، مارون على المحك ، دار الثقافة ، بيروت ، ط رابعة ، ١٩٩٠ م
عبدالنور ، د . جبور المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط أولى ، ١٩٧٩ م
عبدالنور ، د . جبور ، المنهل الوسيط (عربي) ، دار العلم للملايين ودار الآداب ،
وادريس ، د . سهيل بيروت ، ط أولى ، ١٩٧٢ م
العطار ، أنور ظلال الأيام ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٤٨ م
العقاد ، عباس محمود أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، دار المعارف بمصر ، ط ثانية ، د . ت
قميحة ، د . مفيد محمد الأخطل الصغير ، حياته وشعره ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط أولى ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م
الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، تحقيق محمد علي دولة ، دار القلم ، دمشق
الكفوي ، أبو البقاء الكليات ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط ثانية ، ١٩٨١ م ، ١٩٨٢ م
المبارك ، محمد فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر ، بيروت ، ط سابعة ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م
مجمع اللغة العربية بالقاهرة المعجم الوسيط ، دار الفكر ، ط ثانية ، د . ت
المسدي ، د . عبدالسلام الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط ثانية ، ١٩٨٢ م
مكي ، د . الطاهر أحمد الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط أولى ، ١٩٨٠ م
مندور ، د . محمد الأدب ومذاهبه ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د . ت
المنذري الترغيب والترهيب ، تحقيق مصطفى عمارة ، البابي الحلبي بمصر ، ط ثالثة ١٩٥٤ م
هو ، غراهام مقالة في النقد ، ترجمة محيي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م
هورتيك ، لويس الفن والأدب ، ترجمة د . بدر الدين القاسم الرفاعي ، مراجعة د . عمر شخاشيرو ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٨ م
هيغل ، الفن الرمزي ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٩ م
وهبة ، مجدي والمهندس ، كامل معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩ م
ويليك ، رينيه ، ووارين ، أوستن نظرية الأدب ، ترجمة محيي الدين صبحي ، مراجعة د . حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ثانية ، ١٩٨١ م

الدوريات

مجلة الآداب ، بيروت ، العدد /٦/ ، حزيران (يونيو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١ م
مجلة الآداب ، بيروت ، العدد /٧/ ، تموز (يوليو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١ م
مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، العدد (١٨ - ١٩) ، شباط - آذار ، ١٩٨٢ م
مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٢٠/ ، نيسان ، ١٩٨١ م
مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٢٢/ ، حزيران ، ١٩٨١ م
مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق العدد /١٣٥ - ١٣٦/ تموز - آب ، ١٩٨٢ م
مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٣٨ - ١٣٩/ ت ١ ، ت ٢ ، ١٩٨٢ م

المراجع باللغة الفرنسية

Dubois (j.), Giacomo (M.), Guespin (L.) Marcellesi (J.B.),
Mevel (J P.).
Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris 1973.
Guiraud (P.)
La semantique, Que sais-je? presses universitaires de France 8e edition, Paris 1975.

السياق التاريخي والثقافي للشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي

بنعيسى بوحمالة

عندما خصصنا المبحث الرابع للنزعة الزنوجية في الشعر السوداني المعاصر ، ضمن سياقها التاريخي والثقافي ، عللنا هذا المسلك بأهمية دمج المستوى الدلالي للمتن ورؤية الشاعر للعالم في بنية شعرية أشمل ، تربطها بالمتن علاقة مرجعية دالة ، وذلك بمقتضى إجرائية المنهج الذي اخترناه وحاولنا الإفادة من طرائقه . فحتى تستوفي بنية المتن تماسكها دلاليا ورؤيويا كان من اللازم أن نلحقها ، وفق ما فعلنا ، بالحقل الشعري الذي أنتجها وحدد لها ملامحها التكوينية ، وعلى ضوء هذا أليس من الوارد والحتمي القيام بنفس المسلك إزاء الحقل الشعري السوداني الموسوم بنزعته الزنوجية ؟ نقصد أليس في الإمكان دمج هذا الحقل الشعري ، المرجعي مبدئيا ، في بنية شعرية تشمله هو الآخر ، وتتيح لنا فهمه بشكل أوسع مما رأينا ؟ وبالتالي ألا يجوز أن ينتقل المرجع من وظيفته التفسيرية للمتن إلى وظيفة أخرى تجعل منه بنية قابلة لأن تُفَسَّرَ هي في حد ذاتها ، اعتمادا على بنية أكبر ، أو على مرجع المرجع ؟ كل ما تساءلنا حوله ممكن وجائز ، بل وضروري أيضا ، نظرا إلى (أن دراسة هذه البنية الأوسع تستلزم بدورها القيام بدمجها في بنية أخرى تتعالق معها ، وتحتويها)[1] .

هذا إذن ما سنلجأ إليه في البحث الراهن ، بحيث ستنصب مقاربتنا على بنية شعرية ، تحوز ، بالقوة وبالفعل ، أواصر مرجعية مع ما حددناه كنزعة زنوجية في الشعر السوداني المعاصر ، وهذه البنية الشعرية المقصودة هي الشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي ، مؤطرا بإطاره التاريخي والثقافي .

وتجنبا لأي تمام مفرط ، قد يجرنا إليه هذا المسلك ، نبادر إلى القول إن ما سنقوم به لا يتعلق ببحث ما في

(١) Lucien Goldmann : (Marxisme et sciences humaines) p. 19

احتمالات التأثير التي من الجائز أن تكون للشعراء الزنوج الأفارقة - الأمريكيين على الشعراء السودانيين ، أو استكشاف قرائن ما لانعكاس شعر أولئك على شعر هؤلاء ، فنحن لا يهمنا لا هذا ولا ذاك ، وإنما الذي يعنينا في الأساس هو محاولة التقاط ما يمكن أن نعتبره نقاطا للتشابه والتشارك بين الشعرين ، أو ما يمكن عده ، باللغة الغولدمانية ، عناصر تماثل بنيوي ، لا تنحصر في تناظرية المكون الدلالي - الرؤيوي في كليهما ، بل وتمس سياقها التاريخي والثقافي . لكن قبل أن نشرع في تحليل مختلف جوانب الشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي ، أليس من المجدي أولا تناول الكلمة - المفتاح ، الزنوجة ، وتفكيك مدلولها ، وما رافق هذا المدلول من حيثيات ، وصولا إلى تبيان مضاعفاتها المتعددة ، جماليا ودلاليا ورؤيويا ، على كامل الفعاليات الثقافية لدى زنوج إفريقيا وأمريكا والأنتيل .

يقول ليوبولد سيدار سنغور في استجواب مثل علاقته من مفهوم الزنوجة : (للكلمة معنى مركب : موضوعي وذاتي ، موضوعيا تعني الزنوجة ، مثلما حددت ذلك ، « مجموع القيم الحضارية للعالم الأسود » ، أما ذاتيا فإنها تعني الطريقة التي يتخذها أي زنجي أو أية مجموعة سوداء في ممارسة القيم الآيلة إلى حضاريا)(٣). هذا هو التعريف الذي سطره سنغور للزنوجة ، وسواء أخذنا من هذا التعريف المعنى الموضوعي ، أو أخذنا المعنى الذاتي ، ففي المحصلة تكون حيال رؤية وجودية خاصة تشترط ممارسة الفرد الأسود ، كما تشمل سائر العالم الذي يحيا به السود . لكن هناك شيء يجب أن نثبته وهو أن كلمة الزنوجة ، كصيغة لغوية ، لم تكن من وضع سنغور ، إذ أن (أول من صاغ مصطلح الزنوجة هو شاعر الهند الغربية إيمي سيزير عام ١٩٣٩ ، وتبناه على الفور ليوبولد سيدار سنغور)(٣) ، وقد وردت الكلمة لأول مرة ضمن ديوان سيزير المشهور (مذكرة عودة إلى بلدي) الذي نشر في العام نفسه .

هذا ما يتعلق بمفهوم الزنوجة وبولادتها ، وريثما نفصل الحديث في جل ما يرتبط بالزنوجة ، من حيث تدرجها المفهومي ، ومن حيث ردود الفعل التي خلفتها ، نرى لزاما أن نعود إلى فترة ما قبل ولادة الكلمة ، إلى الممهدات التي سبقتها ، وبالتالي إلى الأفكار والطروحات التي راجت في العالم الأسود قبل أن ترتسم الزنوجة كحركة فكرية على يد الثلاثي المعروف ليوبولد سيدار سنغور ، وإيمي سيزير ، وليون داماس . أهل يعقل مثلا أن تكون الزنوجة قد نهضت ، كمشروع حضاري في انقطاع عن إرهاصات مبكرة ؟؟ طبعا لا ، وحتى مع عدم حيازة تلك الإرهاصات لنفس المدلول الذي التصق بالزنوجة ، فهي ترشح بتحليل مقارب للتحليل الذي أعطته الزنوجة لمختلف إشكاليات العالم الأسود . إن تلك الإرهاصات تبقى ذات وزن كبير أثناء أي تناول للزنوجة ، لأنها تدلنا على الانشغالات التي استبدت بالفكر الزنوجي ، في ظل التجربة التاريخية المريرة التي مر بها السود وهم يواجهون مشروع تدمير هويتهم . إننا نقصد بهذه الانشغالات مواقف ووجهات نظر لا تخلو من تماسك ، مظانها كتابات ثلة من المثقفين السود ، ممن سبقوا جيل سنغور وسيزير وداماس .

وربما أمكن إرجاع نقطة الوعي الزنوجي إلى القرن الثامن عشر ، إلى أحد الفلاسفة الأفارقة ، إنه آمو غينيا

(٢) (Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre. In (Magazine litteraire) no. 195-Mai 1983-P. 31.

(٣) بيه. س. ليه : (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٢٦٦ .

آفير أو آمو فيتيا الإفريقي ، أحد المسكوت عنهم في تاريخ الفلسفة الإنسانية . فلقد كان لإحساس هذا الفيلسوف بمأزقه العبودي ـ بحيث أخذ من إفريقيا إلى أوربا كعبد في بداية الأمر ـ تأثير كبير في تفتح وعيه على هويته المغايرة ، وفي إدراكه لحيوية التسلح بالمعرفة الغربية ، الفلسفية خاصة ، لكي يتمكن من التنظير لمأزقه العبودي ولمغايرة هويته ، باعتبارهما مأزقا ومغايرة يهمان ملايين من إخوانه السود . وهكذا كان حرصه على التكوين الفكري لشخصيته ، وعلى النهل من نفس الثقافة الغربية التي تسوغ استعباده واستعباد أبناء جنسه ، فكان نبوغه الفلسفي في ألمانيا مثار انتباه الأوساط الفلسفية ولفتة ، بل ولقد أوصله للعيشه الفكرية ، وهو الأسود المستعبد ، إلى التربع على كرسي التدريس الجامعي في جامعات « هال » و « ويتنبرغ » و « إينا » خلال العقد الرابع من القرن الثامن عشر . ومن هنا كان ضروريا أن تفضي هذه التجربة الفذة ، أي قدرة أسود على امتلاك الثقافة الغربية ، إلى نشوء وعي لدى آمو بجدارته الإنسانية ، وبأحقية السود في وضع حقوقي يعيد إليهم الاعتبار ، فكتب مقالا باللاتينية تحت عنوان « حقوق الأفارقة بأوربا » ، ومما لا ريب فيه أن (هذا المقال ذو أهمية ، ذلك أنه يؤكد إلى أي حد كان آمو على وعي بوضعيته كإفريقي ، وإلى أي حد كان أيضا منشغلا بمشكلة الاسترقاق وبالشرط الاجتماعي للسود في أوربا)[1] .

فالمقال بمعالجته الريادية لمشكلة الاسترقاق ، ولاصطدام السود المنقلين إلى أوربا بمناخ اجتماعي مغاير ، يبقى في نظرنا محطة أساسية في سيرورة الفكر الزنوجي ، ومعلمة مضيئة تكشف عن إدراك للخصوصية السوداء ـ قبل فترة الثلاثينات التي شهدت تفصحا في الحديث عن هذه الخصوصية ، هي فترة الميلاد الرسمي للزنوجة . فالجوهري في استحضارنا لآمو هو هذا المقال بالذات ، فهو وثيقة تضيف إلى قيمتها التاريخية ، التي لا جدال فيها ، قيمة أولية تتضح في تعبير آمو عن وعي بالدونية وبالاختلاف ، وأيضا عن وعي بأهمية تجاوز هذه الدونية القسرية ، ثم التنظير لاختلاف الهوية الزنوجية عن الهوية البيضاء ، مع العلم أن الإحساس بالدونية والاختلاف هو الذي حرك كل الأوعاء الزنوجية التي سبقت ميلاد الزنجية أو تولدت من صلبها . لقد كان آمو رجل لاهوت ومنطق وميتافيزيقا ، بيد أن ما تكتسيه الوثيقة الآنفة من وزن يفوق وزن كل ما خلفه من تراث نظري ، ولعل الفضل في اكتشاف تلك الوثيقة يعود إلى الزعيم الإفريقي قوامي نكروما . هذا من جانب ومن جانب آخر فإن اختيار آمو ـ بعد استعادته لحريته ـ العودة إلى مسقط رأسه له دلالته القصوى في رأينا ، إذ فضل الرجوع إلى افريقيا بالرغم من الإغراءات الكثيرة التي أتاحتها له إقامته في أوربا . إن العودة من لدن فيلسوف ، لن يجد حتما في قارته مناخا علميا مواتيا ، تأخذ بعدا عميقا ، فهي اختيار وجودي دال ، ووعي بضرورة الانشداد إلى فضاء وثقافة ذاتيين ، داخلهما يجب أن يتأمل ويبدع بدل المكوث في فضاء وثقافة غريبين .

وإذا ما انتقلنا إلى القرن التاسع عشر فسوف نواجه علما آخر كان لآرائه ، ولا شك ، أثر ملموس في مفهوم « الشخصية الإفريقية » ذي الصلة الوثقى بمفهوم الزنوجة ، إنه إدوارد ويلمت بلايدن ، المفكر الزنوجي الذائع الصيت ، خصوصا في أوساط المثقفين السود الناطقين بالإنجليزية وكما كان للثقافة الغربية فضلها في تململ وعي الفيلسوف آمو ، يقدم بلايدن مثالا إضافيا

(1) Paulin J. Hountondji : (Sur la "philosophie africaine") P. 149.

لما أسهمت به هذه الثقافة ، بشكل غير مباشر ، في تحسس مثقف أسود لإشكالية علاقته بتاريخه الخاص ، وبالثقافة البيضاء التي لا تتوانى عن تحطيم تاريخه ذاك ، ومن لب هذه الثقافة المعادية صنع بلايدن منظوره النقدي لأوضاع العالم الأسود ، ويبحث في احتمالات تجاوز السود لما يطبع أوضاعهم من انفصام واختلال على أكثر من وجه .

لكن إذا كان آمو قد نهل من معين الثقافة اللاتينية السائدة آنئذ في أوربا ، فإن بلايدن قد متح من مصادر ثقافية أنجلو ساكسونية ، بفضل استقراره لفترة في الولايات المتحدة ، وعلى شاكلة آمو فقد تقلد هو الآخر منصب الأستاذية بجامعة « ليبيريا » ج كما أفادته زيارته لأوربا في الاطلاع على ثقافتها .

إن بلايدن ينتمي إلى تلك الفئة من المثقفين الزنوج التي رجعت ، ضمن من رجعوا ، إلى إفريقيا بعد صدور قانون العودة الأمريكي الذي خول للعبيد المحررين تأسيس كيان وطني في ليبيريا وسيراليون ، فتولد لدى هذا المفكر شعور بعمق الفوارق بينه وبين أبناء جلدته على المستويين الثقافي والاجتماعي . فهو القادم من أمريكا ، والمتفتح على الفكر الغربي ، والقادر على استيعابه ، في حين يرزح إخوانه السود تحت نير الجهل ، مع عجزهم عن تحليل إشكالية علاقتهم بالعالم الأبيض المسؤول عن أوضاعهم . وهو المثقف الزنوجي المشحون بالقيم وبالتقاليد الغربية ، بينما يعيش هؤلاء الذين ظلوا في إفريقيا في بؤس فظيع ، وهذا ما دفعه إلى أن يصب جماع تفكيره على تأسيس خطاب يكفل تفسير هذه المفارقة العميقة ، ويقدر على تحليل عناصرها ، بحثا عن تأصيل مغايرة سوداء عن الثقافة البيضاء ، هذه الثقافة التي كان بلايدن على وعي بمضاعفاتها على شخصيته الوجودية والفكرية . وبهذا يعد (أول مثقف أسود فكر تفكيرا زنوجيا خالصا وجعل من إفريقيا وحدة أصيلة متميزة عن سواها)[٥]، فإليه يرجع (مفهوم « الشخصية الإفريقية » وهو ما كانوا يرددونه إلى نكروما ، فقد كان من مفاهيمه التي تردد فيها يخطب ويقول)[٦]، وعلى ذكر نكروما لابد أن نشير إلى التأثير الذي كان لأفكار بلايدن على أطروحاته ، بل إن ذلك التأثير لم يقتصر على نكروما وإنما تعداه إلى أغلب مثقفي إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، وكذا قطاع واسع من مثقفي إفريقيا الناطقة بالفرنسية . وعلى أي فقد (يطول شرح النظرية التي انتهى إليها بلايدن ، فهي تذكر من عدة وجوه بالنظرية التي استنبطها ليوبولد سيدار سنغور ودعاها الزنوجية)[٧].

وفي نفس القرن يمكن أن نذكر دائما إسما آخر اقترن بدوره بنفس المنظور الفكري للمسألة الزنوجية ، ويتعلق الأمر هذه المرة بالفكر الزنوجي الأمريكي ويليام دي بوا الذي شرع ابتداء من عام ١٨٩٠ في الدفاع عن أصولية الشخصية السوداء في المجتمع الأمريكي . لقد عرف ديبوا كرجل فلسفة ، درس في جامعتي « هارفارد » و « برلين » ، واختتم مساره التعليمي بالحصول على شهادة الدكتوراة في الفلسفة ، لكن بموازاة اهتماماته الفلسفية كانت له اهتمامات أخرى بقضايا العالم الأسود والشخصية السوداء . وعلى الرغم مما طبع أفكار ديبوا من تجزيئية ، مردها إلى اقتناعه بالفوارق الواردة بين السود الأفارقة وسود الشتات على مستوى الأولويات

---

(٥) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٤٩ .
(٦) جلال عبد الحق : (وجدان إفريقيا) ص ٦٧ .
(٧) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٦ ، ص ٥٠ .

النضالية بحيث كان (يدافع عن حقوق سود أمريكا ناظرا إليهم كأمريكيين ، ويثير في الإفريقيين حمية إنجاز تحررهم على أرضهم)[٨]. قلنا على الرغم من هذه التجزيئية فإننا لا يمكن أن نتغاضى عن جهده في تحليل بعض مآزق السود السياسية والاجتماعية على وجه الخصوص . إن خطاب دي بوا ينشد إلى ما هو (إيديولوجي أكثر من انشداده إلى ما هو حضاري في كليته وشموليته ، ومع ذلك فإن الزاوية الأكثر مردودية في هذا الخطاب تتجلى أولا في تأثيره القوي على أفكار وأطروحات كل من جورج بادمور ، وكوامي نكروما ، وجومو كينياتا ، الذين هم أقطاب ما يعرف بمفهوم « الشخصية الإفريقية » ، وثانيا في تحول الخطاب المذكور إلى ما يشبه الإنجيل لدى مجموعة من المبدعين الزنوج الأمريكيين الذين شملهم حول تيار زنوجي أمريكي يدعى « اليقظة الزنوجية » ، إذ استمد هذا التيار الكثير من مرتكزاته الفكرية مما سطره دي بوا حول الشرط اللاإنساني للسود في مجتمع أبيض واضطهادي كالمجتمع الأمريكي ، وكان من بين أعضاء هذا التيار لانغستون هيوز ، وكلود ماك كي ، وكونتي كولن ، وستير لينغ براون ، وجان تومير . . . الذين أصدروا بيانا مشهورا حددوا تضمنه بعضا من مواقفهم وتصوراتهم حيال المسألة الزنوجية ، ومما جاء في هذا البيان : (نحن بناة الجيل الزنجي الجديد نريد التعبير عن شخصيتنا وأصالتنا الزنجية دون أي شعور بالخجل أو الخوف . فإذا كان ذلك يروق للبيض فسنكون سعداء كثيرا . وإذا كان لا يروقهم فلا نبالي بذلك أبدا . نحن نعلم علم اليقين أننا على جانب كبير من الجمال ومن القبح في الوقت نفسه . إن الطبلة تنوح وتضحك ، إذا كان يحلو لهم سماعها فذلك يسبب لنا فرحا عظيما . أما إذا كانوا لا يحبون سماعها فلا يهمنا ذلك أبدا . نحن نبني معابدنا كما يحلو لنا ، ونقف بأنفة وإباء وقد تحررنا من الذل والعبودية)[٩] .

ولا ريب أن البيان يكشف ، بكثير من الوضوح ، عن البرنامج النظري لتيار « اليقظة الزنوجية » ، وهو برنامج يخدم مشروع التعبير عن الشخصية الزنوجية داخل محيط إثني وثقافي أبيض ، كما يبين عن جرأة فكرية في الإفصاح عن وعي أسود أمريكي ، متحرر من ثقل المركبات التاريخية التي راكمتها عقود من المحاصرة والاضطهاد .

وإجمالا فقد شكل مشروع « اليقظة الزنوجية » بوتقة انصهرت فيها روافد فكرية عديدة ، بحيث يحضر التراث الزنوجي والمسيحية ، مثلما تحضر الشيوعية السوفياتية وفلسفة اللاعنف الغاندية . ولا شك أن طبيعة هذه الروافد تبين توجه الاختيارات الفكرية والإيديولوجية لتلك الجماعة من المثقفين الزنوج الأمريكيين ، فبقدر ما أولوا للتراث الزنوجي أهمية كبيرة جذبتهم إلى المسيحية قيمها الإنسانية كالعدالة والإخاء . . وكما انتقوا من الشيوعية معاداتها للاستغلال الرأسمالي آثارهم في الغاندية تمجيدها لقدرة التقاليد الروحية الشرقية على مغالبة الجبروت والاضطهاد الأبيضين . وهكذا عملوا على استثمار كل هذه الروافد لتحليل مجمل المآزق العلائقية مع العالم الأبيض ، مع تركيزهم على ضرورة التخلي عن (وضعية التسول

---

(٨) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du xx e siecle) P. 15.

(٩) خليل خطا : (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة « المعرفة » ش ٢٠ العدد ٢٣٥ - سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

الثقافي التي كان عليها الأمريكي الأسود)[١٠]، وعلى ضرورة (امتلاك وعي بالهوية)[١١].

لقد ساد هذا التيار لفترة امتدت من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٨ ، الشيء الذي يؤكد سبقه التاريخي على نشوء الحلقة الباريسية التي اقترن ذكرها بمفهوم الزنوجة ، بل إن تماسك التصورات وتشبع النصوص الإبداعية بروح زنوجية أصيلة ، وهما ما ميزا كتابات أعضاء « اليقظة الزنوجية » ، جعلا شهرة هذه الأخيرة (توصل تأثيرها شيئا فشيئا إلى جزر الأنتيل الفرنسية ، وكوبا ، وهايتي ، ثم فرنسا حيث كانت تتبلور النخبة الفتية للمستعمرات الإفريقية)[١٢]، وهذا يفيد وصول أصداء معينة من وراء المحيط إلى مقهى « مونبارنس » الباريسي حيث كان يجتمع سنغور وسيزير وداماس ، زيادة على ما كان لزيارات لانغستون هيوز وكلود ماك كي لباريس من آثار لا تنكر على توجهات الثلاثي الناطق بالفرنسية .

إن استعراضنا للمحطات الفكرية التي سبقت الولادة الرسمية لمفهوم الزنوجة يهدف إذن إلى تجلية المسار الذي سلكه الوعي الزنوجي قبل فترة الثلاثينات ، فالمفهوم لم ينبلج من فراغ ، ولم ينهض في أرض يباب ، وإنما ولد في نطاق تراث مهد له وغذاه حتى استوى يافعا على يدي كل من سنغور وسيزير وداماس . وإذا كان لنا أن نسمي ما استعرضناه بالوسائط الفكرية الممهدة للزنوجة ، يمكن ، بالمقابل ، أن نستعرض الوسائط الإعلامية التي احتضنت أقلاما عرفت بإسهامها في تأسيس الزنوجة ، وذلك من خلال الكتابة في مجلات وصحف اصبح تاريخها جزءا من تاريخ الحركة الزنوجية . (ففي عام ١٩٣٢ ، ظهرت بباريس مجلة صغيرة طبعت رسميا ، وبمعنى من المعاني ، بداية الأدب الزنوجي المكتوب بالفرنسية)[١٣]، وقد تأسست على يد مجموعة من الطلبة المارتينيكيين الذين كانوا يدرسون بباريس ، أشهرهم سيزير ، ثم انضم إليهم السينغالي سنغور والغوياني داماس . كان اسم المجلة هو « الدفاع المشروع » ، ولعل في هذه التسمية ما يدل على نمط التحليل الذي ارتآه هؤلاء الطلبة ، فالمسألة تتعلق إذن بموقف دفاعي : دفاع عن الهوية ، ورد الاعتبار لمجموعة إثنية خضعت لعنف متعدد مورس عليها ، عنف عبودي وعنف استعماري وعنف ثقافي . . . وبموازاة هذا الدفاع أعلنت المجلة عن انحيازها إلى القوى المناهضة لكل تلك الأشكال من العنف ، لذلك تضامنها مع الأممية الثالثة ومع المثل التي اعتنقها الحزب الشيوعي الفرنسي .

ومادام الحقل الإبداعي الذي ألف بين هؤلاء الطلبة هو الحقل الشعري فقد نزعوا إلى إبداع كتابة شعرية متحررة من نفوذ الجمالية الكلاسيكية والرومانسية الفرنسية ، ومنفتحة على التقنية الشعرية للبرناسيين والسرياليين ، إلى جانب تأثرهم بشعراء تيار « اليقظة الزنوجية » . ومع إدراك هؤلاء الطلبة لضيق أفق الاختيار على مستوى لغة الكتابة ، فإنهم حاولوا تطويع

(١٠) — Jean marie lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de negritude) in :
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، السنة ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، العددان الثاني والثالث ، ص ٥٣٤ .

(١١) — Ibid, P. 534

(١٢) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du xx e siecle) P. 21.

(١٣) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturge noirs du XXe siecle) P. 75.

بنية اللغة الفرنسية حتى تستوعب أنساطا من الثقافة السوداء ، مما يعني عزوفهم عن كثير من القيم التعبيرية في اللغة الوسيطة الإجبارية ، و(ضمن هذا العزوف الذي هو تطلع إلى تحرير الأسلوب ، كان تطلع المجلة إلى تحرير الخيال والشخصية الزنوجيين)[١٤]. ونظرا للضغوط التي اعترضت « الدفاع المشروع » سواء من طرف غلاة الفرنسيين ، أم من طرف البورجوازية السوداء في الأنتيل لم تتمكن إلا من إصدار عدد واحد (يونيو ١٩٣٢) . ثم جاءت بعدها صحيفة « الطالب الأسود » التي طالت مدة صدورها بالمقارنة مع « الدفاع المشروع » ، إذا انطلقت في عام ١٩٣٤ لتتوقف عام ١٩٤٠ . ومرة أخرى نواجه تسمية لا تخلو من دلالة ، ففي الوقت الذي كان في الإمكان صوغ عناوين ذات إيحاء أدبي تعمد أصحابها تسميتها بـ « الطالب الأسود » كنوع من الإفصاح عن خطاب أدبي قادم إلى باريس من وراء البحار ، أبدعه مبدعون ينتمون إلى ثقافة تتحفز للأخذ بمصيرها . لقد تركزت جهود الصحيفة على إنضاج وعي أسود جماعي يوحد بين سود إفريقيا وسود الأنتيل داعية إلى التخلص من الأفكار القبلية والإقليمية ، وإلى تجنب الذوبان في الحضارة البيضاء ، وفي نفس الاتجاه (طالبت « الطالب الأسود » بالحرية الإبداعية للزنجي خارج كل تقليد غربي ، إلا أنها ذهبت بعيدا فعينت الوسيلة التي سيتمكن بها الأسود من تحقيق تحرره من أي احتواء : هذه الوسيلة تكمن في العودة إلى الينابيع الإفريقية)[١٥]، أي الرفض المطلق لأية رابطة مع الغرب من غير رابطة اللغة ، والتحرر من القيم والتقاليد الغربية فكان (من الحتمي أن يؤسس هذا الموقف القاعدة لثورة ثقافية أصيلة ، ومن هنا كان ميلاد حركة الزنوجة)[١٦]، أما المبدعون الذين كانوا يسيرون الصحيفة فهم سنغور ، وسيزير ، وداماس ، ثم التحق بهم كل من ليونار سانت فيل ، وأرسطوتيد موجي ، وبيراجوديوب ، وأوسمان سوس ، والأخوين أشيل .

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية توقفت الصحيفة ، بسبب تشتت الملتفين حولها ، فقد انضم سنغور إلى الجيش الفرنسي والتحق بالجبهة ، أما سيزير فقد عاد إلى المارتينيك ليصدر مجلة باسم « مدارات » ، بحيث ستفرز هذه المجلة بعض الأسماء الثقافية اللامعة ومنها فرانز فانون ، وإدوار كليسان ، ورولي دوبيستر ، وجورج ديبورث بينما اختار داماس الصمت والانسحاب نتيجة متاعب سياسية . لكن الإحباطات التي تولدت عن انعدام الصحيفة كمنبر حيوي للنخبة الثقافية الزنوجية بباريس سرعان ما تبددت ، وذلك إثر ظهور مجلة جديدة خلفت إسما بليغا هو الآخر وهي مجلة « الحضور الإفريقي » التي ظهرت بفعل جهد ومثابرة رعيل آخر من المثقفين السود المتواجدين بباريس كالسينغالي أليون ديوب ، والغوادولوبين بول نيجير ، وكي تيروليان ، والعاجي برنار دادي ، والداهوميين آبيثي وبيهانزان ، وأخيرا الملغاشي رابيمانانجيرا .

وقد صدر العدد الأول من « الحضور الإفريقي » في يناير ١٩٤٧ ، بكل من باريس وداكار ، ثم تلته أعداد

---

(١٤) — Abdallah Benzmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poésie negro-africaine) in
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس لسنتي ١٩٧٩ - ١٩٨٠ ، العددان الثاني والثالث ص ٢٦٨ .

(١٥) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du XXe siecle) P. 79.

(١٦) — Abdallah Benzmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poésie negro-africaine). in
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس - لسنتي ١٩٧٩ - ١٩٨٠ العددان الثاني والثالث ، ص ٢٦٧ .

منتظمة تضمنت مواد ونصوصا تدور حول قضايا العالم الأسود وخاصة الثقافية منها، وهكذا عالجت قضايا الآداب الشفوية، والموسيقى الزنوجية الإفريقية - الأمريكية، كالجاز مثلا، كما لم تغفل إضاءة جوانب من الفلسفات الإفريقية، وجوانب من المعتقدات لدى زنوج الأنتيل كالفودو الهايتي. ولم تكتف المجلة بإصدار أعدادها المنتظمة، بل وازت ذلك بإصدار منشورات في مختلف الحقول الثقافية عرفت بـ (منشورات الحضور الإفريقي). ومما لا شك فيه أن انضمام أسماء وازنة، سواء من العالم الأسود، أو من فرنسا، إلى الأعضاء المؤسسين قد خدم تطور المجلة وذيوعها وسمعتها العالمية، ومن بين هذه الأسماء سنغور، وسيزير، والأمريكي ريتشارد رايت، والداهومي بول هازومي، وسارتر، وجيد، ومونيي، وبالانديي. كانت هذه إذن نظرة على ما دعوناه بالوسائط الفكرية والإعلامية التي اعتمدتها الحلقة الباريسية في إطلاق صيحة الزنوجة كعقيدة تتوخى توحيد العالم الأسود، فامو، وبلايدن، ودي بوا، وأعضاء تيار «اليقظة الزنوجية» هم الذين أرسوا المقدمات الفكرية الأساسية لولادة الزنوجة، في حين مثلت منابر «الدفاع المشروع» و«الطالب الأسود» و«الحضور الإفريقي» المجال الإعلامي الذي رعى الزنوجة ودعم حضورها وأمدها بأسماء مبدعة إضافية. ولنعد الآن إلى المفهوم في حد ذاته، فقد قلنا سابقا إن الفضل في ابتكار كلمة الزنوجة يعود في المقام الأول إلى إيمي سيزير الذي أوردها في ديوانه (مذكرة عودة إلى بلدي) (١٩٣٩)، ومن ثم شاع تداولها بين المثقفين السود، وفي حلقات وكتابات

المثقفين البيض، (ووجدت جمهورها شيئا فشيئا خلال السنوات القليلة التي تلت ذلك التاريخ، وخلقت حركة أدبية جديدة بين الزنوج الناطقين بالفرنسية)[١٧]، إن سيزير («سيكتشف مهانته» حين كان بفرنسا يهيء شهادة الإجازة في الآداب)[١٨]، وإثر ذلك خاطب سنغور قائلا: (يجب علينا أن نثبت زنوجيتنا)[١٩].

كذا بدأت قصة الزنوجية، لكن ماذا يعني أن يثبت سيزير وسنغور زنوجيتهما؟ يعني أن يتشبثا بحضارتهما، وأن يعكفا على تاريخهما، وأن يتركا مسافة كافية بينها وبين الحضارة البيضاء، على أن ترك المسافة لا يشير إلى قطيعة نهائية بقدر ما يشير إلى ضمان تماسك الذات السوداء، وتزويدها بالثقة في حضارتها وفي تاريخها، ثم شحنها بروحيتها الجماعية لأن (البحث عن روح جماعية يعد أمرا معقولا ومقبولا عندما نتذكر بأن كلا من سنجور وسيزير وداماس لهم خلفياتهم المتباينة، أتوا من جهات متفرقة من العالم، وتتباين ظروفهم الاجتماعية، لا يؤلف بينهم سوى لون جلودهم ويأسهم، وربما الأصول المشتركة البعيدة، ونظرا لأن حالتهم النفسية أو روحهم غير مستريحة فليس هناك أفضل من البحث عن روح جماعية)[٢٠]. وعليه فقد (تأمل ثالوث الزنوجة ذلك كله ثم انتهوا إلى أنهم رسل لبلادهم، وأن عليهم إثبات حقهم في الحياة أولا، ثم تحطيم خرافة «التفوق الأبيض» ثانيا، ثم إنشاء أدب يحمل الحب والأمل للعالم، ولو أدى ذلك إلى الاشتداد في استرداد وجههم المفقود الذي حاول المستعمرون طلاءه باللون الأبيض وتزييف أصالته)[٢١].

---

(١٧) إيمي سيزير: (سبعة أنباء من إفريقيا) ترجمة: علي شلش، ص ١٩.
(١٨)
(١٩)
(٢٠) الدكتور محمد عبد الغني سعودي: (قضايا إفريقية) ص ٢١٢.
(٢١) علي شلش: (الزاد من الأدب الإفريقي) - ص ١٣.

— Frantz Fanon : (peau noire, masquesblancs) P. 156.
— Stanislas Adolevi : (Negritude et negrologues) P. 16.

بهذا يتجلى نوع التحليل الذي اتخذه الثلاثي المؤسس للزنوجة ، فهناك الإيمان بجدارة العالم الأسود وبجدارة حضارته وتاريخه ، وهناك أيضا إلماع ضمني على تفكيك إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، التي اغتالت ثقة السود في جدارتهم بين الأمم والأجناس . إن الزنوجة أقرب إلى صرخة الوليد الذي يطل معلنا عن حياته بعد تعاقب ألوان من الموت المادي والنفسي ، حملتها عهود الاضطهاد الأبيض ، وهي أيضا سلاح واق من الاستلاب الحضاري ، ومن الإحساس بالدونية أمام النموذج الحضاري الغربي ، ولذلك التف الثلاثة حول أهمية تحويل الزنوجة إلى عقيدة لحماية الشخصية السوداء ، وتلافي الاختلافات الجغرافية والاجتماعية ، إذ أن ما يوجد بين السود هو لونهم وهويتهم المشتركة . ولنستمع إلى سيزير متحدثا عما يجمعه مع سنغور (إن ما يجمعنا هو الرفض المطلق لأن نكون مستلبين ، لأن نفقد روابطنا بيلدانا ، وبشعوبنا ، وبلغاتنا)[٢٢] . إذن فقد آن الأوان لتحطيم سلطة اللون ، من حيث كونها حاجزا أمام ملاقاة الشخصية السوداء لهويتها الحقيقية ، فاللون في نظر سنغور (أشبه بالسجن الذي يحجب حقيقة الشخصية)[٢٣] ، أو كما يقول الكاتب الهايتي رولي دوبيستر (لقد صُيِّرَ اللون حاجزا منيعا بين جنسي الأسود وما حققه في التاريخ)[٢٤] .

لأول مرة عمت ، بفضل الزنوجة ، حساسية مشتركة بين المثقفين السود بباريس ، فاندثرت تلك الدعوات الإقليمية التي زكاها الاستعمار ، من مثال هذا سينغالي والآخر عاجي ، وهذا كاميروني والآخر ملغاشي ، وهذا أمريكي والآخر مارتينيكي ، لأول مرة توطدت عقيدة الانتماء الواحد والمصير الواحد . وتعد هذه العقيدة أحد أهم مكاسب الزنوجة ، إذ يسرت وحدة الصف إمكانية تأسيس خطاب فكري يهم جماع العالم الأسود ، في قضاياه المادية والروحية ، بقطع النظر عن عوامل اختلافه المصطنعة . وقبل الحديث عن مختلف المدارس الشعرية الزنوجية يحلو بنا أن نبسط القول في أبرز جوانب هذا الخطاب ، وأن نتناول أهم الإشكاليات التي استقطبت بال أصحابه ، إلا أننا سنركز أكثر ما يمكن على آراء سنغور باعتباره الناطق الرسمي باسم الزنوجة ، ويشفع له في هذه الحظوة لمعيه وغزارة كتاباته النظرية بالمقارنة مع رفاقه .

وربما اعتبرنا العلاقة مع الغرب أسخن جبهة واجهت الزنوجة ، سواء على مستوى المكتوب النظري أم على مستوى الإبداع الشعري ، لماذا هي أسخن جبهة على الإطلاق ؟ الغرب هو معقل أزمات الذات السوداء ، فالاصطدام بالغرب هو الذي أنشأ السؤال المركزي حول مصداقية الكلام عن حضارة سوداء لها القدرة على صيانة العالم الأسود من خطورة الهيمنة الثقافية البيضاء ، كما تستطيع إفحام أساليب التشكيك المنهجي للبيض في تاريخ السود وثقافتهم ، لذا انكبت الزنوجة على تحليل هذه الزاوية لأنها المدخل الرئيسي لمشروع الهوية الزنوجية وتصليب منطقه البنائي .

وهكذا شرعت الزنوجة في الحديث عن وجود حضارة سوداء ، وعن تلادة هذه الحضارة ، وعبقريتها ، بل وإخصابها لكثير من الحضارات الإنسانية ، وإن كان هناك شيء جدير بالذكر فهو الدور الذي مارسته كتابات

(٢٢) — Aime cesaire, Negre rebelle) in (Le Monde de dimanche) No. 11463-dimanche 6 december 1981-P. 1.

(٢٣) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٢ .

(٢٤) رولي دوبيستر : (الأسس الاجتماعية الثقافية للشخصية) ، (الثقافة الإفريقية) ص ٣٠٠ .

بعض المثقفين الغربيين المتنورين فيما يخص إعادة تقييم الحضارة السوداء ، الأمر الذي فتح المجال أمام الاعتراف بتعددية حضارية ، بدلا من الفكرة القائلة بألا وجود لحضارات من غير حضارة الغرب . وإذن غدا من المشروع أن يشار ، وبشيء من الزهو ، إلى ما حققته الأمبراطوريات والممالك الإفريقية من إنجازات حضارية ، وذلك على أكثر من صعيد ، وفي هذا الإطار (نخرج بحقيقة وجود قديم جدا ، على بيدر متفرقات ، يمتد من النيل الأبيض حتى بحيرة تشاد ، هو وجود عناصر نموذجية ، من الحضارات العائدة إلى العصر الثاني الصحراوي وما يقابله قدما في مصر . وهذا ما يفسر ، على الأقل ، التشابهات المدهشة بين بعض مؤسسات مصر القديمة والعوائد الجارية عند سكان ضفاف النيل الأزرق اليوم)[٢٥] ، ولعل هذا يذكرنا بالتشابه الكبير الذي كان بين الحضارة المروية[٢٦] والحضارة المصرية القديمة ، والأكثر من هذا يجوز أن نؤكد (أن المعركة الأكثر أهمية لعلم التاريخ الإفريقي المعاصر كانت ولا تزال هي معركة مصر القديمة ، التي اقترنت باسم السينغالي الشيخ أنتاديوب ، إذ تتعلق القضية بإسهام فائق في مجال المصريات ، والكيمياء ، والفيزياء النووية ، مثلما تتعلق بتحديد الصبغة « الزنوجية » لمصر الفرعونية[٢٧]) .

أما في القرون الوسطى فيمكن أن يشار إلى أمبراطوريات غانا والداهومي ومالي والكونغو . . . وإلى حضاراتها الباذخة ، وهو ما يدل على عبقرية العقل الزنوجي ، وقدرته على خلق أنماط عقائدية ، وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وفنية حملت سمات متميزة .

فقد عرفت المجتمعات الإفريقية فكرة الألوهية فأبدعت طقوسها التعبدية الخاصة ، بينما قام نظام الحكم لديها على قواعد وأصول تكشف عن غير قليل من الضبط والتنظيم ، وعلى صعيد الاقتصاد توصلت تلك المجتمعات إلى تحقيق حاجاتها الحيوية ، أما الفائض فكان يُسوَّق إن بالنقد أو بالمقايضة ، في حين لم تعرف المجتمعات المذكورة التفاوت الطبقي ، مادامت الحياة تقوم على أساس التعاضد والتكافل ، وهو ما دفع سنغور إلى الحديث عن اشتراكية إفريقية أصيلة . وعندما نتكلم عن الفنون فلا نعتقد أنه يمكن القفز على ما خلفه الفنانون السود من تحف وروائع ، خاصة في المعمار والنحت ، ولو أن أقدم إنتاج فني إفريقي يصل إلى القرن الخامس قبل الميلاد (ثقافة نوك) ، ومع بداية العصر الميلادي يمكن معرفة الثقافة الزيمبابوية في القرن السادس الميلادي ، وكذلك ثقافة ساو SAO في القرن التاسع . وفي القرن الثالث عشر ظهرت الإمبراطوريات الإفريقية الكبيرة (اليوروبا وبنين) واعتبارا من القرن الخامس عشر ظهرت امبراطوريات الكونغو وداهومي . . . الخ وقد أنتجت هذه الممالك أعمالا فنية عديدة وهامة حتى القرن التاسع عشر أي عندما وصل الأوربيون ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الفن الإفريقي عملية التراجع)[٢٨] . والواقع أن (الفن الإفريقي يؤلف « حكمة مكتوبة »

(٢٥) دنيز بولم : (الحضارات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ١٩٥ .

(٢٦) هي الحضارة التي كان يطلق عليها قدماء المصريين حضارة « كاش » التي تعني حضارة أرض السود ، والمروية نسبة إلى مروي مستقر تلك الحضارة في أقصى الجنوب من مصر ، وقد كشف الأثر عن تطابقات عدة بينها وبين الحضارة المصرية القديمة سواء على صعيد المعتقدات وبنيان الحكم أو على صعيد الطقالية والعمارة . . .

(٢٧) — Elikia M'Bokolo : (L'histoire de l'afrique revue et corrigee par les africains) in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983, P. 40.

(٢٨) محمد عدنان مراد : (الثقافة الإفريقية أصولها وتاريخها وحضارتها) مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ العددان ٣٨ ، ٣٩ شتاء ربيع ١٩٨١ ص ٤١ - ٤٢ .

حقيقية ، تاريخاً دون حوادث ، ذلك أننا نستطيع أن « نقرأ » عبر هذه الآثار تنظيم مجتمعاتها ، وتسلسلها ، وبنياتها السياسية ، لا نقرأ المعارك ، ولكن النظام السياسي ، ونظام النقود وما ينطوي عليه الاقتصاد من قيم أخلاقية عبر الكتل المنحوتة[٢٩]، التقنيات الزراعية ، الأعمال والأيام ، والألعاب ، والصيد والرقص) .

وعلى ضوء هذا فليس من المثير حقاً أن ينبهر الفنانون الغربيون أمام القطع الفنية التي أبدعها الفنانون السود الفطريون ، وأن يعجبوا بالإمكانات الجمالية الهائلة التي ترشح بها الصور والمنحوتات الإفريقية (وهكذا قام الفنانون الأوربيون المعاصرون بكسر طوق التحديدات التي طالما وجهت الحركة الفنية في الرسم خلال العصور الماضية ليعتمدوا حرية التحرك والتعبير تماماً كما فعل الفنان الإفريقي منذ آلاف السنين[٣٠]. وبدون مبالغة نستطيع القول بأن التكعيبية ، كاتجاه تشكيلي طليعي ، تدين بشكل أو بآخر ، للثروة الفنية الزنوجية ، ويظهر ذلك جلياً في أعمال بابلو بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣م) ، وجورج براك (١٨٨٢ - ١٩٦٣م) ، وهنري ماتيس (١٨٦٩ - ١٩٥٤م) الذين افتتنوا (بالطبيعة المباشرة والمستقلة لهذه الأعمال وجنوحها نحو تبسيط الشكل)[٣١]، وفي ذات المنحى (نشر أبولينير بالاشتراك مع بول غليوم عام ١٩١٧ « المجموعة الأولى من التماثيل الزنجية » الأمر الذي دعم الحركة الرامية إلى الاعتراف بالفن الإفريقي الغريب ، المعروف « بفن البتو »)[٣٢].

وعلى صعيد آخر استطاعت المخيلة السوداء أن تبدع في المجال الموسيقي ، وأن تبتكر آلاتها الموسيقية الخاصة التي أصبحت لها شهرة عالمية كالكورا والبلافون والطبل الإفريقي . ومما يلاحظ أن الموسيقى الزنوجية لم تكن تؤلف لمحض الطرب والترفيه بقدر ما كانت تتصل بالتقاليد والطقوس فهي (تقيم صلة على الصعيد الاجتماعي وتخاطباً بين الرجال والنساء في المجتمع الذي تمارس فيه . وعلى صعيد أرفع فإنها تقيم تخاطباً وصلة مع الآلهة وقوى الطبيعة)[٣٣]، ولعل الشاهد على أصالة وعمق وتعبيرية هذه الموسيقى ذيوعها العالمي ، عبر الجاز والراجتايم والبلوز والريكي ، وكذلك تأثيرها القوي على الصرعات الموسيقية الغربية كالروك والبوب .

وما ذكرناه بصدد هذه المجالات يمكن ذكره بصدد الملاحم ، والأساطير ، والحكايات الشعبية ، والأشعار الشفوية ، والمسرح البدائي ، وشخصية الراوي الجوال . . . وكمثال فقد (أصدر بليز ساندوارز عام ١٩٢١ « المختارات الزنجية » التي تضم بعض الأساطير المتعلقة بنشأة الكون وعدداً من الحكايات العصرية)[٣٤].

كل هذا يفحم المقولة الأنثروبولوجية حول فقر الحضارة السوداء ، إن لم نقل النفي المطلق لوجودها ،

(٢٩) روجيه غارودي : (حوار الحضارات) ترجمة : الدكتور عادل العوا ، ص ١٥٤ .
(٣٠) أثر الفن الإفريقي على الحركة التكعيبية الأوربية) ترجمة : ميسونة أبو الحب ، مجلة (آفاق عربية) س ٤ ، العدد ١١ ، تموز ١٩٧٩ ، ص ١٢١ .
(٣١) حسين هداوي : (فن النحت الإفريقي) مجلة (فنون عربية) السنة الثانية ١٩٨٦ ، المجلد الثاني ، العدد ٦ ، ص ٥٠ .
(٣٢) خليل شطا . (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) ، س ٢٠ العدد ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .
(٣٣) أولاولوا ميداني : (مكانة الموسيقى التقليدية في المجتمع الإفريقي خصوصاً في نيجيريا) مجلة (الثقافة العربية) س ٩ ع ٨ ، أغسطس آب ١٩٨٢ ، ص ١٥٧ .
(٣٤) خليل شطا (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) ، س ٢٠ العدد ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٩ .

ومادام الأمر كذلك فقد اقتنع المثقفون الزنوج بأهمية العودة إلى ماضيهم الحضاري وقراءته قراءة جديدة حتى تتاح لهم المباهاة بخصوصيتهم ، دونما مركبات ، وبهذا شعروا بأنهم يجرون من ورائهم تاريخا طمسته أو شوهته عهود من الهيمنة والاضطهاد . إن المطلوب هو بناء موقف جديد من النموذج الحضاري الغربي ، والتحرر من جاذبيته ، وبالتالي من مطلقيته ، أي تخليص الذات السوداء من اتساخها ومن ذوبانها الشائه في حضارة البيض . وبالمناسبة لابد أن نشير إلى عمق الأزمات النفسية التي استفحلت أعراضها في أنحاء كثيرة من العالم الأسود ، من جراء الانتقال من النمط الحياتي التقليدي إلى النمط الحياتي الحديث ، وعلى سبيل المثال جرى خلال عام ١٩٦١ بحث ميداني حول الأعراض النفسية بمنطقة أبيوكوتا بنيجيريا من قبل نفسانيين وأنثروبولوجيين من جامعة « كورنيل » فتوصلوا إلى أن (عدد الأعراض النفسية الفسيولوجية والأعراض العصابية التي وجدت بين سكان يوروبا أكثر من التي وجدت بين سكان شمال أمريكا)[٣٥].

ويعد هذا الانفصام من بين ما حفز الزنوجة على التنبيه إلى غنى الحضارة السوداء ، وإلى التمسك بقيمها ، وعدم الارتماء كلية في حضارة البيض بما هي حضارة مفارقة للبيئة السوداء . وفي إطار إعادة التقييم الحضاري انساقت الزنوجة إلى مواقف استعلائية أحيانا ، صدرت عنها أفكار تؤيد تفوق الحضارة السوداء على نظيرتها البيضاء ، وتدعو البيض إلى الاستفادة من التراث الأسود ، (وعندما بدأت نظريات الزنوجة لأول مرة تأخذ شكلها في باريس في تلك الفترة كانت لها خصائص ثورية أول الأمر ، ثم اقتربت من كونها مذهبا للاستعلاء العنصري قد يتخذ موقفا مضادا ويمنع الاتصال والتكيف مع الفرنسيين . ولكن سرعان ما تعدلت هذه العوامل ، وعندما نشبت الحرب أو قبلها تحولت إلى مذهب يصلح للحوار مع الإدارة الاستعمارية)[٣٦]. وقد جاءت هذه الليونة مع التدرج الفكري والإيديولوجي الذي عرفته الزنوجة ، وبخاصة سنغور ، إذ سيبدأ الحديث عن نوع من الانفتاح على الحضارة الغربية ، والدعوة إلى تشييد حضارة ثنائية في تجاوز لكل عصبوية ولكل استعلاء حضاري ، (ويرجع فضل سنجور فيا كتبه وأخذ به دائما في أنه يعيد الرجل الأسود على كل المستويات إلى الجماعة الأساسية التي ينتمي إليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الأبيض الذي كان العدو الأول والذي أصبح أهم صديق)[٣٧].

أما الإشكالية الثانية التي عكفت عليها الزنوجة فهي الموقف من العقيدتين المسيحية والإسلامية ، والموقف في حد ذاته يعني المفاضلة بين العقائد الوثنية الزنوجية وبين ديانتين سماويتين ، وفي هذا الموضوع ترى الزنوجة بأن عقائد الأسلاف ليست بتلك الشكل الذي توجد عليه في الأدبيات الاستعمارية والكنسية والأنثروبولوجية ، أي كونها عقائد لا إيمانية يتبعها قوم يجب انتشالهم من كفرهم الفطري ، بل العكس ، لأن الزنوج يرون بأنهم مكتشفو فكرة الرب للإنسانية ، وعنهم أخذتها مصر القديمة ، لتنتقل إلى حضارات أخرى . فما يلوح مجرد ممارسة عقائدية وثنية يضمر تصورا يرى بأن هناك قوة إلهية مفارقة للبشر ، وبأنها تملك قدرات معجزة ، هذه القوة هي ما يعرف بـ « مونتو » ، وإن اتخذ أسماء متعددة

(٣٥) ب . س . لويد (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٢٧٠ .

(٣٦) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٣٧) الدكتورة جوزين جودت حلمات : (ماترو ، سنجور وحضارة الإنسان) مجلة (عالم الفكر) المجلد الثامن ـ ع ٣ ، أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

اختلفت باختلاف الجهات والمجتمعات الإفريقية ، فهو « الورمنو » عند اليوروبا بنيجيريا ، و « فارو » عند البامبارا بمالي ، و « مثلو » في إفريقيا الشرقية ، وهو « أكزير » عند الإثيوبيين ، و « لقبا » في الداهومي ، و « أورمانكوما » عند الاكان في غانا .

ويقتضي الاعتقاد في فكرة الإله تلبية أوامره ، كالتقرب والتقوى وتكريم الموتى والتعاون والمحبة . . . ثم تجنب نواهيه التي هي نقائض هذه الأمور . ولا شك أن هذا ما تتضمنه الديانات السماوية ، مع مراعاة الاختلافات الواردة عند كل مقارنة ومن ثم (قبل الافريقيون المحدثون تعاليم محمد والمسيح لأنهم لم يروا في الذي سمعوه من أهل الديانتين جديدا جديرا بخلاف)[٣٨] . ومع ذلك (لم تدخل الديانتان الكبيرتان النفس الإفريقية بالسرعة التي يقول بها بعض الباحثين ، عشرة قرون الآن والإسلام يلتقط طريقه بالتجارة والسلام المسالم أحيانا والحروب بعض الأحايين ، قرنان أو أكثر منذ جاءت المسيحية القارة ، ولكن قرابة سبعين مليون من الناس مازالوا على دين آبائهم[٣٩] .

فحسب الزنوجة ليس بوسع العالم الأسود أن يسقط من ذاكرته مختلف العذابات والتخايدات التي ابتلي بها بتزكية من الكنيسة ، وفي المقابل لا يمكن نسيان الدور الذي قام به المسلمون في تدشين عهد الاسترقاق بإفريقيا ، فالمسيحية (استعملت في كثير من الأحيان لتخديرهم وتعليمهم إدارة الخد الأيسر إذا ما صفع أحدهم على الخد الأيمن)[٤٠] ، بينما اقترن الإسلام بـ (كبرى المصائب . إنه من التشاد حتى النيل كان صيد العبيد يجتاح كل السودان الأوسط)[٤١] ، وهي نفس الفكرة التي كان يرددها النخاسون البيض ، من كون المسلمين هم أول من استعبد السود . بعد هذا لنا أن نتصور إذن رد الفعل الذي سيكون للزنوجة من الديانتين معا ، قد نرجح لا محالة رد فعل يدعو إلى معاداة الديانتين والحذر من تعاليمهما ، بيد أن الأمر الواقع كان أكثر من أي رد فعل حاسم ، ونقصد بالأمر الواقع تغلغل المسيحية والإسلام في وجدان كثير من السود ، وهذا ما صبغ حضورهما بشيء غير قليل من المفارقة .

ففي حين يدعو بعض المثقفين الزنوج إلى استثمار قيمتي الأخوة والعدالة المسيحيتين وإدماجهما في التراث العقائدي الزنوجي (نلاحظ مدى المصداقية التي تخلف إيمان الزنوج المسيحيين في إفريقيا وأمريكا والأنتيل كموقف من تحريف المثل المسيحية ومن الاضطهاد الأبيض) ، نجد فئة أخرى منهم تناصر الإسلام كعقيدة مضادة لإيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري . وينبني هذا الطرح على وضعية الزنوج المسلمين بالولايات المتحدة ، فجماعة المسلمين أتباع الإيجا محمد تعطي للإسلام بعدا انتقاميا ، مما يجعله عقيدة ثأرية من مسيحية الأبيض المضطهد ، وبهذا اكتسى الإسلام (صبغة عنصرية غريبة عنه منافية لروحه ونصوصه . وقد أدرك الزعيم الزنجي الشهير

(٣٨) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٦١ .
(٣٩) نفسه ، ص ٥٩ .
(٤٠) منذر عبد الرحيم : (بين الأصالة والتبعية : تجربة الاستعمار وأنماط الصراع الثقافي في البلاد الأسيوية والإفريقية) ص ١٧ .
(٤١) تليز جول : (الحضارات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ٨٢ . إشارة :
(أ) من المعلوم أن اليهودية لم تحقق انتشارا كبيرا كالذي حققته المسيحية والإسلام ، بحيث يقتصر معتنقوها ... ويتمركزون في إثيوبيا ويعرفون بالفلاشا .
(ب) يحتد دور المسلمين في استعباد الأفارقة توضيح أن إيرادنا هذه الوجهة من النظر لا يعني تبنينا لها ، وإذا كانا المسلمون قد اقتنوا بعض السود كعبيد فإنهم لم يسيئوا معاملتهم ، بل لقد وصل الكثير منهم ، في ظل الإسلام ، إلى مراتب سياسية سامية (كافور ، أولاؤ ، المماليك . . .) وإلى مراتب علمية عالية (ياقوت) .

مالكم إكس خطأ ذلك الاتجاه وخطره فجاهد جهادا كبيرا لتصحيحه حتى استشهد مجاهدا في سبيل ذلك وفي سبيل تحرير الزنوج عامة »(٤٢).

لقد اعتبر قوامي نكروما التعددية العقائدية إحدى أزمات العالم الأسود باعتبارها معوقا حضاريا وعبثا تاريخيا ، (ولكي يبين جيدا فداحة هذه الأزمة قارنها نكروما بـ (الشيزوفرينا) ، فالتعددية إجمالا هي العدو »(٤٣). أما الكاتب السينيغالي مامادو ترور ديوب فقد عبر عن رفضه لما عده ديانات طارئة فقال (يمارس الأفارقة حاليا ديانات مستوردة وكل آلهة الأجداد ماتت تقريبا . أما أنا ، فإني أجاهر هنا معلنا : إن إلهي لا يزال أسود »(٤٤). لكن خارج هذين الموقفين اتخذت الزنوجة موقفا منفتحا لا يقفز على الأمر الواقع كما قلنا قبل قليل ، موقفا يرى أنه لا محيد عن التعددية العقائدية ، بعيدا عن أي تجاهل مجاني ، أو تنكر للتأثيرات الثقافية للمسيحية والإسلام في مناح كثيرة من حياة السود .

فالمسيحية متواجدة في الممارسة السوداء كمعتقد وكثقافة ، وكذلك يحضر الإسلام ، سواء كسلوك إيماني أو كتجل ثقافي ، (وتشير بعض الأبحاث التي أجريت مؤخرا في الساحل الإفريقي الشرقي وبعض بلدان غرب إفريقيا كغانا وساحل العاج والسنغال وغيرها إلى أهمية الثقافة العربية الإسلامية »(٤٥).

لذلك وجدنا سنغور ، فضلا عن اعتناقه الكاثوليكية ، يدافع عن أطروحة تركيب التيارات العقائدية الثلاثة : التراث العقائدي الزنوجي والمسيحية والإسلام ، ضمن أخلاقية انفتاحية وتسامحية ، إذ أن في هذا التركيب من نتائج إيجابية سيحتفي بها المشروع الحضاري الأسود .

ويبقى أن نلفت الأنظار إلى أن هذه الأطروحة تستنسخ نفس الأطروحة السنغورية حول ضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية لصالح تأسيس حضارة كونية جديدة .

إذا كان هذا ما طرحته الزنوجة بخصوص الإشكاليتين السالفتين فماذا يتعلق بمعالجتها للفكر الماركسي ؟ وهل كان للمثقفين الزنوج موقف تجاه نظرية علمية في تحليل التاريخ والاقتصاد والثقافة ؟ الحقيقة أن الماركسية استأثرت بحيز لا يستهان به من مساحة الفكر الزنوجي ، بحيث نوقشت جوانب عديدة من هذه النظرية ، مثلما نوقشت احتمالات إخضاعها لمهام محاربة الاسترقاق والاستعمار وتجاوز وضعية الاستيلاب ، وبالتالي لاستعادة الهوية الزنوجية .

إن ما تردد من أفكار ماركسية في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية يعود في الأصل إلى المفكر الأنتيلي جورج بادمور الذي كان قد زار الاتحاد السوفياتي واطلع على التجربة السوفياتية في تطبيق أفكار ماركس وإنجلز ولينين ، وقد أعجب بادمور بهذه التجربة فنتج عن ذلك تحمسه للماركسية ، وهو ما يعرب عنه قائلا (فمن الجوهري بالنسبة إلينا في إفريقيا أن نفهم أساليب الفلسفة الماركسية وأهدافها حتى نعرف ما قد تتمكن من

(٤٢) مقتدر عبد الرحيم : (بين الأصالة والتبعية) تجربة الاستعمار وآفاق التحرر الثقافي في البلاد الأسيوية الإفريقية) ص ٨١
(٤٣) Paulin J. Hountondji : (Sur la "philosophie africaine") P. 204.
(٤٤) مامادو ترور ديوب : (الزنوج والعرب في مواجهة المستقبل) ترجمة . خليل ترابيات ـ مجلة (الكاتب العربي) س ٢ ـ ع ٦ ـ ١٩٨٣ ، ص ٣٩ .
(٤٥) الدكتور إبراهيم الزين صغيرون : (قطعات تاريخية عن دور السودان والسودانيين في انتشار الإسلام في أوغندا) مجلة (آداب) كلية الآداب ـ جامعة الخرطوم ـ ع ٤ ـ ١٩٨١ ، ص ١٢٥ .

أن نقتبسه منها ونجعله يتلاءم مع حاجياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، دون أن نقبله جملة كعقيدة)[٤٦] .

إن بادمور باعتناقه الواعي للماركسية سيفتح الباب أمام مجموعة من المثقفين الزنوج الناطقين بالإنجليزية ، الذين أسعفهم تكوينهم الإنجليزي على الاطلاع على أفكاره للأخذ بها كأداة لتحليل بنيات المجتمعات التقليدية الإفريقية ، ومن هؤلاء قوامي نكروما ، وجوليوس نيريري . فكلاهما ينفي توفر تراكمات مادية ضخمة في المجتمعات التقليدية الإفريقية ، وكلاهما ينفي حصول أي شكل من أشكال الصراع الطبقي في تلك المجتمعات ، إذ طبعتها البساطة على المستوى الاقتصادي ، والتكافل على المستوى الاجتماعي ، ثم يؤكدان على تداخل البنيتين التحتية والفوقية في أنماط الحياة الإفريقية الأمر الذي يساعد على القول بتوصل السود إلى اشتراكية فطرية نتيجة أحوالهم الخاصة .

أما الناطقون بالفرنسية فقد تم تعرفهم على الماركسية في سياق احتكاكهم بالتيارات الفكرية التطابقية في فرنسا ، بحيث (وجد الإفريقيون المحدودون بالفرنسية الفرصة لمعرفة الأفكار الماركسية عن كثب خلال أيام دراستهم في باريس)[٤٧] . وهكذا تحمس الشاعر إتيين ليرو ، وهو أحد أعضاء جريدة « الطالب الأسود » للماركسية ومبادئها ، مدافعا عن استرفاد قيمها الفكرية والجمالية في الكتابة الشعرية الزنوجية ، في حين عارض تيار معين داخل هيئة « الطالب الأسود » هذا الحماس بدعوى أن الماركسية لا تبرح كونها جزءا من الثقافة البيضاء التي هي ثقافة هيمنية واضطهادية . فيما يخص إيمي سيزير فقد كان رأيه أن يؤخذ لا من الماركسية فقط ، وإنما من السريالية أيضا ، وذلك بمقدار ما يخدم قضية استعادة الهوية الزنوجية ، فهما في نظره تياران فكريان طليعيان يرفضان ، كالزنوجة ، منظومة القيم الاضطهادية في الثقافة البيضاء ، ويلتقيان معها في مناهضة الاستعماروالرأسمالية . وسيصل الأمر بسيزير إلى أن يصبح عضوا قياديا بارزا في الفرع المارتينيكي للحزب الشيوعي الفرنسي . وإذا كان هذا شأن سيزير فإن زميله سنغور سيهتم هو الآخر بالماركسية ، على أن اهتمامه هذا أتى ضمن بحثه عن إمكانيات الأخذ من جميع التيارات الفكرية التي يمكن أن تخصب المشروع الحضاري الزنوجي ، لذا (ازداد تقييمه الدراسي لماركس عمقا من خلال نشاطه السياسي . بيد أن ما يجلبه من فكر ماركس هو الأفكار والقضايا الإنسانية التي طرحها ماركس قبل ١٨٤٨ ونعني بها القضايا الأخلاقية والتحرر الاقتصادي)[٤٨] .

والخلاصة هي أن الزنوجة لم ترفض رفضا قاطعا الحوار مع النظرية الماركسية ، لأن كل المعطيات كانت تحث على هذا الحوار ، فمن جهة لقي كل من سنغور وسيزير وداماس وليرو في الحزب الشيوعي الفرنسي مساندا قويا لقضايا وتطلعات العالم الأسود ، كما وجدوا فيه خير مناصر لأحقية السود في الذود عن هويتهم ، ومن جهة أخرى لاحظ هؤلاء المثقفون أن الاتحاد السوفياتي يبقى أكثر انسجاما ، بالمقارنة مع الدول الغربية ، فيما يخص الموقف من المسألة الاستعمارية ، فلم يتورط السوفيات مثلا في احتلال إفريقيا ، ولم يتوانوا عن المطالبة باستقلال الأقطار الإفريقية ، وهذا ما زاد في

(٤٦) جورج بادمور : (مدخل للاشتراكية الإفريقية) مجلة (الفكر) السنة ٩٣ ، العدد ٧ ـ ١٠ يوليه ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

(٤٧) ب . س . لويد : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٣٠٠

(٤٨) ب . س . لويد : (أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

تلميع صورة الماركسية في الكتابات الزنوجية . وعلى صعيد آخر أبانت دراسات بالامور وتكروما ، التي وصلت أصداؤها حتما إلى الحلقة الباريسية ، عن تقارب ما بين الطابع المشاعي والمساواتي للحياة الإفريقية والمجتمع اللاطبقي في التصور الماركسي ، ومن هنا إلحاح الزنوجة على توافر تجسيدات اشتراكية في بنية المجتمعات الإفريقية التقليدية ، الأمر الذي يجعل من الاشتراكية أحد مكونات الحضارة السوداء ، ومن ثم فإن سنغور (جعل الاشتراكية الإفريقية القضية الرئيسية في كتاباته)[٤٩] طوال فترة الخمسينات .

إلا أن المعضلة الكبرى التي انتصبت أمام دعاة الزنوجة هي معضلة اللغة[٥٠] ، فالمفترض أن يصل الفكر والإبداع الزنوجيان إلى الإنسان الأسود ، نظرا إلى أنه معني قبل غيره بهذا الفكر وبذلك الإبداع ، أي بخطاب يحمل رسالة البحث عن هوية مشتركة لجموع السود ، لكن الواقع شيء آخر ، بل مفارق ، فالمفكرون والمبدعون الزنوج إما يكتبون بالفرنسية ، أو بالإنجليزية ، أو بالإسبانية ، أو بالبرتغالية . فنحن إذن بإزاء وضع انفصامي مأزوم ، إذ يتم ذم الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، كما يتم نقد الثقافة البيضاء ، وفي نفس الوقت تتم الكتابة عن هذه الأمور بلغات البيض ، وهي لغات لا يجوز ، بأي حال من الأحوال ، تنقية ذمتها من تورطها التاريخي في تدمير الهوية الزنوجية . إنه مأزق وأي مأزق ، ولو أن سارتر يحاول التأكيد على إيجابيته ، ففي رأيه تعتبر الكتابة بلغات المضطهد نوعا من الانتقام التاريخي ، تمارسه الزنوجة داخل اللغات الغربية ، بحيث يعمد المفكرون والمبدعون الزنوج إلى تكسير قواعد هذه اللغات وتلويث صفائها ، مما ينتج لغات هجينة يتداخل في أحشائها المعجم الغربي والمعجم الزنوجي .

وإذا ما تجاوزنا هذا الرأي وجدنا قرائن عدة كلها تثبت بأن المعضلة اللغوية هي من الجذرية بمكان ، ولذلك كانت بالفعل مثار جدالات عميقة وصلت إلى حد التشكيك في مصداقية الحركة الزنوجية بنفسها ، (إذ يتوجه الأدباء الزنوج إلى جمهور ينتمي إلى حضارة سماعية ، مستخدمين كتابة يجهلها هذا الجمهور نفسه ، ويبدو لأول وهلة أن الكتابة ليست هي التي كان ينبغي على الأدباء أن يستخدموها من أجل الوصول إلى جمهورهم الأمي ، وإنما الكلمة المنطوقة)[٥١] ، وهذا يعني (أن الأدب الإفريقي في شكله المكتوب هو نتاج للحضارة الصناعية والبورجوازية ، وهو يجر خلفه فرضيات وحجج ولغة وإيديولوجيا الحضارة الثقافية الغربية[٥٢] . لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن (مشكلة اللغة هي أخطر مشكلة تواجه هذا الأدب)[٥٣] ، ومادام الأمر بهذه الكيفية نتساءل : أفللتغلب على هذا الإشكال يتحتم على الكتابة الزنوجية أن تكون باللغات الإفريقية

---

(٤٩) نفسه ، ص ٢٩٩ .

(٥٠) هذا إذن من أعوص مشاكل الزنوجية كونها تتوجه بخطابها الأدبي خاصة إلى جمهور ذي ثقافة شفوية في الأصل ، وباستثناء الهيئة اليسيرة التي يواجهها الشعراء والروائيون الزنوج الأمريكيون ، بسبب وجود جمهور قارئ ، يتمركز قراء الأدب الزنوجي في العواصم السياسية والاقتصادية لإفريقيا والأنتيل ، في حين تبقى الغلبة للمدن بهذا الأدب كما مهملا . لكن الأمية ليست وحدها المسؤولة عن هذا المأزق ، إذ هناك عوامل أخرى تحد من انتشار ما يكتبه الأدباء السود ، ومنها ضعف حركة النشر ، وربما أعطانا الأدب الفرانكوفوني كمثال لسوف نجد بأن نسبة مهمة منه تطبع في داكار أو في باريس .
وقد ظهرت في الأعوام الأخيرة مراكز أخرى للطبع منها : ياوندي (المطبوعات الرئيسية) ، والزائير (المطبوعات الجامعية) ، وباماكو (المطبوعات الشعبية) ، وأبيدجان (المطبوعات الإفريقية الجديدة) .

(٥١) أليان كيسون : (الأدب والثقافة في إفريقيا) ترجمة : الطيب الرياحي ، مجلة (الأقلام) س ١٢ - ع ١٠ تموز ١٩٧٧ ، ص ٤٦ .

(٥٢) نفسه ، ص ٤٦ .

(٥٣) علي شلش : (في الأدب الإفريقي ومشكلاته) مجلة : (الأقلام) س ١٥ - ع ٩ - تشرين الثاني ١٩٨٠ ، ص ١٢٣ .

العديدة ، مع ما يطرحه هذا الاختيار من مصاعب جمة ؟ وحتى تتضح جسامة هذا الاختيار يجب أن نعلم ، على سبيل التمثيل ، مدى اختلاف العلماء (في تقدير عدد لغات القارة ، فمنهم من أحصاها بأكثر من ٧٠٠ لغة كسيتولي ، ومنهم من أضاف إلى الرقم ١٠٠ لغة أخرى كسليجمان ، ومنهم من خفضه إلى ٥٠٠ لغة كتيل)[٥٤].

ثم نتساءل ثانية : كيف يجوز للنص الشعري مثلا أن يصون إبداعيته المحتومة في حالة ما إذا كتب بلغة محلية ؟؟ ألن يضطرنا إلى ترتيبه في خانة الأدب الشعبي ؟ وبالإضافة إلى هذا ألا يحق للقارىء الغربي أن يطلع على الإبداع الزنوجي ؟ وفي هذه الحالة كيف نبلغ إلى فهمه شعرا مكتوبا بإحدى اللغات الإفريقية ؟ هل يجب أن يكتب هذا الإبداع باللغات الغربية والإفريقية حتى يستجاب للجمهورين معا ؟ لكن ما جدوى الحديث ، ضمن هذه الثنائية اللغوية ، عن هوية زنوجية متماسكة ومقنعة ؟

من المحقق (أن آداب اللغات الإفريقية (الأمهاري ، السواحلي ، مالاكاشي ، والزولو وغيرها) تمتلك إمكانيات هائلة وآفاق إبداعية واسعة المدى ، لكن تطورها في أغلبية البلدان الإفريقية يجري في ظروف المعايشة مع الأدب القومي الذي ظهر سابقا باللغات الأوربية)[٥٥]، وكأمثلة في هذا الصدد (حدثت محاولات مختلفة لتدوين الأدب الإفريقي ، في شرق إفريقيا ، وأخذ بعض الأدباء يكتبون بلغاتهم المحلية ، كما فعل توماس ماقولو الذي كتب بلغة السوتو ملحمة بعنوان « شاكا »)[٥٦]، وفي نفس الاتجاه (ترجم نيريري منذ أعوام يوليوس قيصر ، ويدير بالسواحلية الآن حكومة ودولة)[٥٧]، و (هناك كتاب سنغاليون ، منهم الروائي ، والشاعر ، وكتاب مسرحيات يصدر إنتاجهم في لغاتنا الست المحلية المختلفة)[٥٨].

وعلاوة على هذا هناك إبداعات لا تحصى كتبت بـ « الولوف » ، و « البامبارا » ، و « الكيكونغو » ، و « الايويندو » ، و « البابيليك » ، و « البُولو » ... بل حتى قطب الزنوجية سنغور كتب بعض أشعاره « بالولوف » ، و « السيرير » ، وهما لغتان محليتان في السينغال ، وبالرغم من هذه الإنجازات تظل المعضلة قائمة مثلما يظل طموح تعميم هذا السلك بعيدا عن التحقيق للعوائق التي أسلفناها .

لهذا استقر سنغور وأصحابه عند الاختيار الذي لا مناص منه مرحليا ألا وهو الكتابة باللغات الغربية ، في انتظار توفر إمكانية الكتابة باللغات الإفريقية لأن (الأدب الإفريقي بمقدوره أن يزدهر باستناده إلى اللغات الإفريقية المتعددة بوصفها لغات وطنية حقة)[٥٩]. إن سنغور على وعي بضرورة هذا الاستناد (ويتمنى فقط أن يولد إلى جانب الأدب الإفريقي المكتوب بالفرنسية أدب باللغات الزنوجية ـ الإفريقية ، مثلما هو الشأن بالنسبة

---

(٥٤) نفسه ، ص ١٢٠ .
(٥٥) ميخائيل كوركا كسيف : (الشعر الإفريقي دعوة إلى الإنسان) ترجمة : خليل يحيى حسن ـ مجلة . (الأقلام) س ١٥ ـ ع ٩ ـ حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٤ .
(٥٦) خليل شطا : (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) ، س ٢٠ ـ ع ٢٣٥ ـ سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٦ .
(٥٧) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ، ص ٥٦ .
(٥٨) أمادو لامين سال : (حول الهوية الثقافية ومدلولاتها) ترجمة : خليل [illegible] ، مجلة (الكاتب العربي) س ٢ ـ ع ٦ ، ١٩٨٣ ، ص ٤٤ .
(٥٩) ميشال سليمان : (أدب يلتهب في القارة السوداء) مجلة : (الطريق) س ١٩ ـ ع ١ ـ حزيران ١٩٦٠ ، ص ١٣ .

للعربية في إفريقيا الشمالية)[٦٠]. على أن شاعرا ينتمي إلى الجيل الموالي لجيل سنغور ، وهو الكونغولي تشيكايا أوتامسي يقدم تحليلا منطقيا للمعضلة اللغوية ، وهو تحليل يختزل مناحي الجدال الذي دار بين دعاة الزنوجية . فبالنسبة إليه (إن الفرنسية تغدو بذلك الأداة المثلى للتعبير عن المتخيل ، والحلم أو المعيش)[٦١]، وقبل هذا (فأن أكتب بالفرنسية لم يكن بالنسبة لي ناتجا عن اختيار داخلي)[٦٢]، ثم إن القضية مفتعلة في جوهرها ، فليس المهم هو اللغة الوسيطة ، وإنما المهم هو (أن أحتفظ بورق لتراجيديات أخرى)[٦٣]، أي لقضايا ومشاكل أكثر جوهرية . إذن سواء أخذنا بهذه الوجهة أو تلك فإن (على الكتاب الزنوج أن يدونوا أعمالهم باللغة الفرنسية وتنشر في فرنسا ، وإلا فأين المعجبون بأعمال سيزير في جزر المارتينيك ؟ ومن الذي كان سنجور سيخاطبه في السنغال ؟)[٦٤]، ونفس الشيء يصدق على من يكتبون باللغات الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إذ عليهم أن يدونوا مرحليا أعمالهم بهذه اللغات ، وإلا فأين يعثر على قارئهم في نيجيريا وكينيا وأنغولا ؟ هذه أهم الإشكاليات التي تمحور حولها الخطاب الزنوجي ، هذا الخطاب الذي تبلور ضمن ملابسات تاريخية وثقافية شكلت السياق العام الذي أبدع داخله الشعراء الزنوج الأفارقة - الأمريكيون شعرهم ، ولنا الآن أن نروم هذا الشعر لنستعرض ألمع رموزه وأبرز قضاياه وموضوعاته .

ومقدما نسطر توضيحا مفاده أنه يلزم تجنب الاعتقاد بأن الشعر الزنوجي يمثل تجربة شعرية واحدة ، فهو على العكس من هذا ، إنه مجموعة تجارب أو تيارات أو مدارس . فهناك الشعر الزنوجي الإفريقي ، وهناك الشعر الزنوجي الأمريكي ، ثم هناك الشعر الزنوجي الأنتيلي ، هذا إذا ما اتخذنا المعيار الجغرافي في التصنيف والتمييز ، أما إذا ما أخذنا بالمعيار اللغوي فإننا نجد أنفسنا حيال شعر مكتوب بالفرنسية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإنجليزية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإسبانية والبرتغالية ، مما يفيد وجود معيارين في التعامل مع الشعر الزنوجي وكلاهما معمول به من لدن الباحثين في هذا الشعر ، وإن كنا نلحظ رجحان المعيار اللغوي ، لذلك نقترح التوسط بالمعيار الأخير في تناولنا هذا عملا بما درجت عليه معظم الدراسات الزنوجية .

سوف نستهل حديثنا إذن بالشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، باعتباره الشعر الأكثر ذيوعا بالمقارنة مع ما كتب بالإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إضافة إلى أن الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية تميزوا بخصوصية إبداعية ملفتة ، كما اقترن شعرهم بولادة الحركة الزنوجية ، إذ هم المؤسسون لركائزها ، لكن قبل أن نتناول مواصفات هذه المدرسة نورد ثلاث ملاحظات :

أ - يتركز هذا الشعر في منطقتين هما إفريقيا وجزر الأنتيل (المارتينيك ، هايتي ، الغوادلوب)[٦٥]، وإذا كنا نلمس توازنا في الكم الإنتاجي بين شعراء إفريقيا وشعراء الأنتيل ، فإن ما نلمسه بخصوص إفريقيا يدل على تفاوت كبير بين الأقطار الإفريقية الناطقة

---

(٦٠) — (Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre-in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983 P. 31.
(٦١) — Michel pierre : (Ecrire envers et contre tout) in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 16.
(٦٢) — Michel pierre : (Ecrire envers et contre tout) in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 17.
(٦٣) — Ibd, P. 17.
(٦٤) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٠٢ .
(٦٥) على الرغم من أن غويانا الفرنسية لا تنتمي جغرافيا إلى الأنتيل ، بحكم وقوعها في الجزء القاري من أمريكا الجنوبية ، فإننا لا نرى مانعا في إلحاق شعرائها بالشعر الأنتيلي ، إذ أن عامل اللغة (الفرنسية) يجعل شعراءها أقرب إلى شعراء الأنتيل منهم إلى شعراء البرازيل أو الولايات المتحدة .

بالفرنسية . فالأقطار المعروفة بغزارة الإنتاج الشعري هي السينغال ، وساحل العاج ، والكونغو ، ومدغشقر ، بينما الأقطار الموسومة بشحها وقلة شعرائها فهي غينيا ، وجزيرة موريس ، أما الأقطار التي تبدو وكأنها تعاني نوعا من العقم الشعري فهي الغابون ، وفولتا العليا ، والتشاد . .

ب ـ لقد عرف هذا الشعر بدايته خلال الثلاثينات عبر نصوص أو مجموعات شعرية ، لكنه سيبلغ وعه الزنوجية (أوجه إثر صدور أنطولوجيا الشعر الزنوجي والملغاشي الجديد المكتوب بالفرنسية لصاحبها سنغور عام ١٩٤٨)[٦٦] ، والتي يمكن عدها (إعلانا رسميا لميلاد أدب زنوجي ـ إفريقي باللغة الفرنسية ، أدب راديكالي في مغايرته للأدب الفرنسي ، وبالتالي إعلانا لطلاق مع أوروبا)[٦٧] . هذه الأنطولوجيا سيكتب مقدمتها جان بول سارتر ، وإذا كنا على علم بتحرز سارتر من التقديم لأي مؤلف كان أمكننا إدراك قيمة هذه الالتفاتة من صاحب « الوجود والعدم » باعتباره أحد أعلام الثقافة الغربية . فهي تشكل ، بدون موارية ، تعميدا للشعر الزنوجي وتعاطفا مع الزنوجية وضمانا لرواج الخطاب الزنوجي في المحافل الثقافية الغربية والعالمية .

جـ ـ لقد لقي هذا الشعر قبولا وتعاطفا دالين من طرف كتاب وشعراء فرنسيين فدافعوا عنه واعتبروه تيارا أساسيا في الشعر العالمي ، ومن هؤلاء كامو ، وموني ، وبروتون ، وأراغون . . .

وإذا ما حاولنا ضبط الدلالات المشتغلة في النصوص الشعرية للذين يكتبون بالفرنسية وجدناها لا تكاد تختلف في شيء عما مر بنا في شعر الفيتوري ، إذ تجثم دلالة الاسترقاق راسخة في جل النصوص ، وتستحوذ على مساحة وافية منها . فكلهم صوروا فصولا من مأساة العبودية التي ما انفكت ذيولها مترسبة في ذاكرة السود ، فتخيلوا مشاهد اصطياد أسلافهم ، واقتيادهم من الصحاري والسهوب والغابات الإفريقية ، ليشحنوا مغلولين إلى العالم الجديد ، تحملهم سفن النخاسين البيض ، وتخيلوا أيضا مشاهد ما بعد الوصول إلى العالم الجديد ، لما كان يوزع أسلافهم على مزارع البيض المتغطرسين ، وعلى مصانعهم ومرافقهم المختلفة ، فهم من صنع رفاهية أمريكا ، ومن ثم لا غرابة أن يربط هؤلاء الشعراء المعجزة المادية الأمريكية بمعاناة السود وبعذابهم التاريخي الرهيب .

ومن ناحية أخرى تزاوجت دلالة الاستعمار في شعرهم بنغمة من الإدانة والاحتجاج ، فأدانوا بشاعة الاستعمار واحتجوا على الممارسات الاستغلالية للبيض في إفريقيا والأنتيل ، أما دلالة الميز العنصري فإنها لم تتمظهر في شعرهم بنفس إلحاح الدلالتين السابقتين نظرا لخفة الميز العنصري في المستعمرات الفرنسية قياسا إلى وطأته في الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا ، حقا إن هذه الدلالة ليست غائبة تماما من الشعر المكتوب بالفرنسية إلا أنها لا تحقق نفس الزخم التعبيري الذي نجدها عليه في الشعر المكتوب بالإنجليزية .

وفي موازاة هذه الدلالات نحتوا دلالات مضادة استطاعت أن تصوغ تلك الرجة التاريخية التي عرفها العالم الأسود وهو يتوخى استعادة هويته . وهكذا أصبحت دلالة الحرية ثابتا مركزيا في شعرهم ، وصارت

(٦٦) — Albert Nordmann : (La litterature Neo-africaines) P. 24.
(٦٧) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du XXe siecle) P. 133.

الزوايا المحورية ملازمة لأكثر من نص ، فتغنوا بثوريين سود في هايتي كـ « توسان لوفيرتور » ، و « الملك كريستوف » ، وأشادوا بنضالات ثوريين أفارقة كـ « لومومبا » و « كينياتا » . . . كما حرضوا الجموع السوداء على أن تثور على العبودية والاستعمار . أما الإنسان فإنه ارتسم في مخيلتهم كائنا أسود ذا ملامح متجذرة في تاريخ وهوية جديرين بالاعتبار ، أي في الحقيقة الإنسانية السوداء التي حجبتها مختلف أطوار العنف التاريخي الأبيض .

هكذا مجدوا الجسد الأسود وأعادوا إليه جدارته الجمالية والأخلاقية ، فـ (سنغور يؤكد دائما في شعره على الجمال الأسود)[68] ، وفي معظم النصوص الشعرية يلوح الجسد الزنجي كبؤرة لطاقة ذكورية أسطورية هي مصدر قوة السود وأحلامهم ، أما الأنثى الزنجية فقد صارت أفروديت أو عشتار ، لها نفس بهائها وفتنتها .

لقد صاغوا الإنسان الأسود مزارعا لا يكلّ ، وصيادا يغالب الضواري ، ومحاربا فحلا ونبيلا يحمي عشيرته ويستبسل من أجلها ، أي أنهم صاغوه إنسانا فعالا في محيطه الطبيعي والاجتماعي ، تأخذ تموضعاته المجالية بعدا جنسيا تمويهيا دالا يصب في الطقوسية الزنوجية ، فـ (الحرث ، والغرس ، والأكل ، معناه ممارسة الجنس مع الطبيعة)[69] ، و (في أسطورة دوغون جعل الإله الواحد الأرض أنثى لما خلقها ، ثم تزوج بها لتوه)[70] .

وصوروا الطقوس والأعراف ، فاستحضروا الكهان والعرافات والحكاة الجوالين بالتواريخ والحكم وسير الشاعير من السود ، ونقلوا صخب الرقص الزنوجي وشعائرية الحلبة ، كما ألغوا الفواصل بين الأحياء والموتى انسجاما مع الفلسفة الزنوجية التي لا تفرق بين الحياة والموت ، إذ يستمر حضور الموتى عبر سلالتهم ، يشعون روحا إلهية قدسية ، (فهؤلاء الشعراء لا يميزون بين « الموتى » و « الأحياء » ، بين « الحياة » و « الوجود » . وبالنسبة إليهم فإن الموتى يحيون)[71] .

ثم غاصوا في أغوار الماضي فابتعثوا ذكريات الدول السوداء العظمى والجماعات العرقية ذات المآثر ، فقد نقلوا الديار عن عظمة الممالك النوبية ، وإثيوبيا القديمة ، والماو ماو ، صفحات من أمجاد شعوب الزولو والبانتو ، متحدثين عن شهامتها وعن نشاطها الأخلاقي .

وعلى مستوى الفضاء جعلوا أشعارهم منطبعة بلونية الطبيعتين الإفريقية والأنتيلية ، في سحرها البدائي ، وفي تلقائيتها البكر ، فخالطوا بين الكثافة التخييلية للنصوص وبين كثافة غابات الأبنوس ، ثم جعلوا هذه النصوص تهدر بهدير الشلالات الجبارة ، وتتشامخ بجلال الجبال المتطاولة ، وتسرح انسراح الامتدادات الصحراوية ، حركوا في نسيجها أنهار إفريقيا والأنتيل ونضروها بأعشاب السفانا ، وملأوها بأشكال ولغات الوحوش والطيور الاستوائية . . . هذا دون أن يغفلوا امتداح تلك الحميمية التي تشد الأسود إلى فضائه ، أو

---

(٦٨) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ، ص ٢١٢ .

(٦٩)

— Jean paul Sartre : (orphee noir) in (Anthologie de la nouvelle poesie negre et malgache de langue française) de leopold seder Senghar, P. 31.

(٧٠) — Janheinz jahn : (Muntu : l'homme africain et la culture neo-africaine) P. 116.

(٧١) — Ibd, P. 124.

يغفلوا التعبير عن مشاعر الحنين إلى إفريقيا الحالمة والوديعة ، وهو ما جعل سارتر يشبّه هذا الشاعر بتعلق « أورفيوس » « بيوريديس » كما في الأسطورة الإغريقية . وإذا كانت نصوص كثيرة قد طغى عليها حس ترجسي حيال الذات السوداء وحيال فضائها وحضارتها فصادت الأبيض وفضاءه وحضارته فإن نصوصا أخرى قد سيطر عليها حس غيري تحول معه الموقف الاستعدائي إلى موقف إنساني انفتاحي ليس نحو الأبيض فحسب ، بل ونحو الإنسان ككل .

تلك هي المشاغل الأساسية في الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، وبذلك استطاع هذا الشعر أن يقنع بصدق انخراطه في التجربة التاريخية للعالم في طريقه إلى استرداد هويته ، وللإشارة فإن هذا الشعر بالذات هو الذي أرغم سارتر على تبديل رأيه في الشعر عموما . فنحن نعلم بأن سارتر سبق له أن نزع عن الشعر وظيفته الإلتزامية ، بدعوى أنه أحد أنماط الكتابة المجازية التي لا تسعف ، لتمويهيتها ، على تَبيُّن مقصديتها الإنسانية والاجتماعية في حين يكشف الفن الروائي ، ككتابة انسيابية أو خطية ، عن التزامه بقضايا الإنسان والمجتمع ، إلا أن سارتر سيتخلص من هذا التحليل بعد أن توصل إلى أن الرؤية الأورفية وجه من وجوه الالتزام .

وعلى المستوى الشكلي نلاحظ بأن تبعية هذا الشعر للقواعد الشكلية في الشعر الفرنسي الكلاسيكي ، والرومانسي ، والبرناسي ، والسريالي ، لم تمنع الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية من تطعيم هذه القواعد بل وتطعيم اللغة الفرنسية بجمالية مستقاة من مختلف أنماط الثقافة الشفوية الزنوجية ، فوظفوا الملاحم والأساطير والأغاني والحكايات الشعبية ، وزاوجوا بين الموسيقى الشعرية الغربية وإيقاعية الموسيقى الزنوجية ، كما استعملوا التكرار ، بحيث تكثر الصيغ التكرارية ، حروفا وكلمات وتراكيب ، مما يخلق مضاعفات صوتية في النصوص . ولعل ما يميز الشعر الزنوجي عموما عن الشعر الغربي (أن الأول يجب أن يغني أو بالأحرى أن يظل بمصاحبة الموسيقى)(٧٢) ، وبالرغم من الدرامية الجنحة لبعض النصوص ، فإن الغنائية هي الطابع الجوهري لأكثريتها ، وهذا يدل على استمرار نفس الروح التي طبعت الشعر الزنوجي الشفوي ، وإجمالا فإنه (شعر يتميز بالمكر والحيلة في استعمال الألفاظ والصور والأخيلة كما أن للموسيقى الإفريقية ذات الإيقاع الخاص قد أثرت في عروضه وفي أنغامه)(٧٣) .

لكن هذه الجمالية سوف تجر مجموعة من الانتقادات والاعتراضات ، فقد نظر إليها البعض من زاوية (أنها الوسيلة الأكثر أمانا لفبركة شعر « فولكلوري » لن تستطيبه سوى المحافل التي يناقش فيها « الفن الزنوجي »)(٧٤) ، بينما يرى آخرون بـ (أن جمالية الزنوجية هي قبل كل شيء جمالية غرائبية)(٧٥) .

وفيما يتعلق بالأسماء الشعرية البارزة في هذه المدرسة فهناك في الحقيقة أسماء كثيرة إلا أن أبرزها ، على الإطلاق ، اسمان هما سنغور وسيزير .

فسنغور شاعر قبل أن يكون رجل سياسة (رئيس للسينغال من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٨٠ حيث استقال

---

(٧٢) — Ahmt Nordmann : (La littérature neo-africaine) P. 23.

(٧٣) لويس عوض : (الثورة والأدب) ، ص ٥٠ .

(٧٤) — Michle pierre : (Deux generations pour une litterature) in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 29.

(٧٥) — Stanislas Adotevi : (Negritude et Negrologues) P. 17.

بمحض إرادته) ، ولعله أجدر الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية بالإمارة الشعرية ، عرف عنه أنه مكثر[٧٦]، إذ أصدر (أغاني الظل) ١٩٤٥ ، (القرابين السوداء) ١٩٤٨ ، (أغاني من أجل نايت) ١٩٤٩ ، (إثيوبيات) ١٩٥٦ ، (ليليات) ١٩٦١ .

وشعر سنغور يمكن عده نوعا من التكريم للذات السوداء وتاريخها ، إلا أنه يجسد في نفس الوقت منزعا تصالحيا مع الفكر المسيحي ومع الحضارة الغربية ، بمعنى أنه غير موقعه (من معارضة وعداء شديدين إلى هدوء وتقبل تام)[٧٧]. على أن ما يلفت في شعر الرجل هو إحساسه الكبير بالنبات وبالليل ، الأمر الذي صيرهما رمزين دالين في نصوصه ، فهو (يقرن دائما النبات بالمرأة وبتربة إفريقيا عامة في فكرة الخصوبة والإنجاب والتفتح)[٧٨]، مثلما (يجعل من الليل هيكلا وقاعدة لأشعاره ويؤكد ذلك مجموعته الشعرية التي تعرف بـ « ليليات »)[٧٩]. ومن حيث التقنية الشعرية يتراوح سنغور بين كلاسيكية كلوديل وسوريالية سان جون بيرس ، ولو أنه أكثر إخلاصا للكلاسيكية ، وقد عمل على استرفاد الجمالية الزنوجية فتلبس شعره من جراء هذا بكثافة شفوية ملموسة أمده بها الشعر الشعبي الزنوجي .

ويقدم سيزير ، مثله مثل سنغور ، صورة للمبدع والسياسي كمتقاطعين في شخصيته ، فهو معروف كشاعر وأيضا كمناضل في سبيل قضية الزنوج بجزيرة المارتينيك أحد الأقاليم الفرنسية فيما وراء البحار . إنه بحق الضمير الحي لإخوته والصوت الناطق بآلامهم ومطالبهم ، ومن دواوينه (مذكرة عودة إلى بلدي) ١٩٣٩ ، (الأسلحة الخارقة) ١٩٤٦ ، (شمس مبتورة الجيد) ١٩٤٨ ، (أغلال) ١٩٦٠ ، (مسح) ١٩٦١ ، (أنا الرقائقي) ١٩٨٢ ، هذا عدا كتبه ومقالاته الكثيرة[٨٠].

وتدور أشعار سيزير حول معاداة الاستعمار ، والاستغلال ، وتحقير السود ، كما تصور ماضي إفريقيا وصنائع إنسانها ، وتتغنى بالأماني التاريخية للسود في التحرر والانعتاق . فـ (بالنسبة إلى سيزير يجب على الشاعر أن يجد موهبة النبي الذي لا يقول ما هو كائن فقط ، بل وما يتحتم أن يكون)[٨١]، ويوضح انحيازه إلى جنسه قائلا عن نفسه وعن سنغور (إننا ناطقون بالفرنسية قبلنا الثقافة الفرنسية ، لكن الأسلحة الخارقة نريد أن نضعها في خدمة شعوبنا)[٨٢]. لقد أدان الرأسمالية البيضاء ونظر إلى نضالية السود كجزء من الكفاح الأمم ضد الأجهزة الرأسمالية ، وبذلك فهو يلتقي مع أطروحة سارتر المعروفة في هذا الصدد ، وبموازاة ذلك أبان سيزير عن تعلقه القوي بالقيم الزنوجية رابطا إياها بالقيم الإنسانية التي يتوجب الدفاع عنها . ولا ريب أن قصيدته المطولة (مذكرة عودة إلى بلدي) هي النموذج الذي يستوفي جماع منازعه

---

(٧٦) من كتاباته النظرية : (ماذا يمثل الإنسان الأسود) ١٩٣٩ ، (روح الحضارة أو أوليات الثقافة الزنوجية ـ الإفريقية) ضمن مجلة (الحضور الإفريقي) يونيو ـ نوفمبر ١٩٥٦ .

(٧٧) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٩١ .

(٧٨) الدكتورة جورجين جورجت عثمان (سارتر) سنغور وحضارة الإنسان) مجلة (عالم الفكر) المجلد الثامن ، ع ٣ ، أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٧٨ .

(٧٩) حسن المكي : (المرأة في الأدب الشعبي السنغالي « سنغور ديرة موب ») مجلة (آفاق) س ١ ، ع ٣ ، يوليو ، أوت ، سبتمبر ١٩٦٣ ، ص ٤٦ .

(٨٠) من بين ما كتب : (توسان لوفرتور) ١٩٦٠ ، وإرادتيات (وتكسب الكلاب) ١٩٥٦ ، (الملك كريستوف) ١٩٦٤ ، (فصل في الكونغو) ١٩٦٥ ، (عاصفة) ١٩٦٩ .

(٨١) — Ahmat Nordmann : (La litterature neo-africaine) P. 18.

(٨٢) — (Aime cesaire, Negre rebelle) in (Le monde du dimanche) No. 11463-Dimanche 6 decembre 1981, P. 1.

وتصوراته ، وقد (أجمع النقاد على أن هذه القصيدة رئيسية بالنسبة إلى كل الأفارقة ورأوا فيها الظاهرة الثورية لقسم من العالم الثالث وهم الزنوج)[٨٣] .

لقد قرأ سيزير لوتريامون ، ونوفاليس ، ورامبو ، وبروتون ، وأقام لغته الشعرية على تعقيد فني متطرف ، الشيء الذي جعل شعره الأكثر شالكية مقارنة مع باقي الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية . فشعره يزاوج ، بذكاء ، بين التقنية الشعرية والحكائية في تراثه الزنوجي وبين التقنية الشعرية السريالية ، ومع (أن سيزير يرفض دائما الانتساب رسميا إلى جماعة بروتون)[٨٤] ، فإن هذا الأخير عده في تقديمه لديوان (مذكرة عودة إلى بلدي) (طبعة بورداس ١٩٤٣) أكبر شاعر سريالي أسود[٨٥] ، إذ أن هذا الديوان هو في الحقيقة قصيدة طويلة (فيها بدأ تجربته الطويلة التي قامت على التكنيك السريالي من أجل تشكيل اللغة الفرنسية تشكيلا جديدا)[٨٦] . وبصفة عامة يمكن أن نقول بأن شعر سيزير يتضمن (كل هاتيك العناصر الموجودة في كتابات الزنوج الكاريبيين ويخمسها في مفهوم الزنوجة المتفرد)[٨٧] .

ومن غير سنغور أعطت السينغال شاعرين آخرين هما دافيد ديوب ، وبيراجو ديوب ، مثلما أعطت مدغشقر الشاعرين الكبيرين جان جوزيف رابير يفيلو ، وجاك رابيما ناجبار ، اللذين يغنيا الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية بكثير من موهبتها وبكثير من الطوابع الفنية المستمدة من التراث الملغاشي ، وخاصة جانبه الأسطوري ، وهناك شاعر ملغاشي آخر هو فيلافيان رانيفو ، بيد أنه لا يرقى إلى شهرة الأولين . أما غويانا الفرنسية فإنها أهدت الشاعر ليون داماس[٨٨] الذي ارتبط اسمه بالزنوجة هو وزميلاه سنغور وسيزير .

وفضلا عن سيزير ظهرت في المارتنيك أسماء أخرى منها جيلبير كراتيان ، وإيتين ليرو ، بينما عرفت الغوادولوب بشاعريها كي تيروليان ، وبول نيجير . ومن هايتي نذكر أسماء كل من ليون لالو ، وجاك رومان ، وجان فرانسوا بريير ، وروني بيلانس ، وجان بابتيست ، وهي الأسماء التي اختطت للشعر الهايتي ملامحه الخاصة داخل المدرسة التي تكتب بالفرنسية . فقد أرفق هؤلاء الشعراء الذاتي بالموضوعي بحيث (إذا كان الشعر الهايتي يزخر بأغاني الحب ، فإنه وقف في جانبين أساسيين : أولهما معانقة الشاعر للوطن الأم . وثانيهما فضح التمييز العنصري)[٨٩] ، ومن جهة ثانية فإنهم واظبوا على إحياء وتوظيف الطقوس الزنوجية ، كديانة الفودو والتبشير بها كمعتقد بديل لمسيحية الأبيض .

هذه إذن نظرة عن الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية وعن رموز الجيل الأول ، ذلك الجيل الذي أطلق صيحة الزنوجة وأرسى لها مرتكزاتها النظرية والإبداعية . وفي الستينات ستظهر أسماء من غير الأسماء التي ذكرنا ، وسيتشكل جيل جديد لم يعش نفس التجربة التاريخية التي عاشها الرواد ، وهذا يعني اختلاف التناظير بين

---

(٨٣) أحمد الطويل : (إيمي سيزير شاعر الأصالة الزنجية والتحرر الإفريقي) مجلة : (الأقلام) س ١٣ ، ع ٩ ، نيسان ١٩٧٨ ، ص ٣٣ .
(٨٤) — Jerome garcin : (Aime Cesaire, le soleil du pays natal) in (les nouvelles litteraires) semaine du 25 Novembre au 1er Decembre 1981. No. 2863, P. 42.
(٨٥) ويعد هذا سيجعل بروتون هذه الإشادة مقتسمة بين سيزير والشاعر الزنوجي الأمريكي المعاصر ليد جونس .
(٨٦) جيرالد مور : (سبعة أدباء من إفريقيا) ترجمة : علي شلش ، ص ٣١ .
(٨٧) نفسه ، ص ٣٠ .
(٨٨) من أهم أعماله الشعرية ديوان (الأصباغ) الصادر عن دار جاليمار عام ١٩٣٧ ، إلا أن السلطات الفرنسية كانت قد صادرته بدعوى معاداة الغرب .
(٨٩) حسن الغرفي : (لمحة من الشعر الهايتي) مجلة : (آفاق) س ٢ ، ع ٣ ، جويلية ، أوت ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ٤٦ .

الجيلين ، كما يعني تباعدا ملموسا بينهما على مستوى مضامين وأشكال الكتابة الشعرية . لقد كان الجيل الأول مثلا مشغولا بالتعبير عن قضايا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، وبتمثل ثورات السود ونضالاتهم من أجل حريتهم وجدارتهم الإنسانية ، أما الجيل الثاني فإنه عايش قضايا وانشغالات طرحتها سنوات الاستقلال ، قضايا وانشغالات من قبيل البناء المجتمعي ، والصراع الطبقي ، والتقليد والحداثة . إن هذا التحول لا يدل في نظرنا على قطيعة ما ، ولكنه يشير إلى ما يمكن اعتباره إغناء وتنويعا لموضوعات الشعر الزنوجي ، ومن أبرز أسماء الجيل الثاني روني دوبيستر ، لامين دياكاتي ، إدوار كليسان ، تشيكايا أوتامسي ، إدوار مونيك ، (هؤلاء الشباب الذين سيأتون لإغناء الدم الجديد والفني للزنوجية)(٩٠) .

أما المدرسة التي يكتب أصحابها بالإنجليزية فهي تشمل شعراء الولايات المتحدة ، وشعراء جنوب إفريقيا ، سواء الذين يكتبون بالإنجليزية أو بالأفريكانية (لغة متحدرة عن الهولاندية) ، ثم شعراء المستعمرات البريطانية في إفريقيا .

ومن الأسماء الأساسية في الشعر الزنوجي الأمريكي الشاعر لانغستون هيوز ، فهو الأكثر شهرة بين رفاقه الأمريكيين بما كان له من تفوق عليهم ، (إنه أحد الكبار بين الشعراء السود ، لأنه مبدع حقا سواء على صعيد الأسلوب أو على صعيد الموضوعات)(٩١) . وقد ربطته مع سنغور وداماس علاقة حميمة ، فتعرفا على تصورات تيار « اليقظة الزنوجية » الذي أسهبنا القول فيه سابقا .

وإلى جانب لانغستون هيوز نجد الشاعر كونتي كولن الذي يعد الأكثر تعلقا بإفريقيا قياسا إلى الشعراء الزنوج الأمريكيين ، ثم هناك الشاعران ستير لنغ براون ، وجيمس ويلدرون . إن الشعر الزنوجي الأمريكي لا يكاد يختلف دلاليا في شيء عن نظيره المكتوب بالفرنسية ، ما عدا في تركيزه على دلالتي الاسترقاق والميز العنصري ، بالنظر إلى خصوصية الوضع الزنوجي في الولايات المتحدة ، ولعل هذه الخصوصية هي التي جعلت (أهم الموضوعات التي يتعرض لها الشعراء الزنوج هي فقدان الحرية ، وعار الرق ، والجوع ، ومحاولات الثورة ، وبؤس الرقيق ، وتمجيد العهد الغابر ، والكفاح من أجل تحرير العبيد ، وهي موضوعات جوهرها سياسي)(٩٢) . فالذاكرة السوداء الأمريكية لا يمكنها أن تنسى عذابات العبيد في الجنوب الأمريكي ، ومذلة الأحياء الهامشية في نيويورك وشيكاغو ، كمنع لوسي الطالبة الزنجية عن الالتحاق بجامعة الاباما ، ومقتل القس الزنجي مارتن لوثر كينغ ، الذي تزعم حركة الدفاع عن الحقوق المدنية للزنوج الأمريكيين . ولذلك سيطرت على الشعر الزنوجي الأمريكي دلالتا الاسترقاق والميز العنصري ، كما امتلأ هذا الشعر بإدانة الشعراء الزنوج الأمريكيين هاتين الممارستين من حيث كونهما تعبيرا عن أخلاقية همجية وتدميرية ، على أنهم لم يصلوا ، رغم الجروح والمهانات ، إلى حد الحقد على البيض ، (بل لقد بلغ ببعضهم الإنصاف درجة الاعتراف بما للجنس الأبيض من فضل عليهم)(٩٣) . لكنهم جنحوا في المقابل إلى .

---

(٩٠) — Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poesie negro-africaine) in
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ـ ع الثاني والثالث لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، ص ١٧٣ .

(٩١) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du XXe siecle) PP 21-22.

(٩٢) لويس عوض : (الثورة والأدب) ص ٤٥٤ .

الإعلاء من قدر الذات السوداء ، فتساموا بوسامة الجسد الأسود ، وامتدحوا الشعر المجعد والمنفوش . ومن زاوية الشكل تركوا علامات إرثهم الزنوجي منتصبة في بنية اللغة الإنجليزية ، بحيث عملوا على تعنيفها بل ترّنيجها بما استوحوه من الأهازيج والمأثورات الزنوجية ، وبما اقترضوه من موسيقى الجاز والبلوز والراجتايم ، الشيء الذي أعطى شعرهم مذاقا شائقا بين المدارس الشعرية الزنوجية . (إن شعر الزنجية ينشر الفرح ولقد قال لوركا « وإن زنوج أمريكا يمثلون هناك أكبر حساسية ودقة لأنهم يأملون ، لأنهم يغنون وكان بإمكانه أن يختصر وهو أمير الشعراء « إن الزنوج بعاطفيتهم وحساسيتهم هم البلبلة الشاعرية لأمريكا)[٩٤] .

هذا وأعقب جيل « اليقظة الزنوجية » جيل جديد ، كالذي حدث في الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، وقد ساوق هذا الجيل تطور مشاغل وهموم السود في الولايات المتحدة ، فانتقل الشعر من مسايرة شعار الحقوق المدنية إلى التعبير عن تحسس الجماعة السوداء والهوية الفارقة ، أي من مرحلة الشعور بالانتماء إلى المجتمع الأمريكي إلى مرحلة الانتماء إلى الكلية السوداء ، ومن بين ممثلي هذا الجيل راب براون ، كارل كارتر ، جاي رايت ، لاري نيل ، ماري إيفانز . . .

وعلى أي ، ومهما يكن من تباين بين الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية ونظرائهم الأمريكيين فإنهم يلتقون على أكثر من صعيد ، مادام (الشيء الذي يربط بين هؤلاء الشعراء هو ذلك الوعي المذهل بأن الناس السود تعساء ، وأن كل الناس السود إفريقيون ، وأن القصيدة المطلقة هي التجلي الأدبي لإفريقيا وشعوبها اجتماعيا وسياسيا وأخلاقيا وروحيا)[٩٥] .

وكالشعر الزنوجي الأمريكي يواجهنا الشعر الزنوجي في جنوب إفريقيا بلهجة الإدانة للميز العنصري ، لأننا لما نذكر جنوب إفريقيا فإننا نذكر إحدى قلاع البربرية المتبقية من عهود الظلام ، فضراوة حياة السود هناك تفوق كل التصورات الممكنة ، بحيث يحرمون ، وهم الأغلبية ، من حقوقهم الإنسانية ، ويمنعون ، وهم في وطنهم ، من حق الانتقال والتجول وإلى جانب هذا العامل المشترك ، نسبيا ، بين الواقعين الأمريكي والجنوب إفريقي ، هناك عامل الاحتكاك المباشر بالخشونة الغربية في واجهتها الاقتصادية ، أي في مستواها التكنولوجي المتقدم ومنظورها التحقيري للإنسان المغاير ، ففي الولايات المتحدة أمكن لشعرائها الزنوج أن يعاينوا ما تعنيه الحضارة البيضاء ، كما استطاعوا استيعاب آليتها التدميرية عن قرب ، (وفي دولة متطورة صناعيا كجمهورية إفريقيا الجنوبية تركت عمليات التمدين المكثفة آثارها العميقة على الإدراك السياسي للأفارقة وهذا بالتالي حدد خواص التفكير الفني حيث تضافرت وتفاعلت بشكل متبادل المشكلة الإفريقية النموذجية مع وسائل كشفها الآتية من حضارة أخرى)[٩٦] .

وهكذا تمحورت كل الأعمال الشعرية الزنوجية في جنوب إفريقيا ، المكتوبة بالإنجليزية والأفريكانية ، حول الميز العنصري ومعاناة السود لمضاعفاته الجسدية

---

(٩٣) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة : (الثقافة المغربية) ع ٦ ـ ١٩٦٢ ، ص ٤٥ .
(٩٤) لأمين لبانع : (الثقافة والشعر الزنجي الإفريقي حاضر بقاء حضارتنا) (الثقافة الإفريقية) ، ص ٣٨٧ .
(٩٥) أحمد مرسي : (مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي) ص ٥٧
(٩٦) د. ألكسير بوبوف : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة ، وليد قرمش ـ مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ ، العددان ٣٨ ـ ٣٩ ، شتاء وربيع ١٩٨٤ ، ص ١٢٢

والنفسية ، كما تمحورت أيضا حول معاداة الحضارة البيضاء وأخلاقيتها التدميرية ، وفي نفس الوقت طفحت هذه الأعمال بتطلعات السود إلى بناء جنوب إفريقيا متحررة من ربقة الميز والتهميش . وإذا علمنا مقدار القمع الذي يتعرض له الشعراء من قبل السلطات البيضاء أمكننا تقدير الوضعية الخانقة التي يكتب داخلها هؤلاء ، بحيث غالبا ما يكونون عرضة للاعتقال أو النفي أو الإعدام[٩٧] ، ويعتبر الشعراء دنيس بروتوس ، وماتريسي كونيني ، وكوسموبيترس ، وبريتين بريتنباك[٩٨] أهم وجوه الشعر الزنوجي بجنوب إفريقيا .

أما من نيجيريا فيمكن أن نذكر مجموعة من الشعراء منهم دنيس أوساديباي ، وغابرييل أوكارا ، وجون بيبر كلارك ، وجوزيف كاريوكي ، ومن غانا نذكر الشاعرين ميكاييل دياناتج ، وكايير منسا . وبالطبع فإن ما يصدق على الشعر الزنوجي الأمريكي وعلى الشعر الزنوجي الجنوب إفريقي يصدق كذلك على ما أبدعه الشعراء الزنوج النيجيريون والغانيون بشرط احتسابنا للحيثيات الخاصة بكل تجربة شعرية قطرية .

وفيما يتعلق بالشعر الزنوجي المكتوب بالإسبانية والبرتغالية فإنه يتمثل في النصوص الشعرية المنسوبة إلى الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي المستعمرات البرتغالية بإفريقيا (أنغولا ، الموزمبيق ، غينيا بيساو) . وتندمج هذه المدرسة هي الأخرى في نفس الإطار العام للشعر الزنوجي الافريقي ـ الأمريكي سواء من الناحية الشكلية ، أو من الناحية الدلالية ، ولا يبعدها عن هذا الإطار سوى ما تعلق بالاعتبارات القطرية ، وبمقتضيات الأداة اللغوية . فلقد عرفت كوبا ، كجزر الأنتيل الأخرى ، استقدام جماعات من السود سخرت للعمل الشاق في مزارع قصب السكر التي تمتلكها الكمبرادورية الإسبانية ، وظل الاسترقاق قائما بكوبا إلى نهاية القرن الماضي . فاشحنت نفسية الزنوج الكوبيين بمرارات وجدت تجسيدها التعبيري في نصوص الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي مقدمتهم الشاعر جوزيه زاكارياس طاليت والشاعر نيكولاكيين . وبخصوص هذا الأخير فقد عرفت عنه ميوله الشيوعية بالرغم من انتمائه إلى وسط بورجوازي ، وفي الوقت الذي انجرت فيه البورجوازية السوداء الكوبية إلى التقليد البئيس لنموذج الحياة الغربية رجع كيين إلى جذوره السوداء ، ويدور شعره حول تصوير ظلامية عهد الاسترقاق ، وحول محن السود وآلامهم ، وحول شقاوتهم في مزارع قصب السكر ، كما يكشف شعره عن القلق الذي للهوية ، إذ يجعلنا نشعر بالبعد الاستيهامي لهوية زنوج كوبا الذين انتزعوا من تاريخهم وثقافتهم الحقيقيين وأقحموا في مناخ تغريبي ، ومن الزاوية الشكلية ضمّن كيين نصوصه كثيرا من الأخيلة الزنوجية ، وطبع بأسلوبه الشخصي اللغة الشعرية الإسبانية ، إلا أن الشاعرية الكبيرة لكيين لم تعثر على من يطورها ويغنيها ، بالنظر إلى ندرة الشعراء الزنوج الكوبيين المبدعين باللغة الإسبانية .

وعلى العكس من هذه الندرة استطاعت اللغة البرتغالية أن تفرز عددا كبيرا من الشعراء الزنوج ، ممن أصبح لهم صيت داخل الشعر الزنوجي الإفريقي ـ الأمريكي ، ومن البديهي أن نستحضر في هذا المجال اسم الشاعرين الأنغوليين ، الرئيس الأنغولي الراحل أغوستينونيتو ، وأنطونيوجاستو ، والشعراء الموزمبيقيين المعروفين كالرئيس الموزمبيقي الراحل ساموزا ماشيل ،

---

(٩٧) نقتصر إلى مثال الشاعر بنيامين مولويزي الذي أعدمته سلطات بريتوريا يوم ١٨ أكتوبر ١٩٨٥ .

(٩٨) حوكم هذا الشاعر بتسع سنوات سجناً بسبب أشعاره ، وله ديوان (النار البارنة) الذي يعد من أروع ما كتب في الشعر الزنوجي الجنوب الإفريقي .

وفاليتا جانغالانا ، ونعيمة ديسوزا ، ومارسيلينو دوس سانتوس ، بينما اشتهر من شعراء جزر الرأس الأخضر الشاعر أوتيسيمو سيلفيرا .

ومن خلال قراءتنا لنصوص شعراء المستعمرات البرتغالية نلمس مدى الأولوية التي أعطاها هؤلاء للمسألة التحررية ، مما جعل شعرهم أقرب ما يكون إلى الشعر السياسي بمعناه النقدي ، ولعل هذا التميز راجع إلى تأخر استقلال بلدانهم بالنسبة إلى الأقطار الإفريقية الأخرى ، هذا إضافة إلى أن بلدانهم حصلت على حريتها توسلاً بالكفاح المسلح ، بخلاف دول كالسنيغال وساحل العاج إذ حققتا استقلالها سلمياً . وإذن كان لابد أن يجد العنف الثوري صداه الطبيعي في نصوص شعراء المستعمرات البرتغالية وأن يشترك الإبداعي بالإيديولوجي في هذه النصوص ، وفي شخصية بعض الشعراء (مثال الرئيسين أغوستينيو وساموريا ماشيل) ، وبالتالي فـ (ليس من باب الصدف أن تصبح قصائد أغستينيو « نحن عائدون » و « البناء » أغاني حربية لفصائل تحرير أنغولا)[٩٩] . لكن خارج دلالتي الحرية والثورة التزم شعراء هذه المدرسة بتصوير بؤس السود ، وفضح آلية الاضطهاد الأبيض ، كما استعادوا ذكريات العبودية ، وإن كان الموزمبيقيون قد ركزوا أكثر على تصوير الطبيعة الخلابة لوطنهم ، وعلى معاناة المهاجرين من أبناء بلدهم إلى جنوب إفريقيا ، حيث يعملون في مناجم الذهب في ظروف لا إنسانية ، ملؤها الاستغلال والعنصرية .

إن الزنوجة كخطاب فكري شمولي كان لابد وأن تمتد آثارها إلى فعاليات ثقافية أخرى ، وأن تستحكم في بنياتها الشكلية والدلالية وفي بنيتها الرؤيوية . فالزنوجة لم تنحصر إذن في الحقل الشعري ، بل كان لها حضور وكانت لها تجليات في حقول أخرى كالرواية ، والقصة القصيرة ، والمقالة ، والكتابة النظرية ، والمسرح ، والنحت ، والموسيقى والسينما . . . وإذا أخذنا الكتابة الروائية فسنلاحظ بأنها خلفت الهيمنة التي كانت للشعر على امتداد الثلاثينات والأربعينات والخمسينات ، وابتداء من الستينات سيصبح للروائيين الزنوج نفس القوة التي كان للشعراء فيما قبل ، وبذلك صارت الرواية الزنوجية الحقل الأدبي الأكثر تمثلاً للخطاب الزنوجي ، والواقع أن الأسماء أكثر من أن تحصر ، ولذلك يمكن الاقتصار على بعضها على سبيل التمثيل[١٠٠] . فمن الروائيين السنيغاليين نذكر عبدولاي سادجي ، وسمبين عثمان ، والشيخ حاميدو كان ، ونذكر من ساحل العاج برنار دادي ، ومن الكونغو جان مالونغا ، ومن غينيا كامارا لاي ، ومن مالي سيدو باديان كوبات ، ومن الداهومي أولمب بيلي ، ومن جنوب إفريقيا بيتر أبراهامز ، وهوت شيستون . أما الروائيون المارتينيكيون فمنهم جوزيف زوبيل ، وإدوار كليسان ، ومن الهايتين جاك ستيفن اليكسي ، ونبغ من غويانا الفرنسية الروائي الكبير رونِي ماران الذي حصل على جائزة كونكور الأدبية عام ١٩٢١ إثر صدور روايته (باتوالا) ، وقد بررت اللجنة منحه الجائزة بكونه أول روائي زنجي يتمكن من إنجاز رواية تعكس بوفاء الروح الزنوجية . وبخصوص الرواية الأمريكية نستعرض أسماء كل من شيستيرهايمز ، وريشارد رايت ، وجيمس بالدوين الذي تتميز أعماله بكتابة عنيفة متأججة ، أسلوبياً ومضمونياً ، ومنها رواية (النار في المرة القادمة) .

(٩٩) ميخائيل كورد كاشيف : (الشعر الإفريقي دعوة إلى الإنسان) ترجمة : عقيل أبي حسن ، مجلة (الأقلام) ، س ١٥ ، ع ٩ ، حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٨ .
(١٠٠) معظم هؤلاء الروائيين يمارس كتابة القصة القصيرة أيضاً .

وفي مجال المقالة والكتابة النظرية ، سبق أن أثبتنا بعض أعمال سنغور وسيزير ، إلا أننا نضيف أسماء أخرى كالمؤرخ السنغالي أناديوب صاحب أكثر من مقال وكتاب حول التاريخ والحضارة الإفريقيين ، وكذلك الكاتب النيجيري آموس توتوولا ، والكاتب والسياسي الكيني جوموكينياتا الذي ألف كتاب (عند سفح جبل كينيا) ، الذي نشرت دارماسبيرو ترجمته الفرنسية ، وقد ساهم هذا الكتاب في تأسيس وعي زنوجي في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، نظرا لما تضمنه من تحاليل لمسألة الاستعمار ولميكانيزم البنية القبلية في إفريقيا . وعلى غرار جوموكينياتا انشغل الرئيس الغاني الراحل نوامي نكروما بالقضايا الإفريقية ، فألف كتبا عديدة منها (الوعيوية) و (يجب على إفريقيا أن تتوحد) . على أن ألمع الكتاب الزنوج قاطبة هو المارتينيكي فرانز فانون ، ومن المعلوم أنه بدأ حياته العملية كطبيب نفساني ثم انتقل من المارتينيك إلى الجزائر كطبيب متطوع في جبهة التحرير الجزائرية قبل الاستقلال ، وبعد هذه المرحلة عمل مستشارا للزعيم الكونغولي الراحل باتريس لومومبا . ومن مؤلفاته المعروفة (جلد أسود ، أقنعة بيضاء) الذي حلل فيه أصناف المركبات النفسية لدى زنوج المارتينيك كالانفصام والعصاب ، و (المعذبون في الأرض) الذي تناول فيه قضايا الاستعمار والثقافة والهوية في العالم الأسود وفي العالم الثالث عموماً .

وفي نفس السياق عمل المسرحيون الزنوج على أن يكون مسرحهم من صميم الثقافة الزنوجية ، أولا عن طريق كتابة نصوص تنصب على موضوعات لها علاقة بيئتهم ، وثانيا عن طريق الاستناد على ما تتيحه هذه الثقافة من تقنيات وطرائق فرجوية ، ومن هنا استلهموا تقنية الراوي في الأدب الشعبي الإفريقي ، كما وظفوا الأشكال ما قبل المسرحية في تراثهم كـ « اليايك » والحناليات « مفت » و « ساليريات » اليوروبا والزولو وامبونجي ، وبموازاة ذلك استثمروا طقوسية القناع والرقص والإيقاع ، وجعلوا الجمهور مندمجا في الفعل المسرحي . ومن المسرحيين الزنوج المعاصرين الكاتب الجنوب إفريقي أتول فوغارد ، صاحب مسرحية (عقدة الدم) التي تعالج إشكالية الهوية في مجتمعه ، والكاتبة الغانية إيفواتيودورا سوثرلند ، صاحبة المسرحيتين (أنانس غورو) و (سوف تؤدي اليمين) ، وهما عملان ينمان عن ثقافة أسطورية واسعة لمؤلفتها ، ثم الكاتب النيجيري وول سوينكا الذي ألف مسرحيات مغرقة في زنوجيتها ، ومنها (النسل القوي) و (سكان المستنقع) ، هذا دون أن ننسى إيمي سيزير في مسرحياته (مأساة الملك كريستوف) و (فصل في الكونغو) و (عاصفة) ، والمسرحي العاجي برنار دادي صاحب مسرحية (أسيبال دوتيل) .

ورغما من أن السينما الإفريقية فتية كسينما العالم الثالث فقد حاول السينمائيون الأفارقة وضعها في نفس الإطار الفكري والإبداعي الذي أطرت به الزنوجية مختلف الفعاليات الثقافية في العالم الأسود . فعلا إن السينما نتاج للحضارة البيضاء ، بيد أن هذه الحقيقة لم تعق توظيف تقنياتها وجماهيريتها بغاية تأسيس خطاب سينمائي زنوجي يوثق ويستقرىء الواقع الأسود ، في قضاياه وتحولاته وأسئلته ، لذا تحول مهرجان « أوغادوغو » السينمائي ، الذي ينعقد موسميا ببوركينا فاسو إلى فرصة للوقوف على إنجازات السينما الإفريقية ، وعلى مدى قدرتها التعبيرية عن نفس المشاغل الوجودية التي تضغط بثقلها على الشعراء والروائيين والمسرحيين الزنوج ، وإذا كان لنا أن نعين بعض أسماء السينما الإفريقية فلنذكر السينغالي سمبين

عثمان ، والمالي سليمان سيسي ، والنيجيري عمرو كندا ، والكاميروني ديكونغي بيبا .

وانخرطت الموسيقى الزنوجية هي الأخرى في ذات الهم الثقافي الشمولي ، فعكف الفنانون السود على صياغة أصوات وإيقاعات تعكس تلاؤم تلك الموسيقى وصميميتها ، كما تعكس خلفيتها الطقوسية ، وملازمتها للسلوك اليومي في حياة الأسود ، ومن هنا جاءت فرادة الإبداع الموسيقي الزنوجي واحتكاره للذوق العالمي . لقد ألمحنا فيما سلف إلى موسيقى الجاز والبلوز والراجتايم والريكي ، لكن علينا أن نلمح إلى بعض مشاهير هذه الموسيقى كمجموعة توري كوندا السينغالية ، والمغنية الجنوب إفريقية مريام ماكيبا ، والفنانين الزنوج الأمريكيين من أمثال جونثان جونز ، ولويس أرمسترونغ ، وراي براون ، ونينا سيمون .

وإذا كان هذا شأن الحقول الفنية التي عززت بها فيكتيفا ، فيما يخص النحت ، أن نشير إلى أن أصالة ما يبدعه النحاتون الزنوج هي التي جعلت ، مثلاً ، لمنحوتات النحات الملاوي وازي بأن تتصدر أروقة متحف الفن الحديث في نيويورك .

إن الزنوجة كحركة فكرية وإبداعية لم تكن لتكتفي بالإعلان عن نفسها عبر المكتوب النظري أو عبر الفعل الثقافي ، بل إنها سنت لنفسها تقاليد ، وخلقت قنوات ووسائل ما كان لها إلا أن تُرسِّم شرعيتها وأن تجذر حضورها كميثاق يجمع بين مثقفي العالم الأسود .

وهكذا ارتبطت الزنوجة بالمواسم الثقافية وبالمهرجانات والملتقيات التي كانت مناسبات للتداول في شؤون العالم الأسود ، واستعراض ما يزخر به العالم المذكور من أفكار وإبداعات وبالتالي مناسبات لإلفات العالم إلى الصوت الزنوجي ، إلى صوت هوية تمارس احتفالها الثقافي . كذا تركزت الأنظار على داكار عام ١٩٦٦ وهي تحتضن المهرجان الأول للثقافة السوداء ، وعلى الجزائر عام ١٩٦٩ وهي تؤم المهرجان الثاني ، وعلى لاجوس عام ١٩٧٧ وهي تستقبل المهرجان الثالث ، وبموازاة هذه الملتقيات انعقدت ملتقيات أخرى خاصة بالأدباء الأفارقة ، كملتقى باريس عام ١٩٥٦ وملتقى روما ١٩٥٩ .

وككل حركة فكرية وإبداعية مستجدة وطليعية لم يكن في وسع الزنوجة أن تمر في صمت ، وأن تضمن موقعها بين الحركات الفكرية العالمية دون إثارة ردود فعل مواكبة تتروح بين التحمس لمبادئها وبين الاعتراض على هذه المبادئ تأسيساً على منطلقات وقناعات معينة ، لذلك نرى من المجدي التعرض لردود الفعل التي اعترضت على الزنوجة ورفضت تصوراتها المختلفة .

طبعا (لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الهام الذي قامت به « الزنجية » كحركة أدبية منذ الثلاثينات الأولى من هذا القرن لتحقيق الذات الإفريقية ، والتعبير عن إرادة الوحدة لدى الزنوج)(٢٠٦)، على أن تحليلها لإشكاليات العالم الأسود أنتج أطروحات مضادة حاولت أن تجد في الكتابات النظرية لسنغور التي تبنتها الحلقة الباريسية وقطاع عريض من المثقفين السود ثغرات بغاية الكشف عن تناقضات الخطاب الزنوجي وتفككه بل وميتافيزيقيته ! فسنغور يرى مثلا (بأنه يصعب تصور كاتب زنوجي ـ إفريقي قد تساوره فكرة تجاهل الزنوجة أو التخلي عنها ، إذ ما قولنا في كاتب فرنسي قد يتخذ نفس الموقف من فرنسيته ؟ وفي كاتب إسباني أو أمريكي

(٢٠٦) حسن الشيمي : (انداه : لفيمة دي موزا) (العلم الأسبوعي) س ٤ ـ ع ١٤٩ ـ الجمعة ٩ يوليو ١٩٧٦ ، ص ٣ .

ـ لاتيني بإزاء إسبانيتيه ؟ لا شك أنكم ستزدرونه ؟؟ »[١٠٢].

هذا الطرح ربما تبدى تعميميا ومطلقا ، لأنه يقفز على مجموعة عناصر ومعطيات تجعل من الخطاب الزنوجي خطابا نسبيا لا يجوز إمكانية انسحابه على كافة الزنوج . إن الزنوجة برأي المعترضين عليها قد ارتكبت أحد أخطائها الكبرى عندما تعاملت مع العالم الأسود ككتلة متجانسة لا تشوبها فوارق أو اختلافات ، بينما واقع الأمور يؤيد لا تجانس العالم الأسود ، فحقائق الجغرافيا والتاريخ والثقافة تتضمن تباعدات ، جوهرية أحيانا ، بين أجزاء هذا العالم ، وإذن فهو عالم ميتافيزيقي أكثر منه عالما معيشا وملموسا ، إذ « لا وجود لروح جوهرية سوداء . نعم إن العالم الأسود يبدي خصائص أصيلة جد ناشئة عن تاريخه ومن محيطه . إن العالم الأسود ينبع من الواقع أكثر من القياس والأخلاق ولا من الميتافيزيقا »[١٠٣].

فهل الخصائص التي تخص الأسود الذي يعيش في مجتمع متقدم تكنولوجيا كالولايات المتحدة فتشرب كيانه بفظاعات إيديولوجيا الاسترقاق والميز العنصري ، هذه الخصائص هل هي نفس ما ينطبق على الأسود الأنغولي الذي يعيش في مجتمع متخلف ، لكنه استطاع أن يجبر عمقيا ما يعنيه الاستعمار ، هل الأسود الكوبي أو المارتينيكي هو عين الأسود السينغالي أو اللغاشي ؟ إن الزنوجة « تجعل من الزنوج كائنات متماثلة في أي مكان وأي زمان »[١٠٤]، وهي بذلك تغض الطرف عن فوارق واختلافات ، تتلبس بأكثر من صعيد ، بين سود إفريقيا وسود الشتات من جهة ، وحتى فيما بين السود الأفارقة ، وفيما بين سود الشتات من جهة أخرى .

أما بصدد الأطروحة السنغورية حول الانفتاح على الغرب وإنشاء حضارة ثنائية (سوداء ـ بيضاء) ، فإن المعترضين على الزنوجة يرون في هذه الأطروحة دليلا على انفصام ثقافي محقق ، بحيث كيف تتكلم الزنوجة عن أصالة العالم الأسود كبديل لشرور المجتمع الغربي وتسعى في نفس الوقت إلى عقد صفقة حضارية مع البيض ، وخلق تعاقد مستحيل مع قيمهم المادية ، ومن ثم فإن « حلم سنغور في تشكيل ثقافة إفريقية لاتينية مثلا لا يعبر إلا عن الواقع الملموس للتبعية السياسية والاقتصادية والمفروض حسب تعبير « فانون » هو « طلاق » الغرب »[١٠٥].

فهذا الانفتاح إن هو إلا غطاء لتعالق تبعي مع الغرب قد تكون له عواقب أوخم حتى من الاستعمار الكلاسيكي . إن الفائدة التي ستجنيها الحضارة الغربية ستكون أكثر من فائدة الحضارة السوداء ، بفعل الطابع الهيمني للأولى ، ولهذا يبدو أن الزنوجة قد انجزت إلى نوع من التمركز الغريب في جاذبية النموذج الحضاري الغربي دونما وعي لنتائج هذا التمركز ، ومعنى هذا أننا حين نجردها من لونيتها السوداء تظهر قريبة من الصُرْعات الفكرية التوفيقية ، لأنها ضمن هذا الموقف الانفتاحي ، تتراءى مجرد خطاب إنساني مضبب سرعان ما تتكشف توفيقيته المهزورة لنا تبين تساند الروحية الزنوجية مع المادية الغربية .

---

(١٠٢) — (pour la negritude) propos recueillis par Michel pierre-in (Magazine litteraire) No. 195 Mai 1983-P. 31.

(١٠٣) جوزيف كيزربو : (مواقف واقتراحات لثقافة إفريقية حديثة) (الثقافة الإفريقية) ص ٥٠٤ .

(١٠٤) — Stanislas Adotevi : (Negritude et Negrologues) P. 45.

(١٠٥) من مداخلة عبد اللطيف اللعبي ضمن ندوة (الفكر في القرن العشرين) التي نظمها اتحاد كتاب المغرب ـ (العلم الأسبوعي) س ٢ ـ ع ٥٨ ـ الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ ـ ص ٨ .

فهل يجوز ، والحالة هذه ، الإبقاء على البعد التحرري للحركة الزنوجية ، من حيث كونها حركة استهدفت تخليص العالم الأسود من مختلف أنماط تبعيته للغرب ؟ هنا يتكفل بالإجابة أحد المعترضين وهو الشاعر الكونغولي تشيكايا أوتامسي فيقول (كثيرا ما وضع علي السؤال التالي : « هل ترون بأن كتاب الزنوجة قد ساهموا في تحرر إفريقيا ؟ » وإذ يفاجئني هذا السؤال أجيب : « من المحقق أنهم أخفقوا لأن تحرر إفريقيا تم بشكل سيء »)[١٠٦].

لكن إذا كان البعض قد انتقد في الزنوجة موقفها الانفتاحي ، فإن آخرين قد ركزوا على الوجه الآخر من الزنوجة ، على مناداتها بالخصوصية والأصالة ، فاعتبروا هذه المناداة شوفينية صريحة تتنافى مع واقع القرن العشرين ، بل إن الزنوجة قد انحرفت عن الخط الذي كان عليها أن تتبعه ، وذلك عندما تحولت من مستوى رد الفعل المشروع تجاه إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، إلى مستوى الموقف العصبوي المتطرف ، ومن الذين آخذوا عليها هذا الموقف الشاعر اللغاشي جاك رابيما نانجارا ، بحيث رفض ذلك الاقتران الميكانيكي بين الزنوجة واللون الأسود ، لأن الشرط اللوني قد يفضي إلى قطيعة مع المجموعات الإنسانية الأخرى .

وإضافة إلى ما سطرناه من اعتراضات ينطرح اعتراض آخر يمس هذه المرة الطابع النخبوي والثقافي للحركة الزنوجية ، فسنغور وسيزير وداماس أقرب إلى الأوساط الثقافية الغربية منهم إلى ملايين السود المعنيين بخطابهم الفكري والإبداعي لأنهم قبل أي شيء نتاج للمشروع التنخيبي الثقافي للاستعمار ، فـ (المثقف الإفريقي المتكون في باريس أو لندن ينتمي ـ بعض الأحيان ـ إلى وسطه الثقافي بروابط خفية أكثر منه إلى مسقط رأسه)[١٠٧]، وماداموا يمثلون الشريحة المتنورة من البورجوازية الصغرى السوداء ، التي أفرزها المسلسل الاستعماري ، فإن النتيجة هي أن يتوزع ولاؤهم الإيديولوجي والفكري بين الغرب وبين العالم الأسود ، وحين كان المزارعون السود في إفريقيا والأنتيل يقاسون شظف العيش ووطأة الاستغلال في حقول الموز وقصب السكر (لم يكن هؤلاء الطلبة في السينغال أو في فولتا العليا ، لم يكونوا في فورفرانس ، وإنما كانوا في باريس أو على ضفاف السين)[١٠٨].

تلك إذن أهم الاعتراضات التي ووجهت بها الزنوجة ، أما إذا وددنا تحديد الجهة التي كانت أكثر مناهضة لمبادئها ، فإنها مثقفو إفريقيا الناطقة بالإنجليزية الذين كانوا (يرون فيها دعوة للرجوع إلى الوراء لا دعوة للبعث)[١٠٩]، لكن قبل بسط مرتكزات هذا الموقف يجدر بنا أن نشير مسبقا إلى أن أفكار سنغور لم تصل بسرعة إلى أولئك المثقفين بسبب العائق اللغوي ، وإذا أضفنا ازدراء الناطقين بالإنجليزية عموما لكل ما يتصل بالثقافة الفرنسية ، اتضحت لنا الملابسات التي رافقت المناهضة المتحدث عنها . فهذان العاملان وقفا حائلا بين سنغور وبين (تغلغل آرائه عن الشخصية الإفريقية في إفريقية البريطانية . ولم تصبح تعاليم سنغور مألوفة

---

(١٠٦) (Tchicaya U Tam'si) propos recueillis par Denyse de saivre-in (Recherche, pedagogie et culture) paris AV-Juin 1982, P. 15.

(١٠٧) مالك بن نبي : (حول الثقافة) (الثقافة الإفريقية) ص ٣٩٧ .

(١٠٨) —Stanislas Adotevi : (Negritude et Negrologues) P. 18.

(١٠٩) الدكتور محمد عبد الغني سعودي · (قضايا إفريقية) ص ٢٢٤

لدى الدول الناطقة باللغة الإنجليزية إلا الآن فقط ، بعد تنويه سيكوتوري المتكرر بأهمية الإفريقي كإنسان[١١٠] ويتصدر قائمة المناهضين للزنوجة في أفريقيا الناطقة بالإنجليزية الكاتب الجنوب إفريقي حزقيال مفاليل ، بحيث يتهمها بالتبسيطية ، والانتقاء ، والانفصام ، وبالبعد عن القضايا الجوهرية للسود ، فهي ـ في نظره ـ لم تفعل شيئاً من غير أسطرة التاريخ الزنوجي والانجار ببلاغة فولكلورية لا تعدم زيناء مفرضين في حواضر الترويول ، بينما السود هم أحوج ما يكونون إلى خطاب واقعي كفيل باستيعاب أسئلتهم الواقعية .

إن المهمة الأكثر إلحاحا وراهنية عند حزقيال مفاليل كمواطن من جنوب إفريقيا ، وهي غير المستعجلة ، هي مواجهة الميز العنصري مثلا ، ومساعدة السود على استرداد إنسانيتهم ، أما التلفع بخطاب مغرق في رومانسيته ويتعامل مع الأسود ككائن هلامي أو اعتزالي فلا يتعدى كونه بذخا فكريا ممجوجا ، والأكثر من هذا فإن حزقيال مفاليل يرى بأن الزنوجة تلتقي ـ بصيغة أو بأخرى ، مع شعار صيانة الثقافة السوداء المرفوع من طرف بيض جنوب إفريقيا ، هذا الشعار الذي يستهدف إدامة وتثبيت النمط الحضاري الماضوي ، مما يسهل على البيض تأمين سيطرتهم على الجسد والعقل الأسودين ، و (من خلال هذا الوضع يبدو ذلك الشعار حاملا نفس المعنى الذي سيحمله « التعصب الزنجي » . ولهذا السبب بالذات أظهر أدباء جنوب إفريقيا ذوو الميول التقدمية ، أظهروا بشكل محدود عدم تأييدهم « للتعصب الزنجي » الذي يعزل الكتاب السود عن بقية العالم)[١١١] ، على أن المثير في موقف حزقيال مفاليل من الزنجية هو أنه (رفضها في زمان كانت الزنجية تيارا يخيف من لا يسبح معه)[١١٢] .

أما من نيجيريا فقد عارضها كل من الشاعر دنيس أوسادباي والكاتب المسرحي وول سوينكا ، إذ رفضا في الزنوجة ، كأغلب الناطقين بالإنجليزية ، انشدادها إلى (رؤى غزلية للمجتمعات ما قبل الاستعمارية ، بينما هما يفضلان نظرة أكثر موضوعية ، وأكثر صفاء ، وأكثر بساطة إلى ذلك الماضي)[١١٣] ، وفي هذا الإطار نظم أوسادباي قصائد تقدح في النزوع الماضوي للزنوجة ، وتستهجن نظرتها الأنثروبولوجية إلى ماضي السود ، ومن ذلك قوله :

فلنطرح بعيدا تلك التقاليد ولا نبق عليها
حتى لا نكون غير أطروفة
تلائم ذوق مؤرخ أبيض[١١٤] .

وفي المقابل يقول وول سوينكا (لا أظن أن النمر يتجول معلنا نمورته)[١١٥] وهو يقصد أن الزنوجة ، كذات وروح وممارسة ورؤية ، ليست بحاجة إلى من يُنظِّر لها ، ويُقعِّد لتجسيداتها ، لأنها ببساطة معطى قائم في العالم الأسود ، وبالتالي فلا معنى لإثارة كل ذلك الضجيج النظري الذي أحدثته الحركة الزنوجية .

---

(١١٠) د. ماغو بايكار : (الثورة في أفريقيا) ترجمة : روفائيل جرجس مراجعة : محمد محمود الصياد ، ص ٧٥ .
(١١١) د. آ. أتيل بوحت : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة : وليد قارصلي ، مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ ـ ع ٣٨ ـ ٣٩ ، شتاء ربيع ١٩٨٤ ، ص ١٣١ .
(١١٢) جلال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٧٠ .
(١١٣) (Impressions d'afrique) propos recueillis par Michel pierre in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 36.
(١١٤) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
(١١٥) نفسه ، ص ٢٢٨ .

ومهما كان حجم الاعتراضات التي طالت الزنوجة وأقطابها ، فإن الموضوعية تحتم علينا القول بأن سنغور لم يكن قط مؤمنا بكمال المبادئ، والأفكار التي ضمنها كتاباته النظرية ، أي أنه لم يستبعد إمكانية الاجتهاد والإضافة والتطوير ، مما سيقي الزنوجة من الوقوع في الثبات والانغلاق والوثوقية . وقد قاسمه هذا الرأي عدد من المفكرين والمبدعين الزنوج من أمثال إيمي سيزير ، وفرانز فانون ، وسمبين عثمان ، ممن اقتنعوا (بأن الزنوجة محكومة بالتطور ، بحيث تمتلك بعدا تاريخيا لا تكتفي بتجليته ولكنها واعية به)(١١٦) .

ولعل الوعي بتاريخية الزنوجة هو الذي حدا بالجيل الثاني من المثقفين الزنوج إلى تجاوز ما اعتبر ثغرات داخل أطروحات سنغور ، إذ أن سنغور ركز ، في المقام الأول ، على إفريقيا في ظل الهيمنة الاستعمارية ، لكن (بازدياد موجة الحرية في إفريقيا قوة واندفاعا أخذت تتضح متناقضات مذهب الزنجية يوما بعد يوم)(١١٧)، ولأجل هذه التناقضات عجز الزنوجة عن استيعاب قضايا ما بعد التحرر، هذا ما يستدعي تطويرها والانتقال بها من نظرية خلقية إلى أداة فكرية قادرة على الانخراط في قضايا الساعة بالعالم الأسود . لذا ستتبلور زنوجة جديدة اختار لها دعاتها المقابل الفرنسي Negrisme بدلا من Negritude وستكون ولادتها في الكاميرون وليس في باريس ، أما (مبدعها فهو ج.م. أبالندا الذي طرحها وأذاعها عام ١٩٦٦ وذلك لأول مرة)(١١٨)، وتتحدد مرتكزات هذه النزعة في تفتح إنساني أكثر حيوية ، يستمد مصداقيته من المثل والتصورات الحقيقية في الثقافة الزنوجية ، وأيضا في خلق رؤية متحررة للإنسان والحياة والكون ، وفي تأسيس علائق إنسانية أكثر تنظيما .

لقد كان مرادنا من استعراض مختلف ردود الفعل التي ولدتها الزنوجة الإحاطة بالآثار والمضاعفات التي تركتها لدى الإنتلجنسيا الزنوجية ، والاطلاع على ما أفرزته من جدالات ساخنة في غالب الأحيان ، غير متوخين من وراء هذا الاستعراض إعلان انحيازنا إلى جهة من الجهات ، بيد أن الحياد إزاء مختلف الأطراف المعنية بالخطاب الزنوجي ، لا يمنعنا من صوغ أسئلتنا الخاصة ومن تطلب أجوبة مناسبة لها : (هل الزنوجة إذن حركة زائفة ومصطنعة ؟)(١١٩)، هل هي منزع ثقافي استبد بالطليعة السوداء ؟ هل هي مجرد فولكلور بئيس لا علاقة له بالإشكاليات المطروحة في العالم الأسود ؟ قد تتوالد أسئلة كثيرة من هذا القبيل إلا أن الموضوعية تدفع بنا إلى القول بأن (هذا النهج في التفكير لمهم وما يزال، بنصيب لا يستهان به في التراث البشري)(١٢٠)! كيف ذلك ؟ هنا يجب أن نعود إلى مبدأ نشوء الحركة . فالزنوجة أول ما ظهرت ظهرت كحساسية مشتركة بين كافة السود ، فهي الوليد الشرعي لمجمل المخاضات التي عاشها العالم الأسود ، مرورا بتجارب الاسترقاق ، والاستعمار والميز العنصري ووصولا إلى عهد الحرية وما طرحه من إعادة تقييم ، سواء للماضي الزنوجي ، أو للعلاقة مع

(١١٦) — Jean marie lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، العددان الثاني والثالث لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، ص ٣٣١ .

(١١٧) جير الكسور ـ أوتي بير : (الشعر الحديث في أفريقيا) ترجمة : عبد الرحمن صالح ، مجلة : (الشعراء) ع ١٣ ـ س ٣ ـ يناير ١٩٦٥ ، ص ٣٨ .

(١١٨) — Jean marie Lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، ع ٢ و ٣ لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ .

(١١٩) جير الكسور : (سبعة أدباء من إفريقيا) ترجمة : علي شلش ، ص ٣٩ .

(١٢٠) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة : (الثقافة المغربية) ع ٦ ، ١٩٧٢ ، ص ٣٧ .

الأبيض ، أو للعلاقة مع الإنسان ككل . إنها بهذا خطاب للهوية ، للمغايرة ، ولأنها كذلك فلابد وأن تكتنفها تناقضات ومزالق من السهل التقاطها وترتيبها . إن الزنوجة ، قبل أن تكون فعالية أدبية نشطت في الحقل الشعري أساسا ، هي صوت وصدى ، ومقاربة لإشكالية المصير المادي والروحي لجميع السود ، أو لنقل إنها رؤية الإنتلجنسيا الزنوجية للعالم . صحيح (أن عصرها الذهبي كان في الأربعينات والخمسينات ، أما بعد ذلك ، ومع دخول القارة عصر حريتها ، فقد بدأت في الانحسار شيئا فشيئا)[١٢١]. بما أفقدها الكثير من حرارتها وطليعيتها ، لكن مع ذلك فهي تجاوزت كونها ملكية ثقافية للسود وحدهم وأصبحت جزءا من الثقافة الإنسانية ، بل ومن التاريخ الإنساني . فنحن حين نذكر سنغور ، ونكروما ، وفانون ، فإننا نذكر شخصيات كونية أكثر منها زنوجية ، وعندما نستحضر واقعة دخول سنغور للأكاديمية الفرنسية[١٢٢]، فإننا نستحضر ضمنيا تحية تخص بها إحدى المؤسسات الثقافية العالمية العالم الأسود قاطبة ، وهذا شبيه ما حصل لما منح روني ماران جائزة كونكور عام ١٩٢١ عن روايته (باتوالا) ، فذلك تكريم للزنوجة قبل أن يكون تكريما لشخص الكاتب . هل لنا أن نعرف بأن الأدب الزنوجي ، المكتوب بالفرنسية خاصة ، أصبح في السنوات الأخيرة أحد فروع الدراسة في الجامعات الأوربية والأمريكية ؟ هل لنا أن نذكر بالنفوذ الإعلامي الضخم الذي كان للمسلسل التليفزيوني (الجذور) ، المأخوذ من رواية تحمل نفس الإسم للروائي الزنوجي الأمريكي اليكس هيلي ؟ هل لنا أن ننسى التسمية التي تحملها إحدى الجامعات السوفياتية ، ألا وهي « جامعة « لومومبا للعالم الثالث » ؟ ثم هل لنا أن نتغافل عن حظوة علمين زنوجيين بجائزة نوبل للسلام ، أولهما الزعيم الزنوجي الأمريكي مارتن لوثر كينغ عام ١٩٦٤ ، وثانيهما القس الزنوجي الجنوب إفريقي ديسموندتوتو عام ١٩٨٤ ، إضافة إلى حصول المناضل الزنوجي الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا على جائزة العالم الثالث لعام ١٩٨٥ .

جميع ما أوردناه يدل على المكانة التي صار يحتلها العالم الأسود في الوجدان العالمي ، وبدون الحركة الزنوجية ، ما كان لهذا العالم أن يحقق سمعته الكونية . وإذا كانت هذه الحركة قد بدأت على شكل ثرثرة ثقافية بين سنغور وسيزير وداماس خلال مقامهم الطلابي بباريس الثلاثينات ، إذا كانت هذه بدايتها فإنها غدت مع مرور السنين خطابا متماسكا يقود مسار السود ويفرض على الآخرين التأمل الجدي في إيقاع هذا المسار ووجهة أصحابه .

* * *

(١٢١) علي شلش : (ألوان من الأدب الإفريقي) ص ١٣ - ١٤ .

(١٢٢) التحق سنغور بالأكاديمية الفرنسية يوم ٢ يونيو ١٩٨٣ ، إذ احتل مقعد الأرزع دوك فيست ميرور ، وبذلك يعد أول زنوجي استطبه هذه المؤسسة .

أشارات :

ـ هذه الدراسة تمثل فصلاً من رسالة جامعية عنوانها (النزعة الزنوجية في الشعر السوداني المعاصر : محمد مفتاح الفيتوري نموذجاً) تقدمنا بها لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب الحديث ، أشرف عليها الدكتور محمد السرغيني ونوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٨٦ .

ـ رغماً من انتماء بريتن بريتنباك إلى عنصر الأفريكانز يعده الباحثون واحداً من الشعراء الزنوج .

ـ لم نذكر حصول وول سوينكا على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٦ لأننا أنجزنا هذه الدراسة قبل حصوله عليها .

المراجع العربية :

ـ دنيز بولم . الحضارات الإفريقية ، ترجمة : نسيم نصر ، منشورات عويدات بيروت ـ باريس ، الطبعة الثانية ، غشت ١٩٧٨ .

ـ روجيه ـ غارودي : حوار الحضارات ، ترجمة : الدكتور عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت ـ باريس ، الطبعة الأولى ، ابريل ١٩٧٨ .

ـ م. مادهو بانيكار : الثورة في إفريقية ، ترجمة : روفائيل جرجس ، مراجعة : محمد محمود الصياد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ابريل ١٩٦٤ .

ـ جمال محمد أحمد : وجدان إفريقيا ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ .

ـ مدثر عبد الرحيم : بين الأصالة والتبعية : تجربة الاستعمار وأنماط التحرر الثقافي في البلاد الأسيوية والإفريقية ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .

ـ الدكتور محمد عبد الغني سعودي : إفريقية ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ٣٤ ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٠ .

ـ ب. س. لويد : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي ، ترجمة : شوقي جلال سلسلة عالم المعرفة ، ع ٢٨ ، الكويت ، ابريل ١٩٨٠ .

ـ جماعة من الكتاب : الثقافة الإفريقية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٦٩ .

ـ جيرالد مور : سبعة أدباء من إفريقيا ، ترجمة : علي شلش ، كتاب الهلال ، ع ٣٤٨ ، يونيه ١٩٧٩ .

ـ علي شلش : ألوان من الأدب الإفريقي ، المكتبة الثقافية ، ع ٣٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

ـ أحمد مرسي : مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي ، الموسوعة الصغيرة ، ع ٩٠ ، بغداد ، آذار ١٩٨١ .

ـ لويس عوض : الثورة والأدب ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .

ـ مجلة (الثقافة المغربية) ، ع ٦ ، ١٩٧٢ .

ـ مجلة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس) ، ع ٢ ـ ٣ ، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ .

ـ مجلة (آفاق) س ١ ، ع ٣ ، جويي ـ أوت ـ سبتمبر ١٩٦٣ .

ـ مجلة (آفاق) س ٢ ، ع ٣ ، جويي ـ أوت ـ سبتمبر ١٩٦٤ .

ـ مجلة (عالم الفكر) م ٨ ، ع ٣ ، أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٧ .

ـ مجلة (آداب) ع ٤ ، ١٩٨١ .

ـ مجلة (الكاتب العربي) س ٢ ، ع ٦ ، ١٩٨٣ .

ـ مجلة (الهلال) س ٧٣ ، ع ٧ ، ١ يوليه ١٩٦٥ .

ـ مجلة (الطريق) س ١٩ ، ع ٤ ، حزيران ١٩٦٠ .

ـ مجلة (الشعر) س ٢ ، ع ١٣ ، يناير ١٩٦٥ .

ـ مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ ، ع ٣٨ ـ ٣٩ ، شتاء ـ ربيع ١٩٨٤ .

ـ مجلة (الثقافة العربية) س ٩ ، ع ٨ ، أغسطس ١٩٨٢ .

ـ مجلة (فنون عربية) م ٢ ، س ٢ ، ع ٦ ، ١٩٨٢ .

ـ مجلة آفاق عربية) س ٤ ، ع ١١ ، تموز ١٩٧٩ .

ـ مجلة (الأقلام) س ١٢ ، ع ١٠ ، تموز ١٩٧٧ .

ـ مجلة (الأقلام) س ١٣ ، ع ٧ ، نيسان ١٩٧٨ .
ـ مجلة (الأقلام) س ١٥ ، ع ١ ، تشرين الثاني ١٩٨٠ .
ـ مجلة (الأقلام) س ١٥ ، ع ٩ ، حزيران ١٩٨٠ .
ـ مجلة (المعرفة) س ٢٠ ، ع ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ .
ـ جريدة (العلم) ـ الملحق الثقافي ـ س ٢ ، ع ٥٨ ، الرباط ، الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ .
ـ جريدة (العلم) ـ الملحق الثقافي ـ س ٤ ، ع ١١٩ ، الرباط ، الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٢ .

المراجع الأجنبية :

— LUCIEN GOLDMANN : **marxisme et sciences humaines ed gallimard,** PARIS 1970.
— JANHEINZ JAHN : **muntu ; l'homme africain et la culture neo-africaine, traduit de l'allemand par brian de martinor,** ED DU SEUIL, PARIS 1961.
— PAULIN J. HOUN TON DJI : SUR LA "PHILOSOPHIE AFRICAINE" ED MASPERO, 1977.
— STANISLAS ADOTEVI : **negritude et negrologues,** COLL 10/18, PARIS 1972.
— FRANTZ FANON : peau noir, masques BLANCS, ED DU SEUIL, PARIS 1952.
— LEOPOLD SEDAR SENGHOR : anthologie de la nouvelle poesie negre **et malgache de langue francaise,** ED P.U.F, PARIS 1969.
— LYLIAN KESTELOOT : **anthologie negro-africaine** : PANORAMA CRITIQUE DES PROSATEURS, POETES ET DRAMATURGES NOIRS DU X X E SIECLE, ED MARABOUT UNIVERSITE, VERVIERS 1967.
— ALMUT NORDMANN-SEILER : la litterature neo/africaine, COLL QUE SAIS-JE ? NO. 1651, ED P.U. F, PARIS 1976.
— **magazine litteraire,** NO. 195, MAI 1983.
— **les nouvelles litteraires,** NO. 2863, DU 25 NOVEMBRE AU 1ER DECEMBRE 1981.
— **recherche, pedagogie et culture,** AV-JUIN 1982.
— **le monde de dimanche,** NO. 11463, 6 DECEMBRE 1981.

* * *

صدر حديثاً

اللغة العربية والحاسوب

تأليف : نبيل علي
عرض وتحليل : علي صبري فرغلي
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

أهمية الموضوع :

لا يختلف المتتبعون للتطورات العلمية والتقنية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن العشرين على أن العالم يشهد منذ سنوات قليلة ثورة علمية واقتصادية (فرغلي ١٩٨٨) لها أبعاد هائلة في شتى صور الحياة قد تقسم العالم الى مجموعتين : مجموعة منتجة فاعلة ومجموعة أو مجموعات هامشية تابعة (منصور ١٩٨٨) . واذا استمرت الأمور تسير بشكلها الذي تسير عليه ، فسنصل حتما الى الدور المخطط لنا وهو أن نكون من أبرز أعضاء المجموعة الهامشية التابعة . والبديل الوحيد لذلك هو أن يأخذ علماؤنا وخبراؤنا وقادتنا السياسيون والاجتماعيون المبادرة لاستيعاب المتغيرات الجديدة وأن نشترك في اثراء الثورة العلمية المعاصرة ، وأن نلونها ، اذا استطعنا ، بنظرتنا واسهاماتنا .

واللغة والحاسوب أحد المحاور الأساسية ، ان لم يكن المحور الأساسي ، للثورة العلمية المعاصرة . وقد تزامنت ثورة تشومسكي في علم اللغة (تشومسكي ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) مع تطور الحاسوب في الخمسينيات والستينيات . وقد كان لعلم اللغة التوليدي انعكاسات بعيدة المدى في باقي العلوم الطبيعية والانسانية بما في ذلك علم الحاسوب .

وتمثل المعلومات المحور الاقتصادي في الثورة المعاصرة فقد تحوّلت السلع الاستراتيجية من المواد الخام والصنعة الى السلع المعلوماتية (فرغلي ١٩٨٨) ، لا لقيمتها العلمية فحسب ، بل لكونها أداة الحصول على الثروة والقوة . وبدأت صناعة الأموال والاتصالات ، وتحول جزء كبير من الرأسمالية الصناعية الى الرأسمالية المعلوماتية .

واللغة هي الشكل الطبيعي الذي يستخدمه الانسان للتعبير عن الأفكار والمعلومات وهي أيضا وسيلة الانسان لاستمرار الحضارة فهي تمكنه من نقل المعلومات وحفظها وتوارثها جيلا بعد جيل . ولهذا اعتمد التقدم في عصر المعلومات بشكل أساسي على التحام اللغة بالحاسوب . وهذا هو موضوع الكتاب الذي قدمه الى المكتبة العربية نبيل علي ، وفيه دعوة جادة مخلصة لعلماء اللغة وعلماء الحاسوب العرب أن يضعوا أيديهم معا من أجل وضع الحاسوب في خدمة الناطقين بالضاد ليتمكنوا من الاستفادة من هذه التقنية أسوة بمتكلمي اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

أهمية الكتاب :

وقد بدأ ظهور الكتب باللغة الانجليزية التي تعالج العلاقة بين اللغة والحاسوب في أوائل الخمسينات (Weaver 1955) ، وظل الإسهام في قضية المعالجة الآلية للغة حجرا على الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وغيرهما من الدول المتقدمة ، وتركزت أبحاثهم في تطويع الحاسوب لاستخدامه في جميع مجالات الحياة ليصبح أداة طيعة تضاعف من قدرات الانسان شأنه شأن الانجازات التقنية المختلفة في الفضاء والاتصالات والطب . . . الخ .

ويأتي كتاب اللغة العربية والحاسوب للدكتور نبيل علي أول محاولة جادة لمعالجة هذا الموضوع معالجة شاملة يطرح فيها قضية العلاقة بين اللغة العربية والحاسوب ويضعهما في الاطار الصحيح في ظل ثورة المعلومات المعاصرة . وللدكتور نبيل علي فضل السبق والريادة في هذا الموضوع .

المؤلف :

يتميز نبيل علي بأن له خبرة عملية وعلمية في مجال اللغة والحاسوب . فقد بدأ من الواقع أي من التجربة العملية لبناء البرامج ، ولما كانت له أهداف طموحة لتطوير برامج متقدمة للتحليل اللغوي ، فسرعان ما أدرك أن تحقيق ذلك يستحيل دون دراسة علم اللغة التوليدي دراسة جادة ، فترك عمله وتفرغ لمدة عام كامل بالولايات المتحدة الأمريكية ، لدراسة أحدث نظريات علم اللغة على أيدي منظريها . ويشهد هذا له بالجدية والقدرة على الدخول في أغوار علم جديد وتمثل تطبيقاته الأمر الذي قد ينقص بعض علماء اللغة عندنا للأسف الشديد . كما أنه أقام أكبر مركز لأبحاث اللسانيات الحاسوبية في الوطن العربي ، واستطاع أن يكوّن كفاءات عربية شابة ويؤهلها علميا وعمليا لتكون طليعة المتخصصين في مجال الحاسوب واللغة العربية على وجه الخصوص .

وتعكس هذه الخلفية نبيل علي من المساهمة الابداعية في حقل علم اللغة الحاسوبي . يقول نبيل علي في مقدمة كتابه :

« تعكس الدراسة تجربة المؤلف الشخصية على مدى عشرين عاما في مجال العمل التطبيقي والنظري في حقل المعلوماتيات ، ادارة ، وتصميما وبحثا » .

الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٩١ صفحة شاملا تسعة فصول بما في ذلك المقدمة والخاتمة ، وأربعة ملاحق . ويحدد المؤلف في المقدمة الدوافع الملحة التي تقف وراء البحث في اللغة العربية والحاسوب ، ويقسمها الى دوافع تقنية كظهور الجيل الخامس من الحاسوب واختراع القارئة البصرية والتقدم التكنولوجي الهائل في السنوات الأخيرة ، ودوافع لغوية كقصور الدراسات اللغوية

الحديثة ومشاكل تعليم وتعلم اللغة العربية ودخول تطبيقات الحاسوب في مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية ، ودوافع عامة وهي حث اللغويين والحاسوبيين العرب على بدء حوار يفضي الى تعاون ملح وضروري لمعالجة اللغة العربية آليا ، كما يطرح نبيل علي الأسس والمبادىء المنهجية في تناول الموضوع وهي مفهوم المنظمة لكل من اللغة والحاسوب ، اخضاع الحاسوب للغة لا العكس ، الأنحاء الكلية universal grammar وخصوصية اللغة العربية ، مقارنة العربية بالانجليزية وثنائية التحليل والتركيب من منظور التداخل بين اللغة والحاسوب والتركيز على الجانب التطبيقي .

ونعرض فيما يلي تلخيصا لكل فصل من الفصول السبعة الأساسية :

الفصل الأول : اللغة العربية من منظور الحاسوب (صفحة ٢١ ـ ٨٥)

يؤكد نبيل علي في هذا الفصل أن اللغة منظومة متسقة ، تقيدها الضوابط وتحكمها القواعد وتخضع للتنظير والتقعيد الدقيق وفي داخل منظومة اللغة هناك منظومات فرعية لها قوانينها الخاصة كما لها علاقات التأثير والتأثر بالمنظومات الأخرى لنفس اللغة . وهذه المنظومات تمثل للغويين مستويات التحليل المختلفة ، فاللغة يمكن تحليلها على مستويات عدة كالمستوى الصوتي أو الصرفي أو التراكيبي أو النحوي أو الدلالي أو المقامي ، وهناك علاقة تأثير وتأثر بين هذه المستويات المختلفة ، فالكثير من القواعد الصوتية مثلا تؤثر في الصرف ، كما أن الصرف يتأثر بالتراكيب ، ولا يمكن دراسة الدلالة بمعزل عن التراكيب وهكذا ، كما يبرز نبيل علي علاقة اللغة بالعلوم الأخرى تحت ما يسميه بالعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة ، مثل علاقة اللغة بعلم وظائف الأعضاء وبالمخ البشري وعلاقة الأصوات وذبذباتها وانتقالها وتمثيلها بعلم الطبيعة ، وعلاقة اللغة بعلم النفس وعلاقاتها بالثقافة .

ويعرض نبيل علي بعض الخصائص الكلية الموجودة في جميع اللغات كالخاصية الابداعية وما يسميه الاتساق والتماسك ويضع جدولا (جدول ١ : ٣ صفحة ٤٦ ـ ٤٧) يمثل عمومية بعض الظواهر اللغوية كالحذف والابدال والقلب . . . الخ ، وتطور اللغات بمرور الزمن ، فاللغة كائن حي ينمو ويتطور ويشيخ ويمكن أن يموت كاللغة اللاتينية والعبرية القديمة ولغات السكان الأصليين لأمريكا .

وينطلق نبيل علي من هذا الوصف العام لمستويات البحث اللغوي والخصائص العامة للغة الانسانية الى اللغة العربية وتعدد صور منظومة اللغة العربية ويعرض السمات المميزة للغة العربية كالتوسط بين لغات العالم في نظام الكتابة والنظام الصوتي وفي الحالات الاعرابية والصرف . كما تتسم اللغة العربية بحدة الخاصية الصرفية فالمعنى الدلالي للكلمات يرتبط في اللغة العربية بالسواكن الأصلية ، وهي السواكن المكونة للجذر ، ويشتق منها مئات الكلمات . كما تتميز العربية بالحرية النسبية لترتيب الكلمات فيمكن للفاعل أن يتقدم على الفعل ، كما يمكن للمفعول أيضا أن يتقدم على الفعل . . . وهكذا . وللعربية نظامها الصوتي الخاص كعدم السماح بصامتين متتاليين في أول الكلمة وعدم السماح بأكثر من صامتين متتاليين في المواقع الأخرى . وللكتابة العربية عدة نظم : كالكتابة المشكلة والمشكلة جزئيا وغير المشكلة . كما يعرض نبيل علي لمشكلة ثنائية الفصحى والعامية ويصفها بأنها وصلت الى درجة مفزعة . ثم يعرض لمسار تطور العلوم بشكل

عام ، وينطلق من ذلك الى تطور الثمانينات ويحدد لها سبع مراحل يضعها في شكل (١ : ٣) صفحة ٧٢ .

ويطرح المؤلف في هذا الفصل أيضا مشاكل تنظير اللغة العربية ومن أهمها غياب النظرة الشاملة للغة العربية ككل ، وفقر العربية في الدراسات المقارنة والتقابلية وإغفال الفكر العربي للنظرية التوليدية وطغيان الكتابة عن الجانب الصوتي ، وقصور النظرة الى المعجم رغم أهميته القصوى في علم اللغة الحديث . وينتهي الفصل ببعض التصورات والاقتراحات التي يقدمها المؤلف لتحديث النظرة الى منظومة اللغة العربية ، من أهمها تحليل اللغة العربية في إطار النظريات اللغوية المعاصرة وتحديث أساليب تعليم وتعلم اللغة العربية والتركيز على دراسة الدلالة واستخدام الحاسوب لخدمة اللغة العربية .

الفصل الثاني : منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية (صفحة ٨٧ - ١١١)

يعدد المؤلف في هذا الفصل السمات الأساسية التي تميز تطور الحاسوب في السنوات الأخيرة منها عمومية الاستخدام ، فقد دخل الحاسوب ومازال يدخل جميع مجالات الحياة وساعد على هذا مرونته الواضحة التي تسمح بتشكله كي يفي بالمطالب المختلفة للحياة العصرية فهو في البنوك مثلا يتابع حركة الأموال الداخلة والمتصرفة بدقة بالغة ، وفي شركات الطيران يسجل أسماء المسافرين وينظم كافة المعلومات الخاصة بالرحلات والمسافرين وجهات السفر . . . الخ ، وفي الفصول الدراسية يساعد الطلاب في استيعاب ومراجعة المادة العلمية ، وفي سفن الفضاء يقوم بالعمليات الحسابية البالغة التعقيد وينسق بين كافة الأجهزة العاملة في السفينة ، ومن هذه السمات أيضا أن تطور الحاسوب يسير في اتجاه الصغر المتناهي في الحجم مع النمو المتزايد في القدرة الحاسوبية والتخزينية للمعلومات . وينبه المؤلف الى أن الثورة الالكترونية والمعلوماتية المعاصرة تشكل تحديا قاسيا لدول العالم الثالث ، فهي تطرح إمكانات هائلة لحل مشاكل هذه الدول ، إلا أنها تهدد أيضا باتساع الفجوة القائمة فعلا بين العالم الصناعي والعالم الثالث .

ويحدد المؤلف العناصر الأربعة الأساسية في منظومة الحاسوب وهي العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . ويشرح بالتفصيل مكونات كل عنصر من هذه العناصر ، ثم يوضح اتجاهات تطور نظم الحاسوب والمعلومات ومن أهمها الانتقال من المعالجة المتلاحقة sequential processing الى المعالجة المتوازية parallel processing ولا شك أن عمل المخ الانسان أقرب للمعالجة المتوازية التي تسمح بمعالجة أنواع مختلفة من المعلومات في آن واحد مع امكانية الاستفادة من نتائج معالجة المعلومات الأخرى في نفس الوقت . وهناك أيضا الاتجاه الى التعامل بالرموز بدلا من الأرقام symbolic programming وتطوير لغات برمجة تقترب كثيرا من اللغات الطبيعية والتوجه لاستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي بعد الاعتماد الكلي على البرمجة الخوارزمية algorithmic programming ، كما يشير المؤلف الى التطور في وسائل تخزين المعلومات واستحداث الأقراص الضوئية بقدرتها الهائلة على تخزين المعلومات .

ثم ينتقل المؤلف الى استعراض البعد العربي للحاسوب وينتقد الفكرة القائلة بوجوب تصميم حاسوب عربي على مستوى العتاد hardware ، وذلك لأن العتاد يمكن أن يلبي احتياجات أي مجتمع وأي

لغة ، وقد أمكن للمجتمع الياباني والروسي وغيرهما تطويع العتاد الموجود حاليا لكافة الاستخدامات الممكنة . ويرى المؤلف أن يتركز جهد العلماء العرب في تعريب ملحقات الحاسوب من طابعات وشاشات مرئية ولوحات مفاتيح ووحدات توليد وتحليل الكلام . كما يقترح تطوير نظم تشغيل ثنائية اللغة ويعدد الطرق المختلفة المستخدمة في تعريب الحاسوب سواء بالاعتماد على البرمجيات أو العتاد ، كما ينادي بقوة بضرورة تعريب لغات البرمجة ونظم قواعد المعلومات ، كما يرى المؤلف ضرورة الاستفادة من الكم الهائل من التطبيقات المتطورة الموجودة باللغة الانجليزية وتعريب بعضها ليكون متاحا للمستخدم العربي ، وتطوير وسائل الترجمة الآلية ، كما يرى ضرورة الاهتمام بالنظم الخبيرة وينتهي الفصل بعدد من التوصيات الهامة منها ادخال اللسانيات الحاسوبية في أقسام اللغات وعلوم الحاسوب وهندسته ، وانشاء معهد متخصص في بحوث تعريب المعلوماتيات ، واستغلال شبكة القمر الصناعي العربي لنشر وعي الحاسوب والمعلومات في الوطن العربي وينبه المؤلف الى ضرورة التنسيق على مستوى الوطن العربية في إنشاء صناعة عربية للعناصر الأساسية في عتاد الحاسوب ومتابعة مشروع الجيل الخامس للحاسوب وتشجيع جهود الترجمة الآلية .

الفصل الثالث : المعالجة الآلية لمنظومة اللغة العربية (صفحة ١١٣ ـ ١٩٥)

يتحدث المؤلف في بداية هذا الفصل عن حتمية اللقاء بين اللغة والحاسوب نتيجة للالتقاء بين الثالوث المكون من نظرية المعلومات بأسسها الرياضية لقياس كمية المعلومات واستحداث أساليب متطورة لترميز وضغط المعلومات وزيادة فاعلية استرجاعها ، وعلم اللغة الحديث بتركيزه على استحداث نماذج رياضية للتحليل اللغوي والاهتمام الشديد بصورنة الأنحاء formalization ، وعلم الحاسوب وتطور الحواسيب السريع سواء من ناحية العتاد أو البرامج ولغات الترجمة ، كما يعرض المؤلف لجوانب التوافق والخلاف بين اللغة والحاسوب ، فيستعرض أوجه التشابه البنيوي بين اللغة والحاسوب .

ويستعرض المؤلف مجالات استخدام الحاسوب كأداة اللغة وهي الاحصاء اللغوي والتحليل والتركيب اللغويان ، والفهم الاوتوماتيكي للسياق ، وتحليل النصوص ، وميكنة المعاجم ، والترجمة الآلية وتعلم اللغة بواسطة الحاسوب ، وينتهي ذلك الجزء بجدول (جدول ٣ : ٥ صفحة ١٤٨ ـ ١٥٢) لعلاقات الترابط المتبادل بين هذه الاستخدامات المختلفة للحاسوب كأداة للغة . ثم يعدد المؤلف أيضا مجالات استخدام اللغة كأداة للحاسوب وهي : نظم استرجاع المعلومات ، ونظم قواعد المعارف (النظم الخبيرة) ولغات البرمجة الراقية ونظم التفاعل باللغة الطبيعية ومعمارية الجيل الخامس وتطبيقات الذكاء الاصطناعي . وكما فعل المؤلف في استخدامات الحاسوب كأداة للغة ، أنهى الجزء الخاص باستخدامات اللغة كأداة للحاسوب بجدول (جدول ٣ : ٦ صفحة ١٦٧ ـ ١٦٨) لعلاقات الترابط بين استخدامات اللغة المختلفة كأداة للحاسوب .

ويتناول المؤلف في باقي الفصل خصائص اللغة العربية وعلاقتها بالحاسوب ويعرض للمشكلة الحقيقية التي يعاني منها كل من يستخدم الحاسوب في التطبيقات العربية وهي أن الحاسوب لا يقدم لمستخدمي اللغة العربية نفس الامكانات التي يقدمها لمستخدمي اللغات الأوروبية .

ويرى المؤلف « أن الموقف يحتاج منا ، بل يوجب علينا ، اللجوء الى الاقتراض والتطويع العلميين والتقنيين الى أقصى حد ممكن ، وعلى أسس من وعينا الدقيق بخصائص لغتنا ، وفي ظل أهداف تنميتنا الاجتماعية ، وكل ما ذكرناه عن قيود الأساس الانجليزي ، ومحاولات التخلص منه ، لا يمكن أن يكون القصد من ورائه هو أن نقذف في البحر الخضاد الهائل للانجازات العلمية والتقنية في مجال « الانجليزية » بل قصدنا به تأكيد أهمية ترشيد عمليات الاقتراض والتطويع ، وإبراز الجوانب التي يتحتم فيها البحث عن حلول جذرية لبعض مشكلات معالجة العربية آليا » (صفحة ١٧٢) .

ثم يستعرض المؤلف أوجه الوفاق والاختلاف بين اللغة العربية والحاسوب ، ويقصد هنا سهولة المعالجة الآلية للغة العربية ، فيذكر من أوجه الاتفاق (أي ما يسهل المعالجة الآلية للغة العربية) ما يلي :

١ ـ شدة انتظام كثير من خواصها الصرفية والاعرابية والصوتية .

٢ ـ صغر حجم المعجم لتكون نواته من الجذور والصيغ الصرفية .

٣ ـ الفائض اللغوي الذي يسمح بضغط النصوص العربية .

٤ ـ شدة التماسك بين عناصر منظومة اللغة العربية .

٥ ـ الانتظام الصوتي في اللغة العربية والصلة الوثيقة بين كتابتها ونطقها .

ثم ينتقل الى مواضع الخلاف بين اللغة العربية والحاسوب ويذكر منها :

١ ـ تعقد الحساسية السياقية .

٢ ـ المرونة النحوية التي تتسم بها الجمل العربية .

٣ ـ ثنائية الفصحى والعامية .

٤ ـ تعدد نظم الكتابة العربية .

٥ ـ قصور وصف اللغة العربية .

٦ ـ قصور أساليب تعليم اللغة العربية وجمودها .

٧ ـ قصور المعاجم العربية من حيث طرق تنظيمها وتبويبها .

وعن الموقف الحاضر لتعريب الحاسوب ونظم المعلومات ينتقد المؤلف إمكانية استيعاب اللغة العربية في نطاق التقنيات المصممة أصلا للغة الانجليزية لأن اللغتين تمثلان طرفي نقيض سواء من الناحية اللغوية أو الحاسوبية ولصعوبة العربية مقارنة بالانجليزية . ويرى المؤلف أن عمليات التعريب بشكل عام تميزت بالسطحية ، فقد ركزت على كيفية طباعة النصوص العربية وإظهارها على الشاشة ، كما تميزت بغياب الأبحاث الأساسية في علم اللغة وعدم الشمولية في تعريب المعلوماتيات .

وعدد المؤلف أوجه استخدامات الحاسوب كأداة للغة العربية ، فهو أداة احصائية ممتازة يمكن استخدامها لاحصاء الجذور العربية ، ولتكرار الكلمات والحروف والحركات والجذور الثلاثية والرباعية ، وبيان التوزيع النسبي للصيغ الصرفية والاعرابية ، ولقياس الانتظامية

الصرفية للأفعال في اللغة العربية ، كما يمكن استخدام الحاسوب في تحليل وتوليد النصوص ، وبناء المعاجم الالكترونية وفي الترجمة الآلية وفي الفهم الآلي للنصوص اللغوية ، وتعليم اللغة العربية بمعاونة الحاسوب .

ويحدد المؤلف الاطار العام لمعالجة اللغة آليا بأنه يستند الى وظيفتين أساسيتين : هما التوليد والتحليل .

ويعتقد المؤلف ـ خلافا لما هو سائد ـ أن عملية التمييز أعقد من عملية التوليد ، وسنعود لهذه النقطة في تحليلنا للكتاب .

وحول نظم معالجة المعارف والمعلومات ، يحدد المؤلف أربع نقاط أساسية يختلف فيها الاطار العام لمعالجة المعرفة بالعربية عن إطار معالجتها بالانجليزية وهي :

١ ـ إضافة معالج التشكيل الآلي .

٢ ـ استخدام عمليتي التحليل الصرفي والنحوي في إزالة اللبس الناتج عن غياب التشكيل .

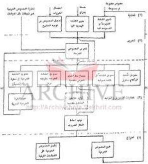
٣ ـ استخدام معجم الجذور والصيغ الصرفية بدلا من معجم الكلمات .

٤ ـ استخدام عنصر الدلالة الصرفية .

الفصل الرابع : المعالجة الآلية لمنظومة الكتابة العربية (١٩٧ ـ ٢٤٦)

تتكون عناصر منظومة الكتابة بشكل عام من خمسة عناصر هي : الأبجدية ، وعلامات الاملاء والترقيم ، ووسائل تمييز النصوص وإبرازها ، وعناصر تنظيم كتابة النصوص ، ووسائل الاختصار . كما يقول نبيل على أن منظومة الكتابة العربية ترتبط ارتباطا وثيقا بالفونولجي ، فكل ما يكتب ينطق عادة . وهو بالتأكيد يقصد هنا الكتابة المشكّلة ، لأن الحركات العربية القصار لا تمثل في الكتابة العادية على صفحات الجرائد والمجلات ، والكتب والمطبوعات بشكل عام . وتختلف العربية عن الانجليزية في استخدامها لعلامات التشكيل للدلالة على الحركات القصار وأحرف اللين للدلالة عن الحركات الطوال . كما تكتب العربية على مستويات مختلفة ، فهي إما كاملة التشكيل ، أوجزئية التشكيل ، كما يمكن أن تكتب بدون أي تشكيل على الاطلاق . وتتشابك الحروف وتتعدد أشكالها حسب نوعية الحروف السابقة واللاحقة ، وفقا تتميز العربية بحساسية سياقية شديدة ، كما أنها تكتب من اليمين الى اليسار بينما تدخل الأرقام من اليسار الى اليمين . وتمثل كل هذه الاختلافات تحديات بالنسبة الى المعالجة الآلية للغة العربية . وبعد أن يعرض نبيل على لظاهرة التشكيل بالتفصيل ، يطرح السؤال الهام التالي : هل تفترض نظم المعالجة الآلية وجود التشكيل سلفا ، أم يجب أن تسعى لتوليده ؟

ويؤكد نبيل على أهمية عمليات التقييس والمعايرة standardization ، ويتحقق ذلك بالاتفاق على شفرة عربية موحدة لرموز الكتابة العربية ، وتوحيد مخططات لوحات المفاتيح العربية ، وتقييس الأشكال المختلفة للحروف العربية ، وتوحيد أساليب تحويل الكتابة العربية الى كتابة صوتية ، ويضع نبيل على تصوره للاطار العام لمعالجة الكتابة العربية في شكل (٤ : ٧) والذي نورده أدناه .



شكل (٤-٧) الإطار العام لمعالجة الكتابة العربية آليا

الفصل الخامس : المعالجة الآلية لمنظومة الصرف العربي (٢٤٧ : ٣٣٢)

يعد هذا الفصل من أهم فصول الكتاب لأهمية الموضوع الذي يعالجه ، ويعّرف نبيل علي الصرف بأنه « فرع اللسانيات الذي يتعامل مع البنية الداخلية للكلمات » ، ويتفق هذا التعريف مع سيلكيرك (Selkirk ١٩٨٢) التي تنظر الى الصرف باعتباره نحو الكلمة ، ويعرض المؤلف لعلاقة الصرف بكل من النحو والفونولوجي والدلالة ويشير أيضا الى علاقته بالمعجم ، كما يعرض لخصائص منظومة الصرف العربي وهي : حدة الخاصية الاشتقاقية ، واطراد التصريف ، والصلة القوية بين مباني الكلمات ومعانيها ، وميل الصرف لتركيب الكلمات بالاضافة ، وانتظام بنية الكلمة العربية ، وشدة التداخل بين الصرف والفونولوجي ، كذلك الصلة القوية بين الصرف العربي والمعجم . ثم يتناول المؤلف جوانب الصرف العربي ذات الأهمية للمعالجة الآلية للغة العربية ومنها الخاصية الثلاثية حيث تمثل الجذور الثلاثية نسبة عالية من جذور اللغة العربية ، وكذلك أصل الاشتقاق الذي يقول عنه « فان محورية الفعل المضارع في العربية ، وفي الساميات عموما لايحتاج الى مزيد من التأكيد » (صفحة ٢٧٦) ، كما يوضح المؤلف أنه « يميل الى اعتبار الكلمة دون غيرها أساسا للاشتقاق » (صفحة ٢٧٧) ، ويقترح صيغة رياضية للأنماط العربية في اشتقاق الكلمات من أصولها فيوضح الشكل التالي مثلا أن كلمة استعمار تشتق من أسفل لأعلى كما هو مبين بالشكل التالي :

فلكي تكون الكلمة صحيحة هناك شرطان لابد من توافرهما وهما :

__أولا :__ أن يكون هناك تتابع من الصوامت مساو لأحد الجذور العربية

__ثانيا :__ أن تكون صيغة الكلمة مساوية لاحدى الصيغ السليمة لهذا الجذر .

ويشير المؤلف الى امكانية تغير الصورة السطحية للصيغة الصرفية نتيجة للعمليات الفونولوجية المختلفة كالحذف والاضافة والتضعيف والقلب المكاني ، كما ناقش الانتاجية الصرفية والعوامل التي تحكمها في اللغة العربية ومنها عوامل معجمية ، وصوتية ، ونحوية ، ودلالية ، وصرفية مما يؤكد ماذكره المؤلف سابقا عن تداخل المنظومة الصرفية مع باقي المنظومات الأخرى في اللغة ، وتوصل الى عدة عوامل يعتمد عليها اطراد الانتاجية الاشتقاقية وهي :

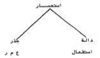
١ ـ التجرد والزيادة : تزداد انتاجية الصيغ الصرفية مع الصيغ المزيدة .

٢ ـ طول الصيغة : تزداد إنتاجية الصيغة الصرفية مع زيادة طولها .

٣ ـ طول الجذر : يزيد الاطراد الاشتقاقي كلما زاد طول الجذر .

وأوضح أن تباين الانتاجية الصرفية له أبعاد هامة في تحديد وتنظيم مواد المعجم . وهناك وجهة نظر تفترض الاطراد العام وترى تجنب ما لا ينطبق ، وهناك من يفترض الشذوذ التام ويرى وضع جميع الكلمات في المعجم ، وهناك من يتخذ موقفا وسطا بين الاطراد والشذوذ فيحيل الى المعجم الشاذ فقط أما المطرد فيجري اشتقاقه بواسطة القواعد الصرفية (فرغلي ١٩٨٧) .

ثم يتناول المؤلف ظاهرة اللبس الصرفي الذي يؤدي بدوره الى أنواع من اللبس النحوي والدلالي ، ويرجع نبيل علي اللبس الصرفي الى الآتي :



بينما يجري اشتقاق كلمة استعماري كالآتي



شكل (١) قيود الاشتقاق

١ ـ تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ومعانيها .

٢ ـ تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ووظائفها النحوية .

٣ ـ تعدد العلاقة بين الصيغ الصرفية وموازينها الصرفية .

٤ ـ اللبس الصرفي نتيجة غياب التشكيل .

وكمثال على حدة ظاهرة اللبس في اللغة العربية ، يورد نبيل علي اثني عشر احتمالا لكلمة « افهم » حين ترد بدون تشكيل .

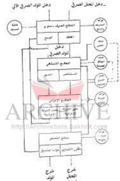
ثم يتناول الكتاب مشاكل المعالجة الآلية للصرف العربي ومنها تعقد وتداخل عمليات الابدال والاعلال ، وحدة اللبس الصرفي ، وعدم تأثر عناصر الكلمة بما يجاورها من عناصر فقط بل تأثرها بالعناصر التي تتقدمها أيضا ، وعدم وجود صياغة دقيقة رسمية ومتكاملة لقواعد الصرف العربي ، وعدم توفر بيانات معجمية منهجية عن الانتاجية الصرفية ، وعدم كفاية الاحصائيات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية والحالات التصريفية والاعرابية . ويتقدم المؤلف باقتراحات هامة لمعالجة الصرف آليا وأهمها : أن يكون التعامل مع النصوص العربية بأشكالها المختلفة (أي بالنصوص المشكلة وغير المشكلة) ، وأن يكون تصميم البرنامج بحيث يكون تجزيئيا modular ، فيتكون من عدة آليات متخصصة تعكس الوظائف الأساسية للمنظومة الصرفية لا الخطوات الاجرائية للبرنامج ، ومراعاة التكامل بين المعالجة الصرفية والنحوية ، وأن يكون البرنامج قادرا على العمل في اتجاهي التحليل والتوليد .

ويشرح نبيل علي المقصود بعملية التحليل الصرفي آليا ، ويعرض لبعض نماذج التحليل الصرفي الآلي كنموذج كوسكينيمي (Koskoniemi 1983) ذي المستويين ، ونموذج مارتن كي (Kay 1987) ، ثم يعرض نموذج التحليل الذي وضعه المؤلف لشركة العالمية للالكترونيات ويوضح المؤلف مكونات هذا المعالج الصرفي في الشكل التالي .

يستطيع القارىء أن يرى أن هذا المعالج الصرفي يتكون من أربع معالجات فرعية متخصصة لكل منها وظيفة محددة وهي : المعالج الصرف ـ نحوي ، والمعالج الاشتقاقي ، والمعالج الاعرابي ، ومعالج التشكيل . كما يلاحظ أن كلا من هذه المعالجات له جانبان جانب التوليد والآخر للتحليل . وأن المكون اللغوي للبرنامج منفصل عن المعالج ؛ وهذه ميزة كبيرة تمكن من تطوير المكون اللغوي دون الحاجة لتغيير البرنامج نفسه كما أنه يسهل من هذه المهمة .

والمكون اللغوي يتكون بدوره من عدة ملفات منفصلة تحتوي على قواعد التصريف والدمج ، وجذور اللغة العربية ، والهياكل الصرفية ، والصيغ الصرفية ، وقواعد الضبط الاعرابي ، والقواعد الصرف ـ صوتية morphophonemic rules .

وبعد أن يعرض المؤلف طريقة عمل المعالج الصرفي ، يحدد استخدامات هذا المعالج وهي : ضغط النصوص العربية بالأسلوب الصرفي وعلى مستوى ازدواج الحروف ، واسترجاع النصوص ، وتصحيح الأخطاء الاملائية ، وتحليل النصوص صرفيا ، واستخدام قواعد بيانات النصوص الكاملة وميكنة المعجم .



شكل (٥-٥) الإطار العام للمعالج الصرفي الآلي متعدد الأطوار

الفصل السادس : المعالجة الآلية لمنظومة النحو العربي (٣٣٣ - ٤١٩)

يتميز هذا الفصل بأنه يعرض لمنظومة النحو من منطلق النظريات اللغوية المعاصرة (Chomsky 1981, 1982, 1986) ، (Bresnan 1982) ، (Gazdor et al 1985) ، ويبدأ الفصل بشرح لبعض المفاهيم النحوية الأساسية والتي يبني عليها المؤلف فيما بعد مناقشته وعرضه التفصيلي ، ومن بين هذه المفاهيم فكرة لغة وصف اللغة meta language ، وأقسام الكلام وتوصيفها باستخدام السمات (Jackendoff 1977) ، ثم ينتقل الى العلاقات النحوية المختلفة كعلاقة الرتبة وهي التي تحكم ترتيب الكلام كسبق الجار للمجرور أو الموصوف للصفة في العربية ، والعلاقة الوظيفية النحوية كعلاقة الفاعل والمفعول ، والعلاقة الوظيفية الدلالية التي تفصل بين الفاعل النحوي والفاعل المنطقي ، ثم انتقل الى شرح النموذج الرياضي للغة والمكون من الرياضية (رمز الجملة ، المقولات النحوية ، مفردات اللغة ، قواعد الاحلال المتحررة من السياق) . ثم ينتقل الى المكونات الداخلية لمنظومة النحو ويري بحثها على ثلاثة مستويات :

أولا : عمليات التكوينات النحوية الأساسية وتضم قواعد تكوين الجمل المعقدة والبسيطة وأشباه الجمل .

ثانيا : عمليات التحوير والاحلال النحوي وتشمل قواعد الحذف والاضافة والتقديم والتأخير والاضمار .

ثالثا : عمليات الضبط النحوي وتشمل قواعد المطابقة كاتفاق الفعل مع فاعله والصفة مع الموصوف وقواعد الضبط الاعرابي .

وبعد عرض مكونات منظومة النحو يبدأ نبيل علي في مناقشة خصائص منظومة النحو العربي ، ويحددها في ست سمات :

١ - العلاقة العضوية بين النحو والصرف ويرى في ذلك أن الصرف العربي يطغى على النحو . فالكلمة العربية قادرة على حمل السمات النحوية تصريفا وإعرابا وتعريفاً وتنكيرا علاوة على ما يمكن أن يندمج بها من أدوات الربط والعطف والضمائر .

٢ - رتبة الكلمات في الجملة العربية ، ويرى الأخذ بالرأي القائل بتأصل الجملة الفعلية (فعل فاعل مفعول) وأن الجملة الاسمية قد تكون جملة فعلية في أصلها .

٣ - المرونة النحوية ، فالجملة العربية تتميز بمرونة ترتيب الكلمات التي تسمح بتقديم الفاعل والمفعول وباسقاط بعض حروف الجر الملحقة بالأفعال .

٤ - التوسط النحوي ، يرى نبيل علي أن خصائص اللغة العربية تجعلها لغة وسطى بين لغات العالم ؛ فهي لا تتبع انضباط اللغة الانجليزية مثلا في ترتيب الكلام ، ولكنها في نفس الوقت لا تسمح بالمرونة المطلقة كما في اليابانية والمجارية ، وهي تمثل حالة وسطى في رتبة الكلمات فهي تجمع بين الجملة الاسمية والفعلية ، كما أن المطابقة فيها ليست محدودة كالانجليزية ولا هي مفرطة كالألمانية مثلا .

٥ - ضحالة البنية العميقة ، يرى المؤلف أن العربية تتميز بضحالة بنيتها العميقة اذا ما قورنت بالانجليزية ويبرر اعتقاده بوضوح العلاقات النحوية في العربية بسبب وجود سمات ظاهرة للاعراب وكذلك لاستخدام

الضمير العائد في حالات التقديم والجمل الموصولة، وللصلة الوثيقة بين المباني الصرفية ومعانيها، واستخدام الجملة الاسمية.

ثم يعرض الكتاب للثورة النحوية الحديثة ويستعرض انجازات النحو التوليدي والنظريات النحوية التي تفرعت عنه وشرح منطلقات النظريات النحوية المعاصرة.

ثم ينتقل الكتاب الى مناقشة النحو العربي وأزمته ويقدم اقتراحات عديدة لتحديثه منها الانطلاق من مبدأ النحو العام والتحليل المنهجي لعلاقة النحو بالصرف والدلالة، ودراسة النحو كمنظومة متكاملة وضرورة تنوع مناهج التنظير النحوي للعربية، واستخدام الحاسوب في إقامة النماذج النحوية للاسراع في حركة تحديث النحو، وإدخال مناهج اللسانيات الرياضية والحاسوبية والاحصائية في الجامعات والمعاهد العربية.

ويتناول باقي الفصل المعالجة الآلية للنحو العربي ويتعرض للتحديات التي تواجهها ومنها غياب صياغة رسمية formalism للنحو العربي، واسقاط علامات التشكيل في النصوص المعاصرة، وتعدد حالات اللبس النحوي، وحدة ظاهرة الحذف، وعدم توفر الاحصائيات النحوية. ولمعالجة هذه التحديات يقدم الكتاب المقترحات التالية:

١ - استغلال مظاهر المطابقة والاعراب والتضام والرتبة للمساعدة في فك اللبس الناجم عن غياب التشكيل.

٢ - فصل قاعدة المعرفة اللغوية عن البرمجة الاجرائية. وقد أصبح ذلك مبدأ في جميع أنظمة المعالجة اللغوية الحديثة، بل حتى في برامج النظم الخبيرة expert systems.

٣ - «تعاون» الصرف والنحو لفك اللبس الناتج عن غياب التشكيل.

٤ - استخدام الاحصائيات النحوية والصرفية في ترشيد عمل المعالج الآلي النحوي.

٥ - التركيز على اللغة العربية الفصحى الحديثة.

٦ - توفير وسائل التعامل مع الاخطاء واقتفاء أثر tracing المحلل الاعرابي.

وهناك ثلاث خطوات رئيسة يجب اتباعها عند بناء المعالج النحوي وهي:

أ - تحديد الشريحة اللغوية التي يغطيها المعالج، أي تحديد أنواع التركيبات اللغوية التي سيتعامل معها، وقائمة المفردات، والصيغ الصرفية.

ب - تحديد نظام التقعيد وذلك باختيار نوع الصياغة الرسمية للقواعد النحوية، ويكون الاختيار هنا من بين القواعد التحويلية، الوظيفية، المتحررة من السياق، حساسة السياق، التوحيدية unification Grammar ... الخ.

ج - اختيار خوارزمية البرمجة ويمكن هنا الاختيار من شبكات الانتقال transition network، شبكات الانتقال المعززة، شبكات الانتقال المتكررة، الاعراب من أسفل لأعلى أو من أعلى لأسفل، ... الخ.

ثم يصف المؤلف المعالج النحوي الذي يقوم بتطويره حاليا والذي يتكون من المعجم، وقاعدة المعرفة

النحوية ، وروتينات البرمجة ، ثم يشرح بايجاز الخطوات الرئيسة للنظام النحوي المقترح للغة العربية ، فهو يبدأ من التحليل الصرفي والمعجمي لكلمات الجملة الداخلة ، ثم يبدأ في تطبيق قواعد البدائل المستحيلة وذلك للتخلص من حالات اللبس الزائفة والواضحة في وقت مبكر ، يلي ذلك تطبيق قواعد النحو التكوينية لأشباه الجمل وما يعلوها من مكونات نحوية ، ثم يطبق قواعد الضبط النحوي والاعرابي ، ويربط الضمائر بما تعود اليه وذلك بمطابقة السمات النحوية والدلالية للضمير مع سمات الأسماء وأشباه الجمل الاسمية الواردة ، ثم يقوم بتطبيق قيود الانتقاء الدلالي selectional restriction rules لاستبعاد البنى النحوية التي تتنافى مع منطق دلالات الألفاظ ، وأخيرا توليد التشكيل آليا باضافة علامات التشكيل على ساق الكلمة وعلامات الضبط الاعرابي على أواخرها .

وينتهي الفصل بعرض سريع للتطبيقات العملية لمثل هذا المعالج النحوي ومنها التصحيح الآلي للأخطاء النحوية ، والتخاطب مع قواعد البيانات باللغة العربية ، والترجمة الآلية وتعليم النحو بواسطة الحاسوب .

الفصل السابع : المعالجة الآلية للكلام العربي (٤٢١ - ٤٥٦)

الكلام فعل حي دينامي وهو الأساس في الحدث اللغوي ، والكتابة ماهي في الواقع سوى أحد أشكال تمثيل الكلام ، فالكتابة اذن تابع للكلام وليس العكس . ويمكن دراسة الكلام على مستويين : مستوى الفونيتيك phonetic level وهنا نتعامل مع طبيعة الأصوات اللغوية من حيث مخارجها وطرق نطقها articulatory phonetics ومن حيث خصائصها الطبيعية وما تحدثه من ذبذبات في الهواء acoustic phonetics ومن حيث آثارها السمعية وما يحدث لدى السامع ابتداء من طبلة الأذن الى تمثل معنى الاشارة الصوتية في الدماغ auditory phonetics ؛ كما يمكن دراسة الكلام على مستوى الفونولوجي حيث نتعامل مع القواعد المجردة التي تحكم تتابع الأصوات والتي تحدد أي تتابع من الأصوات يكون قانونيا في اللغة المعنية وأيها غير قانوني ؛ فمن المعروف مثلا أن العربية الفصحى لا تسمح بالتقاء ساكنين في أول الكلام ولا تسمح في أي مكان بأكثر من ساكنين متتالين ، أما الانجليزية فتسمح بثلاث سواكن في أول الكلمة وأربع سواكن في آخرها ، ومع ذلك فهناك قيود فونولوجية على نوعية السواكن التي يمكن أن تتتابع . كما يبحث الفونولوجي العلاقات التي تنشأ بين الأصوات المجاورة وبينها وبين العناصر اللغوية الأخرى .

والفونيم ، في رأي نبيل علي ، هو العنصر الذري للظاهرة الصوتية ، ويناظر الحرف في الكتابة الا أن التناظر غير تام بين الحروف والفونيمات . وتتكون منظومة الفونولوجي من ثلاث آليات :

١ ـ تنويع الفونيمات . فالأصوات اللغوية تتأثر بما يسبقها ويلحقها من أصوات وينتج عن هذا التأثير والتأثر عدة عمليات فونولوجية كالادغام والامالة والتفخيم والترقيق والحذف والاضافة والاطالة والتقصير . . . الخ .

٢ ـ التقطيع الصوتي . وهو تقسيم الكلمة الطويلة الى مقطعين أو أكثر فمثلا كلمة « كتاب » تتكون من مقطعين وكلمة « كتبنا » تتكون من ثلاث مقاطع ، ولكل لغة نظامها المقطعي الذي يحدد التراكيب

المسموحة في تكوين المقطع ، وتتميز العربية ببساطة واطراد نظامها المقطعي .

٣ ـ النبر والتنغيم . ويقصد بالنبر تشديد النطق على مقاطع معينة في الكلمة ، ويوضح التنغيم قصد المتحدث وحالته الانفعالية ، فباختلاف التنغيم يمكن لنفس الجملة أن تعبر عن الفرح أو الدهشة أو الاستنكار أو السخرية . . . الخ .

ويتناول الجزء الثاني من هذا الفصل معالجة الكلام آليا ، وهو موضوع يمثل تحديا هائلا لعدم نقاء الاشارة الكلامية واختلاط الأصوات فيها بالضجيج ، كما أنها تتغير وفقا لانفعالات وطبيعة صوت المتحدث وتأثير وتأثر كل صوت فيها فيما قبله وبعده . ولمعالجة الكلام آليا لابد من توافر العناصر التالية :

١ ـ تكويد coding الاشارة الكلامية وذلك بضبط معطيات الاشارة وإبراز خصائصها المميزة ، وتمثيلها بعدة بارامترات ليسهل مقارنتها ومطابقتها برمجيا .

٢ ـ برامج معالجة اللغة المختلفة كالمعالج الصرفي والنحوي والدلالي .

والمقصود بمعالجة الكلام آليا هو اما توليد الكلام speech synthesis أو تمييزه speech recognition . ويمكن توليد الكلام المستمر بتكوين الكلمات من وحدات أصغر كالفونيمات أو المقاطع الصوتية ، ثم صهر عناصر الكلمة الصوتية مع مراعاة القواعد الفونولوجية الخاصة باللغة . وبالنسبة للعربية ، يلخص الكتاب خطوات توليد الكلمة المنطوقة فيما يلي :

١ ـ ادخال النص المكتوب المراد نطقه آليا .

٢ ـ رد حروف الكتابة الى أصلها (فمثلا رد كافة أشكال العين الى العين) .

٣ ـ فك الحروف العربية ذات الطابع الثنائي مثل « لا » الى عناصرها المفردة .

٤ ـ تحويل سلسلة الحروف المكتوبة الى سلسلة فونيمات مناظرة .

٥ ـ تمثيل سلسلة الفونيمات في هيئة مقاطع .

٦ ـ تحديد مواضع النبر بتطبيق قواعد اللغة العربية واستخدام المعالج الصرفي ، وتحديد التنغيم المناسب للجملة بعد تحليل الجملة نحويا لمعرفة ما اذا كانت استفهامية أم خبرية . . الخ .

٧ ـ تطبيق القواعد الفونولوجية ومعطيات النبر والتنغيم .

٨ ـ توليد الاشارة الصوتية الرقمية بالحصول على البارامترات .

٩ ـ تحويل البارامترات الرقمية بعد تعديلها الى الاشارة الصوتية المقابلة لها .

ويمثل تمييز الكلام العملية المعاكسة أي استخلاص الفونيمات من الاشارة الكلامية وتحويلها الى مقابلها المكتوب . ويعتبر التمييز أصعب بكثير من التوليد نظرا لفيض المعطيات الضخم الذي تحمله الاشارة الكلامية ، والتداخل الشديد بين الفونيمات المتتالية ، وتغير سرعة الكلام ونمط تنغيمه من وقت لآخر لنفس المتحدث ومن متحدث لآخر . ولهذا لا تحقق برامج تمييز الكلام حاليا نجاحا الا في مجال الكلمات المنعزلة ولعدد قليل من المتكلمين .

ويرى المؤلف أن العربية تمثل حالة لغوية ملائمة للفهم الأوتوماتي للكلام المستمر والذي له تطبيقات عملية عديدة في بناء الآلات السامعة القارئة وتمييز المتكلمين والبريد الصوتي .

الفصل الثامن : ميكنة المعجم العربي (٤٥٧ - ٥٢٩)

المعجم هو القاسم المشترك لجميع مستويات التحليل اللغوي ، وقد اكتسب أهمية كبرى متزايدة في النظريات اللغوية المعاصرة (Bresnan 1982) ، (Gazdar et al 1985) و (Chomsky 1981, 1982, 1984, 1986) فكثير من الظواهر اللغوية التي كان يظن أنها جزء من التراكيب أمكن تفسيرها بطريقة أفضل من خلال معطيات المعجم ومن ذلك مثلا ظاهرة المبني للمجهول .

ويحتوي كل مادة معجمية على معطيات فونولوجية تحدد النطق الصحيح والكتابة السليمة لهذه اللفظة ، كما تحدد المعطيات الصرفية مقولة الكلمة وصيغتها التصريفية ونوع الاشتقاق وخصائص التصريف ، وتعطي المعلومات النحوية معلومات عن القواعد التي تحكم وجود اللفظ في الجملة وعلاقاته بما يسبقه ويتلوه من الألفاظ . فإذا كان اللفظ فعلا تبين اذا كان لازما أو متعديا ، وإذا كان متعديا توضح اذا كان متعديا لمفعول واحد أو لمفعولين ، وكذلك أنواع المكملات والملحقات ، وتصف المعطيات الدلالية المحملات predicates كما تحدد الأدوار الوظيفية والسمات الدلالية لموضوعات الفعل ومكملاته وموصوف الصفة وملحقاتها ، كما يعطي المعجم تعريفا لمعنى الكلمة باستخدام المترادفات اللفظية أو شرح المعنى . وليس المعجم مجرد قائمة من الكلمات المنعزلة التي لا رابط بينها ، بل انها تتشابك فيما بينها مكونة شبكة هائلة من المفاهيم والعلاقات الأساسية على كافة مستويات التحليل اللغوي ، فالمعجم اذن هو منظومة ذات كيان شبكي ، يرتبط بعلاقات خارجية متعددة ويموج داخله بشبكة كثيفة من العلاقات المتداخلة (الفهري ١٩٨٥) . ويعاني المعجم العربي من أزمة حادة تتلخص مظاهرها في القصور الحاد في المصطلحات العلمية ، وجمود النظرة الى تكوين الكلمات الجديدة ، والاكتفاء بتنظيم مواد المعجم على أساس الجذور والذي يفترض معرفة المستخدم بتفاصيل التحليل الصرفي والقواعد الفونولوجية الخاصة بالابدال والاعلال والحذف وغيرها ، وإهمال العلاقات المعجمية التي تربط بين الكلمات ، وعدم توافر معاجم خاصة للترادف والتضاد ، وشبه إغفال الكلمات المركبة ، وإغفال البعد التاريخي في رصد الكلمات وتطور معانيها عبر الأجيال .

ولمعالجة أزمة المعجم العربي يضع نبيل علي إطارا عاما « لمنظومة المعجم المؤتمتة » نلخصه فيما يلي :

١ - تحديث المعجم باضافة المفردات والتعابير الاصطلاحية الجديدة وحذف المهجور منها ، وتحديث العلاقات بين مفردات المعجم ، وتجميع الاحصائيات عن معدلات استخدام المفردات والتعابير الاصطلاحية داخل النصوص .

٢ - صك الألفاظ الجديدة من خلال آليات مختلفة لتكوين الكلمات كالاشتقاق والتركيب والمزج والاقتراض ، إلخ توسيع الاشتقاق وتخفيف القيود على اقتراض المصطلحات الأجنبية واستغلال الرصيد الكبير من مفردات العربية السحيقة .

٣ - الاهتمام بدراسة عمليات الازاحة الدلالية للكشف عن أسرار تغير معاني الألفاظ سواء على مستوى الجذور أو الصيغ الصرفية .

٤ - جمع التعابير الاصطلاحية في العربية الحديثة وترتيبها وتحليل العلاقات البنيوية والدلالية بينها ، والتوصل الى القيود النحوية على استخدامها ودراسة ظاهرة الاستعارة في العربية .

٥ - ترك المهجور من الجـذور مثل « أ ب أ » ، والصيغ غير المستـاغة مثل « مفعولاء » واستبعاد المفردات والتعابير الاصطلاحية المهجورة .

٦ - يواجه تنظيم المعجم على أساس الجذر عدة مشاكل : فهو لا يلائم غير المتخصصين من العامة والصغار لأنه يفترض الالمام بالقواعد الصرفية ، ولا يسهل تحديد مصدر الاشتقاق في حالة التعدد ، ويعتمد على قدرة المستخدم على استنتاج خصائص المفردات الصرفية والنحوية ، ولهذا لا بد من اعادة تنظيم المعجم باضافة بيانات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية ، وإعطاء تصنيف أدق لأنواع المشتقات لاجلاء اللبس ، وتـوضيـح خصـائص التعـديـة واللزوم للأفعال . ويجب أن يراعى في تنظيم المعجم امكانية استخدامه على أربعة مستويات على الأقل : كقائمة مفردات للغة ، وكمصفوفة علاقات صرفية ونحوية ودلالية ، وكقاعدة بيانات ، وكقاعدة معرفة متكاملة .

٧ - بناء قاعدة نصوص لغوية ضخمة من مصادر مختلفـة كـالـوثـائق والصحف والتقـاريـر والكتب والمسرحيات والاعلانات . . . الخ ليستخرج منها مؤشرات كمية وأمثلة واقعية للاستخدام الفعلي للمفردات ، واحصائيات عن طول الجمل وتنوع أساليبها ، ويضمن ذلك أن تكون المعلومات الواردة في المعجم حقيقية تعبر عن الاستخدام الفعلي للجماعة اللغوية وبذلك لا ينعزل المعجم عن متكلمي اللغة .

وينتهي الفصل بعدد من التوصيات لتطوير وميكنة المعجم العربي من أهمها : ربط تطوير المعجم بتحديث نظام التقعيد للغة ، والفصل بين العربية الحديثة والعربية القديمة ، ومراعاة العامل الجغرافي في الاستخدام اللغوي ، وتلبية احتياجات جميع مستخدمي المعجم ، والانطلاق من منظور دلالي ، ووضع الأسس للتصنيف المعجمي الدقيق بوضع سمات قياسية صرفية ونحوية ودلالية للألفاظ العربية ، والاهتمام بالعلاقات بين الكلمات ، وأخيراً ينتهي الكاتب بذكر عدد من المؤسسات العربية التي تقوم بأبحاث لميكنة المعجم العربي .

الخاتمة (٥٣١ - ٥٥٠)

تناقش الخاتمة ثلاث قضايا : أولها تفسير خلو الكتاب من فصل عن المعالجة الآلية للدلالة في اللغة العربية ، وأرجع المؤلف ذلك للوضع الحالي للمعالجة الآلية للدلالة اذ أنه ما زال في مراحله الأولى ، ولقصور الدراسات الدلالية في اللغة العربية ، وحاجة المعالجة الآلية للدلالة الى خلفية نظرية في المنطق والرياضيات وأساليب الذكاء الاصطناعي . والقضية الثانية هي العلاقة بين اللسانيات الحاسوبية وتعريب المعلومات ، ويرى هنا أولوية المعالجة اللغوية فهي التي ستقام عليها تطبيقات النظم المختلفة للمعلوماتيات . وتنتهي الخاتمة بقائمة قيمة لسبعة وتسعين بحثاً مقترحاً في كافة مجالات اللسانيات الحاسوبية ، وهي لا شك دعوة مقترحة

لعلمائنا الشبان من المتخصصين في اللسانيات أو علوم الحاسوب كي يسهموا في معالجة التحدي الذي يواجه الأمة العربية في ظل الثورة المعلوماتية المعاصرة .

تحليل وتعليق

هذا الكتاب اثراء قيم للمكتبة العربية ، فهو أول كتاب عربي في اللسانيات الحاسوبية ، ويجب النظر اليه في هذا الاطار . وقد قدم المؤلف فيه عرضاً شاملاً للجوانب المختلفة في هذا المجال .

الا أن الكتابة في موضوع تخصصي كهذا أمر شائك ، فاذا وجه المؤلف حديثه الى المتخصصين فقد جمهورا عريضا من المثقفين التواقين الى معرفة هذا العلم الجديد والمستعدين لبذل الجهد الذهني اللازم لذلك ، واذا وجه حديثه الى المثقفين فقد العمق والالتزام العلمي وانزلق الى الضحالة والعمومية . يتخذ المؤلف قراره باختيار القارىء الذي يخاطبه قبل البدء في الكتابة حتى يحدد مستوى العرض وتناول الموضوع . ولا شك أن نبيل علي قد اختار أن يوجه كتابه للمثقفين العرب وليس الى المتخصصين ، فقد خلا الكتاب من تفصيلات النواحي الفنية المعقدة والتحليلات النظرية في علم اللغة وأساليب اللسانيات الحاسوبية . وأصبح الكتاب متعة ذهنية للقارىء المثقف ينهل منه دون صعوبة أو ملل ، ورحلة بلا عائد للمتخصصين في اللسانيات الحاسوبية . ويجب أن نقر بأنه ربما كان يستحيل أن تجمع المعالجة بين الشمول الذي قدم به الموضوع ودرجة أعمق في تناول موضوعات الكتاب ، فقليلة هي الكتب المتخصصة التي يجد فيها المتخصص متعة ذهنية وأفكاراً جديدة بينما لا يجد القارىء العادي صعوبة في فهمها واستيعابها .

أولاً : منهجية العرض

تميز الكتاب بمنهجية العرض والالتزام بها في عرض كافة القضايا . وانعكس محور الكتاب وهو الثنائية « اللغة العربية والحاسوب » في كل فصل من فصول الكتاب ، حيث لكل فصل شقان : شق لغوي وشق حاسوبي . والتزم أيضاً بالبدء بالشق اللغوي في كل فصل ، منتقلاً بذلك من السهل ـ باعتبار اللغة موضوعاً عاماً ـ الى الصعب . وفي تناوله للشق اللغوي ، يبدأ من المفاهيم العامة ثم ينتقل الى الخصوصيات وينتهي باللغة العربية ، وهو بهذا يضمن أن يكوّن لدى القارىء الخلفية العامة في اللسانيات التي تمكنه من استيعاب وتقدير مشكلات اللغة العربية ، وبالاضافة الى هذا فهو ينحو نحواً منهجياً سليماً يتفق مع النظريات اللغوية الحديثة التي تهتم بالأنحاء الكلية universal grammar وتنظر الى اللغات المختلفة كحالات خاصة من اللغة الانسانية التي تتوافر خصائصها العامة في جميع اللغات الطبيعية . ويبدأ الشق الحاسوبي في كل فصل بتحديد المنطلقات الأساسية للمعالجة الآلية ، كما يعرض في كل فصل إطارا عاماً للمعالجة الآلية للمستوى اللغوي المطروح والتطبيقات العملية المختلفة التي تنبثق منها . وكان لهذه المنهجية والالتزام بها في كافة فصول الكتاب أثر كبير في جعل الكتاب سلس القراءة ، سهل الاستيعاب ، فهو يتدرج بالقارىء بطريقة منطقية سليمة ويتنقل باستمرار من العام الى الخاص ويربط النتائج بمقدماتها .

مضمون الكتاب

يرى القارىء عنوان الفصل الأول وهو « منظومة اللغة العربية من منظور الحاسوب » ، ويتوقع أن يرى عرضاً للغة العربية من منظور غير لغوي ، ولكنه يجد عرضاً جيداً للغة العربية ، من منظور لغوي ، فيجد عرضاً لكافة مستويات التحليل اللغوي كالتحليل الصوتي ، والصرفي والنحوي . . الخ كمكونات لمنظومة اللغة ، كما يجد عرضاً للعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة كعلاقاتها بالمنظومة النفسية والاجتماعية والطبيعية . . الخ ، ثم يعرض الكتاب لخصائص المنظومة اللغوية (أي خصائص النحو الكلي) ، ثم ينتقل الى خصائص اللغة العربية ، ثم يتناول تطور اللسانيات وأخيراً يعرض لبعض مشاكل التنظير للغة العربية . والسؤال الملح هنا « أين هي منظومة اللغة العربية من منظور الحاسوب في هذا ؟ » ان ما في هذا الفصل لا يخرج عما ندرّسه لطلبتنا في المقرر التمهيدي لعلم اللغة وهو يمثل نظرة علماء اللغة في البحث اللغوي وفي اللغة الانسانية كظاهرة طبيعية . وقد كان من الأوفق لنبيل علي أن يكون عنوان الفصل « منظومة اللغة العربية » فقط .

إلا أن طرح اللغة من منظور الحاسوب هو أمر هام في كتاب كهذا ، واذا أردنا معالجة هذا الموضوع فيجب أن نذكر أن الحاسوب ينظر الى اللغة بعدة طرق منها :

١ - نظرية اللغة الصورية Formal language theory

اللغة عبارة عن مجموعة لا متناهية من الجمل an infinite set of sentences ، ويمكن للحاسوب أن يتعرف على أعضاء هذه المجموعة اذا أعطي له وصف دقيق لما يجب أن تكون عليه الجملة . وهذا الوصف الدقيق الذي يتطلبه الحاسوب هو النحو . ومن هنا جاءت الرياضية التي تحدث عنها نبيل علي تحت عنوان النموذج الرياضي للنحو في صفحة ٣٤١ . ويتطلب الحاسوب نحواً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ، مما يفرض على عالم اللغة أن يبتعد عن العموميات في تحليله وأن يضع كافة التفصيلات التي تحكم صحة الجملة . ولكي يستطيع الحاسوب أن يبني شجرة الأعراب للجملة فينبغي أن يتكون من مجموعة من المقولات ، ورمز الجملة وعدد محدود من قواعد الانتاج production rules ومفردات اللغة . وبدون كتابة نحو اللغة بهذه الطريقة لا يستطيع الحاسوب معالجة اللغة آلياً .

٢ - اللغة كهيكل معلومات information structure ينظر الحاسوب الى قواعد اللغة ومفرداتها كبنية معلوماتية ، فتمثل كل كلمة من كلمات اللغة في شكل شجرة معلومات تحتوي على المعلومات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية المتعلقة بهذه الكلمة ، وتحدد شجرة المعلومات هذه الكلمات والبنيان الذي يمكن لهذه الكلمة أن تتحد معه مكونة شجرة معلومات على مستوى أعلى . . وهكذا حتى تصل الى مستوى الجملة . وتتطلب هذه النظرة وضع كل المعلومات اللغوية في المعجم اللغوي الآلي بما في ذلك القيود الخاصة بتكوين العبارات والجمل .

٣ - اللغة كمنظومة رياضية . يجيد الحاسوب اختبار صحة المعادلات الرياضية ، بمعنى أنه اذا أعطي مقولتين

يستطيع أن يحدد اذا كانتا متساويتين أم لا . وبالتالي فهو ينظر الى اللغة كشبكة من علاقات للمساواة . وبناء على هذا المنهج يستطيع الحاسوب تحويل جميع شجرات الاعراب الى شكل معادلات للمساواة . فاذا أردنا للحاسوب أن يحلل الجملة التالية :

شاهدت سعاد علياً في الحديقة .

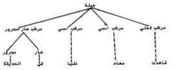
وكانت شجرة الاعراب لهذه الجملة ما يلي :

فان قواعد هذه الجملة تكتب في شكل المعادلات التالية :

جملة = (س - صفر س - ٢ س - ٢)
(س - صفر مقولة) = فعل .
(س - صفر جنس) = (س - ١ جنس) .
(س - صفر عدد) = (س - ١ عدد)
(س - صفر مكملات) = مركب أسمي .
(س - صفر فاعل) = س - ١ .
(س - صفر مفعول) = س - ٢ .
..... الخ .

والفكرة هنا أن جميع القواعد موجودة في شكل معادلات equations، وهي تقول بأن الجملة تتكون من أربعة مكونات : فعل ومركب اسمي (الفاعل) ، ومركب اسمي آخر (المفعول به) بشرط أن يكون الفعل من النوع الذي يتطلب مركباً اسميا من مكملاته ، وان هناك جارا ومجرورا أيضاً ، وتقول المعادلات التالية ان الفعل والفاعل يجب أن يتفقا في الجنس وأن فاعل الجملة هو المركب الاسمي الذي يلي الفعل ، بينما المفعول به هو المركب الاسمي التالي . . ويمكن قول كل شيء عن الجملة وشروط صحتها النحوية من خلال هذه المعادلات . وهكذا ينظر الحاسوب الى اللغة كمنظومة من المعادلات .

وفي الحقيقة هذا ما يهم عالم اللسانيات أن يعرفه ، هو يريد أن يعرف صورة النحو الذي يمكن أن يقبله الحاسوب لأن هذه الصورة تختلف عما تعود اللساني أن يكتبه وعما يقرؤه في كتب النحو العام . وكان هذا ما يجب أن يكون عليه التركيز بافاضة ويكثير من الأمثلة التوضيحية باعادة كتابة كثير من القواعد التقليدية بالصورة التي تتطلبها المعالجة الآلية .



ولننا نقس التعليق على الفصل الثاني من الكتاب والذي عنوانه « منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية » . فهو يحدد الاطار العام لمنظومة الحاسوب في رباعية ، هي : العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . وليس هذا الاطار هو منظور اللغة الى الحاسوب ، بل هو اطار هذه المنظومة من منظور الحاسوب ، ثم يتناول البعد العربي لكل من هذه العناصر وهو يعني تطويع هذا العنصر ليلبي احتياجات المستخدم العربي ، وهذا بالتأكيد شيء جيد . ولكن يبدو لي ـ وقد أكون مخطئاً ـ أنه قد يكون من المناسب عندما نتحدث عن الحاسوب من منظور اللغة أن نتذكر كيف يمكن للغة استخدام الحاسوب لخدمة البحث اللغوي ، فالمعروف أن علماء الحاسوب واللسانيات الحاسوبية في البلدان المتقدمة استطاعوا بناء أدوات للبحث اللغوي computational tools for linguistic analysis ، وأن استخدام هذه الأدوات قد مكّن علماء اللغة من اختبار صحة نظرياتهم مما كان له أثر في اندثار بعض النظريات والتحليلات اللغوية وقيام غيرها . فقد كان للسانيات الرياضية والحاسوبية الفضل في إظهار أن النحو التحويلي لا يزيد في قوته عن آلة تورينج (ريتشي وبيترز ١٩٧٣) ، وانه لا يمكن التوصل الى البنية العميقة من خلال البنية السطحية . وأدى هذا الى ظهور نظريات لغوية توليدية غير تحويلية ولا تعترف الا بالبنية السطحية ومن ذلك نظرية « نحو البنية العامة للجملة "Generalized Phrase Structure Grammar (GPSG) » والنظرية الوظيفية المعجمية "Lexical Functional Grammar (LFG) . ولكل من النظريتين برامج حاسوبية لكتابة الأنحاء في الصياغة الصورية لكل منهما . وقد كان للحاسوب ولا يزال أثر كبير في ظهور وتطور هذه النظريات . فما يهم عالم اللغة اذن أنه يريد أن ينظر الى الحاسوب من خلال ما يستطيع أن يقدمه للغة وللبحث اللغوي ، ولا شك أن الحاسوب يقدم إمكانات هائلة للبحث اللغوي سواء على مستوى تقديم أدوات تقنية عالية تضاعف من فعالية عالم اللغة أو كاختبار لصحة النظريات والتحاليل اللغوية ، أو كمتطلبات عملية تعرض على عالم اللغة معالجتها وحلها ، وأبسط مثال على ذلك الاهتمام الشديد هذه الأيام بعلم الدلالة لأن التقدم في هذا الفرع من اللسانيات شرط ضروري للتقدم في فهم ومعالجة اللغات الطبيعية .

توجد الى جانب ذلك بعض الأحكام غير الصحيحة في أماكن متفرقة من الكتاب مثل :

١ ـ يقول في حديثه عن ثنائية التحليل والتركيب « تعد عمليات التمييز بشكل عام أعقد من عمليات التوليد ، اذ تتعامل الأولى مع دخل متغير لا يمكن تحديده سلفاً ، ولا يفترض وجوب صحته لغوياً » (صفحة ١٨٧) ، والذي يتتبع أدبيات اللسانيات الحاسوبية يجد أن برامج تحليل اللغات قد سبقت بكثير البرامج التوليدية ، ربما كان ذلك لأننا في التوليد نبدأ من المعنى وننتهي الى النص ، ولما كانت الأبحاث عن طرق تمثيل المعنى في بدايتها الأولى ، فقد أثر ذلك على البرامج التوليدية . والفكرة السائدة الآن هو أنه يجب استخدام نفس التحليل اللغوي في كلا الاتجاهين ، التحليل والتوليد ، غير أن البرامج التطبيقية تتطلب أن تسمح للمستخدم بعمل أخطاء لغوية الا أن الحاسوب في رده لا

يجوز أن يأتي بجملة خاطئة نحوياً ، ومن هنا كان لا بد من أحد أمرين : إما أن يختلف النحو المستخدم في التوليد عن النحو المستخدم في التحليل ، أو أن يقوم البرنامج بإرخاء بعض القواعد عند التحليل ليتجاوز الأخطاء التي يقع فيها المستخدم . والحالة الوحيدة التي تصح فيها مقولة المؤلف هذه هي حالة التعامل مع الكلام المنطوق .

٢ ـ وفي صفحة ٢٠١ يقول نبيل علي « هناك لغات فونيمية ، كاللغات الانجليزية والروسية والأسبانية ، يمثل كل حرف فيها فونيما واحدا في أغلب الأمور » وهذا مخالف للواقع ؛ فلم يقل أحد عن اللغة الانجليزية اطلاقاً أنها لغة فونيمية ، خذ مثلاً حرف s بالانجليزية فهو مرة ينطق « س » في كلمة stem ومرة ش كما في كلمة sure ومرة « ز » كما في كلمة dogs ومرة ج كما في كلمة pleasure . والحقيقة أن اللغة الانجليزية غير فونيمية على الاطلاق وقد كان هناك تفكير في أوائل هذا القرن لتعديل طريقة كتابتها حتى تصبح منطقية أكثر ولكن استبعد هذا الرأي لعدة أسباب .

٣ ـ ويقول نبيل علي في فصل المعالجة الآلية للكلام العربي ما يلي : « الكلام ، أو الصوت اللغوي ، هو بلا شك ، أكثر الظواهر اللغوية تأصلاً وتجلياً ، وهو في نفس الوقت أقلها حظاً من حيث الدراسة والبحث » ، وهذا الحكم ينافي الحقيقة ، فقد كان لعلماء اللغة العرب القدامى فضل دراسة الكلام دراسة وافية وتوصلوا الى وصف دقيق لمخارج اللفاظ ولبعض السمات الصوتية ، فقد ميزوا بين المجهور وغير المجهور . كما توصلوا لعدد من القواعد الصوتية المختلفة كالابدال والاعلال ، والحذف ، والاضافة ، والادغام ، وغيرها . كما كانت الصوتيات من أول فروع علم اللغة الحديث ، وقد حققت تقدماً هائلاً ، واذا جاز لنا أن نتحدث عن أقل الظواهر اللغوية حظاً من حيث الدراسة والبحث ، فلا شك أن أول ما يخطر ببال اللغوي هي الدلالة .

٤ ـ يقول المؤلف « يمكن القول أن الجمل العربية تتسم بضحالة بنيتها العميقة وذلك اذا ما قورنت بلغات أخرى مثل الانجليزية مثلاً » (صفحة ٣٥٧) . ومن الصعب تقبل فكرة ضحالة أو عمق البنية العميقة للغة ما ، فالبنية العميقة ما هي الا افتراض نظري مجرد من خلق عالم اللغة عن الدلالة التي يتوصل اليها الانسان من البنية السطحية للجملة . وتتجه معظم النظريات اللغوية المعاصرة الى نبذ فكرة البنية العميقة لأنها تعتمد بشكل رئيسي على التحضر التحويلي الذي تقوم فيه القواعد التحويلية بتمثيل العلاقة بين البنية السطحية للجملة وبنيتها العميقة .

لا يمكن لهذه الملاحظات البسيطة أن تقلل من قيمة وأهمية الكتاب ، فقد حفل بكم هائل من المعلومات القيمة ، وأود أن أذكر نبيل علي بما قاله في صفحة ١٣ « فان بحثنا هذا لا يعدو أن يكون مجرد بداية ستحتاج حتماً الى التفريع والتفصيل والتعميق » ونحن في انتظار العمل القادم لنبيل علي ليكون إثراءه الثاني في علم اللسانيات الحاسوبية .

* * *

المراجـــع

١ ـ الفهري ، عبد القادر الفاسي . المعجم العربي : نماذج تحليلية جديدة ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ .

٢ ـ فرغلي ، علي . "Three Level Morphology" ، بحث ألقي في ورشة عمل عن الصرف العربي ، جامعة ستانفورد ، كاليفورنيا ، ١٩٨٧ .

٣ ـ فرغلي ، علي . « الحاسب الآلي والعلوم الانسانية » في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والانسانية ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٨ .

٤ ـ منصور ، فوزي . « استراتيجية اشباع الحاجات الأساسية كاستراتيجية تنموية » ، الحلقة النقاشية الثانية عشرة ، المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، ١٩٨٨ .

5 — Bresnan, J. (ed.) 1982. **The Mental Representation of Grammatical Relations.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

6 — Chomsky, N. (1957). **Syntactic Structure.** The Hague.

7 — .... (1965). **Aspects of the Theory of Syntax.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

8 — Chomsky, N. 1981. Lectures on Government and Binding. Foris, Dordrecht.

9 — .... 1982. **Some** Concepts and Consequences of the Theory of Government and **Binding.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

10 — .... 1984. **Knowledge** of Language : Its **Nature, Origin and Use.** New York, Praeger.

11 — ...... 1986. **Barriers.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

12 — Gazdar, G. et al. 1985. Generalized Phrase Structure Grammar. Cambridge, Massachusetts. MIT Press.

13 — Jackendoff, R. 1977. X-Bar Syntax : A Study of Phrase Structure. Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

14 — Kay, M. 1987. Nonconcatenative Finite-State Morphology. Presented at the Workshop **on Arabic Morphology, Stanford University.**

15 — Koskenniemi, K. 1983. **Two Level Morphology : A General Computational Model for Word-Form Recognition and Production.** Doctoral Dissertation, University of Helsinky.

16 — Selkirk, E. 1982. **The Syntax of Words.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

17 — Weaver, W. 1955. "Translation", in Locke & Booth (eds.) **Machine Translation of Languages,** New York, Technology Press of MIT and Wiley.

❁ ❁ ❁

بيروقراطية الخدمات الجماهيرية

تأليف : ميشيل ليبسكي
عرض وتحليل: فهد الناصر
مدرس علم الاجتماع

يعد كتاب « ليبسكي » المعنون « بيروقراطية الخدمات الجماهيرية » أول كتاب رئيسي حول البيروقراطيين المتصلين بالخدمات الجماهيرية ينشر وسط اهتمام أكاديمي متنام بهذا المجال .

وتدور الدراسة حول مكان الفرد في سياق الخدمات العامة ، ويخلص المؤلف ، من دراسته ، الى أن فهماً أفضل للسياسة العامة يمكن أن يتحقق ليس من خلال دراسة أنشطة وأعمال المستويات الادارية العليا ، بل عن طريق دراسة العلاقة بين من يقدم الخدمة مباشرة ومن يتلقاها .

وتستند الدراسة الراهنة الى ملاحظات جرى تسجيلها عن السلوك الجماعي لتنظيمات الخدمة العامة ، وتسعى الدراسة كذلك الى تطوير نظرية حول نشاطات بيروقراطيات الخدمات الجماهيرية كما يمارسها العاملون في تلك التنظيمات والمؤسسات .

ويرى المؤلف أن موظفي تلك المؤسسات التي تتعامل مع الجماهير ، يشغلون مركزاً دقيقاً في المجتمع الأمريكي في الوقت الراهن . وهو يعرّف الموظف الذي يتعامل مباشرة مع الجمهور بأنه « بيرقراطي مستوى الشارع » على حد تعبيره ، وذلك مثل المدرسين وضباط الشرطة والاخصائيين الاجتماعيين والقضاة والمحامين وموظفي مؤسسات الخدمات العامة ، ومن ثم فهو يشير الى الهيئات التي ينتمي اليها أعداد كبيرة من هؤلاء بوصفها « مؤسسات بيرقراطية على مستوى الشارع » على حد تعبيره ، أي مؤسسات بيرقراطية تتعامل مباشرة مع الجماهير .

ان الأساليب التي يقوّم من خلالها أولئك الموظفون العاملون بتلك المؤسسات ، الخدمات والجزاءات ،

ويحددون بواسطتها ضروب حياة الناس وفرصهم ، تشكل السياق الاجتماعي والسياسي الذي يعمل الناس من خلاله ، وتوجهه .

ويتحكم هؤلاء البيروقراطيون المتعاملون مع الجماهير في الجدل السياسي أو الخلافات السياسية التي تدور حول الخدمات العامة وذلك لسببين هامين ، يرجع أولهما الى أن الجدل والخلافات حول مجال الخدمات الحكومية انما تدور أساساً حول هؤلاء الموظفين العموميين من حيث مجال عملهم ووظائفهم . أما السبب الثاني فيكمن في أثرهم الملموس على حياة الناس فهم على سبيل المثال الذين يشكلون ـ اجتماعيا ـ توقعات المواطن للخدمات الحكومية ، كما يصوغون على نفس المستوى أيضاً مكانه في المجتمع السياسي ، انهم على حد تعبير ليبسكي « يمسكون بمفاتيح بعد من أبعاد المواطنة » وهو مقتنع تماماً بضرورة النظر الى موظفي المستويات البيروقراطية الدنيا هؤلاء ، ليس بوصفهم منفذي سياسة فقط ، بل بوصفهم صناع سياسة المنظمات التي يعملون بها .

ويتسق منطق ليبسكي ، الذي يضفي أهمية بالغة على بيروقراطيي الخدمات الجماهيرية ، أو كما يطلق عليهم في بعض الأحيان موظفي خط المواجهة الأمامية في مؤسسات الخدمات العامة ـ يتسق ـ مع أغلبية البحوث والدراسات في هذا المجال ، أي مجال المؤسسات البيروقراطية .

وقد حدد بيتر بلاو (Blau, 1956) ثلاث خصائص تشترك فيها تلك المؤسسات بوصفها خصائص ضرورية لأدائها واستمرارها ، وهي التخصص في الأدوار والأعمال والمهام ، ووجود قواعد موضوعية مستقلة ذاتياً عن الأشخاص ، ووجود توجه عام لانجاز أهداف وغايات محددة بكفاءة وفاعلية .

ويُعتمد مدى قدرة التنظيم البيروقراطي على المحافظة على تلك الخصائص واستمراريتها على التوازن الدينامي الذي تحرص على استمراره بالنظر الى علاقته بالبيئة والوسط العام الذي يوجد التنظيم في اطاره . وتحتفظ البيرقراطية باستقلاليتها وتميزها وقدرتها على تحقيق أهدافها طالما ظلت الرقابة التنظيمية والاشراف وصنع السياسة ، ووضعها في أيدي أصحاب الحق الشرعي في ممارسة تلك المهام . وقد تتعارض هذه النتيجة مع حالة التمركز البيروقراطي "Bureacrarization" التي تعني تكريس الأنشطة والقوة البيرقراطية لخدمة مصالح المؤسسة البيروقراطية ، أو لخدمة مصالح الصفوة أو النخبة العليا في التنظيم .

ان آثار التمركز البيروقراطي ، كما يذهب أيزنشتات (Eisenstad) يمكن أن تحتوي على تطوير وتنظيم صارم متعاظم regimentation لبعض مجالات الحياة الاجتماعية ، ووضع أهداف وخدمات ـ المؤسسة لصالح مصالح قوى وتوجهات مختلفة (P. 306) .

ويضرب أيزنشتات مثلاً بالحزب السياسي الذي يمارس ضغوطاً على من يتوقع تأييدهم له ، وذلك في محاولة لاحتكار حياتهم الخاصة والمهنية والانفراد بها حتى يجعلهم تابعين للحزب تماماً ومعتمدين عليه .

وبذلك يكون لدى الجهاز الوظيفي للحزب القوة والنفوذ الذي يمكنهم من تغيير مسار الحزب ورسالته الحقيقية وذلك بحكم كونهم في خط المواجهة ، فهم على صلة مباشرة بالمؤيدين المحتملين في دائرة الحزب .

ويحتل بيروقراطيو مستوى الشارع الوضع نفسه تقريباً فمنهم صانعو القرار الذين يحتكون احتكاكاً يومياً مباشراً مع عملاء التنظيمات والمؤسسات ، وهم يستطيعون ، من هذا الموقع ، كما يوضح ليبسكي ، أن يغيروا من المجال الشرعي والوظائف الشرعية للتنظيم وذلك من خلال تقديم « منافع وخدمات أقل » وتوقيع « جزاءات أكبر » على العملاء ، خدمات أقل مما تحدده اللوائح والتشريعات التنظيمية ، وجزاءات أكبر مما تحدده تلك اللوائح أيضاً . وهكذا فان تأثيرهم يمتد الى بعض مجالات الحياة الاجتماعية بتغييرهم بعضاً من أهداف الخدمة وقد يتم توجيهها لصالح البيروقراطية على حساب مصالح العملاء والمصالح العامة .

وفي ضوء الخصائص الثلاث المشتركة للتنظيمات البيروقراطية التي حددها بيتر بلاو يمكن القول إن بيروقراطيي مستوى الخدمات الجماهيرية الذين يتجاوزون سلطاتهم يخاطرون ويتجاوزون خاصية التوازن الدينامي من خلال فشلهم في المحافظة على خاصيتي التخصص في الأدوار والقواعد الموضوعية المستقلة .

وخلال تحديد ليبسكي وتحليله لمشكلات هؤلاء الموظفين وظروف عملهم ، يناقش الصراع بين انفلات العاملين وتصرفهم على هواهم وبين الاتساق والتنظيم الاجرائي الضروري في ضوء اعتبارات المساواة ، كما يناقش الصراع بين استقلالية العامل أو المكلف وبين المتطلبات التنظيمية للرقابة الاشرافية . لقد أعطي هؤلاء الموظفون صلاحيات واسعة للتصرف مع العملاء ومعاملاتهم وفقاً لظروف كل منهم ، في نفس الوقت الذي يُتوقع منهم أن ينفذوا الاجراءات التي تتطلب شكلاً من أشكال التقنين التي عادة ما تتجاهل الاعتبارات الانسانية للعملاء . إن ظروف العمل في هذه المؤسسات غالباً ما تضع العاملين بها في مواقف متناقضة على نحو ما يذهب اليه ليبسكي .

إن المهمة المشتركة التي تواجه بيروقراطيي الخدمات الجماهيرية تتمثل في التوفيق بين مسئولياتهم غير المحدودة في اتخاذ قرارات تتعلق بمشكلات العملاء ، وقدراتهم المحدودة على حل تلك المشكلات فعلاً . ومن شأن هذا التوفيق أن يؤدي الى ممارسات تضر بمصالح العملاء ، كأن تقلل من طلبهم للخدمات في حالة تطبيق إجراءات روتينية غير ضرورية ، ووضع العقبات أمامهم لدى طلبهم تلك الخدمات .

وينتقل ليبسكي لمناقشة الفروق بين موظفي الخدمات الجماهيرية والمديرين فيذهب الى القول بأن « العاملين في المستوى الأدنى يتميزون بممارسات متعلقة بأعمالهم تختلف عن تلك الممارسات التي يتسم بها المديرون ، فمن مصلحة العاملين أن يقللوا من الأخطار التي يتعرضون لها وأن يقللوا من المتاعب التي يتعرضون لها في العمل وأن يزيدوا من دخلهم واشباعهم الشخصي . ان اولويات العاملين لا تهم الادارة في جانبها الأعظم الا بمقدار ارتباطها بالانتاجية والفاعلية . اذ يهتم المديرون بتحقيق النتائج التي تتفق مع أهداف مؤسساتهم » (P. 18).

ويركز ليبسكي على ندرة المصادر في وسط يتطلع الى خدمات غير محدودة ، كما يركز على الافتقار الى التحديد الدقيق للمسئولية Accountability في مؤسسات وهيئات وتنظيمات تتسم بوسائل تكنولوجية تفتقر الى

الدقة ، كما تتميز بأهداف غامضة وغير محددة . كما يهتم أيضاً بالعوامل التي تسهم في خلق هوّة بين العاملين والعملاء . ثم يستكشف آنئذ نتائج تلك العناصر وآثارها ، فالمحصلة سلبية بالنسبة للعملاء ، والشكالية فيما يتصل بالرقابة التنظيمية ، أما بالنسبة لرضا العاملين عن العمل فهو محدود في أحسن الأحوال .

ويذهب ليبسكي الى أن موظفي الخدمات الجماهيرية ـ في تلك الظروف يفتقدون الوقت والتدريب والمعلومات التي تمكنهم من الوفاء بزخم الاحتياجات والمطالب المنوط بهم تحقيقها ، واذا أضفنا الى ذلك غموض أهداف التنظيم وتضاربها بما تعكسه من خلاف سياسي ، فان قياس أداء العاملين ونتائج الخدمات تصبح مسألة نادرة ، أما العملاء فلا حول لهم ولا قوة في التحكم في الموقف ، ومن ثم تقل المنافع التي سيحصلون عليها وتكثر الجزاءات التي يقعون تحت طائلتها .

ويسعى ليبسكي الى اختبار نظريته عن التحكم في ظروف العمل ، وهو يضع في اعتباره أن موظفي الخدمات الجماهيرية يعملون في ظروف تنطوي على درجة عالية نسبياً من عدم اليقين وذلك بسبب تعقد موضوع عملهم وهو التعامل مع الناس ، والسرعة التي تتطلبها عملية اتخاذ القرارات ، وكثرة تلك القرارات ذاتها .

وينطوي اختبار هذه النظرية على تحديد ما اذا كانت النتائج السلوكية المشتركة تحدث عبر مهن جماهيرية مختلفة ومتباينة ، يمر العاملون فيها بظروف عمل متشابهة .

وقد كشف عن أن كافة موظفي الخدمات الجماهيرية يميلون الى تضييق نطاق الخدمات وتحديدها ، كما يميلون الى التحكم في العملاء وفي ظروف العمل ، ويطورون وسائل سيكلوجية لاختزال التفاوت بين الأداء الذي يتوقعونه من أنفسهم وبين حصيلة الخدمة الفعلية التي يحصل عليها عملاؤهم .

ويعتمد ليبسكي على مجموعة من المصادر التي تمكنه من تقديم وصف وتحليل ممتاز لما يجري في ظروف العمل فهو يفسر ـ بأسلوب متعاطف مع كل من العاملين والعملاء ـ الدوافع البيرقراطية الكامنة وراء مثل تلك الممارسات ، مثل توزيع الخدمات على أفضل العملاء الذين قد لا يكونون في حاجة ماسة اليها (كما هو الحال حينما تلاحق برامج الارشاد الوظيفي أولئك العملاء الذين من الممكن ان يجدوا فرص عمل دون تدخل تلك البرامج) والاقتصاد في الموارد التي يمكن لتحقيق أقصى كفاءة من خلالها وذلك بممارسات مثل تحويل سلطة اتخاذ القرار للآخرين وهلم جرا ، حيث تصبح كل ممارسة من تلك الممارسات بمثابة ميكانزم بقاء فردي وتنظيمي .

لقد أشرنا من قبل الى تعريف ليبسكي لموظفي الخدمات الجماهيرية (مستوى الشارع) بوصفهم أولئك الذين يحتكون بالجمهور بصورة مباشرة أثناء قيامهم بأعمالهم والذين يتمتعون بخبرة في تلك الأعمال . وإن أردنا المقارنة فقد يكون مفيداً أن نتمعن في تعريف داونز (Downs, 1967) للبيرقراطي وذلك في دراسته المعنونة « في داخل البيرقراطية » ، فهو يعرّف

البيروقراطي بوصفه شخصاً يتسم عمله بأربع سمات أساسية على النحو التالي :

١ ـ أنه يعمل في تنظيم كبير .

٢ ـ وهو متفرغ لعمله في هذا التنظيم ويحصل من عمله هذا على النصيب الأعظم من الدخل .

٣ ـ تبنى السياسة التي يتبناها التنظيم ازاء العاملين بها على معيار الانجاز أو الاداء الوظيفي .

٤ ـ ان تقييم انتاجية أي فرد من العاملين لا يمكن أن يتم بصورة مباشرة أو غير مباشرة وعلى أسس سوقية وتجارية من خلال العمليات التبادلية الاختيارية ، دون أن يجري تقييم أداء التنظيم وفقاً للأسس ذاتها .

وبينما يفي بيروقراطيو الخدمات الجماهيرية كما يعرفهم ليبسكي بمتطلبات المعيارين الأولين اللذين حددهما « داونز » ، فان نقطة أساسية من نقاط أطروحة ليبسكي تظل متمثلة في أنه من الصعوبة بمكان إجراء تقييم وأداء هذا المستوى من العاملين ، وهو يسوق أسباب هذه الصعوبة على النحو التالي :

١ ـ غموض الأهداف ، وذلك مثل توفير السلامة العامة أو تأهيل المواطنين تأهيلاً جيداً .

٢ ـ ثمة متغيرات عديدة في السلوك الانساني ، وثمة استحالة لتعيين ما يمكن أن يحدث للعملاء في حالة غياب التدخل والاعتراض ، وميل موظفي الخدمات العامة الى أداء أعمال يصعب تدقيقها ومراجعتها اذا ما قورنت بمعظم الأعمال التنظيمية الأخرى ، وكون هذه الأعمال تجري في إطار معايير للعمل (مثل ثقة العميل) مما يقلل من الدقة في التقييم الى حد كبير .

وينطبق على موظفي الخدمات العامة ، السمة أو الخاصية الأخيرة التي طرحها « داونز » أيضاً ، والتي يذهب منها الى استحالة قياس انتاجية الموظف بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إذ يذهب « ليبسكي » الى أن هؤلاء الموظفين يضعون معايير يقيمون أداء العاملين وفقاً لها ، فعلى رجال الشرطة أن يقبضوا على عدد معين من المطلوبين شهرياً ، وعلى الاخصائيين الاجتماعيين أن يقوموا عدداً معيناً من الحالات لكن كفاءة تلك المعايير فيما يتصل بالسلامة العامة أو قدرة العميل عند الاخصائيين الاجتماعيين على التغلب على المشكلات تظل منطوية على إشكاليات مثيرة للجدل .

ويكشف ليبسكي بمزيد من التوضيح وعن التعقيد الذي يكتنف تفسير مثل تلك المقاييس الأدائية والانتاجية حين يثير تساؤلات حول ما اذا كانت زيادة معدلات المقبوض عليهم تعني أداء جيداً للشرطة فيما يتصل بمجال القبض على المطلوبين أم أن ذلك هو العكس بمعنى أن ذلك يشير أيضاً الى تزايد معدلات الجريمة ومن ثم تزايد أعداد المطلوب القبض عليهم .

ويحلل ليبسكي أيضاً ، التطبيقات الراهنة للمقاييس الادارية التي صممت لتأمين وتوفير وضمان المساءلة والمحاسبة بين بيروقراطي الخدمات العامة ، لكنه ينتهي الى استحالة تلك المحاسبة والمساءلة البيروقراطية بين

المستويات الأولى من العاملين اللذين يتمتعون بدرجة عالية من حرية التصرف فيما يتصل بالجوانب النوعية (أي التي لا يمكن قياسها كمياً) من أعمالهم .

ويناقش « ليبسكي » .. كذلك الأزمة المالية وانعكاسها على بيرقراطيي الخدمات العامة ، ويخلص من هذه المناقشة الى تحليل الامكانات والوسائل الكفيلة بزيادة فاعلية الخدمات الحيوية التي يقوم بها العاملون في هذا المستوى « أي مستوى الشارع والجماهير » .

وثمة نتيجة هامة تترتب على تكيف العاملين في مجال الخدمات مع المواقف المتناقضة والمتصارعة التي يجدون أنفسهم فيها ، تتمثل في تحول ما يقومون به بالفعل في اتصالهم بعملائهم واحتكاكهم بهم ، الى سياسة تنفيلية . إن ذلك هو ما يجري في مكاتب الرعاية العامة وفي الفصول الدراسية ، وفي الخدمات الجماهيرية الأخرى . ويذهب ليبسكي الى أن تلك السياسة المنفذة فعلاً ، تعكس أشكال عدم المساواة ، وغياب العدالة والتعصب القائمة في هذا المجتمع . وبخاصة ما يتعلق بالفقراء والأقليات .

ليس ثمة شك في أن تحليل بيرقراطية الخدمات العامة يساعدنا في الكشف عن الملامح الشائعة والمشتركة للتعامل مع الناس ، كما أن من شأنه أن يكشف أيضاً عن السمات الفريدة والخاصة ، في الأوساط المهنية المختلفة التي تظهر فيها تلك السمات والملامح .

أن المنهج المقارن ـ في أساسه ـ الذي ينهجه ليبسكي خليق بأن يثير تساؤلات علمية هامة تدور حول الفروق والاختلافات الملموسة في مجالات الخدمات المختلفة . انه يؤلف تأليفاً ذكياً بين نظرية التنظيم وعلم النفس الاجتماعي والتطور السياسي الراديكالي في كلٍّ مترابط ومتماسك .

وهو لا يقدم أعذاراً عن قصور أعمال موظفي الخدمات العامة ، ولا يحث على مساندتهم بل يضع مشكلة بيروقراطيي الخدمات العامة في موقعها من بنية عملهم في محاولة للكشف عن الظروف التي يمكن أن تطور القطاع العام الذي يهدف الى الخدمات العامة بحيث يستطيع أن يقدم خدمات أفضل لعملائه علاوة على احترامهم وتقدير ظروفهم من ناحية ، والتعرف على الظروف التي يمكن في ظلها توفير عناصر من العاملين أكثر كفاءة وقدرة على تقديم الخدمات بصورة فعالة .

ورغم ذلك يخفق « ليبسكي » في سد الفجوة بين التشخيص الذي يطرحه للمشكلة والعلاج الذي يقترحه لها ، إذ يبدو أن الفلسفة السياسية التي يتبناها وينطلق منها هي ذلك النوع الذي ينشد تغيرات اجتماعية واسعة وشاملة حتى يمكن التغلب على المشكلات الهائلة التي تحوي مجالات الخدمات العامة بوضعها الراهن . إن تشخيصه ببساطة وفي هذا الضوء ـ لا يوحي بعلاج جذري على المدى القريب مع اعترافه بالمجازفات والمخاطرات الفكرية التي تنطوي عليها محاولة صياغة طرق واتجاهات جديدة لرؤية تلك المشكلة .

ان أبرز ما يميز دراسة ليبسكي يكمن في تطلعه الى الربط بين ضربين منفصلين من التراث الفكري

والعلمي ، ألا وهما السياسة العامة وعلم الاجتماع المهني والتنظيمات ، كما تتميز هذه الدراسة أيضاً باحتوائها على تفاصيل مشوقة حول المشكلة التي يتصدى لها ، ومع ذلك فقد أخفقت الدراسة في طرح المشكلات والقضايا وتناولها من وجهة نظر العاملين أنفسهم كتفسيرهم للعمل وما يعنيه بالنسبة لهم على سبيل المثال . أما ما تفتقر اليه تلك الدراسة فهو بعض الاقتراحات حول التأهيل التعليمي للطلبة في المؤسسات التعليمية للنهوض بمثل تلك الأعمال المرتبطة بالخدمات العامة والاتصال اليومي المباشر بالجماهير بما يكتنفها من ظروف معينة .

وفي الختام أرى أنه عمل ممتاز في مجال التنظيم الاجتماعي والادارة وعلم الاجتماع المهني ، وأرى أيضاً أنه لن تعطي الكتاب حقه ما لم يقرأ بتفاصيل فصوله الستة من قبل المتخصصين ، وهو عمل جدير بالقراءة .

* * *

References

Blau, P. M. (1956). **Bureaucracy in Modern Society.** New York.

Downs, A. (1967). **Inside Bureaucracy.** Boston : Little Brown.

Eisenstadt. S. N. (1969). Bureaucracy, bureaucratization, and debureaucratization. In A. Etzioni, **Sociological reader on complex organizations.** New York : Holt, Rinehart and Winston.

Lipsky, M. (1980). **Street/ Level bureaucracy.** New York : Russell Sage Foundation.

* * *